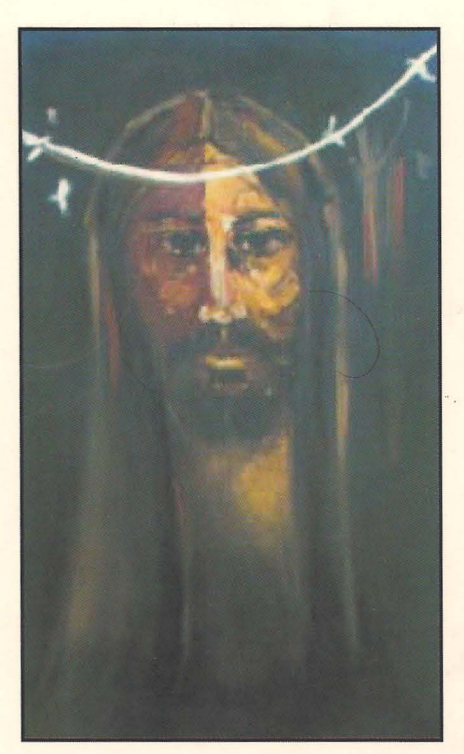
أوبير پرولونجو

قبلة يهوذا

رواية







قبلة يهوذا

HUBERT PROLONGEAU

LE BAISER DE JUDAS

roman

BERNARD GRASSET
PARIS

أوبير پرولونجو

قبلة يهوذا

روايـــــــــة

ترجمة: ميشال كرم

دار الفارابي

الكتاب: قبلة يهوذا

المؤلف: أوبير برولونجو

الترجمة: ميشال كرم

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: * دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: farabi@inco.com.lb
* منشورات آنيب (ANEP)
05 شارع خزناجي ـ الأبيار ـ الجزائر

الهاتف: 76 09 92 21 213

الفاكس: 77 09 92 21 213

e-mail: editionanep@yahoo.fr
الطبعة الأولى 2006

ISBN: 9953-71-141-0

ISBN: 2 246 61861 4

Ouvrage publiè avec le concours du Ministère français chargé de la culture - Centre National du Livre.

المحتويات

الجزء الأول

الجزء الثاني

إهداء

إلى أمي

تمهيد

الطريق القويم لا يؤدي إلا الى الهدف.

أندريه جيد

كان يعلم أنهم لن يرتابوا بولد. وكانت أعوامه الأحد عشر النحيلة لا توحي بكثير من الهيبة، وقد اصطحب لعبته المفضلة وهي حصان خشبي صغير صنعه والده. كان قد سمع امرأة تتحدث عن بئر راحيل، وهي بئر مهجورة تقع وراء التلة التي كثير ما كان يقصدها كي يتأمل السهل الطويل الأخضر المنبسط حتى بحيرة الحولة. هكذا خرج يهوذا دون أن يخبر أحداً.

كان يجب أن تظهر الشمس على الأفق، لكن غيمة من دخان آتية من سيبغوريس التي تحترق كانت تحجبها، فلم تعد تسكب على مياه البحيرة الكبيرة سوى وميض شاحب، ولم تعد الريح تحمل إليها على مدى يومين سوى صراخ الذين كانوا يُذبحون.

لم يطلب إلى أحد من أصدقائه أن يصحبه. كانت برودة الليل قد أخذت تتبدد وقد شدّ إلى جسده أطراف معطفه الصغير المصنوع من جلد الماعز. صادف في طريقه جندياً رومانياً، فانتابه شعور مزيج من الخوف والقرف، كذاك الذي يحس به كلما رأى واحداً من أولئك الجنود،

فحثَّ خطاه كي يتجاوزه دون أن ينظر إليه وهو يزيد من احتضان جنديه الخشبي الصغيرَ، ولم يرَ النظرة العطوفة التي رمقه بها الرجل.

قاده ضجيج المطارق إلى قمة التلة، فاختار مرتفعاً صغيراً وتمدد وراءه وراح يتطلع.

تراءى له ما يشبه حُرجاً. فحيث كان لا يوجد سوى تلك البئر القديمة باتت تنتصب الآن أعواد أطول من قامة إنسان، كانت تغرسها، بواسطة حبال، مجموعات من الجنود تتألف كل واحدة منها من ثلاثة جنود، فيما كان جندي رابع ممسك برفش، يتصبب عرقاً وهو يحفر حفرة ويتثبت من حسن انغراس العود فيها، ثم يثبّتها بواسطة حجارة. كانت التربة صلبة وقابلة للتفتت، وكثيراً ما كان العود السيء الغرس يهوي فيصرع أحد الرجال. لم يتمكن يهوذا من معرفة عدد الأعواد: كان مئة على الأقل، لكنه كان يعلم أن آلافاً منها قد نصبت في سيبغوريس.

كانت العملية تنفذ بسرعة، وقد عمل الرومان طوال الليل، مستعينين بالمسنين الذين كانوا قد أبقوا عليهم من رجال المدينة.

بعد ساعة، وصلت من جهة التلة مجموعة من النساء. كنّ صامتات ومتراصات. لم يتعرف الصبي إلا بصعوبة، في قسمات وجه أمه سيبوريه القاسية والمتصلبة، على الحنان الذي عودته عليه. أراد في البداية أن يختبىء، لكنه نهض وراح يعدو نحوها.

ـ هل كنتَ هنا؟

ولم تضف شيئاً، فتعجب لعدم تأنيبها له.

ـ هل انتهوا؟ هل رأيت أباك؟

أجاب بحركة من رأسه.

تقدمت النساء في موجة واحدة. كان عددهن لا يتجاوز الثلاثين، لكن تصميمهن كان يجعل منهن ألفاً. وما كدن يقتربن من المكان حتى هرع نحو عشرة من الجنود الرومان، شاهرين سلاحهم، ليسدوا عليهن الطريق. فبرزت من المجموعة اثنتان منهن متشحتان بالأسود وقالتا:

«جئنا إلى هنا لنرى كيف يموت أزواجنا».

فصاح أحدّ الجنود بعبارة باللغة اللاتينية. وتقدم رجل يهودي فقوبل بصيحات الاحتقار. كان هذا هو الترجمان، فسأل الامرأتين عما تريدان، ونقل جوابهما الى الضابط، فردّ هذا قائلاً إنه لن يدع أحداً يمر. فخاطرت النساء بخطوة إلى أمام، وسرعان ما انسدلت الرماح أمامهن.

وبإشارة من سيبوريه قعدن جميعاً على الأرض. تبادل الرومان نظرات قلقة. ما ستخترع هذه الجنيات من جديد؟

وارتفعت يدٌ مشيرةً إلى السهل، حيث كانت موجة من الغبار تنبىء بقدوم نحو خمسين رجلاً من اليهود أيضاً، لم يكادوا يصلون حتى أفردت النساء لهم مكاناً، وخُيِّل ليهوذا أن أمه تستسلم فجأة لعاطفتها إذ كان الألم يجتاح وجهها.

تقدم الرومان خطوة جديدة، ولم يتراجع الآخرون، وبات الطرفان وجهاً لوجه، ككتلتين من الحقد.

وصلت أول مجموعة من الأسرى بسرعة. وحصل ارتعاش، ثم ارتفعت بضع صيحات، عندما لاح لبعض النساء أنهن يرين أزواجهن.

فقال رجل بالعبرية: «لا تنطقن بكلمة، فهذا ما ينتظرون». فامتثلت النسوة ولم يعد يُسمع إلا بضع زفرات هنا وهناك.

«هل سنرى والدي يا أمي؟» سأل يهوذا.

ـ لا أدري يا حبيبي. لكن الأكيد أنه لن يرحل عنا هكذا».

تمنى يهوذا أن يسأل عما إذا كان أبوه سيموت، لكنه لم يجرؤ.

كان هناك نحو مئة أسير، وضعف هذا العدد من الجنود الرومان. كان معظمهم قد ربط إلى المشنقة الجاثمة على كتفيه. وكان عدة سجناء سياسيين يحملون على أجسادهم شعارات الدولة وقد وُسمت بالحديد الحامي. كان الغبار المتصاعد يشكل غيمة تعلو أديم الأرض وتسبب نوبات سعال تسمع من بعيد.

كان الجنود يحاولون منع اليهود الساهين إلى رؤية ما يجري. العملية كانت دقيقة. فكان يجب فصل كل رجل، ورفع المشنقة، التي حفرت فيها نقرة تعشيق، حتى تصل الى اللسانين المحفورين في العامود، ثم إصعاد المحكوم بالاعدام. وكانت هناك ربقتان تنزلقان تحت إبطيه. كان السجناء يتخبطون بين أيدي الجنود والضربات تنهال عليهم بغزارة. ولم يكن هناك سلالم ولا حبال.

لم يتعرف أحد على المصلوب الأول. لقد لوى الجندي ساقيه بحيث أصبحتا على جانبي العمود، ثم، بضربتي مطرقة، غرس مسماراً في عقبي القدمين اللتين التصقتا بالخشب. صرخ الرجل مولولاً. وحصل تململ بين الآخرين استدعى اللجوء إلى العنف مجدداً.

وتمتمت جارة سيبوريه: «هذا ليس إعداماً، هذا تعذيب».

كان المحكومون شبه عراة، وقد نُزعت آخر ملابسهم قبل الصلب. كانت النساء تُربط في مواجهة العمود مراعاة للحشمة. وكانت ساقا المصلوب في حالة انطواء تسمح له بأن يرتفع وبأن يتنفس بقدر من السهولة، فكان يفعل ذلك مدفوعاً بغريزة البقاء طلباً للهواء الذي كان ينقصه. كانت المعاناة تدوم حتى حصول الاختناق.

المصلوبون الأولون رُبطوا ورُفعوا جميعاً بالطريقة إياها، ثم راح الرومان يتفنّنون في التسلية. فصلبوا واحداً ورأسه إلى أسفل، وسمّروا ذراعي آخر بالاضافة الى ساقيه. كما غرسوا مسامير في راحتَيْ ثالث، وكانوا يضحكون وهم يرونهم يتمزقون تحت ثقل أجسادهم. كانت صرخات الألم كثيرة رغم شجاعة الرجال. أخيراً تعب الجنود فراحوا يسفسفون عملهم. وكان من حسن طالع ثلاثةٍ من المصلوبين الثقيلي الوزن والشديدي الحراك أن لاقوا حتفهم بطعنة حربة في الخاصرة. وتكلم قائد المئة فألقى خطاباً طويلاً حول ضرورة أن تكون العقوبات عبرة للآخرين.

أول امرأة تعرفت على زوجها كانت زوجة يشوع النجار. فاقتحمت

دائرة الجنود واندفعت نحوه فاتحة ذراعيها. فعرفها يشوع ورفع يديه في الهواء. كانت هذه آخر حركة صدرت عنهما، فقد ضرب أحد الجنود الامرأة بقفا سيفه فسقطت أرضاً مغمياً عليها. وعندما استفاقت كان يشوع ضائعاً في غابة الصلبان.

استغرقت العملية صبيحة اليوم كلها. وانضم عذاب العطش إلى العذاب الذي يعانيه المصلوبون فراحوا يطلبون الماء.

قال رجل وهو يجيل نظره بحثاً عن يهوذا الجولاني: «عندما أفكر بأننا صدقنا أنه المسيح!».

ـ «مسيح ينتهي به الأمر على صليب... يا للسخرية!» أضاف رجل كان إلى جانبه.

كان التوتر في ذروته داخل المجموعة الصغيرة من اليهود. وعندما عرفت النساء أن جميع السجناء كانوا هنا وأنه لن ينجو أحد منهم من الصلب، أخذن يصرخن بأسماء أزواجهن، محاولات إقتحام الحاجز.

كان يهوذا يرى المشهد. إنه لن ينسى أبداً الحرَّ الذي كان يثقب الجماجم، والعرق الذي يسيل على وجوه الجنود. وصراخ المصلوبين، والرائحة المنبعثة من الأحشاء التي أفرغها الخوف. كان هناك أولاد يبحثون عن آبائهم. وتباهى أحد الرجال بكون أصحابه يموتون ميتة يمنعها الرومان حتى على مواطنيهم هم.

وعندما أخذت الحجارة تتطاير، ذهب جندي ليقابل رئيسه.

ـ هل سُمِّر الجميع؟ ـ قال قائد المئة.

ـ نعم

ـ إذن، دعهم يمرون، فيُستحسن أن يرى الجميع عاقبة الاعتداء على الأمبراطورية.

لم يكد الجنود يبتعدون حتى اندفع اليهود على عجل نحو أبطالهم، أو شهدائهم، أو موتاهم بعض الأحيان. وراح الجميع من نساء ورجال

يجولون بين صفوف الصلبان، محاولين التعرف في جسد ما على أب أو أخ أو حبيب.

اندهش الرومان أمام الوقار غير البشري تقريباً الذي اتسمت به معظم اللقاءات. ولم يروا سوى فتاة واحدة في الخامسة عشرة من العمر تسقط عند قدمي رجل، وتقبله وتباركه، فدنا منها والدها ووضع يده على كتفها. كانت سارة مخطوبة لرجل آخر. وقد شاءت، بإفصاحها هذا عن حبها أمام الملأ، أن ترفض الزواج، جالبة العار لعائلتها، ولو حصل هذا في ظروف عادية لكان عقابها قاسياً. لكن الظروف لم تعد عادية وقد ذاب كل شيء في آلام مئة فم تتلقف الهواء.

حاول قائد المئة أن يلقي خطاباً فقال:

«إن قصاصكم جاء بواسطة هذه الأيدي التي ارتفعت ضد روما وهذه الأقدام التي أوهمتكم بأنكم تستطيعون الفرار».

فزمجر الحشد، وكان بعضهم ينساق وراء الاستفزاز، ما استدعى تدخل الأكثر تعقلاً بينهم مجدداً لأجل تهدئة الخواطر.

كانت الريح تحمل روائح أجساد متعرقة، ودماء، وبرازاً. وكانت تحوم فوق الرؤوس عقبان في جسارة متزايدة.

كان يهوذا وسيبوريه يبحثان عن سمعان، والد الصبي، ولا يعثران عليه. وقد جالا عدة مرات بين الجمهور، متوقفين أحياناً لإلقاء نظرة عطف على أحد معارفهما.

كان الوالد في مكان أبعد في السهل، وراء ثلاث نخلات، حيث لا يوجد سوى ثمانية صلبان. المصلوبون هنا كانوا قادة الانتفاضة، وكان بينهم يهوذا الجولاني الذي كان البادىء بها.

كانت قدما سمعان مسمّرتين حول جذع شجرة زيتون، وكانت ذراعاه مربوطتين الى العارضة. كان إبهام كلّ من كفّيه متقلصاً بسبب انعطاب عصبه من جراء اختراق مسمار غُرز بين اثنتين من عظام المعصم. وقد

تشوهت ملامح الوجه من جراء النزاع. وكان وزن الجسد يضغط على الصدر إلى حد يهدد بالاختناق. وكانت العضلات متشنجة.

سمح قائد المئة للامرأة والولد بالاقتراب.

كان والد يهوذا يتطلع إلى العلاء وكأنه يحاول التقاط رمقه. طوقت سيبوريه ساقيه بذراعيها، فانحنى نحوها، وتراءت بارقة سعادة من خلال قسماته المعذبة.

ثم جثت عند قدمي ابنها.

«لا تنسَ هذا أبداً يا يهوذا. ما فعله أبوك كان صائباً».

لم تكن مرة على هذه الدرجة من التأييد لسمعان، مع أن يهوذا يتذكر المشاحنات الطويلة التي كانت تدور بينهما بشأن المخاطر التي كان يعرض نفسه لها؛ وهو يدرك اليوم فقط كم أنهما كانا متفقين في آخر الأمر. ومدّ يده بدوره صوب ساقي أبيه، لكنه توقف فجأة. أدرك سمعان أسباب قرف ابنه ورمقه بما فهم الصبي أنه ابتسامة. كان يتكلم بصعوبة، يغمغم بالكاد.

«لا تحزن يا بني. أنا أموت لأجل قضية شريفة».

واستعاد أنفاسه، مقتلعاً كل كلمة من صدره.

«ليس عندي كثير مما أريد قوله لك يا يهوذا. أنت صبي شجاع. أنت تعرف شقاء بلادنا. لكن الله معنا، وسنكافح. لا تقبل أبداً بشريعة غير شريعته. كن أميناً له، له ولأرضنا. أنت ستشيخ كثيراً هذه الليلة يا ولدي. ستكتشف الحزن والثورة في آن معاً، لا تحتفظ إلا بالثانية، لكن لا تدعها تهجرك أبداً. فالأسوأ هو أن تحيا نائماً».

باتت الكلمات لا تقوى على الخروج من فمه الملتوي إلا واحدة فواحدة. واستغرق نطقه بهذه العبارات القليلة وقتاً طويلاً لشدة ما كانت وضعيته خانقة.

وأطلق أنيناً أشد من ذي قبل حين حاول أن ينتصب فازداد الضغط على جراحه.

«أترك لك أمك. أمك وأرضك. أنت البكر، وستأخذ مكاني».

لم ينطق يهوّذا بكلمة، فقد تجاوزته هيبة اللحظة.

كان صوت الوالد يزداد حشرجة، ثم صاح فجأة: «أحبكما» ثم قال في أنين: «لا أريد أن أموت».

هذه الصيحة الأخيرة، هذا الاقرار بالضعف، أطلقا الصبي من عقاله فترك دموعه تسيل أخيراً على خديه.

عند غروب الشمس وصل الجنود مسلحين بعصيّ وحطموا سيقان المصلوبين. لم يعد للأجساد ما تستند إليه فأخذت تتهاوى، وبات التنفس مستحيلاً، فأدركها الموت بسرعة. كان هذا العمل يضع حداً لآلام تدوم اعتيادياً ثلاثة أيام، ويحرم من كان لا يزال قادراً من المصلوبين من اغتنام فرصة الفرار تحت جنح الظلام. ثم تأتي طعنة بالرمح لتنجز العمل حينما كان يبدو أن الرجل فارق الحياة. ثم طُردت العائلات.

لم تحظَ مجموعة المحرضين الصغيرة بهذه المعاملة. أشد هؤلاء الرجال تحملاً قاوم الموت ثلاثة أيام. أما والد يهوذا فقد قضى نحبه في أصيل اليوم التالي، بعد نزاع دام أكثر من أربع وعشرين ساعة. لم ينتبه أحد لذلك في بادىء الأمر: لم يعد يصدر عنه سوى بضع أنّات بين حين وآخر. كان أحد الجنود أول من فهم ذلك، فسدد إليه طعنة بحربته اخترقت خاصرته. فسال منها خليط من الدم والماء.

لم تُنزل الجثث إلا بعد أن لفظ آخر مصلوب أنفاسه. كانت العقبان قد أخذت تهاجمها رغم الجهود التي كانت تبذلها العائلات لأجل إقصائها. حاولت سيبوريه أن تلمس جسد زوجها لآخر مرة بعد إنزاله، لكن الجنود أبعدوها، وكانوا قد تلقوا الأوامر بنقل الجثث إلى الحفرة الجماعية.

حينذاك أخذ يهوذا الجندي الخشبي الصغير الذي كان يحمله منذ يوم أمس، وراح يدوسه بقدميه، محملقاً في عيني الجندي الروماني الذي بدا ناعساً من شدة القيظ.

الجزء الأول

الفصل الأول

يغوص زائير في عمق أعماق ذاكرته فلا يجد فيها أية بادرة عطف تجاهه. وقد اعتاد منذ طفولته على تلبس دور الضحية، إذا ما استثنينا بعض بوادر العناية من جانب أمه. هذه التي كانت ترى فيه لعبة مزعجة. وكانت ملامحه الماكرة، وأنفه الضخم الدميم الذي يلتهم سحنته، وهزاله المخيف، وساقاه الشديدتا القصر، تجعل منه موضوعاً جاهزاً للسخرية. لم يكن أحد يعرف من أبوه، وقد بات من المألوف عند الأولاد، إذا ما أراد أحدهم أن يهين الآخر، بأن ينعته بأنه أخو زائير.

لم يكن سمعان، في زمن طفولته، آخر من استهزأ بصاحبه. وعندما بلغ سن الرشد أدرك ما كان في تصرفه هذا من قساوة، فمد إلى زائير يداً تطلب صداقته، لكن هذا رفض أكثر من مرة أن يقابله بالمثل. كان قد فات الأوان. فقد عزل الصبي نفسه تلقائياً عن كل عطف، وعن كل ارتباط. وعلى غرار ما فعل أهل القرية، وجد سمعان في ذلك مبرراً لموقفه: دون أن يزعج نفسه بطرح أسئلة، بات يتحمل هذا المنبوذ الصغير، الذي جعلته عزلته يجتر رغباته في الانتقام ليل نهار.

وجاءت ساعة انتقامه مع إقامة حامية رومانية بالقرب من بحيرة الحولة، بعدما أدت الانتفاضات التي أعقبت موت الوالي هيرودس سنة 747 رومانية إلى حمل المحتل على تشديد قبضته على الوضع. فسرعان ما راح يشاهد متسكعاً حول المعسكر، يتودد الى الجنود، محاولاً النطق

ببضع كلمات لاتينية بلهجة بدائية. ثم راح يشتغل لأول مرة. كان قد تعلم في دكان حدادة في خورازيم أن يبيطر الخيل، ثم عرض خدماته على قائد الحامية فلافيوس غورديانوس.

أحدث سلوكه هذا صدمة لأهالي القرية، الذين اكتشفوا مجدداً أنه موجود. وقُتلت دجاجاته وطُرح براز أمام باب بيته، فلم يقلْ شيئاً ولم يفعل شيئاً. وأمسى بعد مضي ستة أشهر أكثر غربة أيضاً من ذي قبل، ولم يعد يتكلم مع أحد. ثم جاء في صبيحة يوم على ظهر حصان وحوله ثلاثة جنود بزيّهم البراق وريشهم الأحمر وسلاحهم المعلق بخاصرتهم. كان ذاك اليوم أعظم يوم في حياته، وكان في نظر القرويين أول أيام الاحتلال.

قال إنه مراقب الضرائب الجديد في المنطقة الممتدة من البحيرة إلى بيت سعيد. وكما لو أن القدر شاء ذلك، فقد ظهرت لطخة خمرية على وجهه في الحقبة ذاتها تقريباً، فصار في نظر الجميع بعدها «الرجل الموسوم».

كان زائير مولجاً بجباية الضرائب. وقد أدى واجبه هذا بتفان مطلق، غير متنازل عن أي فلس أو ناسياً أي رسم. وفجأة تدفق المال على روما التي كانت تحتاج إلى موارد وعلى موظفيها الذين أدركوا أن سبيلهم الوحيد إلى الإثراء في هذا الجحيم المحرق فلسطين هو في اقتطاع حصتهم من هذه الأموال. كان فلافيوس واحداً من هؤلاء وقد تستر على كل تجاوزات زائير. على مدى ثماني سنوات، كانت الضرائب ترتفع سنة بعد سنة.

في تلك السنة، في العهد الملعون، عهد هيرودس أنتيباس ابن هيرودس، كانت المحاصيل سيئة للسنة الثالثة على التوالي. ولم يستجب الله لصلوات القرويين ولم يتأثر بالأضاحي التي ذهبوا إلى أورشليم لتقديمها في الهيكل رغم بعد المكان. وقد اتخذت أرض الجليل الخضراء، في بعض الأماكن، لون صحارى اليهودية الرمادي القاحل.

واحدت بعض العائلات تأكل حبوب البذار مجازفة بفقدانها البذار اللازم للسنة القادمة في حال عودة المطر.

كان زالير يستغل هذه الضائقة بلذة كبيرة. إنه لم يعد يقيم في القرية بل في جوار الحامية حيث يعيش في بحبوحة، مضطلعاً بواجبات وظيفته بكثير من الوقاحة. وكان الجنود يواكبونه في أداء مهمته.

كان سمعان أقلّ تأثراً من غيره بسنوات القحط التي تعاني منها القرية. فقد كان يملك قليلاً من الأرض، وكان الناس دوماً بحاجة إلى فاخوري مثله. وكانت مصنوعاته المرغوبة تباع حتى في طبريا. وقد رزق بولدين بعد زواجه من سيبوريه ابنة قرية مجاورة تدعى مجدلى: بنت عمرها أربع سنوات، وابن هو البكر ويدعى يهوذا، وكان يكن لهذا الصبي حناناً خاصاً تماماً.

كان يهوذا في التاسعة من العمر. كان وسيماً وإن نحيلاً، وكان يتحلى بذلك الجمال المألوف الذي يتحلى به الأولاد قبل أن تظهر عليهم سمات البلوغ: عينان سوداوان واسعتان، شعر أجعد، أنف صغير، ويدان لهما أصابع طويلة مشبقة كانت أكثر ما يعجب أباه. فقد كان يحس بأنها أكثر كفاءة من أصابعه هو، القصيرة نوعاً ما، لأجل تناول التراب وتحويله إلى مزهريات، أو أوعية، أو مقابض، كان يصنعها أحياناً بشق النفس.

قام بتدريب الولد على العمل منذ نعومة أظفاره، فكان يعطيه على سبيل التسلية قطعاً من الغضار كي يصنع منها شكلاً ما. أعجب الولد كثيراً بذلك في بادىء الأمر. فكانت مخيلته الصغيرة تجعله يصنع خيوطاً طويلة من الطين، ويصنع أشكالاً، وربما تمثالاً لحيوان أحياناً. ثم دب فيه السأم فبات يفضل صنع ألعاب من خشب. كان في ذلك خيبة لوالده، الذي كان مع ذلك قد صنع له ما يريد: أشخاصاً مربوطة أعضاؤها بالقش، بضعة حيوانات كان يهوذا يستمتع بالتعرف عليها، وجندياً سرعان ما أمسى لعبته المفضلة. إلا أنه لم يصرف النظر عن

تعليمه صنع الفخار: علّمه كيف يجبل الغضار والدلفان، وكيف يمنع انكماش الغضار بإضافة الصلصال إليه، وكيف يقولب كتلة الطين. وصنع له مخرطة على قياسه.

كان الأب والابن يباشران العمل معاً كلّ صباح. وحينما كان سمعان ينجز صنع إناء بنجاح كبير كان يعرضه على ابنه كمثال على ما سيستطيع أن يفعله هو في المستقبل. كان لنقل المعرفة أهمية قصوى في نظره. وكان يهوذا يعجب بجمال ما صنعه أبوه، لكنه كان يشعر بشيء من اليأس الطفولي، بأنه لن يستطيع أن يفعل مثل هذا يوماً ما. ومع أن التراب كان ينسحق بين أنامله الفتية المشيقة، فإنه لم يتوصل إلى إبقاء القاعدة تعمل على وتيرة متساوقة، فكان أبوه أحياناً يغضب رغم حنوه الكبير، فلا يفهم الولد لماذا يتحول هذا الصوت العذب الذي يحبه فجأة إلى صوت قاس يكرهه.

توقفا عن العمل فجأة صبيحة ذلك اليوم. فقد تصاعدت جلبة غير مألوفة من القرية التي كان بعضهم يعود إليها من حقولهم التي أتى عليها الجفاف. حمل سمعان يهوذا على ذراعيه، فشم الصغير تلك الرائحة التي تعلّم أن يحبها، رائحة التراب والعرق.

كانت الجلبة آتية من أمام بيت برنابا، أحد أبناء عم سمعان. فهم هذا في الحال ما كان يجري حينما رأى الحمار وعلى ظهره حمل ثقيل، والحصان الرمادي المسروج والجنود الرومان الثلاثة. ورأى أمام الحيوان سحنة «الموسوم» اللعينة.

«عليك أن تدفع أيضاً مئتين وخمسين ديناراً، فإذا لم تدفع في الحال أخذت حمارك».

كان زائير يتكلم بصوت عال، متلذذاً بكل كلمة يقولها. وقد اقترب القرويون من المكان وأخذت الاحتجاجات تنهال من كل صوب. فلقد سبق أن جاءهم الجابي في الأسبوع الفائت واضطروا أن يدفعوا الجزية. أما اليوم فقد جاءهم زائير يطلب دفع الضريبة العقارية. لكن برنابا لم

يستطع أن يدفع: يملك أراضي كثيرة ولكن المحاصيل قليلة. فأُعطي مهلة قصيرة جداً لأجل ذلك. كان الخريف الذي ذرّ قرنه قد قضى على آمال الصيف وكان الجميع يعرفون أنهم لم يقدروا على سداد ديونهم.

أحس سمعان بقدوم الكارثة. وتساءل فيما بعد كيف أن زائير لم يدرك الأمر رغم نشوته الناجمة عن شعوره بأهميته.

حاول الجابي أن يدخل البيت، لكن زكريا صاحب البستان الصغير منعه. والجنود الرومان، الذين ساءهم الأمر، كانوا يحيطون به وأيديهم على سلاحهم.

«لن تدخل

ـ وما شأنك أنت؟

ـ ما تفعله يؤذينا جميعاً. أنت تعرف جيداً أننا في ضيق شديد. وبرنابا ليس الأول. يجب أن تفهم ذلك.

ـ هل تستعطفني؟»

ولاحت على وجه زائير ابتسامة قذرة.

«أستعطفك؟ أنا لن أقدم أبداً هذه المتعة إلى خنزير مثلك».

انتفض الجابي لدى سماعه هذه الاهانة، وقال:

«لكن يجب مع ذلك أن تدفع لقيصر ما أنت مدين به.

ـ لست مديناً بشيء لأحد غير الله. أنتم تقصدوننا تماماً، أنت وزبانيتك. أنت تعلم أنه لم يبق عندي شيء.

ـ هذه ليست مشكلتي.

ـ إنها ستصبح مشكلتك إذا تماديت. من تظن نفسك يا زائير؟ وإلى ما تطمح؟ هل إلى مناداتك يوماً باسم بطرس وإلى ارتداء لباس حراسك الخانق المبتذل؟ أنا أسخر من المال. لكنني لن أؤدي الضريبة لقيصر لأن كل ما هو كائن ملك لله لا لملك يظن أنه الله. ألا تفهم هذا يا زائير؟ أتريد أن تجدّف؟».

انزعج زائير. فإن نقل زكريا الموضوع إلى هذا الحقل قد ألّب القرية

بكاملها ضده. إن اليهود (بات الآن يفكر بهم وكأنه ليس واحداً منهم) لا يكفون عن تحويل كل شيء إلى مشكلة دينية، فبات لا يمكن للمرء أن يفعل شيئاً دون أن يبدو كأنه يشتم الله. أحس لأول مرة بشيء من الخوف. إلا أنّ اعتزازه بسلطته لا يسمح له بالتراجع، فشعر فجأة بالحماسة لما راودته فكرة المخاطرة بشيء ما ولو مرة واحدة. أما الجنود القلقون، فكانوا لا يشاطرونه هذا الشعور.

«هذه كلمتك الأخيرة؟»

كان زائير يستمتع بردّه هذا بحمية نهمة كطالب لذة عتيق.

لم يتحرك البستاني وقال:

«نعم».

«وأنت يا برنابا؟ أنت أول معنيّ بالأمر، ولست مضطراً أن تتبع أي مشاغب في جنونه.

ـ إنه على حق. أنت تسلمنا لأعدائنا وكأنك نسيت من أي دم وُلدت. هذا لا يمكن أن يستمر.

ـ لقد أردتها إذن».

وأومأ زائير إلى الجنود الثلاثة.

«أتظن حقاً أنه...؟» سأله أحد الجنود باللاتينية. كان الثلاثة في الجليل منذ أقل من سنة ولا يفهمون ما كان يقال.

«ربما استطعنا العودة مرة ثانية مع مزيد من الجنود؟»

كان كل أهل القرية قد تجمهروا وراءهم، وقد حرصت النساء على أبعاد الأولاد.

التفت زائير صوبهم، وكان ينتظر هذه اللحظة من زمان طويل، ثم قال للجنود:

«أنا لا أظن بل آمر. تذكّر أنني مكلف من قبل امبراطورك، وأنه، في غيابه، سينظر فلافيوس بلا شك نظرة سيئة إلى تردّدك. صادروا كل ما استطعتم مصادرته».

شهر الجنود سيوفهم وتقدموا نحو بيت برنابا. كان أصغر الثلاثة سناً ينظر إلى الوراء قلقاً، إذ أنه يجب توقع كل شيء مع هؤلاء اليهود المجانين.

خلعوا باب البيت بضربة كتف.

من الذي أطلق أول حجر؟ لم يحاول أحد حقاً أن يعرف، فقد كانوا جميعاً يريدون ذلك ويؤيدونه. سقط الحجر على خوذة الجندي الروماني فسقط سيفه من يده تحت تأثير الصدمة. فاستدار وقد بدا الرعب مكتوباً على قسمات وجهه الفتي.

وابتدأ العراك؛ وبدا أن الدروع لا تحمي حامليها. وكان زائير على وشك التمزق إرباً إرباً، حتى أنه بات يصعب التعرف على جسده حينما رفع على السواعد الظافرة. ثم طرحه الرجال جانباً، وتوقف الجنون. وتبادل الرجال نظرات مشحونة بالفزع، حينما أدركوا أنهم وضعوا إصبعهم في ماكنة لا تعرف الرحمة.

كان سمعان قد عاد فوراً إلى مشغله ومعه يهوذا. لم يحاول أن يثني الحشد، لعلمه أن محاولته ستذهب سدى. وفي الليل نقل الرجال الجثث الأربع إلى الصحراء ودفنوها تحت قشرة رقيقة من التراب كي لا تكون لقمة سائغة لبنات آوى. ثم راحوا ينتظرون.

* * *

انتظروا طوال اليوم التالي، ولم يخرج منهم لمزاولة عمله إلا القليل. وحمّلت ثلاث عائلات على عربة كل ما لديها ورحلت دون أن يحاول أحد إقناعها بالبقاء. واصطحب سمعان ابنه يهوذا وحاول أن يعلمه كيف ينجز صنع مزهرية. فاستعاد ما صنعه بالأمس، وعدّله، وعلّمه كيف يجب تزيينه ما دام الطين لا يزال طرياً. كان الوالد متفهماً بنوع خاص للجهود الخرقاء التي يبذلها الصغير، كان أكثر صبراً. ولاح أن يهوذا

يدرك أن أمراً خطيراً سيحصل، فكان يعمل باعتناء كبير، حتى وإن كانت محاولاته تقليد حركات أبيه لم تنجح قط من قبل.

حضرت في اليوم التالي مجموعة من ثلاثين جندياً وعلى رأسهم فلافيوس. كان الروماني في حالة من الضجر، وشر الطغاة من كان بلا تسلية. كان هذا قد باشر حياته المهنية في روما حيث ارتقى سريعاً إلى المراتب العالية بفضل كونه ابن عضو في مجلس الشيوخ، لكنه كان طائشاً؛ استسلم لجميع الرذائل، وأكثر من تعاطي تلك الحشائش التي كان يعود بها من الشرق الجنرالات أصدقاء أبيه، ذوو الصداقات الخاصة جداً التي كانت تزدهر أكثر فأكثر تحت التأثير اليوناني. وهو لم يحظ بالاهتمام لا من جانب والدته التي كانت زوجة طيعةً جداً، ولا من جانب والده الذي كان شغله الشاغل أن يحافظ على حظوته لدى الامبراطور. وقد دامت حياته هذه، التي كانت تناسبه تماماً، حتى ذلك اليوم الذي ما برح ذكره يثير فيه حتى الآن نوبات قاسية من الغيظ تجاه محيطه. فقد سبق له أن التقط مع صاحبه لوسيوس خادمة فتية من الشارع واصطحباها إلى الحمامات متنكرة في زي رجل. كان التنكر عادة شائعة وكان هناك قاعة خاصة لمثل هذه اللقاءات لا تخفى على أحد. أبدت الفتاة حرارة محتدمة إلى حدّ حمل لوسيوس على استقدام خمسة أو ستة رجال من أصحابهما خفية وكان هؤلاء يتناولون طعام العشاء في مكان قريب من هناك. وعند وصول هؤلاء رفضت الفتاة مضاجعتهم جميعاً. فغضب لوسيوس. وحاول اثنان من أصحابه اغتصابها، فتعالى صراخها، فهرع الى القاعة مستحمون آخرون في قاعة مجاورة، وحصل اشتباك قتلت الفتاة في خلاله. ظن فلافيوس أنه يستطيع لفلفة القضية بنقل الجثة من روما ورشوة صاحب الحمامات. لكن الحظ خانه إذ تبين أن الفتاة لم تكن مجرد خادمة كما خيل لهما، بل كانت ابنة نبيل روماني تتنكر بزي خادمة كي تخرج في الليل لتضاجع رجالاً. ولقد تأثر والدها لوفاتها أقل من تأثره للفضيحة التي نجمت عن

ذلك وعرضته لسخرية أقرانه في مجلس الشيوخ. وجاء القصاص سريعاً ومبرماً: على فلافيوس أن يرحل. كان لا يزال يتخيل نفسه في صحن دارته الفخمة حيث استدعاه والده كي يبلغه قراره. ولكنه مع ذلك كان أفضل حظاً من لوسيوس، الذي لم يكن يتمتع بحماية، فأبعد إلى إحدى سفن الأشغال الشاقة حيث لا بد أن يكون قد قضى نحبه. أما هو، فقد نقل إلى منصب في فلسطين، وبعدها تحولت حياته إلى جحيم: الحر، والضجر، وهذا الشعب الأخرق العنيد البليد، الشقي والأنوف، الذي يبدو أنه لا يوجد شيء يستطيع قهره.

راح فلافيوس بعد ذلك يجترّ نقمته. فلا النساء اللواتي كان يدفع بهن إلى فراشه ولا النبيذ القبرصي الذي يكثر من شرابه كانت كافية لحمله على نسيان الساعات الطويلة التي كان يمضيها في بحيرة الحولة. لذلك استقبل حادثة رحيل ثلاثة من جنوده بالاضافة الى الجابي وكأنها شبه تسلية جاءت في وقتها. فالجابي الذي يدعى زائير كان رجلاً مقيتاً أكثر من أبناء جلدته. كان فلافيوس يحس أحياناً، وإن كان هذا الاحساس ظهر موجود عنده، بأنه يتأثر أمام وقار الناس الذين يفترض به أن يحكمهم. أما زائير، ذاك فقد التصق به كعلقة. كان مفيداً بالتأكيد، إن لجهة الحمية التي كان يبديها في جباية الضرائب أو في كل ما كان ينقل إليه من أخبار عن الحالة النفسية السائدة في القرى. وهل كان عليه، لقاء ذلك، أن يتحمل دوماً كلامه المعسول وما يقوم به من محاولات ملهطة ومتكررة ليجعل نفسه مقبولاً وحتى محبوباً بعض الأحيان، محبوباً... هذا اليهودي؟ وضحك ضحكة ساخرة بينما كان يدعك بأصابعه أحد أقراص التين التي كان يأمر بسلبها من غرف المؤن.

على أن موت زائير كان لا يمكن أن يبقى بلا عقاب، وإن كان لم يحزنه كثيراً. كان فلافيوس دوماً يعتبر أن الوسيلة الوحيدة للحفاظ على ما يشبه الانضباط هي الرشوة والارهاب. وقد أدت هذه الوسيلة دورها حتى الآن. لعقد العزم على الذهاب ليزور القتلة.

عرف فلافيوس منذ دخوله القرية أن الامرأة القيصرانية التي كانت خليلته وكانت تنقل إليه الأخبار عن الحالة في الدساكر التابعة لسلطته لم تكذب حين نقلت إليه أن أمراً ما قد حدث في خورازيم. فإمارات الفزع والوقار التي لاحظها على وجه من صادفهم، وشعوره بأن الجميع يعرفون سبب قدومه وقد استعدوا لذلك، كانت لا يمكن أن تخدعه.. لن يكون الأمر سهلاً، لكنه سيعرف حقيقة ما جرى وسيقدر أن يفرض عقاباً شرعياً.

لم تكن نواياه خافية على مساعدة أنطونيوس، فكان هذا يخشى الأسوأ. فالأشهر الثمانية التي أمضاها تحت إمرة هذا القائد الفظ والعديم الأهلية في آن أتاحت له أن يعرف مدى هشاشة السلطة الرومانية في هذه المنطقة من العالم، التي هي من أكثر مناطق الامبراطورية اضطراباً: كان هناك إقليمان متجاوران هما اليهودية والجليل، وكانا في البدء جزئين غير منفصلين من مملكة هيرودوس التابعة لروما، وبعد وفاة هيرودس وما تلاها من اضطرابات، أصبحت اليهودية تحت الإدارة المباشرة لولاة رومانيين، وأمسى الجليل تحت وصاية ابنه هيرودس أنتيباس، وكان الإقليمان خاضعين لسلطة الحاكم الروماني ذي السلطان الواسع في سوريا المجاورة. روما كانت بعيدة، والوالي ماروس لا يهتم بمجرى الأمور، ولا يعبأ بطريقة قمع الاضطرابات التي كانت تتوالى بانتظام. ولم يشعر أنطونيوس قط هنا بأنه في أمان، في أرض مفتوحة حقاً، كما كان الأمر في بلاد الغال حيث خدم قبلاً، بل كان يشعر بأنه دخيل غير مرغوب فيه. وقد ذهبت سدى كل الجهود التي بذلها فلافيوس لإفساد أو رشوة أو شراء البيئة التي يُفترض أن يحكمها. وإذا كان قد استعان ببضعة رجال ذوي شأن، فإن معظمهم كانوا معاونين من الدرجة الثانية، وكان موظفون جهلة يسيئون توجيههم. فإذا نظرت الى الماكنة الرومانية الجميلة عن كثب لوجدتها غير باهرة وبان لك أن التقصيرات والأخطاء والخيانات فيها لا تقل عما هي في غيرها. كما أن الإرهاب

الذي كان يشيعه الجيش الروماني القوي لم يسفر سوى عن تلك الخيانات المتآكلة في دسائس دنيئة.

لم تكد مجموعة الجنود تدخل خورازيم حتى تجمهر القرويون بصورة عفوية أمام الخيل في موقف مزيج من الخضوع والثورة. وإذا كانوا قد سجلوا للروماني المهيمن عليهم من على صهوة حصانه تفوقه عليهم، فإنهم كانوا في الوقت ذاته يمنعونه من التقدم. كان فلافيوس يرتدي معطفاً طويلاً أحمر يظهر تحته طماقان مربوطان تحت الركبتين، فأمر جنوده بالتوقف، وتوجه بالكلام إلى اليهود دون أن يترجل. كانت الريح تحمل رائحة الأفسنتين المتصاعدة من الأعشاب القريبة. كان يجهد نفسه ليبقى قاعداً، كي يقاوم حكة الشرق التي كانت تنهش مؤخرته. وكان العرق يتصبب من تحت خوذته ذات الريش الأحمر.

«ماذا تعرفون أيها الناس الطيبون؟ سمعت البارحة شيئاً مضحكاً ومزعجاً في آن».

كان إلى جانبه ترجمان ينقل كلامه إلى القرويين، وكان هذا ابن فلاح من غامالا تعلّم لغة الرومان في قيصرية فيلبس، المدينة التي يقيم فيها هيرودس أنتيباس.

«يبدو أنكم استقبلتم بشيء من القسوة جابي الضرائب زائير والجنود الثلاثة الذين كانوا يرافقونه».

استُقبل كلامه بصمت ثقيل.

رشف رشفة من البوسكا، ذاك الماء الممزوج بالخل الذي كان وحده يمكن الجنود الرومان من تحمل شمس فلسطين، وفجأة أخذ يصيح.

«هناك شيء نسيتموه، وهو أنكم بفعلتكم هذه أهنتم عظمة روما، وهذا خطأ لا يمكن أن أسكت عنه. ستدفعون من لحمكم ما رفضتم أن تدفعوه من نقودكم. أريد أن أعرف أسماء القتلة وإلا ستندمون جميعاً على صمتكم».

ثم استعاد هدوءه بمثل السرعة التي فقده بها، وطلب من الترجمان، الذي أخذ ينظر إليه قلقاً:

«هيا! ترجم لهم هذا».

حاول الرجل أن يخفف من حدة أقوال الروماني، وكان يتلعثم، فالتفت إليه فلافيوس قائلاً:

«ترجم بالضبط ما أقول، ولا يخطرن في بالك أن تغفل بضع كلمات!».

ـ كلا، يا سيدي، كلا.

لم يتحرك أحد القرويين. كان سمعان قد اندس في الجمهور كسائر الرجال لكنه طلب من سيبوريه أن تبقي الولدين داخل البيت.

«هل يجب أن أفهم أن اقتراحي لا يلاقي قبولاً؟ هل يجب أن أكون أكثر إقناعاً؟ إسألهم للمرة الأخيرة عما فعلوا بالجثث وعن أسماء الفاعلين. إلا إذا كان أولئك البائسون لا يزالون على قيد الحياة...».

وعاد الترجمان يتكلم فلا يقابل إلا بالصمت إياه.

وتنهد فلافيوس قائلاً: «الآن فهمت. على أي حال، كنت لا أتوقع غير ذلك. سأكون إذن أشد إقناعاً. رتبوهم صفوفاً أيها الجنود».

تم تطويق الرجال الحاضرين في لحظات.

«فتشوا البيوت».

هنا انقطع الصمت. فإذا كان الرجال قد ظلوا صامتين، فإن النساء والأولاد الذين كان الجنود يخرجونهم من المساكن الصغيرة بالقوة أخذوا يصرخون ويولولون. وكان فلافيوس يلقي على المشهد نظرة ساخرة.

«سنضطر الآن أن نتحدث بمزيد من الجد. فهل يوجد هنا مرجع يمكن أن نتحدث معه؟»

فتقدم موييش قائلاً:

«أنا واحد من قدامى هذه القرية، وأتولّى رئاسة مجلس زعماء العائلات.

ـ حسناً. يجب أن تكون واضحاً جداً مع مجلسك. هل تعرف ما هي التعشيرة؟ هذه عادة كانت على جانب من الانتشار يوم كان جيشنا في ذروة مجده. ففي حال حصول هزيمة، وتلافياً لعودة المهزومين إلى القتال بمثل الحماسة التي كانت تفاخر روما بها، كان يُؤخذ من بين الناجين رجل من بين كل عشرة رجال ويُعدم. كان هذا عملاً قاسياً نوعاً ما، لكنه فعال. روما لم تعد تمارس هذه الأساليب المرهفة الصارمة. ولست أدري ما إذا كان يجب التأسف على ذلك، فأنا شخصياً لم أكن يوماً من أنصار هذا المثل الأعلى. . .».

وعدّل وقفة حصانة، ثم قال:

«أنوي أن أطبق هذه العادة هنا. سيقوم جنودي بانتقاء واحد من بين كل عشرة من سكان القرية. وإذا لم يسلّم القتلة أنفسهم فسأعدم أولئك الأشخاص. لست أعرف عددكم، لكن الوقت متسع لدي».

ونقل الترجمان كلامه. فتقدم بضعة رجال في صفّ، كما لو كانوا يريدون أن يقع عليهم الاختيار. وراح آخرون يرتجفون. وتمرغت امرأتان على الأرض وهما تنتفان شعرهما بينما سألت أخرى عما إذا كان يجب أن يرى الأولاد المشهد. أجاب الروماني بنعم.

اضطر أنطونيوس أن ينتقي رجلاً للقيام بهذه السخرة المقيتة. فكيف له أن يخالف رغبات رئيسه؟ كان فلافيوس يتصرف مع جنوده حسب مزاجه: كانوا أحياناً يقومون بتدريب صارم وقاس طيلة أسابيع، وأحياناً يبقون في فراغ كلي. غير أنه كان ارستقراطياً، وكان أنطونيوس من عامة الشعب، وقد كدّ وجدّ ليصل إلى هذا المنصب، فما كان عليه إلا الامتثال.

كان أنطونيوس بالتأكيد لا يحب اليهود هو أيضاً. فكيف يمكن أن يرضى عن أناس محدودين بهذا القدر، مصممين بهذا القدر على الدفاع عن إلّههم الواحد وخرافاتهم الدينية؟ لقد أقلعت روما منذ فترة طويلة عن الأخذ بهذه الأوهام، وإن كانت لا تزال تقام احتفالات باذخة إكراماً

لها. كان والد أنطونيوس قد رباه على احترام التقاليد وحرية التفكير، فكان لا يفهم هذا التعصب الأعمى، دون أن يرى من الواجب مع ذلك أنه يجب مواجهته بالعنف المتواصل على نحو ما كان يفعل فلافيوس.

حاول اثنان أو ثلاثة من القرويين أن يقاوموا، فتلقوا ضربة بعرض السيف ردعتهم سريعاً.

«كان سؤالي واضحاً. ماذا حدث لجنودي؟».

لم يردّ عليه أحد.

«ليس في نيتي أن أمضي النهار كله هنا. هل ستظلون بُكماً؟».

لم يكن أحد يعكر الصمت إلا النساء اللواتي كن يحاولن منع الأولاد الفضوليين من رؤية المشهد.

«فلنبدأ الآن. سيبتدىء التعداد من...»

وراح فلافيوس يدور بإصبعه حول الحشد.

«من هنا».

أشار إلى رجل. وأخذ جندي يعدّ حتى العشرة، حتى توقف أمام جوشوا أحد أشد سكان القرية فقراً. كانت أرضه صغيرة جداً، وكان يعيش كثيراً مما يجود به عليه الآخرون. لم ترضَ به أية امرأة، ولن يأسف عليه أحد. فقوبل اختياره بنوع من العزاء.

«لا شيء بعد؟».

ازدادت جرأة الجميع إذ رأوا أن الضحية شخص لا يحبونه، واصطدمَ فلافيوس بتصميم متزايد.

«إذن...».

قُطع رأس جوشوا بضربة سيف. وغمر الدم قدمي الجندي. كان يهوذا قد أفلت من بين يدي سيبوريه، ورأى المشهد فتذكر الثور الذي ذبح أمامه السنة الفائتة في عيد الفصح.

«سأمهلكم أيضاً بضع لحظات، وبعدها سنرى».

والتفت نحو أنطونيوس قائلاً:

«أفضل أن أقتل أبرياء على أن أدع مجرمين ينجون من القصاص. فالبريء الذي يُقتل اليوم هو مجرم أقل غداً...».

ولاح أن الريف أيضاً صار صامتاً، فلم يعد يسمع فيه حتى نهيق حمار. وبدت الشمس أشد لهيباً.

«إذن سنكمل العمل».

وسُمعت أنة. فالرجل الذي سيأتي دوره كان قد قام بالعدّ قبل الجندي الذي أكد حسابه. اجتاحت الحشد هذه المرة ارتعاشة عامة. فالرجل الذي وقعت عليه القرعة كان من أنقى رجال القرية ويدعى يحوشا. وأحس فلافيوس بتلك الارتعاشة.

«لعلّني أحسنت الاختيار هذه المرة. هيا، أعطني اسماً وقل لي أين وُضعت الجثث».

كان يحوشا أقل تحملاً من سابقه، وقد هدّت الدموع التي كان يحاول كبتها عزيمة أكثر من رجل. الضربة هذه المرة كانت أكثر إحكاماً وقد انفصل الرأس عن الجسد تقريباً. وسرعان ما حام الذباب حول الجرح.

ثالث شخص وقعت عليه القرعة كان بنتاً عمرها ثماني سنوات. توقفت يد الجندي فوق رأس الفتاة ثم انتقلت إلى رجل كان واقفاً بالقرب منها. فتقدم هذا، لكن فلافيوس تدخل قائلاً:

«لعلني أخطأت في التعداد. ألم يتوقف الرقم عشرة عند هذه الفتاة؟».

وسُمعت زمجرة واسعة.

«بلى يا سيدي. لكن...

ـ لكن ماذا؟ أتدّعي تزوير المصادفة؟

ـ كلّا بالتأكيد. أنا...

ـ فلتخرج من الصفوف إذن».

خطت الصغيرة خطوة إلى أمام، وحاولت عبثاً أن لا ترتجف.

«يا للخسارة ـ قال فلافيوس مبتسماً. أنت فعلاً صغيرة جداً. لكن الآلهة شاءت ذلك. آلهتنا على الأقل».

وأومأ إلى الجندي، فتقدم شاهراً سيفه.

فانتفض أنطونيوس قائلاً:

«لا يحق لك أن تفعل هذا يا فلافيوس.

ـ هه، إن معاوني الشجاع يستيقظ. ولماذا يا ترى؟

ـ قوانيننا تمنعه.

ـ قوانيننا تمنع البحث عن الحقيقة في جرم قتل ارتكب بحق روما؟

ـ إنها تمنع إعدام فتاة عذراء».

وانطفأت ابتسامة فلافيوس. فأنطونيوس كان يقول الحقيقة.

«هل لا تزالين عذراء؟ ـ سأل فلافيوس البنت الصغيرة وهو يترجل عن حصانه.

ـ لا أسمح لك بإهانتي».

وانتصبت دفعة واحدة وفارقت الرجفة ذراعيها. كانت هذه أيضاً إحدى التصرفات العبثية اليهودية: الاستعداد للقاء الموت من أجل فضيلة بناتهم، دونما فائدة في معظم الأحيان.

«أفترض أن هذا الجواب الوقح يعني نعم. وهذا بالفعل يطرح مشكلة. لكن لكل مشكلة حل».

واقترب من الصغيرة وانتزع فستانها الذي تمزق على الفور. وقبل أن تتمكن من ستر عريها بيديها، كان قد غرز إصبعين بعنف بين فخذيها، ثم رفعهما أمام القرويين. رأى الجميع الدم يصبغ إصبعيه، فيما كان السائل القاني ينزلق على طول فخذي البنت الصغيرة.

ثم قال: «أعتقد الآن أن مشكلة قانونية قد حُلت».

توتّرت يد أنطونيوس على قبضة سيفه، لكن وطأة سنين طويلة من الانضباط منعته من الاستجابة لرغبة غرس سيفه في جسد رئيسه.

شهر فلافيوس سيفه وضرب عنق الفتاة الصغيرة، فانهارت ببطء

وسقطت على نفسها كما لو أنها أرادت أن تحمي حتى النهاية حشمتها المَهانة.

ظل اليهود جامدين بلا حركة.

وقُتل بعد ذلك رجلان، ثم انهار شخص آخر كان امرأة ابراهيم النجار. عندما انتهى العدّ عند زوجها ارتمت مريم على قدمي فلافيوس قائلة:

«أنا أعرف أين هم، وسأقودكم إلى مكان الجثث».

فدنا منها زوجها وصفعها على وجهها، لكنها لم تتوقف عن الكلام.

«نُقل الأربعة إلى الصحراء، ودُفنوا معاً. وهم الذين استفزونا».

كانت تنزف من الضربة التي جاءتها من زوجها. وعاد فلافيوس فامتطى حصانه مبتسماً.

«سنسير وراءك يا امرأة. وإذا كنت صادقة كسبتِ رأس زوجك. حتى وإن كنتُ غير واثق من أنكم تعيشون هنا في نعيم».

وراح يضحك.

لم يمضِ وقت طويل حتى تثبت الجنود من أقوال مريم. فأُخرجت الجثث من الأرض. لم يفسدها مكوثها القصير في هذه التربة الدسمة إلا قليلاً، وكانت آثار الضربات لا تزال ظاهرة عليها. تفحصها فلافيوس تفحص خبير في هذه الأمور.

«يبدو لي أنكم أطلقتم لأهوائكم العنان في القسوة على هؤلاء المساكين، وخصوصاً على ابن بلدكم».

وصُنعت حمالات نقلت عليها الجثث إلى القرية.

«ثبوت ذنبكم لا يحل كل المشكلة. فالعدالة الرومانية لا يمكن أن تمارس في الفراغ. أريد الآن أسماء الفاعلين. فهل توافقين على إعطائي إياها؟».

لم تعد مريم قادرة على المقاومة. أراد ابراهيم أن يتدخل مجدداً فمنعه مويش.

«دعك من هذا، فلم يعد له أهمية».

فذكرت اسم برنابا قائلة:

«لا أعلم من كان البادىء. لكن كل شيء ابتدأ لما رفض أن يدفع ضرائبه».

- وهل رأيته؟

- نعم».

كانت تبكي، ولكنها تذعن.

- من رآه غيرك؟

- لا أحد.

- لا تظني أنني سأصدقك. ماذا جرى؟

- رأيت برنابا يرفض دفع ضرائبه ويهدد زائير.

- قلتِ لنا هذا من قبل؛ وبعد ذلك؟

- بعد ذلك انقض الجميع عليهم.

- هذا كلام غير دقيق. ألا تحوزين بعض الأسماء؟

قاطعه مويش قائلاً:

- قالت لك الجميع.

- لم أطلب منك شيئاً أيها العجوز. أنا أتكلم مع هذه الامرأة».

والتفت فلافيوس مجدداً إلى مريم قائلاً:

- إذن أنت لم تري شخصاً معيناً. لكنك يمكن أن تشهدي بأنه حصل هجوم عام؟

- نعم، إذا كان هذا ينقد زوجي. ولا، إذا كان يساعد شعبك للسيطرة على شعبي».

وانتشرت في القرية وشوشة ارتياح.

قال فلافيوس مبتسماً:

- أنت وقحة حقاً. قد يكون هذا صفة طيبة، ولكن خطرة».

لم يوافق أحد على تأكيد شهادة مريم. فانتابت فلافيوس سورة من

الغضب الشديد، واختار عشرة رجال، وأمر بإعدامهم؛ وحيال الصمت المستمر مَن جانب الآخرين، ساق إلى السجن النجار وزوجته وأمر بتعذيبهم حتى مات كلاهما، بعد أن ترك الجنود يعبثون مع مريم.

وهال الأمر سيبوريه فلم تعد تهتم لما يمكن أن يراه يهوذا أو لا يراه. وقد رأى الصبي كل ما جرى وهو واقف إلى جانب أمه. عندما بدأ فلافيوس إعدام الرهائن العشر الأخيرين، كان قد مضى إلى مشغل أبيه. وهناك أخذ الغضار والصلصال الممزوجين بالقش وبريش حيوانات، وعجنهما بواسطة البَيْزر، وأدار المخرطة. واهتدت يداه الخرقاوان اعتيادياً إلى الحركات الصحيحة. وبعد مرور ساعة من الزمن كان قد أنجز أول مزهرية من صنعه.

وكانت جميلة.

الفصل الثاني

اعتُقل برنابا وعائلته بعد يومين. ولما أراد زكريا أن يسلّم نفسه قائلاً إنه المسؤول عن بدء حركة الشغب، أُنكر عليه حتى حق الإدلاء بشهادة. فأحس بأنه أُهين أكثر مما لو كان قد سيق إلى الموت؛ وغادر القرية. وحوكم المتهمون بجرم قتل زائير والجنود الثلاثة. كان الإدلاء ببضع شهادات كاذبة كافياً لإثبات ضلوعهم في الجريمة، ولم يكن الحكم مفاجئاً: صُلبوا وصودرت أموالهم الزهيدة. وأُلقيت الجثث في المقبرة الجماعية، حيث انضمت الى بقايا زائير، هذا الذي لم يشأ أحد أن يكلف نفسه عناء الآهتمام به...

أمضى يهوذا الأسبوع وراء مخرطته، رابطاً إلى الأبد بين فنه وبين فظاعة ما رأى. أما سمعان، فقد أنقذه من اليأس بلا شك ذاك الحماس البادي على ابنه، وإن كان يعلم علم اليقين من أين ينبع هذا الحماس. فكان دوماً إلى جانبه، يرشده، ويساعده على تصحيح الأخطاء التقنية التي ما برحت تعيق جهوده. وقد صنع الاثنان في ذلك الأسبوع عدة قطع جميلة، من أجمل ما خرج من بين يدي الفاخوري.

دفنت القرية موتاها بوقار كبير. ورحلت ثلاث عائلات إلى قرى أخرى، بعد أن عجزت عن تحمل البقاء حيث جرى كل ذلك. وانتشرت حكاية خورازيم في كل أنحاء الجليل. واقتحم الرعب الذي تمناه

فلافيوس قلوب الناس، حيث التقى الحقد الذي كان يختمر في كل مكان.

ومضت أشهر ستة. كان الشتاء أقرب الى الاعتدال، وكان كل إنسان يرصد السماء، منتظراً من الله علامة الرفق، تلك التي بخل عليه بها منذ ثلاث سنوات على التوالي. وقد شوهد حتى مرور تجار عرب وفينيقيين يسعون إلى شراء الزيتون الذين يستخرجون منه زيتاً يباع في كل أنحاء البحر المتوسط. كان الأولاد يتحلقون حول أولئك التجار، راغبين في لمس هذه الملابس الغريبة، وهذه الوجوه غير المألوفة. كان يهوذا مفتوناً بعمله، يواظب على العمل مع أبيه، ويزداد مهارة. كانت العائلة كلها أحياناً كثيرة ترتاد الكنيس، هذا الموقع الديني الذي بات يغلب عليه الآن اسم سيناغوغ بسبب التأثير اليوناني. وكان يزيد من تقواهم كون قسم كبير من سكان الجليل غير يهود، فكان التقيد الصارم بالطقوس الدينية خير وسيلة لإثبات تفوقهم.

عندما كان يهوذا خارجاً من الكنيس شاهد جنوداً من الرومان لأول مرة بعد مذابح الخريف المنصرم.

«تعال أيها الصغير».

كانوا ثلاثة، وقد أمسكوا بثلاثة من الأولاد الذين اعتاد يهوذا على اللعب معهم.

«إحملوا هذا إلى آخر القرية، وإلا نزل بكم القصاص».

كان يهوذا يعرف قانون «الميل» الذي يخول أي روماني أن يرغم يهودياً على حمل أمتعته مسافة ميل. فوجد نفسه يترنح تحت عبء ثقيل جداً بالنسبة إليه. أما الأولاد الثلاثة الآخرون وكان عمر الواحد منهم لا يتجاوز الثماني سنوات، فقد انهاروا تحت أحمالهم ولم يعودوا قادرين على متابعة المسير، فيما صمد هو وواصل المسير حتى النهاية، وهو يبكي غيظاً، وقدماه داميتان وعنقه محطمة، وسط ضحكات اثنين من الجنود.

وظهر زكريا مجدداً بعد مضي وقت قصير على الحادثة التي آثر يهوذا أن يكتمها عن والديه. لم يكن أحد يعلم إلى أين رحل. وحتى أمه التي عهد بها إلى خاله وخالته، كانت تجهل مصيره.

كان الليل قد خيم بسواده منذ ساعتين عندما طُرق باب سمعان. ظن الجميع أنها العرافة الآتية مجدداً لتعرض عليهم قراءة بختهم. كانت تُسمع في الخارج صيحات الرعاة الذين يحرسون القطعان التي لا تبيت في الزرائب. وكانت رائحة الخبز الساخن عابقة في الغرفة، بعد أن تناولوا الحساء، الذي لوثت به حنة الصغيرة فستانها وهي تتناوله، الأمر الذي أثار ضحك والدها وغضب والدتها، التي ستضطر أن تقصد المغسل مجدداً لأجل تنظيفه. كانت قد وُضعت على طرف الطاولة قصعة فارغة؛ كانت تنتظر المجهول الذي قد يحضر.

فتح سمعان الباب وسرعان ما عرف زكريا. كان هذا يبدو أطول قامة وأشد بأساً. لم تعد لحيته مشذبة وصار شعره ينسدل بحرية على كتفيه. استُقبل بصيحات الفرح. وأراد سمعان حتى أن ينحر خروفاً لكن زكريا منعه: كان يفضل أن لا ينتشر خبر عودته. لكنه لم يستطع مع ذلك أن يمنع مضيفه من تقديم طاستين من النبيذ وقصعة من الحساء الذي التهمه وكأنه لم يتناول طعاماً منذ زمن.

«أين كنت يا زكريا؟ كيف استطعت أن تتركنا وقتاً طويلاً بلا خبر عنك؟»

«دعني أولاً انظر الى عائلتك. لكم كبروا. خصوصاً ابنك البكر... تعال إلي يا صغيري».

أحس يهوذا بشيء من الخجل. مرّر زكريا يده في شعر الصبي، وكانت تفوح منه رائحة الرمل والغبار وكذلك النبيذ الذي رشف طاسة جديدة منه، وقال للفتى:

«أين صرت يا صغيري؟ هل تعتني بأختك الصغيرة؟».

ـ «إنه شديد الاعتناء بها. وهو يغدو فاخورياً ماهراً. أليس كذلك يا بني؟».

أحسّ يهوذا بالفخر والسعادة لكونه يثير كل هذا الاهتمام. وعندما مضى وافترش إحدى زوايا الغرفة التي ينام فيها، ظل واعياً ومنصتاً لما كان يقال، دون أن يلفت انتباه أحد.

«كيف تعيشون هنا؟ سأل زكريا بعد أن هدأت قليلاً فرحة اللقاء.

ـ لم يتغير شيء حقاً. شمعون بار يونس لا يزال يعاني المشاكل مع امرأته وحماته. ولاوي لا يزال يتشاحن مع إمام كفرناحوم، و. . .

ـ فهمت ما أقصد؟ هل ما زال الرومان أيضاً. . .».

لم يكن بحاجة إلى قول أكثر من ذلك حتى تحضر مجدداً وجوه الموتى.

«فقدنا فرحة العيش بعد ذلك اليوم. لم يعد أحد يتكلم عنه، والأسوأ من ذلك أننا لا نكف لحظة عن التفكير به، كل منا في زاويته، بصمت، لكأننا بتنا حتى عاجزين عن البكاء معاً. لا يزال يستحيل التكهن بنوايا فلافيوس. دوافعه الشخصية إلى القسوة أقل من دوافع زائير. . . لكن الضغط لا يزال هائلاً.

ـ كل أولئك المتعاونين يثيرون اشمئزازي».

فجأة، باتت لهجة زكريا أشد حقداً.

أضاف سمعان: «لقد رحل بعض جيراننا.

ـ سمعت ذلك، نعم. وخصوصاً يوحنان.

ـ الذي نحن أحوج ما نكون إليه. فالجماعة في غيابه تبدو عرجاء.

ـ لعله مفيد في مكان آخر.

ـ أجل، ربما».

استغرب سمعان هذه العبارة. فمنذ رحيل يوحنان لم يعرف أحد شيئاً عنه.

«وأنت، ألم يتعرض لك أحد؟

ـ لا. من حسنات غضب فلافيوس أنه غير منطقي. فبعد أن نال نصيبه من الانتقام لم يذهب إلى أبعد بحثاً عن المسؤولين. لكني عرفت بموت ابراهيم وبرنابا. إنهما أول شهدائنا».

كاد سمعان يرتجف أمام لهجته الواثقة. هذه، فسأله:

«وأنت، إلى أين رحلت؟

ـ اختبأت شهراً عند ابنة عمي مريم، التي من قادش.

ـ تلك التي تحدث الناس كثيراً عن أنك...».

هذه المحاولة لبعث تواطؤ قديم باءت بالفشل.

«كان ذلك من زمان» ـ أجاب زكريا بلهجة قاسية.

لاحظ سمعان حينئذ إلى أي حد تغير صاحبه: لو أن الحديث كان في الماضي لكان تحدث بابتسامة خبيثة عن مفاتن ابنة العم البعيدة تلك.

«مكثت عندها قمرين، ثم رحلت.

ـ إلى أين؟ لماذا لم ترجع إلينا؟».

وأدرك سمعان أن سؤاله لم يكن سطحياً. وأدرك حتى أن زكريا عاد ليراه كي يسمع منه هذا السؤال.

ألقى الضيف نظرة حوله، كما لو كان يبحث عن عدو مختبىء. لكنهما كانا لوحدهما، فيهوذا كان يتظاهر بالنوم، وسيبوريه عادت إلى مطبخها غير مهتمة بما كان يقول الرجلان.

«هل لي أن أكلمك بثقة تامة؟

ـ وهل كنت هنا لو كنت تشك في ذلك؟

ابتسم زكريا.

«لا، بالتأكيد. هل عرفت بآخر ما تفتقت عنه عبقرية أغسطس؟ أصبحت اليهودية والسامرة تحت سيطرة روما المباشرة. ورحل أرشيلاوس إلى فيينا في بلاد الغال. معنى هذا أننا صرنا لأول مرة على اتصال مباشر بموظفين تابعين لروما يرون فينا شعباً خاضعاً ومستعداً للقبول بالسلام الروماني. لم يكن الاحتلال يوماً على هذه الدرجة من

الصراحة. لقد أثارني هذا الأمر إلى حد لا تستطيع تصوره. يوم كنت عند مريم، اتصل بي رجل كان صديقاً لرجل يدعى يهوذا، يهوذا الجولاني. ألا يعني هذا الاسم شيئاً لك؟ يهوذا هذا رجل عظيم. لقد عانى من النير الروماني هو أيضاً. إنه عالم، خبير بالشريعة، وكاتب. ويقال إنه ابن قزحيا.

- قاطع الطريق؟

- نعم قاطع الطريق، إنه يجول منذ عدة أسابيع على القرى ويتحدث إلى الأهالي. كاد يثير غضبي في بادىء الأمر. فقد كان يصيح بأنه يحتقرنا وأننا يهود أردياء. كنت لا أفهم لماذا لا يتحرك الناس ضده. ثم شرح ما يعنيه بقوله هذا: نحن نؤدي الضريبة للرومان وليس لله. نحن نتنكر ليهوه. لا يحق لأي يهودي أن يفعل ذلك. ثم تكلم عن الإحصاء، فقال إن الغاية منه هي تعداد شعب من الأرقاء لا تعداد يهود جديرين بهذا الاسم. وقال إن أمر كوبونيوس بإجراء إحصاء إنما يهدف إلى إكراهنا على دفع الضريبة فيما بعد. وقال إن المال لا يهمه، وإنه يرضى بإعطاء الرومان كل ما يريدون إذا كفوا عن إهانة الله. لا يجوز إعطاء عبدة الأصنام ما هو لله. كل يهودي يعترف برب غير الله هو خائن. كان يتكلم وكنت أعلم أنه ينطق بالحق. كنت أعلم أنه أعلن الحرب على الرومان لكي يعيد إلى الله ما هو له. فانضممت إليه. والتحق به عدة رجال ثابتي العزيمة، مستعدين لكل شيء. ويوجد حتى بينهم حبر يدعى صادوق.

- هل أنت سعيد بينهم؟

- هذه هي الطريقة الوحيدة التي وجدتها لمحو ما حصل هنا. لا يمكن أن يترك الله إسرائيل بين أيدي هؤلاء الوثنيين».

واستزاد قليلاً من الحساء ورشفة على مهل. كان سمعان يعلم أن الأهم لم يُقل بعد.

«كنت أحب أن أراك بيننا.

ـ ولماذا؟

ـ نحن بحاجة إلى رجال مثلك، رجال ناقمين على الاحتلال، رجال يمهدون طريق المسيح، ولكن أيضاً رجال متبصرين، مصممين، تصغي إليهم جماعتهم. يوجد كثير من المتهورين بين الذين انضموا إلينا، كثير من البائسين الذين ينهشهم الحقد. وهؤلاء يحتاجون إلى قادة يستطيعون الأخذ بزمامهم وتوجيههم نحو أعمال مفيدة. وقد فكرت بك على الفور».

فكر سمعان لحظة قبل أن يجيب.

«هذه علامة ثقة لا يمكن أن لا أتأثر بها. لكن، أنت تعلم أن لي عائلة...

ـ صحيح، فأي مستقبل تريد لها؟ أتريد أن يتكلم أولادك اللاتينية؟ أتريد لهم أن يجثوا أمام الأصنام الرومانية؟

ـ كلا بالتأكيد. لكنني لا أريد أيضاً أن يكون مصيرهم كمصير أولاد ابراهيم.

ـ سيفعلون ذلك على أي حال. وإذا لم يكن هم فأبناؤهم أو أبناء أصدقائك. ليس لنا من خيار. لقد رأيت ما جرى في خورازيم. فكيف لك أن تأمل بأن تتغير الأمور فيما بعد؟ إن سلطانهم يزداد أكثر فأكثر، ويطمعون بالهيمنة على نمط حياتنا. يجب أن يتحرك بعض الناس».

راح سمعان يفكر. كان غير راغب في الاستجابة ولا في إغلاق الباب الذي فتحه صديقه له. كان يحاول فهم ما يقوله زكريا، مثبتاً بذلك حيازته الصفات التي ينشدها هذا.

«إلى أين يمكن أن تقودنا هذه الثورة؟

ـ إلى إعادة بناء مملكة الله.

ـ وماذا تريدني أن أفعل بالضبط؟

أضاءت ابتسامة وجه زكريا.

«لا تفرح. أنا لم أقل لك نعم.

ـ لكنك تعلم أن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر. فمع وجود الضرائب التي تسحقنا، ما عدد الذين يقدرون من بيننا على تمضية الصيف؟

ـ لم تجب على سؤالي. ما الذي أستطيع أن أفعل عملياً؟

ـ تستطيع أن تفعل أشياء كثيرة. فإن عليَّ أن أقنع مزيداً من الناس، وأن أدعو إلى الالتحاق بنا كل القادرين على ذلك، حتى يكون لنا جيش حقيقي عندما يأتي الأوان. وبانتظار ذلك يجب أن نتمكن من تأمين مخابىء لأناس وأسلحة...».

استسلم سمعان لرؤيا أرض منعتقة من الاحتلال. وتراءى له قومه يزحفون في مواجهة العدو، والقوات الرومانية مسحوقة، وأولاده أحراراً. رأى الرومان يفرون هاربين وملكوت الله يعود إلى أرضه. وتطلع إلى زكريا بعينين أشد بريقاً.

«لا أريد تعريض عائلتي للخطر.

ـ أعدك بعدم اقتراف أية مخاطرة. ولكنت اعتبرك أحمق لو أردت إيهامك بعدم وجود أية مخاطر.

ـ أنا لا أتكلم عن نفسي. هل فكرت بالأخطار التي ستتعرض لها عائلتي؟

ـ أجل بالتأكيد. لكن أتظن حقاً أن وجود الرومان لا يعرضها لأي خطر؟ لا تختبىء وراء العائلة، فأنت من أجلها ستقاتل بالدرجة الأولى.

ـ لا أدري ما إذا كانت سيبوريه...

ـ لا تقل هذا يا سمعان! سيبوريه ليست سوى امرأة، وهي ستفعل ما تقرره أنت».

كان يهوذا يصغي بكل انتباه في زاويته. كان لا يفهم كل شيء، إلا أنه كان يشعر بأن في الأمر شيئاً مهماً.

«لا أقدر أن أجيبك في الحال، فيجب أن أفكر بكل هذا».

بدت على وجه زكريا مسحة من الخيبة.

«لا أخالفك في ذلك. فأنا أيضاً أعاني من حضور أولئك الغرباء. لكن هل إن ما تفعله هو الخيار الصحيح؛ أوليس من شأن ذلك أن يحشرنا أكثر في مزيد من العنف؟

ـ بلى بالتأكيد. ولكن لمرحلة محدودة. هل عندك طريقة أخرى؟».

تنهد سمعان وقال: «لا، هذا صحيح. لكن هذا لا يكفي لحملي على تأييد هذه الطريقة».

ودخلت سيبوريه في تلك اللحظة حاملة طبقاً من القمح المسلوق الساخن. كان وجهها مكفهراً فأدرك سمعان أنها سمعت من الحديث ما يكفي لكي تفهم مدى التبعات. فحدجها بنظرة صامت وكأنه يريد طمأنتها.

«كنا نود أن نقدم لك أفضل من القمح، لكن السنة كانت قاسية، كما تعلم...

«أجل، أعلم» ـ أجاب زكريا وهو يدني طاسته من الجفنة.

أكل بشهية وحشية، وأشاع في السهرة جواً من المرح لم يعكره شيء.

أدرك يهوذا أهمية ما زرعه زكريا عند أبيه من رؤيته حجم المشاجرات التي أخذت تنشب بين والديه بانتظام. حصل أول شجار حين قرر سمعان حضور اجتماع عند أصدقاء لزكريا. عاد من ذلك الاجتماع متحمساً ومفتوناً. فلم يلتقِ فيه فقط يوحنان، القروي الذي اختفى بعد المذبحة، بل التقى أيضاً أشخاصاً أحس بأنهم قريبون جداً إليه. صاحت سيبوريه قائلة إنه يعرض الولدين للخطر، وأحضرتهما أمامه لكي يعي هذا الأمر.

بعد ذلك اليوم، انقطع شيء ما بين الزوجين. وراح سمعان يغيب أكثر فأكثر عن البيت. وكان الأمر كذلك في بيت يشوع، خير صديق ليهوذا، حيث كان غياب أخيه وعمه يزداد تواتراً. كان زكريا يشاهد غالباً أو على الأصح كان الناس يسمعون بأنه مرّ الليلة الفائتة وزار بيوتاً.

كان يشوع ويهوذا يتساءلان كثيراً عن معنى هذه البلبلة. وبما أن سمعان بات يهمل مشغله، فقد أخذ يهوذا يرافق صديقه كلما ساق هذا قطيعه إلى المرعى. وبينما كانت البهائم ترعى، كان الصديقان يتحدثان أو يلعبان، أو يتسلقان شجر الجميّز بعد أن يربط يشوع قوائم الخرفان إلى ذيولها. كان يشوع يكبر يهوذا بثلاث سنوات وكان يبدو أكبر سناً من ذلك. لم يكن نموه الجسدي غير المألوف هذا إلا ليزيد من إعجاب صديقه الهزيل الأصغر منه. كما أنه شديد الفضول، وخبيث تقريباً. وغير محبوب كثيراً من أهالي القرية الذين كانوا يعيبون عليه أنه يدس أنفه في كل مكان. من ذلك مثلاً أنه اكتشف عدة أسرار صغيرة، ومن بينها ذاك الذي كان أحياناً يجمع بين الحداد وامرأة راعٍ من قرية مجاورة في كوخ. لقد دعا يهوذا مرة إلى المشاركة في هذا الاكتشاف، ولم يفهم الصبي الصغير ما كان يفعل الرجل فوق الامرأة وهو ينهز ويطلق أنات صغيرة. غير أنه أحس بأن ذلك شيء كان لا يجب أن يراه، وشكر صديقه لأنه أتاح له أن يراه.

لذلك لم يكتم عن صديقه، هو أيضاً، ما ظن أنه فهم من حديث أبيه مع زكريا. لكن يشوع أسف قليلاً لكون هذا السر الكبير بعيداً عن علاقة الحداد بجارته. اتفق الصبيان على إجراء تحقيق حول ما يجري. لكن اللعبة لم تعد فجأة تسلّي يشوع، فوجد يهوذا نفسه وحيداً في مواجهة السر.

عقد العزم في صبيحة أحد الأيام وهو يشتغل مع أبيه على أن يواجه المسألة مباشرة. . . كانت سيبوريه قد جاءتهما بقطعة من الخبز المطلي بزيت الزيتون خارجة لتوها من الفرن. كان سمعان يقود يد يهوذا ليساعده في تقدير اللحظة التي يجب عليه فيها أن يرفع وعاءه. كان فرحاً وهادئاً. فدست سيبوريه لقمة من الخبز في فمه ثم مسحت بإصبعها أثر الزيت الذي تركته دون قصد على خده. وكبت الصبي خوفه ثم صاح:

«لماذا تتبادلان أحياناً الصراخ الشديد أنت وأمي؟

ـ هذه أمور تخص الكبار يا يهوذا».

كان هذا هو الجواب الذي يكرهه، والذي كان غالباً ما يتلقاه على أسئلته.

«لكن إلى أين تخرج غالباً في الليل؟».

رفع والده رأسه عن مخرطته وقال:

«هذا أيضاً من شؤون الكبار يا عزيزي. لكن كن واثقاً من أنني لا أفعل أي سوء، وأن هذا ليس موجهاً البتة ضد أمك».

وبدا متردداً ثم أضاف:

«كن واثقاً أيضاً من أنها في الحقيقة توافق على ما أفعل. إنها تخاف لأن هذا قد يبدو خطراً، وهي تخاف عليَّ وعليكم فيما بعد. لكنه الحب يا بني، إنه الحب لا غير. ليس من حقك أن تشك. أنجز هذا الإناء الآن».

اطمأن يهوذا الى الجواب، لكنه لم يشبع فضوله.

في اليوم التالي أخبر يشوع عن مكتشفاته، فقال هذا ساخراً إنهما لم يتقدما كثيراً.

فقرر أن يغتنم فرصة سفر والده المقبل ليكتشف المزيد.

كان سمعان لا يحب قيصرية فيلبس، تلك المدينة التي بنيت على الطريقة اليونانية وبيعت لروما، والمدينة التي أمر ببنائها فيلبس أخو أنطيباس وملك طراخونيديا على مسيرة يوم من كفرناحوم، والمدينة التي كان اليهود فيها قلة وغير محبوبين. إلا أن رجلاً من كبار تجار الزيت كان قد أوصاه بأن يصنع له نحو مئة خابية كبيرة، وكان هذا عرضاً لا يستطيع رفضه. كان سمعان يقول منذ عدة أيام إنه سيصحب معه ابنه البكر.

«خذه معك ـ قالت سيبوريه ـ إنه يتحرق شوقاً إلى ذلك، كما أن ذلك سيبين له النواحي الطريفة في صنعتك. ولعله سئم صنع المزهريات طول النهار. . .».

كانت سيبوريه تأمل أيضاً بأن حضور ابنه قد يمنع سمعان من التورط في أمور بالغة الخطر.

عند الصباح، أيقظ سمعان يهوذا، وقام الاثنان بكدن العربة في طقس بارد، ثم حمّلاها بالجرار التي أمضيا الأسبوع في صنعها، بعد أن لفّاها بقطع من النسيج.

أضاءت الشمس الطالعة انطلاقهما، وبان الجليل بكل بهائه مع بداية الخريف: مغرة التراب، وخضرة الزيتون، وآخر تألقات الأشجار المتنوعة، كالرمان، والتين، والنخيل، كانت ترسم لوحة جميلة. لم يسبق أن رأى يهوذا أرضاً أخرى. لكنه كان يشعر بأنه لا توجد أرض أخرى يمكن أن تخلب لبه إلى هذا الحد.

استغرقت سفرتهما إلى قيصرية يومين كاملين. وقد باتا الليلة في خان حالفهما الحظ فوجدا فيه مكاناً لهما. قال لهما الحاجب الذي كان يحرس الباب، في البداية، إن الشيخ صاحب الخان يستضيف أناساً من أسرته، وأنه لا يمكن استقبال أي مسافر. تذرع سمعان بأن يهوذا تعب، وأن حمولته سريعة العطب، ودسّ بضع قطع من النقود في يد الرجل، فاكتشف هذا لهما مكاناً على السطح يغطيه الغبار الأبيض المتصاعد من الطريق. أما العربة فبقيت خارجاً وأمضى سمعان قسماً من الليل ساهراً عليها. كان الجميع يتحدثون عن غارة يقوم بها اللصوص، الذين سبق لهم أن سلبوا قافلة آتية من فينيقيا.

كان وجود النبات يتقلص كلما اقتربا من المدينة. ذهبا على الفور إلى التاجر الذي كان ينتظرهما، ففحص الخوابي وبدا راضياً. كانت خابية واحدة قد تضررت إبان السفر فعرض سمعان أن يصلحها. دفع التاجر الثمن نقداً، وأضاف حتى علاوة صغيرة. كان سمعان في غاية السرور، فاشترى ليهوذا خبزاً مجبولاً بالعسل وأسماكاً صغيرة مقلية بزيت الزيتون.

«سنبيت الليلة هنا ثم نرحل غداً. هناك صديق سيستضيفنا».

كان الصديق يدعى إليشع وكان برادعياً. كان يسكن في الحي

المخصص لليهود، الذي أمر فيلبس ببنائه في جوار الكنيس، إذ أنه كان يقلد اليونانيين في كل شيء. كان بيته أشد فقراً من بيت سمعان، فلم يكن له نافذة ولا يدخله الضوء إلا من الباب، الذي يُترك مفتوحاً طوال اليوم ويضيئه قنديل من الفخار معلق على الحائط إبان تناول طعام العشاء.

عندما رأى سمعان قادماً بدا عليه أن ارتياحه أكبر من فرحته، وسرعان ما ساد الغرفة شيء من التوتر. وأخذ الرجلان يتوشوشان كما لو كان الصبي يزعجهما رغم صغر سنه، ثم تناولا الطعام بسرعة وصمت، وبعدَها دلّ إليشع يهوذا على الحصيرة التي سينام عليها بجانب أبيه.

«إستلقِ على الحصيرة ـ قال له سمعان ـ عليَّ أن أتحدث عن مسألتين أو ثلاث، ثم أعود إليك، نَمْ».

انزلق يهوذا تحت جلد الخروف، وأحس بحفيف لحية أبيه على وجهه، وتكوّم على نفسه.

كان من الصعب عليه أن يقاوم النعاس، وقرص جلده عدة مرات كي يبقى مستيقظاً. بعد قليل طُرق الباب ودخل ثلاثة رجال لا يعرفهما الصبي.

تحدثوا لحظة ثم غادروا فجأة. اقترب سمعان من الحصيرة وألقى نظره على ابنه الذي كان يخاله نائماً، ثم خرج.

نهض يهوذا ولحق بهم بعد أن أغلق الباب بطريقة تمكنه من فتحه مجدداً.

كان الشارع غارقاً في الظلمة، والطقس بارداً؛ أحس برغبة قوية في العودة على أعقابه، لكنه تشبث بمواصلة السير.

سار في أثر أبيه ورفاقه حتى رأى في كنف الظلام خزان الماء الذي يغذي المدينة، فاقترب منه ما استطاع وكمن وراء كومة من الحجارة.

رأى الرجال منهمكين عند سفح الخزان، ولاح له أنهم يَحفرون الأرض. ثم غفا.

أحس بيد تهزه، ففتح عينيه على عجل. كان الفجر قد أخذ يلون السماء. ولم يعرف أين هو إلا بعد لحظات، فبادر إلى القول: «لم أفعل شيئاً».

كان واضحاً أن الجندي الروماني الذي أيقظه لم يفهم ما سمع. فاقترب جندي آخر وانحنى نحوه قائلاً:

«ماذا تفعل هنا أيها الصغير؟»

كان يتكلم بطريقة سيئة.

«لا شيء. كنت أتنزه ثم نمت.

ـ أنت تتنزه كثيراً في الليل، بجوار الخزانات؟ في عمرك؟».

كان يطرح عليه الأسئلة ويترجمها في الوقت ذاته لرفيقه.

«ما كنت أعلم بوجود خزان.

ـ حقاً؟ وما هذا في رأيك؟».

والتفت إلى الآخر، الذي لاح ليهوذا أنه الرئيس، وقال:

«ماذا نفعل به؟

ـ حتى الصغار عند اليهود فاسدون. خذه إلى المعسكر».

حاول يهوذا أن يفلت منه لكن صفعة أعادت إليه هدوءه. أخذه الجندي الأكبر سناً وحمله على كتفه.

نقل إلى المعسكر الذي كان يتألف من ثلاث أو أربع خيام تضم نحو عشرة جنود، وهناك بدأ الجنديان استجوابه. ظل متمسكاً بما قال في البدء وهو يبكي، قائلاً إنه كان يقوم بنزهة وقد داهمه النعاس قرب الخزان.

«اللعنة على اليهود. إنهم معاندون منذ صغرهم».

سقياه شراباً حامزاً ويحتوي على كحول، فأحس الولد بدوار ثم تقيأ، وتلقى صفعة جديدة.

حاول الجنديان تخويفه بوضع سيف على عنقه. ووصفاه باليهودي القذر، وتهكما على إلّهه الواحد وعلى لون بشرته وشعره الأجعد. ورفع

أحدهما طرف ثوبه محاولاً إظهار عريه وسأله عما إذا كان «مشذوباً» كإخوانه. وحاول أحدهما حتى أن يداعبه لكن رفيقه ردعه عن ذلك.

كانت الشمس قد ارتفعت في القبة الزرقاء حينما تعب الرجلان من استجوابه.

«ماذا نفعل به؟ أنحتفظ به أو نقتله؟

ـ يمكن أيضاً أن نخلي سبيله، فهو لم يفعل شيئاً وهو مجرد ولد.

ـ يجب اقتلاع الأعشاب الضارة باكراً».

كان يبدو على أكبرهما علامات السأم. ووضع الآخر حدّ سيفه مجدداً على عنق يهوذا، وكان هذا خائر القوى ومرعوباً فلم يبدِ حراكاً.

«ما اسمك؟ ومن أين أنت؟ أجب عن هذا السؤال فقط، وأنت طليق».

كان يهوذا على وشك أن يذكر اسمه، لكنه خاف أن يعلم أبوه بطريقة أو بأخرى ما آل إليه. فكر لحظة قصيرة ثم قال:

«إسمي يشوع، وأنا ابن راعي خورازيم».

كان مسروراً بعثوره على هذه الفكرة وظن حتى أنه قد كرّم صديقه بذلك.

فأخلى الجنديان سبيله، فراح يسير مترنحاً من التعب ومن تأثير الكحول الذي أجبر على تناوله.

كان يلاقي صعوبة في الاهتداء الى بيت إليشع، لكنه تمكن من ذلك في آخر الأمر. كان والده ينتظره ويكاد يجن من القلق. فضربه بقساوة، خصوصاً بعد أن شم رائحة الكحول تفوح منه، لكنه زعم أنه خرج باكراً جداً وانساق وراء مجموعة من المتشردين. إن غياب سمعان نفسه قد حمله على التقليل من أهمية الحادثة، كي لا يوفر لسيبوريه أسباباً للقلق. وقد اقنع الصبي وهما في طريق العودة حتى بعدم إخبار والدته بالمغامرة.

الفصل الثالث

انهار خزان قيصرية بعد مرور أسبوع، دون أن يقتل أحداً، ولكن مئات من ليترات الماء انصبّت في موجة بلغت حدود المدينة، وأمست كل شبكات الماء التي كان فيلبس قد بدأ يمدها على الطريقة الرومانية غير قابلة للاستعمال. وعرف الناس على الفور أن في الأمر عملية تخريب، رغم أن سلطات المدينة حاولت الإيهام بحصول عطل طارىء: كان رجال قد حفروا تحت الخزان، مما أدى إلى سقوطه.

كان سمعان قد غاب عن البيت عشية الحادثة ولم يعد إلا في اليوم التالي. نشب شجار عنيف بينه وبين سيبوريه، ما اضطره أن يلجأ الى العنف تقريباً لإسكاتها، وكانت مآخذها عليه تزداد صراحة، فلا يجوز أن تبلغ آذان العابرين الذين قد يمرون في جوارهم. كان قد وضع الولدين خارج البيت. وفي المساء جمع العائلة. كانت سيبوريه حمراء العينين. أما يهوذا، الذي أمضى قسماً من بعد الظهر يلهو بزهر نرد أعطاه إياه أحد الباعة المتجولين، فقد كان يرتاب بأن أمراً مهماً ما يوشك أن يحدث.

«إسمعا يا ولديّ».

كانت حنة شاردة الذهن، فأخذ يهوذا منها ما كان بين يديها. فتظاهرت بالبكاء، لكن جو الوقار المحيط بها أزاح كل اهتمام بحزنها.

«سأذهب في سفرة طويلة ـ ابتدأ سمعان يقول ـ ولا أدري كم

ستستغرق من الوقت، ولكن فترة طويلة بلا شك. ستبقيان أنتما مع والدتكما. أنا لا أرحل بسبب منها، حتى وإن سمعتمانا نتشاجر كثيراً في الفترة الأخيرة. فأنا ما زلت أحبها وأحبكما أيضاً. لكن لا خيار لي. أنت الصبي البكر يا يهوذا، لذلك أعهد إليك بأختك الصغيرة. لا تجعلا الحياة صعبة جداً على أمكما».

كان يتدلى عن كتفه كيس يحتوي بعض الملابس.

«سأضطرّ إلى إغلاق المعمل يا يهوذا. لكنني أتمنى أن تثابر على العمل. وإذا جاء أناس يطلبون أن نصنع لهم شيئاً قل لهم إن العمل متوقف لفترة قصيرة.

قبّل أفراد عائلته ومضى. بكى يهوذا قليلاً في الليل. أما شقيقته فعادت تلعب، ولم تلاحظ غياب الوالد إلا عندما أرادت أن تنام.

حضر الرومان إلى المكان في الأسبوع التالي. لم يعتبر فلافيوس هذه المرة أن من المناسب أن يأتي: فهم من ملاحظات الوالي بلا شك أن تكرار ما قام به قبلاً أمر غير مرغوب فيه الآن.

وكان أنطونيوس قد حلّ محله. لم يعد هذا إلى القرية منذ موت زائير، لكنه كان على علم تام بكل ما جرى هناك، وخصوصاً باختفاء يوحنان وزكريا.

كان يحسن التكلم بالآرامية ويستطيع التحرك بدون ترجمان. فقد خصص عدة ساعات من وقته يومياً لدرس هذه اللغة، مستشعراً بأن ذلك وسيلة لتحسين فهم هذا الشعب الذي يواجهه، وربما لإيجاد بداية للتعاطف عنده. لكن جهوده ظلت حتى حينه قليلة النفع، فكان يأسف لذلك.

«يا أهل خورازيم! أظن أنكم جميعاً تعرفون أن أشقياء اعتدوا على خزان الماء الذي يغذي قيصرية. هذا عمل لا يمكن قبوله. نريد أن نعرف أسماء الفاعلين. ليس في نيتي أن...».

وأدرك أن ما كان يزمع أن يقوله قد يكون تنصلاً فاضحاً مما فعل رئيسه، فأمسك عن قوله، وأضاف:

«أدع مثل هذه الأفعال تتكرر. لقد وقعت هنا منذ فترة أحداث تحملني على الارتياب كثيراً بأن بعضاً منكم قد يكون متورطاً في هذه القضية. سيأتي رجالي ويسألونكم. لا أريد اللجوء إلى العنف، في الوقت الحاضر على الأقل، لكن الكذب سيجلب القصاص».

لاحَ له أن القرية أشد اتحاداً الآن مما كانت إبان زيارته السابقة. وأدرك، إن كان لا يزال لديه شيء من الشك، كما أن العنف الذي مارسه فلافيوس لم يؤدِّ إلا إلى المزيد من انتصابها في وجه الحكم الذي كان يمثله. وتنهد. هذا مع أن روما كانت لا تبغي أن تحمل إلا التمدن إلى هؤلاء المتوحشين. وكما يعامَلُ الأولاد المشاغبون وهم في الحقيقة محبوبون، ألم يكن من واجبه أن يرغمهم على قبول هذه المدينة إن لم يقبلوا بها من تلقاء أنفسهم؟

استدعيت سيبوريه ويهوذا وأخته إلى خيمة نصبت عند مدخل القرية.

«أين زوجك؟ سأل أنطونيوس.

بحركة عفوية ضمت الولدين إليها وقالت:

ـ إنه في سفر. لأجل عمله.

ـ لأجل عمله؟

ـ إنه...».

بدت وكأنها تبحث عن كلمات، ولاحظ الروماني ترددها.

«ذهب صوب أورشليم ليقابل معلماً فاخورياً يتعلم منه ما لم لا يعرفه بعد.

ـ هذه إقامة واعدة ومفيدة، وكم ستدوم؟

ـ شهراً على الأقل.

ـ يا لتواضع هذا الرجل، الذي يطلب نصائح تتعلق بمهنته بعد أن

زاولها منذ سنين طويلة... هذه أمثولة يجب أن نتأملها جميعاً. لن تتاح لي الفرصة لأراه إذن؟

ـ لا أيها الضابط. ما لم تذهب حتى أورشليم بحثاً عنه.

نظر يهوذا إلى أمه مندهشاً، فرأى في عينيها عنفواناً، وبارقة تحدّ جديدة عليه، فزاد التصاقاً بها.

«أفترض أنه رحل قبل أن يتعرض خزان قيصرية لعملية تخريب.

ـ أجل، أيها الضابط. يمكن أن تسأل كل جيراننا.

ـ سأفعل ذلك، إطمئني، سأفعل ذلك».

استجوب الجنود كل أهالي القرية. وقاموا بتحقيق مماثل في سائر القرى المشبوهة. لم يسفر هذا التحقيق عن شيء في خورازيم، إذ أن جميع السكان التزموا الصمت أو الكذب، كما فعلت سيبيوريه. انتابت فلافيوس سورة من الغضب الشديد عندما أطلعه أنطونيوس على نتائج تحقيقاته.

لم يُعثر على جثة يشوع في جوار خورازيم إلا بعد انقضاء ثلاثة أيام على دهم الرومان القرية. فقد عادت الخراف إلى القرية من دونه، فتذمر والداه في البدء من إهماله، ثم شعرا بالقلق. خرج الفلاحون في الليل يبحثون عنه فلم يعثروا عليه، فعادوا إلى القرية والألم يخر في نفوسهم. وفي اليوم التالي وجدوا جثة الصبي معلقة في شجرة جميز، وقد ظهرت عليها آثار التعذيب: كان ينزلق على خده سائل أبيض من إحدى عينيه المفقوءة.

أعيد الجثمان الى القرية في صمت مطبق. لم يكن يشوع محبوباً كثيراً، ولكنه كان واحداً من أفراد الجماعة ولذلك أحست هذه بأنها جرحت. دفن في صباح ذلك اليوم وسط صراخ الباكيات الذي انتشر بعيداً في السهل. حاول جنديان رومانيان أن يدخلا القرية، لكن الأهالي تكتلوا في مواجهتهما فكان هذا كافياً لكي يتراجعا.

أحس يهوذا بصدمة شديدة من جراء خسارة صديقه ولأنه فهم على

الفور أنه هو المسؤول عن ذلك. فما كان لهذا أن يحدث لو أنه لم يقل للجنديين عند سفح الخزان أنه يدعى يشوع.

استطاع أن يكتم هذا السر طيلة أسبوع، لكنه كان لا يفارق باله ليل نهار. ظنت سيبوريه أن سبب يأسه هذا الحزن، فداعبته بحنان مفقود تقريباً. أراد أن يصارحها بالأمر عدة مرات لكنه لم يقدر. إلا أن عزيمته خارت في إحدى الليالي. كان أحد أعمامه قد اصطحبه إلى الكنيس. كان يهوذا لا يحب أن يستمع إلى تلاوة التوراة بالعبرية، التي كان لا يفهمها، فكان يلعب كما رفض أن يشارك في السمحات تورا، تلك الرقصة التي يقوم فيها الأولاد بالتطواف داخل الكنيس حاملين لفائف الشريعة وهم يرتلون. ولم يشعر بالارتياح الذي كان ينتظره من الطقوس الدينية.

وأخيراً ألقى العبء عن كاهله لدى عودته إلى البيت. «مات يشوع بجريرتي يا أماه».

ـ لا تقل هذا يا عزيزي. يشوع مات لأن الرومان يريدون إيذاءنا. لا علاقة لك بالأمر.

كانت تصغي إليه وهي تعد الماتزوث لأجل العشاء.

«بلى يا أمي، مات بسببي».

لم يكن قادراً أن يقول شيئاً آخر، بعد أن طغى عليه الانفعال. أخيراً غضبت سيبوريه.

«كفَّ عن هذا الكلام يا يهوذا. إنه كلام أحمق. نحن كلنا متألمون. لكن لا ذنب لأحد في الأمر.

ـ بلى، أنا المذنب».

تنهدت وقد ضاقت ذرعاً. وأحس يهوذا بأنه منبوذ تماماً، فجمع كل ما يملك من جرأة وأخبرها كيف أراد اللحاق بأبيه، وكيف قبض عليه في جوار الخزان، وكيف سقاه الرومانيان ذاك الشراب، ولماذا أعطاهما اسم يشوع بدلاً من اسمه. لم تفهم سيبوريه على الفور، ثم ربطت فجأة

بين الأحداث، فاعتراها اضطراب كبير، واندفعت نحو ابنها وعانقته قائلة:

«يا صغيري المسكين، يا صغيري المسكين».

وتفرست في وجهه.

«وليس عمرك سوى عشر سنوات».

وَاستسلم يهوذا أخيراً للبكاء والنحيب.

«لا دخل لك في الأمر يا حبيبي. أنت وقعت في فخ نصبه لك من هو أقوى منك. نحن لا نقدر أن نفعل دائماً ما نريد، فهناك قوى متفوقة علينا. أنت لم تقصد ما حصل، وما حصل لم يحصل لأنك شرير بل لأن الرومان هنا. هم وحدهم المجرمون الحقيقيون. لا يُسأل أحد عن الشر المحيط به. هوّن عليك يا بني، هوّن عليك».

«بلى يا أمي، لقد خنته».

لم يشأ أن يتراجع، فكفت عن السعي إلى اقناعه، وراحت تغني له أغنية قديمة، فغفا بين ذراعيها.

استيقظ في فراش أمه. وصلت رائحة الخبز الذي كانت تعده أمه إلى أنفه، وهمَّ بالنهوض ليغتسل، فعاجلته فكرة يشوع كخنجر حاد.

وسمع في تلك اللحظة صوت سيبوريه تناديه:

«يهوذا؟ يهوذا؟ هل أفقت يا حبيبي؟ تعال، تعال إلي».

ناولته فطيرة من الخبز الساخن فدسّ فيها رأسه قبل أن يُعمل فيها أسنانه.

«لك عندي مفاجأة اليوم. لكن كُل أولاً.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لا أقدر أن أقول لك. سترى».

خرج الاثنان بعد ذلك بساعة، بعد أن تركا حنة في عهدة إحدى الجارات. شاهدا قافلة تعبر فسارا في أثرها خوفاً من اللصوص. لم يسأل أحد يهوذا وأمه عن هويتهما. كانت القافلة تضم نحو خمسة عشر

جملاً وبضعة حمير كان يسمع نهيقها من بعيد. كان الأولاد يركضون أمام القافلة، ثم يعودون تلبية لنداء أهلهم. كان المسافرون يتوقفون أحياناً لرفع التسابيح إلى الله فكان يهوذا وأمه يجثوان على الأرض معهم.

وعندما بلغا أبواب تراخونيديا خرجا عن الطريق الملكية وعن القافلة وأوغلا في الصحراء وحيدين. كان الحر لا يطاق رغم اقتراب الشتاء. كانت الريح تهب بقوة، حاملة في ثناياها الرمل الأحمر الذي كان يلتصق بالثياب تاركاً عليها ما يشبه لطخات من الدم. كان يهوذا قد طلب أن يمتطي ظهر الحمار، ما كان لا يحظى به إلا أيام الأعياد.

بعد أن قطعا مسافة ما اقتربا من جرف مرتفع كان يبدو أنه يصعد نحو الشمس التي تعمي الأبصار. وعندما همّا بولوج أحد الممرات الضيقة التي تخترق الجرف، خرج منه ثلاثة رجال ودنوا من سيبوريه التي ألقت عليهم التحية. فأخرج أحدهم من جيبه منديلاً وعصب به عينيها. ولما أرادوا أن يعصبوا عيني الصبي تمرد هذا، فتدخلت أمه شارحة له ضرورة الأمر.

ومشوا لحظة ثم شعر يهوذا ببرودة فأدرك أنهم يسيرون في الظل. ورفعت العصابة عن أعينهما، فوجدا نفسيهما في داخل الجبل تحيط بهما جروف عالية. وسُمعت زغردة عصفور، ثم سقطت حبال من فجوة لا يمكن رؤيتها من تحت. تسلق يهوذا أحد الحبال مستعيناً بقدميه. وكان الأمر أصعب على سيبوريه، ما اقتضى أن يقوم أحدهم بسحب الحبل من فوق. لم يكد يهوذا يصل إلى المغارة، وحتى قبل أن تعتاد عيناه على العتمة، حتى تلقفه أحدهم وضمه بقوة إلى صدره، فتعرف يهوذا إلى رائحة أبيه.

«يا ولدي».

كان صوته القوي يتردد تحت قباب المغارة. كان هناك نحو عشرة رجال عرف يهوذا من بينهم زكريا ويوحنان، فحياهما بإشارة خجولة من

يده. على أن سعادته بلقاء أبيه تضاءلت نوعاً ما عندما فكر بأن أمه كذبت عليه بقولها إنها لا تعرف مكان وجوده.

التفت سمعان نحو سيبوريه وفي نظرته شيء من العتاب. فقد قال لها أن لا تأتي إليه إلا أقلّ ما يمكن، وأنه رغم سروره العظيم برؤيتها، مندهش لرؤيتها تخاطر إلى هذا الحد بتعريض ابنه للخطر.

«يجب أن أكلمك».

نظر إليها وأخذها إلى إحدى زوايا المغارة، بعيداً عن الآخرين.

«أعتقد أن عليك أن تخبر ابنك بما أنتم تفعلون».

ـ أن أخبر يهوذا؟ لكنه ما زال ولداً. ألهذا جئت به إلى هنا؟

ـ لم يعد ولداً».

وحكت له قصة يشوع، فاغرورقت عينا سمعان بالدموع.

«لعنة الله على الرومان!».

قال هذا بصوت عال، فالتفت نحوه الرجال الذين كانوا يشعلون ناراً في عمق المغارة.

«ظل طوال الاسبوع حائراً مرتبكاً، يائساً. وكنت كثيرة الانشغال فلم انتبه لحاله، فكنت أظن أن السبب هو حزنه على موت صديقه. لكنه كان يحس إحساساً رهيباً بأنه المسؤول عن ذلك. وحدثني قليلاً البارحة، فشعرت بأنه ضائع تماماً.

ـ عليه أن ينسى. ماذا تريدينه أن يفعل غير النسيان؟ إنه بالتأكيد ليس مذنباً. لكن لماذا لم يخبرني بالأمر يوم حدوثه؟

ـ ربما للسبب إياه الذي حملك أنت أيضاً على عدم البوح لي بتغيبه؟

لم يجب سمعان، خوفاً من حصول شجار. لكن سيبوريه عاودت الكلام بهدوء قائلة:

«أعتقد أنه لن ينسى غلطته إلا إذا صار لعملكم معنى في نظره. فيمكنك أن تخبره بأنكم أنتم المسؤولون عن تخريب الخزان، وهذا على كل حال أمر لم يعد يجهله كثيرون. ضمه إليكم».

لم يسبق لسيبوريه أن نطقت بكلام على مثل هذه الدرجة من الإيلام، كلام يحكم عليها بالانفصال عن ابنها وتعريضه للخطر.

وتمتمت: «لكن إعهد إليه بأمور لا تعرضه لكثير من المخاطر».

أجاب: «المخاطر؟ ألن يكون هو من سيجلبها لنا؟ ليس له من العمر سوى عشر سنوات. ماذا قد يحصل لو قبضوا عليه؟

ـ لا تخبره شيئاً ذا أهمية حقاً. الولد يستطيع التسلل إلى أي مكان، وقد تحتاجون إليه. كلفه بأمر ما، واشرح له السبب. إعلم أنه يستطيع أن يفهم. وهو بحاجة إليك.

ـ سأكلمه. لا تقلقي، لقد أحسنت باصطحابه إلى هنا».

لاحظ من خلال الارتياح الذي سببته هذه العبارة لسيبوريه كل ما تحملته هذه للقيام بهذه الرحلة.

انتحى سمعان بيهوذا جانباً، وتحدث الاثنان طيلة ساعتين. حاول أن يشرح له سبب رحيله عنهم. حكى عن تاريخ بلاده، هذه الأرض التي يحبها والتي تطأها أقدام نجسة. وحكى عن يهوه، الالّه الواحد، وعن ضرورة حمايته من الآلهة الكاذبة، وذكر مجيء المسيح. وشرح كيف مات هيرودس وكيف استولى على الحكم أرشيلاوس، وكيف جرى خلع هذا الأخير ونفيه إلى فيينا البعيدة جداً. وروى كيف انتقل الاقليمان اليهوديان آنذاك إلى تحت سلطة الحاكم الروماني في سوريا، وكيف باتت الضرائب تدفع مباشرة الى خزينة روما، الأمر الذي أثار غضب يهوذا. قال كل هذا وهو يتذكر ما قال له الجولاني. كان لا يفهم بالضبط ما هي بلاد الغال تلك التي ذهب إليها أرشيلاوس، لكنه سعى جهده للاجابة عن أسئلة الصبي. لم يمتدح قط العنف ولا الانتقام. لكنه وصف المهمة بأنها ضرورية وتستحق كل التضحيات، بما فيها تلك التي فرضها على عائلته، ولكن دون أن يمجدها. لاحظ من بريق عيني الصبي أنه لم ينجح فيما خص النقطة الأخيرة وآلمه الأمر كثيراً. لكن سيبوريه

كانت محققة بلا ريب، وهذه العدوى ليست سوى الثمن الواجب دفعه لإنقاذ يهوذا من اليأس.

«هل سأستطيع مساعدتكم؟».

كان يود أن يقول لا، لكنه خشي من أن يهدم بذلك أكثر مما يبني، فقال «نعم». وهكذا انضم يهوذا إلى المجموعة.

* * *

لم يُتح له الوقت الكافي للاستعانة به قبل الكارثة التي قضت على الانتفاضة. هذا مع أن بؤراً كانت تندلع في كل أنحاء البلاد. وفي يوم العنصرة عمت الاضطرابات مدينة أورشليم، وتسلق اليهود قناطر الهيكل لكي يهاجموا الرومان. وفي إيدوما خرج ألفان من جنود هيرودس لمقاتلة قوات آحاب ابن عم الملك. وفي البيري أعلن سمعان، أحد أرقاء الملك، أنه هو الملك، وأحرق قصر أريحا وعدة دارات. وقام راع بسيط يدعى أتنورونجيوس، كان طامعاً بالعرش، بقتل عدة رومانيين في جباله.

كانت مهمة يهوذا تقتصر على تأمين الاتصال بين خورازيم وبين القرى التي كانت تتشكل فيها نواة. كان رجل يمر بأمه بانتظام ويترك رسائل ولائحة بالأماكن الواجب نقلها إليها. فكان يهوذا يجول في المنطقة الممتدة من قيصرية حتى بحيرة الحولة. كان في الغالب يمضي ومعه حمار وعربة ويغيب أحياناً عدة أيام. في كل مرة، كان رجل ينتظره في المكان المقصود ليتسلم الرسالة. وإذا كان الرجل يعرف الكتابة كانت الرسالة مرمّزة على قطعة من البردي. وإلا كان يهوذا ينقل الرسالة بصورة شفهية. كان صغر سنه يسمح له بالعبور على الحواجز الرومانية ويجعله أقل تعرضاً لاعتداء قطاع الطرق. كان عليه في أحد الأيام أن ينقل رزمة الى سيفوريس. كانت الطريق المؤدية إلى قلب المدينة محفوفة بالأعمدة، وكان هناك سلسلة طويلة من المتاجر. كان هناك مسرح،

وهياكل، وكثير من الغرباء الذين لم يفهم لغتهم. وضل في السوق، التي كانت أضخم سوق عرفها، ومضت ساعتان قبل أن يصل إلى الدكان التي كان فيها من ينتظره.

دامت هذه الحال أربعة أشهر كان الصبي خلالها يقوم برحلتين في الأسبوع بينما كان القلق ينهش قلب سيبوريه. أما الصبي، فكان يزداد حباً لهذه الحياة، إذ أن المخاطر التي كان يتعرض لها وكيفية انخراطه في العمل منذ أول يوم باشر فيه مهامه أتاحت له أن ينسى الألم والشعور بالذنب من جراء موت يشوع. وكان في الوقت ذاته يتعلم التعرف على أرضه بقدميه، وأنفه، ويعتاد على تنوع النباتات، ويشعر من خلال ريح الخماسين ولفحها المحرق باقتراب الصحراء كما يشعر من خلال رائحة شقائق النعمان بالعودة إلى الأراضي الغنية.

عاد مرتين إلى المغارة التي كان يعيش فيها والده. وفي المرة الثانية، أحس منذ دخوله بنظرة وجهها إليه رجل ضخم الجثة، غليظ، أشعث الشعر، يرتدي جلباباً وسخاً.

«من هو هذا الصبي؟».

إنه ابني ـ أجاب سمعان.

ـ ماذا يفعل هنا؟

ـ إنه يساعدنا. لولاه لما استطعنا أن نعلم بقدومك وأن نستقبلك».

اقترب الرجل من يهوذا ووضع يده القذرة على رأسه. كانت عيناه صغيرتين ولكن شديدتا الحيوية. فابتعد الصبي صائحاً:

«لا تلمسني».

فضحك العملاق قائلاً باستغراب:

«لكن هذا الكبش الصغير ذو خصيتين».

كانت هذه أول مرة التقى فيها يهوذا بيسوع باراباس.

اضطر هذه المرة أن يمضي الليل بكامله في المغارة. وقدم له أحد الرجال فراشه المعلّق المصنوع من الحبال فنام بالقرب من حصيرة أبيه.

فهم من وشوشات العصاة وشدة صلواتهم أن أمراً مهما يجري إعداده.
وفي جو من رائحة الأجساد المتعرقة، وفيما كان وجهه يكاد يحترق من لهيب النار التي كانت تشخر في عمق المغارة، استمع هو أيضاً إلى كلام باراباس.

قام صادوق، الفريسي المقرب جداً من الجولاني، بالتعريف عن باراباس وقال إنه شارك في عملية نسور الذهب.

فسرت بين الحضور تمتمة من التعجب. كانت تلك العملية قد أمست خرافة، لكن هذه كانت أول مرة يتاح لهم فيها أن يقابلوا أحد أبطالها.

«حدثنا يا باراباس عن قصة النسور».

كان العملاق ينظر إلى المجموعة الضعيفة نظرة استعلاء.

«ماذا ينفعكم ذلك؟ لسنا بحاجة إلى احتفالات بل إلى أفعال. قد يكون الماضي مجيداً، لكن المستقبل يبقى بلا حدود.

ظهرت على وجوه الرجال القاعدين إمارات الخيبة.

«نرجوك. نحن لم نتوان يوماً عن العمل، لكننا لم نشبع نهمنا منه بعد. فأفسح لنا في المجال كي نحلم».

لاحت على سحنة باراباس ابتسامة ماكرة. كان يطيب له أن يجعل الآخرين ينتظرون، وكان الضجر كبيراً في هذا الجحر الذي كان لا يخفف من وحشته إلا القليل... ثم شخر وقال:

«كان ذلك قبل موت هيرودس بقليل. كان ذلك الكلب الجرب في حالة متردية، وكانت مصائب أبنائه قد أغرقت نفسه في اليأس. قيل إنه مصاب بحمى عنيفة، وأن حكة لا تطاق تنهش جسده على الدوام، وأن أعضاءه متشنجة، وأن الغرغرينا أصابت عضوه الجنسي الذي بات يخرج منه الدود».

سرت بين العصاة بضع ضحكات قوية.

«كان هناك كلام عن أنه حاول أكثر من مرة أن يجتاز نهر الأردن لأجل معالجة مرضه في ينابيع كاليرويه الحارة، وعن إغمائه وهو في

جرن مملوء بالزيت الساخن. لكن هذا لم يردعه عن الإيذاء: كان قد حبس وجهاء كل دساكر اليهودية في ميدان سباق الخيل وأقسم أنه سيعدمهم عند وفاته لكي يحرم سكان اليهودية من أسباب الابتهاج بموته. لكن هذا لم يكن شر جريمة ارتكبها. كان هذا الخنزير الإيرومي قد جدف لتوه على الله. فقد أمر بأن يُنصب فوق باب الهيكل، هيكلنا، نسر ذهبي كبير. كائن حي يقام له نصب في الحرم المقدس...».

وسرت موجة استنكار بين الرجال.

شعر معلمان هما يهوذا بن ساريغاوس وماتياس بن مارغالوس بأن الوقت قد حان، نظراً إلى ضعف الملك، لأجل نسف هذا النسر الملحد. كنت أنا واحداً من أكثر التلامذة قرباً منهما. وعندما حدثاني عن مشروعهما تحمست له على الفور. ولم أكن الوحيد.

كانت عينا يهوذا، كسائر الرجال، لا تفارقان شفتي العملاق.

«لا تظنوا أنكم وحدكم تناضلون: في كل مكان يوجد شبان يهود، مثلنا في تلك الحقبة، مستعدون للسير وراءكم. في أحد الأيام قررنا الانتقال إلى العمل. لم يكن المعلمان على علم بقرارنا، إلا أنهما أيدانا فيما بعد وسارا وراءنا، إذ أنهما لاقيا حتفهما في ذلك العمل.

واتخذ صوته نبرة غضب شديد حاول أن يكتمه بصعوبة.

«هذه التضحيات وحدها ستتيح لنا السير قدماً بقضيتنا».

وتلفت حوله منتظراً تأييداً أُعطي له فوراً من خلال همهمات بكماء.

«اخترنا أصيل يوم جميل كي نكون واثقين من عدم إمكان تحويل عملنا إلى شيء آخر. كنا عشرة نقوم بالعمل، وحضر مئة شخص لمساندتنا. صعدنا إلى سطح الهيكل وتدلينا بالحبال حتى بلغنا مستوى النسر ورحنا نضربه بالمطارق. كان هناك بالطبع مواطنون صالحون هرعوا فوراً لإبلاغ الكتيبة. عند وصول هذه كان النسر قد أمسى فتاتاً، لكن أربعين من الجنود قبضوا علينا. وتمكنت مع رفيقين آخرين من فتح الطريق بعد أن ضربنا بعضاً من أولئك الجنود الملاعين، ولذنا بالفرار».

وحلّ الغضب في صوته محل الانفعال.

«قبض على يهوذا وماتياس. كان موقفهما جديراً بالاعجاب. لم ينكرا مشاركتهما، بل على العكس هتفا: «شريعة آبائنا أمرتنا بأن نفعل ذلك. فأية غرابة إذا نحن امتثلنا لها ولم نمتثل لأوامركم؟»". كان يبدو أنهما سعيدان حقاً، الأمر الذي حمل القائد على سؤالهما عما يسبب لهما هذه السعادة في لحظة يواجهان فيها الموت، فأجابا بأن سعادة أكبر أيضاً تنتظرهما في العالم الآخر. عندما سمع الملك هذه الأقوال التي نقلت إليه ثارت ثائرته وانتابه غضب شديد. فانتقل إلى مجلس الشعب حيث ألقى خطاباً طويلاً وصف فيه الرجلين بالمجدفين طالباً بأن يحاكم الاثنان لا كبطلي إيمان بل ككافرين. ونال ما طلب. وبرهنت عامة الشعب عن جبن عظيم: تحاشياً لانقلاب الغضب الملكي عليها، بادرت إلى المطالبة بمعاقبة المجرمين بعد أن كانت قد صفقت لما فعلوا قبل ساعات. كان هيرودس متشدداً للغاية. فأمر بإحراق المعلمين وجميع الشبان الذين ضبطوا وهم يحطمون النسر أو يعالجون الحبال. كما أمر بإعدام كل من قبض عليهم في المكان دون أن يعرف ما إذا كان بينهم مجرد عابرين. أمام هذا المشهد، أسفت تقريباً لعدم وجودي بينهم، لشدة ما كان موتهم يبدو لي بهياً. ثم عدت فأدركت أنني قد أكون أكثر نفعاً إذا حاولت إحياء جذوة القتال من أن أموت مع أولئك الشهداء».

في تلك اللحظة لاح أن كل الذين استمعوا إليه كانوا يفضلون لأنفسهم الخيار الآخر.

حصل الهجوم على مستودع أسلحة سيفوريس بعد ذلك بيومين. فقد تبين للعصاة أن حركات التمرد التي كانوا يقومون بها، أياً تكن المهارة التي كانوا ينفذونها بها، لا تستطيع أن تصمد في وجه السيوف والحراب الرومانية، وكانوا يأملون بالاستيلاء على سلاح يستعملونه هم وتدمير ما كان لا يفيدهم منه. الدخول إلى قلب قصر هيرودس بالذات، حيث كان

مستودع الأسلحة، كان فوق ذلك عملاً جسوراً إلى حد لا يمكن إلا أن يترك دوياً كبيراً.

جرى إعداد العملية بعناية كبيرة. كان أحد الرجال ويدعى إسماعيل قد دخل إلى القصر الحصين متنحلاً صفة تاجر حمير، لكي يبيع حميره. وعاد إلى القصر عدة مرات، وسجل المداخل والمخارج الممكنة، وعدد الحراس، ومواقيت نوباتهم. شن الرجال هجومهم بعد ذلك بأسبوع. وماذا جرى؟ كانوا لا يتوقعون وجود أحد، فاستقبلهم الجنود الذين كانوا متربصين. قُتل على الفور ثلاثة من رفاق سمعان، وحوصر الآخرون. كان القتال شرساً وعنيفاً، وسقط فيه أربعة من الجنود. وألقي القبض على عشرة من العصاة، الذين آثر اثنان منهم أن يرتميا على سيوف الجنود التي كانت لا تزال مشهورة. وعُذب الثمانية الآخرون، الذين صمدوا بضع ساعات، ثم تكلموا.

وبعد يومين هوجمت المغارة. واعتقل رجال في كل القرى. وبلغ غضب الرومان حداً لم يبلغه قط من قبل. وقامت قوات فاروس، بقيادة المدعو كايوس، بتدمير سيفوريس، فهدمت البيوت، والمستودعات، وأحرقت المتاجر. وظل الصراخ والدخان يخيمان ثلاثة أيام على المكان. وصُلب مئات ومئات من الناس.

وفي أورشليم أيضاً قضت القوات الرومانية على الثائرين، بعد مقاومة بطولية. وأحرقت أعمدة الهيكل. واستسلم أترونجيوس وسمعان بعد اشتباكات يائسة. حكم بالصلب على ألفي رجل. وخسر يهوذا أباه.

الفصل الرابع

بعد موت المصلوبين انطوت القرية على نفسها. ونشبت خلافات بين الذين قاتلوا والذين امتنعوا عن القتال. ولامت عدة عائلات من عائلات المصلوبين عائلات المحرضين لأن هؤلاء ساقوا أبناءهم إلى الموت. وكانت سيبوريه تحس حولها بعداء صامت يقتفي خطاها. وفي أحد الأيام هجمت عليها والدة أحد عمال النجارة الذي صُلب مع سمعان وهي تكيل لها الشتائم وتحاول ضربها. فاضطر يهوذا أن يصفع الامرأة، فانهارت سيبوريه وهي تبكي، لكن أحداً لم يقف إلى جانب الفتى، ورآه الناس يساعد أمه على النهوض دون أن يبدوا أي تعاطف معه. «تُرى، هل أفلح كايوس في تحقيق ما عجز فرعون عن تحقيقه؟». قال هذا في أحد الأيام في وجه مجموعة من الناس كانوا محتشدين أمام الكنيس. فنصحه بعضهم بأن يهتم بالأمور التي تتناسب مع سنه وذكروه بإخفاق محاولة الجولاني. وزادت الأمطار الخريفية التي ابتدأت باكراً تلك السنة من وطأة الحزن السائد.

عاد يهوذا الى مشغله. وجد نفسه رب عائلة وهو في الثانية عشرة من العمر. لم يترك سمعان شيئاً للعائلة، والسخاء العفوي الذي أبدته القرية عندما عرفت بأن الفاخوري انضم الى العصاة أخذ يتضاءل الآن بعد أن أفضى عمله إلى كارثة.

عمل يهوذا لوحده في المشغل. كان يشتغل كثيراً لحسابه، فيصنع

أشكالاً غريبة، يشوي مزهريات غير مستقيمة وأكواباً ملتوية. كان يختبر خلائط جديدة من الغضار، ويتمرن على زخرفة آنيته، ويحاول صنع رسوم غير مألوفة. ودرج على عادة المضي لبيع منتجاته في المدن الكبيرة: كفرناحوم، بيت سعيد، طبريا.

واضطر أيضاً أن يمارس الصيد في البحيرة، وأن يجد له عملاً في مركب كان بحاجة إلى سواعد. وكان يحاول بعض الأحيان أن يصطاد سمكاً وهو على اليابسة بواسطة شبكة رتقتها له سيبوريه. لكن الغنيمة هنا كانت زهيدة، وكان الصيادون مستائين من قدوم كل أولئك الهواة الذين ارتفع عددهم بعد موجة القمع.

كان أحياناً يستسلم للإحباط، حينما يرى أن طعام العائلة بات يقتصر على بضعة ثمار من التمر والزيتون، ويرى حنة الصغيرة تبكي من الجوع، ويرى أن سمكة واحدة كانت بمثابة فرحة عيد. غير أن الحظ حالفه في أحد الأيام في سوق طبريا. كان لا يحب هذه المدينة، التي هي كناية عن بضع دارات لموظفين ورجال بلاط شُيدت حول قصر هيرودس، لكن سوقها كان يرتادها زبائن موسرون. كان قد وصل إلى السوق باكراً صباح ذلك اليوم، وعرض بضاعته على بساط حينما توقفت امرأة سورية من أورشليم أمامه وقالت:

«من أين جئت بهذا؟».

وأشارت إلى مزهريتين ملتويتين كان قد صنعهما لنفسه ونسي أن يخرجهما من بين المنتجات التي يريد بيعها.

«هاتان القطعتان. إنهما مدهشتان. هل تبيعهما؟».

لم تكن الامرأة وحيدة، وقد أثار اكتشافها حماسة رفاقها أيضاً.

«بِكم تبيعهما؟».

لم يعرف بماذا يجيب. كان بائع طيور داجنة يعبر خلفه فأسرّ في أذنه: «أطلب ما تريد، إنهم أثرياء».

عمل بنصيحة الرجل ونال ما طلب. وسألته الامرأة عما إذا كان عنده

مزهريات أخرى. فجاءها في اليوم التالي بكل ما كان لديه. استقبلته في نزلها وكانت وحدها في غرفتها. لم يفهم كل ما كانت تنتظر منه. خاب ظنها، ولكنها دفعت. وهكذا نالت العائلة بمعجزة ما مكنها من تمضية فصل الشتاء.

تحسن وضعهم في القرية. ومع عودة الأيام الدافئة خفت حدة الضغائن، ولم يعد هناكَ سوى ثلاث عائلات تكن للعصاة بغضاً لا ينطفيء ومن بينها عائلة يشوع.

على أن وضع العائلة المادي ظل هزيلاً، وغالباً ما كان يهوذا يشعر بأنه ينوء تحت عبء مسؤوليات باهظة بالنسبة إلى سنيه الإثنتي عشرة. ومما زاد الحالة سوءاً أن الطقس تحول فجأة إلى طقس جاف وباتت المزروعات مهددة من جديد. كان أحياناً يصعد إلى سطح البيت، حيث كان يطيب له عادة أن يكون عند العشية، ويسرح بصره في السهل الجاثم تحت الهجير، ويكاد يصل به الأمر أحياناً إلى الكفر بالله.

وفي يوم من الأيام، بعد مرور سنة على هذه العيشة الصعبة، رأى الحياة تستعيد مجراها بعد أن كانت قد هجرته.

* * *

كان دوماً يحتاج إلى كثير من الوقت حتى يعتاد على ظلمة بيته عندما يصل إليه من الخارج، وكان يحب أن يتنشق رائحة الطحين ممزوجة برائحة غبار البيت قبل أن يتبين ما فيه. وفي أحد تلك الأيام شمّ رائحة الرجل قبل أن يراه. لكنه قبل أن يتاح له الوقت ليتساءل عمن يكون ارتفع صوت فعرف صاحبه في الحال.

«مرحبا يا يهوذا.

ـ أهلاً».

كانت سيبوريه واقفة وراء المقعد الذي كان يجلس عليه باراباس.

«هل تتذكرني؟

ـ نعم».

أحس يهوذا بمدى صغره فيما كان العملاق ينظر إليه.

«أنت تحمل أجمل اسم في العالم، اسم شعبنا. هل أنت عائد من العمل؟

ـ اضطررت أن أمضي لأقطف الفول، وأنجزت طلبية من ثلاث خوابي.

ـ هل تشعر بالتعب؟

ـ قليلاً.

ودون أن يطلب شيئاً حملت إليه سيبوريه كوباً من الماء البارد الذي صبته من الجرة، فنظر إليها يهوذا مبتسماً. لقد تغيرت علاقاتهما منذ أن أمسى رب عائلة، فكانت تعامله باحترام، دون أن تنسى الحنان، وكان هذا يزيد من قدرها. دفع بقدمه أحد الخراف: كانت الخراف تعيش في أسفل البيت، لكنها كانت أحياناً تتجاسر فتصعد إلى الغرف الثلاث الفوقية التي تسكنها العائلة.

«أليس من العسير عليك أن تعتني بكل هذا؟ ـ قال باراباس

ـ بلى في كثير من الأحيان. لا نعرف إلى أين نحن سائرون.

ـ هل أنت بحاجة إلى مال؟

ـ لن يطول بي الأمر حتى أصل إلى ذلك. اشترت مني امرأة مسنة مجنونة مزهريات كان لا يخطر في بالي حتى أنها ستباع، وهذا ما أتاح لنا أن نصمد حتى الآن. لكن لن يبقى لنا شيء يذكر بعد قليل.

ـ وبعد ذلك؟».

أحس يهوذا بموجة من السخط تجتاحه. ماذا، وبعد؟ باسم من جاء باراباس يزعجه ويحاسبه؟ فأجاب بلهجة هجومية

«بعد ذلك سأرى. هل جئت تعرض عليَّ حلاً؟».

ابتسم الرجل وأعادت إليه هذه الابتسامة شبابه، أعادت إليه سنيّه الثلاثين.

«أنت لا تزال حاد الطبع يا ديكي الصغير».
وأدخل يده في جبته وأخرج منها كيساً ألقى به على الطاولة.
«هاك.
ـ ما هذا؟
ـ هذا مال
ـ لنا؟».
فتح يهوذا الكيس فسقطت منه عدة قطع من النقود، فالتقطها ودسّها في يده، وأحس بارتياح، إلى هذا المن الذي نزل عليه وفي الوقت ذاته بامتعاض لأنه شعر بفقدان دوره الجديد كرب عائلة.
«نعم هذا لكم. هذه بادرة أولى ونأمل بالتمكن من تكرارها. نحن نعتقد بأننا مدينون بشيء ما لأولئك الذين ماتوا من أجل القضية».
حينذاك فهم الفتى.
«القضية؟ أنت تعني...».
التفت باراباس الى سيبوريه وأومأ لها بأن تتركهما لوحدهما. فأذعنت بسهولة ولم يعجب الأمر يهوذا.
«أعني أن أشد أعمال القمع قساوة لا يطفئ النار المقدسة».
أحس الفتى بفرح كبير لم يخف على باراباس.
«نحن نواصل الكفاح لكي نعيد إلى الله أرضه التي هي أرضنا».
وأعقب هذا الكلام صمت قصير.
«وأنت... لا تزال بحاجة إلي؟».
ـ ألا تزال تكره الرومان؟
ـ أكرههم وحسب؟
وأغرورقت عينا الفتى بالدموع لشدة غيظه.
«أنا مستعد لبذل كل شيء من أجل استئناف العمل على طردهم.
ـ هذا جيد أيها الفتى. الحقد خير ناصح. نحن بضعة رجال لا نريد العدول عن الكفاح. فشل الهجوم على مستودع أسلحة سيفوريس كان

ضربة قاسية جداً. نحن لم نصِرْ مؤهلين بعد لمثل هذا النوع من الأعمال. والأمر كذلك بالنسبة إلى قضية النسور: كانت العملية عظيمة، رمزية، باسلة، ولكن عبثية. لم تغير شيئاً من ميزان القوى، ولم تبعث الخوف في قلوب الرومان، ولكنها عادت علينا بخسارة بضعة من خيرة رجالنا. فعلينا أن نقلع عن هذه الطريقة.

ـ لا أن نتخلى عن العمل...

ـ كلا، لا أن نتخلى عن العمل، بل أن نتصرف بطريقة أخرى. يجبُ أن نناوشهم على الدوام. أن نخيفهم. أن نولّد عندهم انطباعاً دائماً بأن أحداً سينقض عليهم، وبأن لا أمان لهم في أي مكان من هذه الأرض.

ـ وهل يمكن أن أكون مفيداً لك؟

ـ نحن بحاجة إلى مقاتلين، وأنت لا تزال صغيراً، لكنك تستطيع أن تتعلم.

ـ وما سيحل بأمي؟

كان يهوذا يعلم في قرارة نفسه أنه قد قبل.

«لهذا السبب جئت بهذا الكيس وقد قبلته. وعلى المنظمة أن تكون قادرة على إطعام عائلات الذين سيدافعون عنها. إذا انضممت الينا، فنحن نضمن أن أمك وأختك لن تحتاجا إلى شيء.

ـ لأنني إذا انضممت اليكم سيكون عليّ أن...

ـ أن تغادر البيت، نعم يا بني. لم يعد هناك وقت للتردد. إذا جئت إلينا فستقول وداعاً لحياتك الراهنة. أنا لن أعاملك كخائن، لكن فكّر جيداً: إذا قلت نعم فلن يعود بإمكانك أن تتراجع».

فهم يهوذا حينذاك كل ما كان يطلب باراباس منه، وتبين له الفرق بين المساعدة التي قدمها للعصاة، مستنداً إلى والد كان يثق به كل الثقة، وبين الخيار الذي سيقدم عليه، بمفرده، خيار حياته كلها.

وحنى رأسه لحظات، حتى ترتسم أمامه الطريق التي يجب عليه أن يسلكها.

في تلك اللحظة دخلت سيبوريه الغرفة وعانقت يهوذا.

«إعمل لما هو أفضل يا بني».

في صباح اليوم التالي، خرج يهوذا سيراً على القدمين، محاولاً بخطواته القصيرة أن يساير خطوات باراباس الواسعة.

سارا بمحاذاة بحيرة طبريا حتى وصلا إلى ستيوبوليس، حيث قرر باراباس أن يتوقفا. وعادا في اليوم التالي إلى طريق اللصوص التي تقود الى مرتفعات البلاد، ودخلا السامرة. أحس يهوذا، عندما وطأت قدمه هذه الأرض الملعونة، بقرف لا بد أن يشعر به كل يهودي صالح: كان سكان السامرة جميعاً من الوثنيين والاتصال بهم يكاد يكون أسوأ من الاتصال بالرومان. وأسرعا في السير وقد جف حلق كل منهما بسبب الرمل الذي كانت تذروه الريح. كان القمح في سهل المكنة قد أخذ ينبت، وكانت صراصير الحقول تملأ المكان بصريرها. أرسل باراباس بصقة في اتجاهها قائلاً: «ماء السامريين أكثر نجاسة من دم الخنزير». وتوقفا لأجل الصلاة وتكريم النبي يوسف، المدفون هنا، في هذه البلاد التي يسودها الانشقاق والكفر. كانا يعانيان من مشقة الطريق، ولا يتكلمان إلا قليلاً، وخرجا من الأرض الملعونة بعد جهد كبير. ورفضا أن يناما هناك، فلم يخلدا الى النوم إلا في ساعة متأخرة من الليل، عند وصولهما إلى اليهودية، بالقرب من ألكسندريون.

في اليوم التالي، نهض باراباس قبل طلوع الشمس.

«هيا: يجب أن نكون هناك بعيد الظهر».

اندهش يهوذا كثيراً أمام تغير منظر الطبيعة الذي كان الليل قد حجبه عنه. فأين جمال الجليل؟ وأين الخضرة، والأرض الخصبة، وذاك الإحساس بأنها تستطيع أن تجود بكل شيء؟ لقد اختفى بساط شقائق النعمان واللؤلؤية الذي يتألق في شهري آذار ونيسان، ولم يعد هناك سوى شجيرات الدفلى التي تشق طريقها بصعوبة بين الحجارة. وما النفع من كون الطرق التي شقها الرومان في اليهودية غالباً مستقيمة ومرصوفة

بالبلاط فيما أصغر وأسوأ طريق في الجليل تعرض جمالات مجهولة هنا؟

عندما وصلا إلى إفريم، المبنية على تلة، كما هي حال معظم الدساكر التي مرّا بها، توقف باراباس وأخرج من جعبته بعض ثمار التين وقطعة من الخبز.

«ألست تعباً؟

ـ لا أجاب يهوذا، الذي ما كان ليعترف بذلك على كل حال حتى لو كان صحيحاً. إلى أين نحن ذاهبون؟

ـ سنتسلق تلك الجبال المتاخمة للصحراء. ووراءها توجد مجموعة من الكهوف والمضايق، وعدد من السراديب الجوفية يكفي لأجل تضليل الرومان. نحن نقيم هناك منذ تدمير سيفوريس.

ـ ألا تعصب عينيّ؟

ـ أنت واحد منا الآن».

راح يهوذا يجيل النظر لأول مرة في هذا العالم الذي كان على وشك أن يصير عالمه. كان يبدو أن النبات هنا يتصارع مع التراب. وكانت أحياناً تظهر أشجار فجأة وراء صخرة، كما كانت أشجار أخرى تتشبث بخاصرة الهضاب؛ وكانت تظهر في البعيد أجمة من شجر الزيتون ترسم بقعة خضراء على بساط الصحراء الأصفر الحار.

تسلق باراباس المنحدر، ثم تسلل بين شعاب من الصخور والممرات الضيقة، وهو يرمق روث الحمير وآثار الحوافر، ثم انحرف إلى اليمين. كانت تظهر على منحدر الجبل فوهات كهوف صغيرة. ولما وصل إلى منبسط فوقها، أخرج من كيسه حبلاً غليظاً من القنب ولفه لفتين حول جذع شجرة عتيقة يتيمة كان يبدو أنها لم تنبت في هذا المكان إلا لكي تؤدي له خدمة يوماً ما.

«إمسك الحبلين بيديك، وانتبه وأنت تنزل».

أحس يهوذا بدوار لحظة ارتمائه في الفراغ، واستولى عليه رعب شديد

فالتصق بالجدار دون أن يفلت الحبل. فأرسل العملاق ضحكة دفعته إلى الاستمرار في النزول.

«إبتعد عن الجدار. لن يطول الأمر. واحرص خصوصاً على التمسك جيداً بالحبل».

وفجأة أحس يهوذا بأن الحبل بات مشدوداً. فقد خرج من ثقب تستحيل رؤيته من فوق رجل أمسك بالحبل. وبعد ثوان كان يهوذا إلى جانب الرجل. والتحق بهما باراباس سريعاً، ثم شد الحبل فسقط عند قدميه.

«هذه هي أرضنا الجديدة. مرحباً يا حزقيال».

كان يبتسم، راضياً، ثم دخل بسرعة.

وسار يهوذا وراءه. انفتحت أمامهما غرفة صغيرة تخرج منها ثلاثة مجازات توجه باراباس نحو أحدها، وعند المدخل تمتم بكلمة السر فخرج من الظل رجل يتدلى من حزامه خنجر.

بعد أن مشيا في المجاز نحو خمسين متراً، ثم انعطفا، وصلا إلى غرفة كان فيها نحو عشرة رجال، وكانت النار قد أشعلت وإلى جانبها طيور منتوفة تنتظر أن تُشوى.

أثار دخول باراباس من الفرح أقل مما أثاره من توتر ينم عن احترام. ونهض من كانوا قاعدين.

«مرحباً ـ يا رفاق».

ردوا عليه بتحيات خافتة قليلاً.

«جئتكم بعضو جديد هو ابن سمعان الذي مات على الصليب مع يهوذا. لقد سبق له أن ساعدنا عدة مرات، بنقل الرسائل. فيجب إيجاد مكان له. اهتم أنت به يا يوحنان.

انفصل عن المجموعة رجل وقال ليهوذا: «إتبعني».

كان مجاز آخر يفضي إلى غرفة أصغر. وكانت هناك حصائر مفروشة على الأرض.

«مطرحك هنا».

أنزل يهوذا كيسه. كان هناك بضعة شبان استولى عليهم النعاس، ودمدم أحدهم وهو ينزاح قليلاً. وبات لا يهتم به أحد.

عندما استيقظ في صباح اليوم التالي وهو يرتجف من البرد كان باراباس قد رحل. طلب منه الطاهي أن يفصّ قرون الفول. أراد يهوذا أن يحتجّ لأنه يعتبر نفسه مقاتلاً. لكن يد الآخر انكمشت على كتفه. كانت النيران قد أُطفئت، وكانت تشيع في الكهف رائحة رجال نائمين كريهة.

انكب يهوذا على كومة الفول وهو يحس بكثير من الإهانة: فإن مكانة أبيه في حركة الجولاني، وكذلك الطريقة التي توسل بها إليه باراباس كي ينضم إليهم، جعلتاه يعتقد بأنه سيُستقبل كشخصية هامة. وها هو يرى أن الأمر مختلف تماماً.

كُلف على مدى أسبوع بجميع الأعمال المنزلية الممكنة. فقام بإعداد الطعام (على نحوٍ سيء، لكن الرجال كانوا على ما يبدو يعلقون على الكمية أهمية أكثر منها على النوعية). وحاول أن ينظف الحصائر التي كانت رائحة العفونة المنبعثة منها تملأ جو المكان، ورفع بواسطة الحبل كيساً معلقاً على ظهره يحتوي على الفضلات التي يجب طمرها بحيث لا ترشد إلى موقع الكهف. واكتشف أعمالاً كانت أمه تقوم بها نيابة عنه: رتق الجبّات، وتكنيس الأرض، وإشعال النار... وكان هناك ثلاثة فتيان في مثل سنه يقومون بالأعمال ذاتها. كانوا قليلاً ما يكلمونه. في الليل، كانوا يلعبون لعبة الكِعاب أو لعبة الغميضة التي تقضي بأن تُعصب عينا أحدهم ويكون عليه أن يحزر من الذي ضربه. كان يستيقظ كل صباح متجمداً من شدة البرد، فكان عليه أن يتعود على ليالي اليهودية التي تغدو باردة جداً مع اقتراب الفجر، قبل أن يعود القيظ فيسود من جديد في النهار.

في ليلته الرابعة، أوقفت صرخة كل النشاطات.

«هناك دورية في الوادي. خبئوا كل شيء، أطفئوا النيران».

وقامت في الحال حركة كبيرة في الكهف. وأطفئت النيران، وامتشق كل واحد سلاحه، واتخذوا وضع تأهب للقتال.

«ماذا يجري؟ ـ سأل يهوذا.

ـ أشار أحد الحراس إلى وجود رومان. إنهم يقومون غالباً بدوريات انطلاقاً من حامية أريحا. فنتخذ كل مرة وضعية التأهب حتى إشعارنا برحيلهم».

ورحلوا بعد لحظات. فأشعلت النيران من جديد ووضعت فوقها قدر لطهو الحساء. قعد الرجال وتناولوا الطعام في صمت. ثم سحب بعضهم من جبته قطع نرد وراحوا يلعبون. أما يهوذا فعاد إلى حصيرته وغرق في نوم عميق.

كانت الحياة رتيبة، لا يتخللها سوى الأعمال اليومية والمشاحنات بين رجال لا عمل لهم. وخشي يهوذا أن يموت من الضجر، وكانت رغبة مقاتلة الرومان تحرمه أحياناً من النوم. كان بعض الرجال يغيبون بين حين وآخر ثم يعودون بعد يومين أو ثلاثة. فكان يهوذا وأصحابه يتساءلون كثيراً عما يكون قد فعله هؤلاء الرجال، ويتخيلونهم يحققون مآثر عظيمة. ثم أخذوا هم أيضاً يتغيبون بعد شهر.

ماذا كان يفعل هناك في الحقيقة؟ كان يتعلم. كان يتعلم كيف يحجب وجهه بطرف عباءته كي يحتمي من الرمل الذي يتغلغل في كل مكان فيسدّ منخريه ويتسلل بين أسنانه. كان يتعلم كيف يبني ملجأ بسيطاً بواسطة أغصان الشجر كي يحتمي من البرد في الليل، وكيف يحترم سيدي الصحراء، النسر وابن آوى، دون أن يخشاهما...

كان يأتيهم في الليل رجل، مختلف كل مرة، ليعطيهم نصائح. كان يوصيهم ـ كان في هذا شيء من السخرية نظراً لكثرة عدد الأميين بينهم ـ بأن لا يكتبوا شيئاً، وأن يفكروا بالأماكن تحت أسماء خيالية، وأن لا يستغربوا عدم فهمهم للأمور التي يطلب منهم القيام بها: حياة الجميع

تتوقف حقاً على عدم قدرتهم على الكلام في حال اعتقالهم. وكان يوصيهم بأن عليهم، إذا وقعوا في قبضة العدو، أن يلوذوا بالصمت في كل الظروف، وأن لا ينساقوا إلى مجادلات تقودهم إلى البوح بتفاصيل يستفيد منها العدو فيما هم يحاولون إقناعه. وكان يوصيهم أخيراً بأن يظلوا بسطاء وغير متصنعين، وأن لا ينساقوا مع الرغبة في الظهور بمظهر المتآمرين. وأفهمهم أيضاً أن الرومان متفوقون في القتال: الانضباط، وترتيب الفِرق في المعركة، واستعمال السيف القصير ذي الحدين... وبيّن لهم أنه بالنظر إلى ذلك، يجب بأي ثمن تحاشي المواجهات معهم والسعي إلى إيجاد ظروف تسمح لهم بأن يفرضوا قواعدهم هم.

وجاءت ليلة مختلفة عن سائر الليالي. فقد عاد موشيه وإسحق، وهما شابان من إفريم، بجرتين كبيرتين مملوءتين بشراب كحولي قوي مستخرج من العنب. فذبحوا نحو دزينة من الطيور، ثم أفرغوها من دمها وطمروا القسم الأكبر منه في الرمل، وأزالوا ما تبقى منه بنقع الطيور في دست مملوء بالماء، كما تفرض الشريعة. وراحوا يشربون. وعندما تدخل اسماعيل، أحد مسؤولي المجموعة، رفضوا الإصغاء إليه قائلين إنه يحق لباراباس وحده أن يعطيهم أوامر.

«باراباس خاض قتالاً» ـ صاح موشيه الذي اشتهر بخوض مشاجرات بين سكارى.

فاقترب يهوذا من الرجال ضاحكاً. كان يعلم ما النبيذ، لكنه لم يذقه قط إلا في تلك الليلة عند الرومان، التي ما زال يحس برعشة عند التفكير بها.

ضحك موشيه وإرميا قائلين: «جرعة يا فتى».

وشرب يهوذا، فأحس بنار تحرق حلقه، فقطّب جبينه. لم يكن الشراب طيباً، لكنه أرغم نفسه على رشف جرعة ثانية.

«إيه، أترك شيئاً لغيرك».

وأخذ موشيه الابريق منه فانسكب شيء من الخمر على جبته، فراح الجميع يضحكون.

أخذ يهوذا يحس بأنه غير مرتاح، لكنه ثابر على الشرب متعمداً حتى الثمالة والتخلص من الذكرى التي تعذبه. كان الآخرون ينظرون إليه، لاهين وساخرين من جهوده التي لا يفهمونها.

وفجأة بات يهوذا ثملاً. فأخذ يضحك، ويحكي قصصاً مضحكة، ويقول كلاماً لا معنى له. لقد غمره شعور نادر بالارتياح. فراح يتطلع إلى رفاقه ضاحكاً، وشعر لأول مرة بأنه واحد منهم.

وقبل أن يذهب لينام تقيأ في إحدى زوايا الكهف، واضطر أن ينظف المكان عندما استيقظ في اليوم التالي. وقد بدا جذلاناً بالرغم من ذلك، إذ أنه شعر، رغم السخرية التي تعرض لها، بأنه بات حقاً واحداً من المجموعة. وتغيرت نظرته حتى إلى ما فعل به الرومان.

أخيراً، عاد باراباس، ودخل المطبخ حيث كان الفتى واثنان من المتطوعين حديثاً ينظفون دستاً كبيراً.

«ماذا أيها المقاتل الشاب... هل هناك تقدم؟».

كان باراباس يحاول أن يجد كلمة لكل واحد. وكان حضوره يحدث توتراً غير مألوف عند الجميع، فلا يعود أي منهم يتصرف في حضوره كما يتصرف في غيابه.

خرج يهوذا مع باراباس. وبهرت الشمس بصره فراحت أجفانه تتراقص. كان لم يعد يرى نور النهار تقريباً منذ أسبوع. استدار باراباس نحوه وصفعه قبل أن يتمكن من حماية وجهه. وكان وقع المفاجأة عليه أشد من وقع الألم.

«هذا لأنك سكرت تلك الليلة ولوثت المكان الذي تنام فيه. يجب أن تكون أنت نفسك في كل حين. وإذا ما تهاملت فقد تقع الكارثة على الآخرين. أنت الآن عضو في مجموعة وليس من حقك أن تتصرف ضد

مصلحتها. قد تقودك الظروف يوماً إلى التضحية بنفسك في سبيلها. ولن تفلح في ذلك ما دمت تتصرف على هذا النحو».

لم يكن عند يهوذا ما يجيب به. وأسرع باراباس، الذي يتقن مناوبة الحار والبارد، للانتقال إلى موضوع آخر.

«أنت تعنى منذ ثمانية أيام بالأعمال المنزلية. وقد أديت مهمتك دون تذمر وهذا جيد. أنت تعلم أنني لم آتِ بك إلى هنا كي تكون عبداً لنا. بعد بضعة أيام ستباشر التدرب لكي تصبح مقاتلاً».

وهمّ بأن يعود إلى الكهف ثم توقف قائلاً:

«التقيت بأمك. إنها تقبلك».

وصل نتنائيل في اليوم التالي وكان يبدو ضائعاً كما كان يهوذا يوم وصوله. كان أطول قامة وأقوى بنية وكانت إحدى أسنانه الأمامية تحمل شقاً في وسطها. كان شعره الأشقر ينهدل بكثافة على كتفيه. استقبله الفتيان بحذر، وكان يهوذا مسروراً بأن يحذو حذوهم فأدار له ظهره. قعد الوافد الجديد في المهجع دون أن ينطق بكلمة.

ابتدأت لعبة الكعاب في الليل بغياب يهوذا الذي كان مكلفاً بالاعتناء بالنار. اقترب الوافد الجديد من الموقد وابتسم له ابتسامة خفيفة وهو يمد يديه صوب النار. كان يهوذا لا يخشى شيئاً قدر خشيته ساعة الوطاويط الرمادية، فأحس برغبة في مبادلته بضع كلمات، فقام الآخر بحركة مذهلة: أخرج من كيسه لفافة نصوص وراح يقرأ. فدنا منه يهوذا سائلاً: «ما هذا؟

ـ هذا كلام الله.

ـ وهو مكتوب بالعبرية؟

ـ نعم.

ـ وهل تفهمها؟ أنا كنت لا أفهم شيئاً في الكنيس.

ـ ليس الأمر صعباً. لكن يجب أن تتعلم.

ـ كيف تعرف ذلك؟

ـ كان والدي إماماً.

ـ أين؟

ـ في عسقلان، على شاطىء البحر، صوب الجنوب.

ـ حسناً...».

كان الوافد الجديد رقيق الصوت ويجيب بلطف. كان عدد من يعرفون القراءة أو الكتابة قليلاً جداً في المجموعة. كان معظمهم من عائلات متواضعة، ولم يحصّل تعليماً متقدماً بينهم إلا بضعة كتبة ولاوي واحد أو اثنان.

«ما اسمك؟

ـ نتنائيل

ـ إسمي يهوذا وأنا من الجليل. أبي قاتل مع يهوذا الجولاني. جئت إلى هنا مع باراباس.

كانت عينا يهوذا لا تفارقان اللفافة التي يحملها نتنائيل.

«ماذا تقول هذه؟

ـ إنها قصة نوح وكيف أنقذ الأرض ليسلمها إلى الله. إنها تشبه قصتنا نحن هنا... إسمع.

وتلا عليه مقطعاً. كان صوته دافئاً، وكان يقرأ بسهولة، ولا يجد بعض الصعوبة أحياناً إلا في الترجمة من العبرية إلى الآرامية لأجل يهوذا.

ـ هذا جميل، لكن ما الفائدة منه؟

ـ إنه مفيد لفهم كل شيء. لماذا يجب أن يرجع الله. لماذا نحن هنا. لماذا توجد كل هذه الآلام. لماذا لا يقدر الشعب اليهودي أن يجد السلام؟ لماذا حلت بنا النكبة بعد سبي بابل، ولماذا حلت بنا النكبة بعد أن أنقذنا قورش؟ لماذا السلوقيون، لماذا المكابيون؟».

كانت هذه الأسماء لا تعني الكثير ليهوذا. وبسط نتنائيل اللفافة ودلّه على المواضع التي كتبت فيها.

هل تقدر أن تعلمني؟ سأل يهوذا

ـ بالتأكيد ـ أجابه نتنائيل.

وتلقى في المساء أمثولته الأولى.

وسرعان ما باتا متلازمين. فقد وجد كل منهما في الآخر ما كان ينقصه: نتنائيل وجد أذناً، ويهوذا وجد صوتاً. وقد جمعت بينهما طفولتهما المختلفة وحدادهما المشترك: فقد نتنائيل اثنين من أعمامه أُعدما على أثر انتفاضة الجولاني. وقد أمضى صباه في درس النصوص. كان والده يريده أن يكون متعلماً.

«تعني أنك كنت تمضي حياتك في قراءة اللفافات؟

ـ ليس قراءتها فقط بل ودرسها.

ـ ولم تكن تضجر من ذلك؟

ـ بل على العكس، كان ذلك مشوقاً جداً.

ـ لكنك كنت تلهو مع ذلك، وكان لك أصدقاء؟».

قهقه نتنائيل.

«نعم بالتأكيد. وما كانت صنعة أبيك؟

ـ كان فاخورياً. وأنا مثله.

قال هذا باعتزاز وراح يحكي قصة تدربه.

«وأنا مثلك. كنت أقرأ كما كنت أنت تصنع مزهريات.

ـ لكن عملي كان ذا فائدة».

أصبحت ملامح نتنائيل أكثر رصانة. كان قد شغف منذ صغره بما يطلب منه أن يفعل. وقد انكب طويلاً على قراءة التوراة، دون أن يحد هذا الشغف من حيويته. كان والده فقيهاً بسيطاً وكان يحلم بأن يرى ابنه كاهناً. فقد كان أحد أعمامه كاهناً وإن لم يكن ذا رتبة رفيعة جداً في التراتبية: كان من فئة آبيا، وهي الثامنة بين الفئات الأربع والعشرين، وهذه مرتبة محترمة، لا أكثر. زاره نتنائيل في أورشليم وهو ينوي السير على خطاه. لكن ما اكتشفه في عائلات كبار الكهنة، وفي العلاقات

بالهيكل، وفي جور العشور المجباة صرفه عن ذلك فعاد إلى بيت أبيه. وحتى لو كان الكهنة لا يتورعون عن استغلال الفلاحين، ويمارسون الربى، ويمسكون الخبز عن المتسول، ويدوسون مبادىء الفضيلة التي يطلبون من الغير احترامها، فقد كان يشعر بأنه أكثر تسامحاً مع ضلالات أناس، كانوا على الأقل على صلة بمن يضللون، منه مع لؤم الكهنة الخفي. رفض إذن أن يعود إلى أورشليم، صامداً في وجه كل الذين اعتبروا أن رحلته كانت فاشلة.

واجتذبته النصوص من جديد. وكان كل ما تقدم في درسها ازدادت قناعته بقرب نهاية العالم، وبأن الله لا يمكن أن يرضى بديمومة الحالة السائدة حوله، على الأرض. وكان المرشدون الذين يستمع إليهم مجمعين تقريباً على ذلك. وعندما نشبت انتفاضة الجولاني اعتقد أن الوقت قد حان وراح ينتظره بحماس متزايد. إلا أنه عندما حطم القمع قوات الانتفاضة أدرك أن عليه أن ينخرط في الكفاح. فالتحق بجماعة عميه التي لم تستسلم.

* * *

بعد بضعة أيام، بدأ تدريب نحو عشرة فتيان وبينهم يهوذا ونتنائيل. أعطيت لهم سيوف وخناجر. وبيّن لهم باراباس، بواسطة دُمى تمثل رجالاً من القش كيف يمكن تمزيق أحشاء عدوهم بطعنة واحدة.

«هذه ضربة فعالة وموجعة جداً في آن. فالرجل الذي طعنتموه ينشقّ بطنه وتخرج أمعاؤه ويتألم كثيراً.

إشمأز يهوذا لدى التفكير بهذا الألم المفروض عمداً، وبذلك الجرح الكريه. وفي العشية، باح لنتنائيل بذلك بينما كانا يعملان في المطبخ.

«إنه يتعمد ذلك. فهو يريد أن يؤثر عليكم. لست الوحيد الذي أحس بانزعاج. فهارون كاد ينسحب. لا تدع ذلك يظهر عليك إن كنت تريد

الاستمرار. باراباس شخص استفزازي، يريد إبعاد من يمكن أن يتقاعسوا يوماً ما».

أخذ يهوذا بنصيحة صاحبه. فلم يبدُ عليه في الأيام التالية أي قرف، حتى عندما راح باراباس يصف لهم عملهم في أشد صوره قذارة.

اكتسبوا سريعاً المهارة الضرورية لحسن استعمال الخنجر. لكن حسن استعمال السيف ذي الحدين استغرق وقتاً أطول. في اليوم الثاني، بالغ يهوذا في الحماسة بلا شك فأصاب ذراع أحد رفاقه بجرح عميق. وفي مرة ثانية، ثلم أحد السيوف، فجاء التأنيب أشد صرامة، نظراً لندرة السلاح.

«يجب أن تعتني بسيفك اعتناءك بحياتك. أنت، يمكن الاستعاضة عنك، أما هو، فلا» ـ صاح به حزقيال.

كان النقص في السلاح كبيراً، فلم يكن هناك سوى عشرة سيوف لأربعين رجلاً، يضاف إليها أسلحة حرفية: خنجر لكل واحد، ومقاليع، وأقواس كان بعضهم يمضي أيامه في صنعها، فيخرج لجلب الخشب، ثم يجففه، ويشدّه ويطرّيه، ثم يكيفه حسب مختلف أنواع السهام أو الحجارة.

المقلاع سلاح خفيف بالتأكيد، ذخيرته متوفرة دائماً وقادرة على شق جمجمة، وقد تبين أن لا بديل له في مواجهة التجهيزات الرومانية الثقيلة. كان كل الأولاد قد استعملوه لاصطياد العصافير حيث برع بعضهم في ذلك وهو لا يزال صغيراً. كان نتنائيل وبرتلماوس قد استنبطا طريقة للقذف المزدوج: بعد قذف الحجر الأول كان الواحد منهما يلتقط المقلاع عند ارتداده ويلقمه حجراً ثانياً ويقذفه. في بادىء الأمر كان الحجر الأول يفقد شيئاً من دقة تصويبه وكان الثاني ينزلق أحياناً من مكانه. غير أنهما، بعد أن أتقنا الطريقة، باتا قادرين على إتباع القذف الضعيف بآخر يجهز على الفريسة المترنحة بلا صعوبة.

تدرب الفتيان حتى تعبوا. بات يهوذا يجيد استعمال الخنجر والمقلاع دون السيف، ولم يفهم لماذا لا يزال يفرض عليهم بقر بطون الرجال

الدمى. كان يضاف إلى هذا التدريب التقني تمرين عضلي مناسب: جري طويل في الجبل، مسيرات شاقة، أعمال جرّ، تسلّق. وتعلموا أيضاً كيفية الاهتداء إلى طريقهم في تشابك الكهوف والمضايق حيث سيكون عليهم أن يكمنوا منذ بدء العمليات. أحس يهوذا، الذي لم يعرف يوماً الاستسلام للبلادة، بأن جسده يتبدل، يزداد صلابة، ويكبر. وكان يتذكر، عندما يقف أمام بركة ماء أو سطل من الماء، السخرية التي كان يتعرض لها في طفولته، ويضحك مرتاحاً. كان يلوح له أنه قادر على المضي إلى أبعد. ولزمن أطول. كان يطيب له بنوع خاص أن يعدو، وسرعان ما أمسى أفضل عداء في فريقه، وكان غالباً ما يبلغ منتهى الجهد، فيصل إلى لحظة يتجاوز فيها التعب، ويروح يعدو بصورة آلية.

ثم خطا خطوة أخرى، أكثر غموضاً، عندما استيقظ صباح أحد الأيام، فوجد جبته مبتلةً بسائل غريب يجعل النسيج قاسياً حين يجف. أخبر أصحابه بالأمر فراحوا يضحكون وكان في ضحكهم نوع من التواطؤ راق له. وبعد يومين علمه هارون كيف يجدد الحصول على ذلك بيده. على أن اللذة التي حصل عليها من هذا العمل بدت له أقل بكثير مما وصفه صاحبه. لكنه مع ذلك عاود التجربة بين حين وآخر، خصوصاً عندما كان فريق الفتيان يستسلم للأحلام التي يرويها إرميا، وهو راوية موهوب، فيمارسونها بصورة جماعية في ظل ضجر الليالي الطويلة. إلا أنه، حتى في لحظات شعوره العميق بالوحدة، لم يقبل بأن يلمسه أحد، الأمر الذي كان كثيرون أقل تشدداً حياله.

استغرق التدريب شهراً طويلاً لا نهاية له إلى أن سمع في إحدى العشايا من باراباس الكلمات التي ينتظرها من زمان طويل. فقد عاد باراباس منذ يومين من إحدى تلك الرحلات التي لا يحدث عنها أحداً، واختلى بالفتى وقال له:

«شاهدتك وأنت تقاتل. أعتقد أنك جاهز. ستتمكن الآن من الانتقال إلى العمل».

الفصل الخامس

كانا يكمنان منذ ساعتين فوق أكمة عندما لاح في الأفق غبار قليل انقشع عن اقتراب عدة فرسان.

«ها هم».

انقلب باراباس على نفسه وأرسل زفرة. كان الانبطاح يتعبه فكان يحس بحاجة دائمة إلى التحرك.

كان يهوذا جامداً إلى جانبه.

«إنهم ستة، حول عربة. الفرسان هم من الرومان.

ـ أنظر جيداً الى السائق، فهو الذي نريد مهاجمته. إنه جابي ضرائب. أبوه روماني متزوج من إحدى نسائنا، وقد رزق بثلاثة أولاد هذا كبيرهم. إنه لم يرتدْ قط الأوساط اليهودية، ولست حتى متأكداً من أنه مختون. وهو يكرم بلا ريب آلهة الوثنيين».

كان باراباس لا يعرف شيئاً من هذا على الاطلاق، لكنه كان يوقد الحقد عند يهوذا.

«بواسطته سنعطيهم درساً».

صمت لحظة ونظر إلى يهوذا:

«أنت ستعطيهم درساً».

فهم يهوذا ما يريد.

«تريد أن... أن أقتله؟

ـ هل في هذا مشكلة ما؟».

أحس الفتى بقشعريرة باردة تخترق جسده.

«لا، لا. أنا... صحبتك لأجل هذا.

ـ إذن تفرس فيه جيداً حين يمر. اسمه جويل.

كان يهوذا يستكشف الأفق. وكانت المجموعة الصغيرة تقترب.

«هذا المال سُرق من أهلنا. فيجب أن نستعيده».

لكن يهوذا لم يعد يسمع. كان جامداً يتفحص الموكب الذي يقترب، محاولاً أن يرسم في ذاكرته ملامح كان على أي حال أكثر بعداً من أن يستطيع تبينها. وأحس بارتياح إلى هذا الجهل الذي يحرمه من رسم وجه لضحيته.

كرر باراباس شرح الخطة للمرة العشرين. وتنهد يهوذا، فانتهره رئيسه غاضباً:

«أتظن أن هذا كله ليس بذي نفع؟ أتعلم ما ستكون قميناً بفعله متى أزفت الساعة؟ ما من أحد يعرف نفسه، حتى أمثالي، أولئك الذين قاموا عشر مرات بهذا العمل. فلنكرر إذن. ما ستفعل؟».

فاستجاب يهوذا صاغراً.

«ستعرج العربة على بيت أورون في ساعة متأخرة من الليل، بعد أن تجبي الضرائب فيما حول عمواس وأورشليم. سيعود الرومان إلى ثكنة عمواس وستبقى العربة طوال الليل عند ابن عم جويل تحت حراسة رجلين فقط. وهي لن تبلغ آخر رحلتها إلا في اليوم التالي. سنسطو عليها هذه الليلة وهي عند ابن عم جويل. إليك يا موشيه».

كان موشيه قد تدرب بصحبة يهوذا ونتنائيل، وأثبت هو أيضاً أنه من الأكثر مهارة في استعمال السلاح.

«أقتل أول واحد يفتح لي الباب بعد أن أنتحل صفة رسول من الحامية الرومانية، ثم يندفع الآخرون.

ـ يجب أن تتصرفوا بكثير من السرعة. إن عامل المباغتة وحده سيضمن لنا النجاح. وبعد ذلك؟

راح موشيه يرسم على الرمل بإصبعه خريطة البيت التي جاءهم بها أحد المخبرين الذي كان تاجراً من بيت أورون يسلّم بضاعة لحامية عمواس.

سنكون خمسة ندخل فناء الدار. أتولى أنا وإرميا وإسحق أمر الجنديين، ويدخل يهوذا ونتنائيل الغرفة. يتولى يهوذا أمر جويل فيما يسيطر نتنائيل على ابن عمه وعلى عائلته إذا اقتضى الأمر.

ـ لا «سيطرة» بل «قتل». يجب ترويعهم. لا يجوز أن ينجو المتعاون مع العدو بجلده. قد نرحم العائلة كحد أقصى. سيكون دوي العملية أشد وقعاً إذا رواها شهود عيان. لكن لا تحجموا عن ترك آثار للعنف. حطموا، أهدموا، أحرقوا، إذا أتيح لكم الوقت لذلك..

وأضاف موشيه:

ـ بعد قتل الجنديين سنذهب لجلب الصندوق ونأخذه...

ـ الصندوق أو ما في الصندوق.

ـ ثم نرحل.

ـ نكون هكذا قد وجهنا ضربة مزدوجة: التأثير في الأذهان، وتعويم ماليتنا التي هي بحاجة إلى ذلك هذه خطة بسيطة. فلينفذ كل واحد منكم ما يجب أن ينفذ، وهكذا ستنجح العملية».

عند هبوط الليل أخذ يهوذا يتمرن من جديد على استعمال الخنجر، لكن نتنائيل، الذي كان قد طلب أن ينضم إلى العملية لعلمه بأنها أول عملية يشارك فيها صديقه، أفهمه أن هذا لم يعد بذي فائدة. لم يستطع أن ينام جيداً، بل كان يستيقظ كل ربع ساعة متعرقاً في معظم الأحيان.

خرجوا في اليوم التالي قاصدين بيت أورون، التي هي مجموعة متراصة من بيوت صغيرة، مكعبة، بيضاء. أخذوا معهم حمارين وجملاً وبضعة أكياس للإيهام بأنهم من التجار. كان يهوذا يمشي بصعوبة، من

جراء الأرق الذي أصابه الليلة الفائتة. وواجهوا بعض المشاكل مع الجمل الذي كان في حالة نزو، وكان على موشيه أن يلاحظ، عندما سرجه، أن حنكه منتفخ. لكن اسحق أخرج من كيسه قارورة فيها زيت معطّر ومسح خطم البهيمة بشيء منه، فاستعادت هدوءها. كانت الخناجر مخبأة في كيس من الحبوب، على ظهر حمار. لم يصادفوا جنوداً من الرومان إلا في جوار بيت أورون، وقد عبروا الحاجز، الذي بات شيئاً مألوفاً، دون صعوبة.

كانت الساعات الأخيرة هي الأصعب. فقد كانوا في المدينة ينتظرون في نزل حيث لا يجرؤون على الكلام بصوت عال ولا يستطيعون أن يشربوا. وأحس يهوذا بأنه على وشك الاصابة بالإغماء، فخرج، ودنا من البئر وغسل فمه وشرب. وعند هبوط الليل عاودته هبة من الحيوية دون أن تمحو خوفه.

اقتربوا من البيت الذي نزل فيه جويل ومعه حمولته وحارساه بعد أن ربطوا مطاياهم إلى أشجار الأقاقيا غير البعيدة عن البيت. كان ضوء القمر شاحباً والليل يحميهم، ورأى باراباس في ذلك فألاً حسناً.

اختبأوا على جانبي المدخل. طرق موشيه الباب. وجرى كل شيء بعد ذلك بسرعة. وسُمع صوت جندي:

«من الطارق؟».

أجاب موشيه بلغة لاتينية لا غبار عليها بعبارة تعلم النطق بها حتى أتقنها تماماً:

«أنا مبعوث من قبل لوسيوس. إفتح»..

ما كاد الباب ينفتح قليلاً حتى استل موشيه خنجره من حزامه ودفع الباب دفعة قوية بكتفه. فاندفع الأربعة الآخرون إلى الداخل. وعندما وصلوا إلى صحن الدار كان جسد الروماني مطروحاً على الأرض ولا يزال يختلج. اندفع إرميا وإسحق نحو الغرفة التي خرج منها الجندي الآخر بعد أن سمع الجلبة فهجما عليه وأردياه قتيلاً قبل أن يتمكن من

الصياح. كان نتنائيل قد توجه إلى جهة مقابلة، نحو السطح، ويهوذا وراءه.

«إذهب إلى هناك».

ودلّه على الغرفة التي كان ينام فيها الجابي ثم توجه هو صوب غرفة صاحب البيت.

لم يكن الباب مغلقاً، وأفاق الرجل عند دخول يهوذا الغرفة.

«ما... ماذا يجري؟ من أنت؟»: تمكن من النطق بصعوبة بهذه الكلمات.

انقض يهوذا عليه وهو في الفراش، وشمّ رائحة خامزة تنبعث من الرجل الذي لم تتح له الفرصة لاستعادة وعيه كاملاً، وأحس بحرارة الجسد الذي كان يسحقه. واستل خنجره وطعنه، فأحس بمقاومة فزاد الضغط بالخنجر، فزالت المقاومة وأحس بسائل ساخن يتغلغل بين أصابعه.

أطلق الرجل صرخة، ضعيفة كصرخة فأر وقع في فخ. لكنه تمكن من صدّ يهوذا وسقط على الأرض. فتأفف يهوذا وانقض عليه مجدداً. كان يحاول تجميده، لكن الرجل كان يتحرك أكثر فأكثر، محاولاً إبعاده عنه. واشتبك الاثنان وانفصلا عدة مرات، في رقصة جنونية. راح الدم النازف من جرح الجابي يسيل على الأرض، فكان الاثنان ينزلقان عليه دون أن يتمكنا من الاشتباك.

والتقت عينا يهوذا وعينا عدوه، الذي أخذ الرعب منه كل مأخذ فلم يعد قادراً حتى على الصراخ. كان جويل شاحباً، زائغ البصر، ويداه تتخبطان بانفعال شديد أمام وجهه. كان يحاول أن يقول شيئاً، لكن لم يخرج من فمه أي صوت.

وفجأة ضرب خنجر يهوذا بقدمه فأرسله بعيداً. فسدد إليه يهوذا بقبضته لكمة جعلت رأسه ينكفىء إلى الوراء، ثم طوق عنقه بيديه. لكن قدميه كانتا تنزلقان في الدم فلا تسمحان له بتشديد الخناق عليه. وفاحت رائحة كريهة، فلاحظ أن ضحيته تفرغ أحشاءها من شدة الخوف.

وعاد يشدد الخناق عليه، فأخذ هذا يحس بالاختناق وأظافره تخدش ذراع يهوذا، فيما كانت عيناه تنتفخان ويميل لونه إلى الزرقة.

أخذ يهوذا يشعر بالألم في أصابعه من شدة الضغط. كان يحاول جاهداً أن لا ينزلق، ويحس بتشنج عضلات ساقيه. أخذت ضحيته تتنفس بصعوبة متزايدة، وبصورة مشوشة. وأحس أخيراً بارتخاء الجسد الذي بين يديه، فتوقف عن الضغط. في تلك اللحظة بدا كأن جويل يستعيد أنفاسه، وشهق شهقة كبيرة طلباً للهواء. فاضطر يهوذا أن يشدد عليه الخناق مجدداً. ولم يتركه إلا بعد أن همد الجسد وظل عدة دقائق بلا حراك.

كان أسفل جبته مجبولاً بالدم، وكان نعلاه ملوثين ببراز الضحية، وكانت الرائحة الكريهة تثير عنده الغثيان. فاستند إلى الحائط وتقيأ عدة مرات، لكن معدته لم تستكن فراح يتقيأ المرارة. ثم خرج.

المشهد الذي لاح له أن يدوم ساعات لم يدم في الواقع إلا نحو عشر دقائق. لكن هذه كانت كافية لإثارة قلق رفاقه وإن كانت غير كافية لتعريض العملية للخطر. كان نتنائيل ينتظر يهوذا في الخارج، وأدرك مدى تأثره منذ أن رآه، فقال له:

«قتل إنسان عمل شاق، أليس كذلك؟».

حاول يهوذا أن يبتسم فلم يتمكن. فعانقه نتنائيل.

«هيا. أنت فعلت ما يجب أن تفعل. لا أحد يحب ذلك. لكنه ضروري».

ونزلا. كان نتنائيل قد قتل ابن عم جويل وزوجته. نفذ هذا العمل بسرعة، والطفل الذي كان نائماً الى جانبهما لم يستيقظ.

والتقيا في صحن الدار بالثلاثة الآخرين. كان بين ذراعي باراباس كيس مملوء بالمال الذي أخذه من الصندوق.

«سيساعدنا هذا على العيش فترة من الزمن. هيا، أخرجوا سريعاً، سأضرم النار في البيت وألحق بكما.

قاطعه نتنائيل قائلاً: «يوجد طفل فوق.

ـ كان يجب قتله. سقياً لهذا الطفل. سنرى إن كان محظوظاً. هيا. أسرعوا».

كان الحماران والجمل في مكانها، ولم يستغرق تحميلها بالأكياس سوى لحظة. وانطلقوا متعمدين عدم المبالغة في السرعة.

ثم شاهدوا ضوءاً يرتفع على الأفق.

«ها هو قد أضرم النار في الدار».

وانضم إليهم باراباس.

«سنذهب إلى سمعان. إنه ينتظرنا».

أدخلوا البهائم إلى زريبة البيت، وأنزلوا الأكياس وخبأوها في هري تحت القش.

«غداً سيستنفر الرومان، فسنعود لنأخذ المال بعد أسبوع أو اثنين».

ناموا في جوار الأكياس المخبأة. ولم يغمض ليهوذا جفن إلا في ساعة متأخرة. كانت عينا ضحيته تحملقان فيه حتى الفجر.

لم تكن العودة بمثل السهولة المتوقعة. فقد أوقفتهم دورية رومانية، وكان الجنود شديدي الارتياب، لكنهم أخلوا سبيلهم في آخر الأمر بعد تفتيش امتعتهم تفتيشاً دقيقاً.

«يجب التحلي بالحذر عند العودة بالمال».

من حسن الطالع أن الطريق المؤدية إلى الكهوف كانت مقفرة. كان إسحق قد أصيب بجرح في قدمه من جراء قطعة من إناء مكسور في فناء بيت جويل، فعولج جرحه هذا بواسطة كمادة تحتوي على زيت الخردل والطحين.

لاحظ يهوذا منذ اليوم التالي أن موقف الآخرين منه قد تغير. فلم يعد من واجبه دوماً أن يقوم بأعمال السخرة، هذه التي بات يقوم بها آخرون. لم يحدثه أحد عما فعل، لكن أحس بأن الجميع يعرفون ذلك.

عند العشية، جاءه باراباس، وأعطاه قنديلاً.

«لقد ملأته بالزيت كي يعمل طويلاً. انتبه لكي لا يندلق منه الزيت».
كان الاثنان حبيسَي هالة القنديل، وكانا يُريان من بعيد. إلا أن أحداً لم يقترب منهما.

«لم أسألك كيف جرت الأمور».

كانت لهجته لطيفة بشكل لم يجد له يهوذا تفسيراً، وأحس بغصة تكاد تخنقه، فلم يقدم على الكلام خشية أن ينفجر بالبكاء.

«كان الأمر شاقاً؟ أنا أعرف ذلك، لأنني مررت به أنا أيضاً. لكنه كان واجباً. الدنيا لم تُصنع لأجل الضعفاء. عليك أن تكافح إن شئت نيل مبتغاك. وإذا كان مبتغاك حقاً كان الله إلى جانبك. لكنه لا يقوم بالعمل نيابة عنك. وعنفك يثبت له أنك قمين بأن تفعل ما ينتظره منه. ليس هناك شريعة غير هذه. أنت فعلت ما كان يجب أن تفعل، وستثابر على ذلك، حتى تأتيك المكافأة. وستأتيك، صدقني».

لم يقتنع يهوذا تماماً بما قال له باراباس. إلا أنه أحس لأول مرة بإعجاب حقيقي به. وجاءت صورة أبيه وامتزجت بصورة هذا القائد المتوقد حماسة.

وصل إليهم المال بعد خمسة عشر يوماً تقريباً. فقد تدنت حدة الرقابة نوعاً ما، وتوزع المالَ عشرة رجال حمل كل منهم كمية قليلة من القطع النقدية، ونجحوا في نقله. كان من الواضح أن عمليتهم أربكت الرومان، الذين كانوا لا يظنون أن البؤرة التي أطفأتها عمليات الصلب ستعاود الاضطرام بمثل هذه السرعة. فحصلت مداهمات واعتقالات في عائلات المحرضين السابقين. وبدا على باراباس سرور حقيقي عندما جمع الفريق ليحدثهم عن ذلك.

«هذا برهان على أننا أصبناهم في الصميم.

ـ لكن ألن يكون كل هذا وبالاً على أهلنا؟

ـ وبعد؟ أليس عليهم أن يشاركوا في النضال، هم أيضاً؟ نحن شعب بكامله وليس بضعة أفراد فقط».

أزعجت هذه الملاحظة نتنائيل؛ أما يهوذا، الذي كان لا يزال تحت تأثير صدمة قتل الجابي الشديدة، فأحس بأنها تنزل عن كاهله العبء الذي كان يضايقه. احتفل في اليوم التالي ببلوغه الثالثة عشرة من العمر.

استُعمل المال لشراء ما يجب لأجل صنع أسلحة. فأنشأوا في أحد الكهوف معملاً صغيراً للحدادة ومنفاخاً لأجل صنع السيوف والخناجر. كانت الحرارة في الكهف لا تطاق بحيث لا يمكن العمل فيه سوى بضع ساعات في اليوم. لكنهم حصلوا جميعاً على ما يمكنهم من الدفاع عن النفس.

وانتاب يهوذا حينذاك شعور بالاكتمال لم يعرفه من قبل. وكان يقرأ في عيون الآخرين قبولهم به، وتولد لديه انطباع أطربه وهو أنه بات عضواً في الجماعة. وبانت له الحياة في المعسكر أكثر جمالاً وترحاباً. أخذ يشعر بصدق المحيطين به، وأدرك وعيهم الواضح لأهدافهم وللوسائل المتوفرة لهم من أجل بلوغها، وطابت له تلك الثقة التي تربط بين جميع أعضاء المجموعة. ولأول مرة، أحس بأنه لا يُقهر.

بسط نتنائيل بسرعة هيمنته على المجموعة وكان هذا مدهشاً من جانب عنصر بمثل هذه الفتوة وهذا المظهر الهزيل. واكتسب تعاطف الجميع من خلال قدرته على القراءة وعلى رواية القصص، هذا النشاط الذي خصص له أكثر فأكثر من السهرات، ولفت ذكاؤه نظر المسؤولين. فنسي الجميع سنه، وكان يهوذا يفخر بكونه صديقه ويحس في الوقت ذاته بشيء من الحسد بالنسبة إلى المكانة التي يكتسبها.

وحصل أول خلاف بينه وبين باراباس عندما قال إنه ليس يكفي أن نقاتل الرومان. قال هذا في ليلة كان فيها الرجال يتأهبون للتلذذ بلحم عنزتين بريئتين اصطادوهما البارحة. فتحلقوا حول النار، ثم أخذ نتنائيل يتكلم.

«لقد سددنا ضربة إلى الرومان. هذا جيد. لكنني لا أعتقد بأننا يجب أن نكتفي بهذا النوع من الأعمال».

فصاح باراباس قائلاً:

«ولماذا؟

ـ ألست ترى ضعفنا العسكري: ليس لدينا، فيما خلا هذه الكهوف، عمق جغرافي يصعب اجتياحه، كما كان للبروتون أو الجرمان، ونحن محشورون بين ولايتين رومانيتين واسعتين هما مصر وسوريا. وما نفعله لن يجدي نفعاً إن لم نقم بتربية الناس هنا في الوقت ذاته.

ـ وماذا تريد أن تعلمهم؟ يجب أن نقاتل الرومان. هذا كل ما في الأمر».

وظن باراباس أنه ختم النقاش. لكن نتنائيل تمسك بفكرته محدثاً مفاجأة حقيقية عند العصاة، فبات الجميع أكثر إصغاءً.

«يجب أن نشرح لهم غاية عملنا، وسيكون لذلك نتائج في جميع القرى المجاورة: ستغدو حياتهم أكثر صعوبة، وستتواتر حملات التفتيش، ويتفاقم حضور الرومان، وعائلات الموجودين هنا ستعاني بلا شك من جراء أعمالنا. فإذا لم نشرح شيئاً للأهالي فإنهم سيتألبون علينا بلا شك، ويكون هذا جائراً وغير أخلاقي، كما أنه قد يزيد من مخاطر الخيانة.

سمعت بين الرجال همهمة مؤيدة.

«أظن أنهم قد يتفهموننا أكثر إذا تحدثنا إليهم بين حين وآخر.

ـ أتظن أنهم لن يتعرفوا علينا؟ هذا ما تسميه الحد من مخاطر الخيانة؟».

وضحك باراباس ضحكة عالية، موقناً أنه اجتذب أنصاره إليه. لكنه لم يسمع سوى بضع ضحكات ساخرة.

«يمكننا في البداية أن نتنكر بواسطة كوفياتنا. فالمهم هو أن يسمعوا ما نريد قوله لهم. وسنعرف سريعاً ما إذا كانوا يقبلوننا أو لا».

كانت موافقة المجموعة تبدو بديهية. وقام باراباس بمناورة تضليلية أخيرة متظاهراً بالتراجع.

«سنتكلم في الأمر لاحقاً. والآن، هاتوا هاتين العنزتين ولنأكل».

لكن نتنائيل ظل صامداً.

«أفضل أن نتكلم في الأمر قبل الانتقال إلى اللهو، وبعد ذلك سنتناول الطعام ونحن في مزاج أفضل. وبما أنني أشعر بأن الرفاق موافقون، أقترح أن نؤلف فريقاً يطوف على القرى ليشرح ما نقوم به وتثابر أنت في الوقت ذاته على مناوشة الرومان وأنا على أتم الاستعداد للسير وراءك في هذا العمل.

ـ تبدو لي هذه الفكرة طيبة. وإذا كان الجميع موافقين، فلماذا لا نجرب؟».

كان حزقيال بحاجة إلى كثير من الشجاعة كي يتكلم. إنه هو أيضاً أحد الذين نجوا من مغامرة الجولاني، وكان يحظى بسلطة معنوية على رفاقه لا يمارسها إلا بكثير من التقتير، وكان هذا يزيد من قوة موقفه. واتجهت عدة أنظار مترددة صوب باراباس، الذي بدا مغتاظاً لأن صبياً أربكه. لكنه كظم غيظه.

«نحن نعمل في سبيل الله وفي سبيل اليهود ـ أضاف نتنائيل ـ فكيف يمكن أن لا نشركهم في هذا التحرير، أن لا نشرح لهم دوافعنا؟ إنهم لم يتحركوا حتى الآن، لأن القمع في اليهودية قد حطمهم، وكذلك لأنهم لا يعرفون بالضبط لماذا نقاتل. فإذا لم نهيئهم للتغيير فلن يستطيعوا أن يساعدونا، وسيتوقفون عند مقدمات يمكن أن تكون موجعة».

أحس باراباس بأن الجو ضده. وكان حانقاً لأن شخصاً آخر استطاع أن يفرض قراراً، ولكنه في الوقت ذاته كان يتمتع من الذكاء بما يكفي كي يعرف متى يكون مخطئاً. ثم إن فكرة نتنائيل لم تكن سيئة على كل حال، ما دامت على الأقل لا تتعارض مع الوسيلة الوحيدة الباقية للقتال: إيذاء العدو.

وافق يهوذا طبعاً على أن يكون واحداً في بعثة نتنائيل، حتى وإن كان

باراباس يتردد في إيفاد مقاتلين لامعين كما صار أحدهما وكما كان يتوقع أن يصير الآخر. خرج الاثنان بعد الأصيل والتحق بهما عنصران فتيان.

«متى ستعودون؟ ـ سأل باراباس.

ـ قبل أن ينزل إيليا من السماء، إطمئن» أجابه نتنائيل مازحاً.

بعد مسير ساعتين وصلا إلى إفريم، وقد اختارها نتنائيل لأن فيها أصدقاء مستعدون لاستقبالهم. كانت الليلة ذات برودة منعشة، وكانوا يضحكون وهم في الطريق، سعداء بخروجهم من تحت هيمنة الجماعة ورئيسها.

كان صديق لنتنائيل ينتظرهم. عندما وصلوا إلى باب بيته لفوا رؤوسهم بكوفياتهم بحيث لم يعد يظهر إلا عيونهم، ودخلوا غرفة كان ينتظرهم فيها نحو عشرين شخصاً، وقدمهم صاحب البيت إلى الحاضرين. كانت تنتظرهم قطعة من لحم الغنم مطيبة بالأعشاب تمكنوا بصعوبة من أكلها بدس اليد تحت القماش. ثم أخذ نتنائيل يتكلم.

«نحن نمثل مجموعة من الرجال الذين يرفضون الخضوع للسلطة الرومانية. لقد سبق أن سددنا لهم ضربة حينما سرقنا من الجابي المال الذي أخذه منكم».

لم يحظ هذا الاعتراف إلا بقليل من التعاطف، وأحس يهوذا بالرغبة في نزع كوفيته.

«سنكثر من هذه الأعمال، وقد جئنا لنشرح لكم السبب.

الدولة الرومانية تسحقنا منذ سبعين سنة. وهي تدوس على الله. أنتم ترون هذا في كل مكان: حتى ملوكنا يبنون مسارح وملاعب. حتى كهنة الهيكل يتعاونون مع المحتل. لكن هذا لن يدوم. نحن نعلم أن المسيح سيأتي ليخلص أرض إسرائيل ويعيد بناء المملكة. فلا يسعنا أن ننتظر ولا نفعل شيئاً. نريد أن نضايق الرومان ونجعلهم يحسون بمن نحن».

لم يتأثر السامعون إلا بالكاد. فإنهم كانوا كثيراً ما يشاهدون مبشرين

ومحررين كان يلقى كل واحد منهم المصير أياه: مرجوماً أو مصلوباً.
أحس نتنائيل بتحفظهم فقرر أن يكلمهم بمزيد من الصراحة.

«هذه المهمة لا نستطيع لوحدنا أن نؤديها. فنحن نحتاج الى مساعدة، إلى نقاط اتصال، إلى أناس نختبىء عندهم، أناس يؤمنون لنا الطعام، أناس نخبىء عندهم سلاحنا ومالنا. وهؤلاء الناس سنجدهم بينكم».

هنا أبدى الحاضرون مزيداً من الانتباه.

«ستقدمون لنا هذا العون إذا شئتم. نحن لن نفرضه عليكم، ولن نستهدف إلا المتعاونين مع أعدائنا. بمعنى آخر، نحن سنسمح لكم بأن تختاروا الحياد، لكن لا الخيانة: سنعرف كيف نكون بلا رحمة مع من يخوننا».

كان يهوذا على يقين من أن باراباس ما كان ليقبل بعرض الأمور بمثل هذه الصراحة.

«لكننا نحتاج إلى مساعدتكم. وقد جئت أطلب منكم هذه المساعدة. لا ريب في أن عملنا سيسبب لكم مشاكل. ستكون هناك أعمال انتقام رومانية، وسيتعكر صفو عيشكم على الأقل. أنا لا أخفي عنكم شيئاً كما ترون. لكن فقدان هذه الطمأنينة لن يكون سوى مرحلة أولى. وعندما يأتي المسيح، عندما تصبح الانتفاضة جاهزة، ستنالون جزاء جهودكم».

ظل السامعون لا يبدون سوى القليل من الحماسة. رمق نتنائيل يهوذا بنظرة قلقة نوعاً ما، ثم عاد يقول:

«أنا لم آتِ إليكم لأجل ترويعكم، بل لكي أعرف ما تنتظرون منا ـ فإذا شئنا أن يكون عملنا مفيداً وجب عليه أن يتطابق مع ما تنتظرون منه. وجئنا أيضاً لنتكلم عنكم، عما ينزله الاحتلال بكم، ونرى معاً ما يمكن أن نفعل مما هو أوفر نفعاً وأقل خطراً».

حينئذ وقف رجل كهل وأخذ معه كل الممانعين. وعرف نتنائيل ويهوذا فيما بعد أنه الإمام.

«سأحكي لكم الآن كيف نعيش».

تكلم على مدى ساعة، واصفاً التصرفات الكيدية التي تعاني منها القرية، والضرائب التي تجب تأديتها، وقانون «الألف خطوة»، والآلهة الوثنية التي تنتصب أصنامها في المدينة، والجوع، والخوف من الحاجة... كان السامعون يزدادون حماسة كلما أفاض في الكلام، وراح كل واحد يروي قصة، ويزيح شيئاً من كربه، أو ينقل شائعة. ثم حدثهم عن معيشتهم، فوصف تجاوزات كبار الملاكين الذين يرغمون المزارعين الذين يستغلونهم على إلقاء اللوم على العمال. وحدثهم عن الشبان المتسكعين في القرى بلا عمل، منتظرين الحصول على عمل لا يأتي، وعن الضرائب التي ترهقهم فيضطرون إلى الاستدانة ويصبحون عبيداً عند دائنيهم. لم يبدر أي اعتراض من أحد، وكان الجميع مهتمين بالنقاش. انتهى الاجتماع في ساعة متأخرة من الليل، حينما قرر الخروج أولئك الذين عليهم أن ينهضوا باكراً في الصباح ليأخذوا بهائمهم إلى المرعى. ومضى نتنائيل ويهوذا سعيدين فوصلا الى المعسكر عند الفجر. أما باراباس، الذي كان يطيب لهما أن يخبراه بنجاحهما، فكان قد خرج في الليل.

الفصل السادس

كانت تلك بلا ريب أسعد الأيام التي عاشها يهوذا في مجموعة باراباس. كان يمضي في كل أسبوع ليلتين أو ثلاثاً إلى قرية ما مع نتنائيل وشاب آخر من رفاقه لكي يشرحوا للناس معنى حركتهم. وحيثما كان باراباس لا يتحدث إلا عن الكفاح، كان نتنائيل يضيف عامل التفكير وفكرة البناء بعد الهدم.

كان الناس عموماً يحسنون استقبالهم. وكانت قد انتشرت في المنطقة شائعة تقول إن رجالاً يتجولون لكي يناقشوا، فباتت اجتماعاتهم محاطة بالمخاطر.

كان الناس يقبلون أكثر فأكثر على هذه الاجتماعات. وكانوا يطرحون عليهم أسئلة متنوعة جداً. سألهم رجل مرة عما يوجد في آخر الأرض؛ وسأل آخر عما إذا كان ملائكة يقاتلون إلى جانب العصاة. وكان بعضهم يقرر الالتحاق بهم. وعادوا مرة ومعهم شابان فأغضب الأمر حزقيال، الذي كان يتولى القيادة في غياب باراباس.

«أتظنون أننا سنستطيع أن نتحمل تدفق الراغبين في الالتحاق بنا؟».

ـ سنكون دائماً بحاجة إلى رجال لكي نقاتل» ـ أجابه يهوذا بنبرة قوية.

ـ ومن يثبت لك أن الرومان لم يدسوا رجالاً لهم بين هؤلاء الجدد؟».

لم يحر يهوذا جواباً.

فقال نتنائيل موضحاً:

«هذا يعني أنهم يعرفون من نحن، وإلى أين نذهب، وأن أخبار اجتماعاتنا وصلت إلى آذانهم. أنا لا أعتقد ذلك، وعلى الأقل ليس إلى الحد الذي يحملنا على رفض الراغبين في الانضمام إلينا».

كان في تلك المقابلات الليلية لحظات هناء وحرارة تعوضهم بإيناس عن جو الكهوف القاسي والرجولي. «لماذا يعيش الانسان إن لم يكن لأجل الذين لا يعيشون؟» تمتم نتنائيل في أذن يهوذا في إحدى العشايا.

كانوا قد اعتادوا على هذا التناغم حين أخذت تظهر توترات في بعض الأماكن. فقد بدا بعض القرويين أكثر انغلاقاً وعاجزين عن تجاوز مصالحهم الصغيرة. كان هذا يثير غضب يهوذا ويجعله ميالاً إلى العنف. أما نتنائيل، فكان على الدوام هادئاً، لطيفاً، مصغياً، حتى متى كانت الحجج التي يواجَه بها لا تنم إلا عن الجشع.

«أنتم تقولون لنا إنكم تعملون لكي يرجع الله إلى إسرائيل. ويقول الرومان إنهم يجلبون لنا المدنية. فأين هي الحقيقة؟

«لا حقيقة إن كنت تفكر على هذا النحو. لا يمكن أن تكون هناك حقيقة واحدة لنا ولهم. فلك أن تختار».

ومع ذلك، كان الشك يخالج يهوذا أحياناً. وفاتح صاحبه بالأمر بينما كانا عائدين من اجتماع مضطرب.

«ألا تخشى أن نفرض عليهم آراءنا نحن بدورنا؟ نحن نرغمهم على الإسهام في تحرير لا يرغبون فيه. هذا أيضاً شكل من أشكال القهر.

ـ لماذا؟ نحن مرشدون، وندلهم على الطريق الصالحة.

ـ كيف تستطيع أن تكون واثقاً من أنها الطريق الصالحة وأنها تقود إلى الحقيقة؟ لقد أخطأ آخرون قبلك.

ـ لا يجوز أن يحملني خطأهم على الشك. أنا واثق من أن الله معنا: كل النصوص تقول ذلك.

ـ لكن ماذا لو كانت انتفاضتنا مأزقاً، كانتفاضة يهوذا؟ ماذا يجب أن نفعل آنذاك؟

ـ أن نشحذ سيوفنا من جديد».

وأرسل نتنائيل ضحكة أدرك معها يهوذا أن صاحبه صخرة صماء، وأن الشكوك التي تعتريه بعض الأحيان لا تمس رفيقه هذا، وأن ما بدا له تردداً لم يكن سوى رفض للعنف لا عدم يقين. لم تكن سلبية نتنائيل الظاهرية سوى ثمرة يقين يستحيل أن يتزعزع. ولم يستطع القول ما إذا كان هذا عامل سعد أو عامل نحس.

كان يهوذا يواظب على التدرب ما دام موجوداً في المعسكر. وقد أمسى ماهراً بنوع خاص في استعمال الخنجر بحيث بات يبقر بطن الدمية بطعنة واحدة، فكان المبتدئون يعيدون رتقها باستمرار. وكان في كل مرة يفكر بالجابي الذي لاقى كثيراً من المشقة في قتله، ويتخيل المشهد مضيفاً إليه ما يجمله.

أصبح باراباس يتغيب أكثر فأكثر. وكان يصل أحياناً إلى خورازيم ويأتيه بأخبار عن أمه وأخته. كان حرمان الفتى من مشاهدتهما يحز في نفسه بعد أن أمضى هنا ستة أشهر ولم يشترك إلا في عملية حقيقية واحدة.

كان يكبر بسرعة وكأنه يحاول أن يستلحق تأخره في النمو دفعة واحدة. اصطحبه ثلاثة مقاتلين في إحدى الليالي إلى عمواس بذريعة القيام بمهمة تموينية. فشربوا واصطحبوه إلى بيت لم يترك في مخيلته سوى ذكرى مشوشة. كان هناك امرأتان سمينتان في سن أمه. اختلى أصحابه الواحد تلو الآخر بالامرأتين وراء ستار أحمر كانت تتصاعد من خلفه ضحكات شوهها السكر فباتت أوسع دوياً. وغلبه النوم فغفا ثم صحا فوجد نفسه منبطحاً على ظهر الحمار الذي أعادهم إلى المعسكر.

ثم عاد باراباس ليعرض عليهم أمراً.

كان قد جمع نحو عشرة رجال.

«تجولت كثيراً في هذه البلاد منذ مدة».

السطوة في صوته أعادت إلى ذهن يهوذا صورة سمعان.

«يتساءل بعضكم دون شك عن الغاية الحقيقية من وجودنا هنا. نحن هنا منذ ستة أشهر قمنا في خلالها بالتدرب في ظروف قاسية، وقد أصبح عودنا صلباً. إن معظمنا باتوا جاهزين، وينضم إلينا عناصر جديدة بانتظام. ليس في وسعنا أن نجند كل هؤلاء، لكن بعضاً منهم يساعدوننا جيداً انطلاقاً من القرى التي عادوا إليها. علينا الآن أن نضرب ضربة كبيرة. سبق لنا أن سرقنا الضرائب، وعلينا الآن أن ننظر إلى أبعد، أن نبشر الرومان بأن حكمهم لهذه الأرض يصل إلى نهايته، وأن نتزود بما لا نزال في حاجة إليه. سنهاجم مخزن الأسلحة في أريحا».

دبت الحماسة في رؤوس كل الرجال الحاضرين، وإن كانوا قد فوجئوا بجسارة الخطة المعروضة. كانوا لم يجرأوا قط على الاقتراب من أريحا، أكبر مدن المنطقة، وملتقى طرق التجارة، ومدينة الاستجمام.

«إليكم كيف سنتصرف».

لكان يهوذا تمنى الموت لو لم يكن في المجموعة. وأحس بفرح غامر عندما عرف أنه سيكون عضواً في الفريق الأول، الذي عليه أن يهاجم المخزن مباشرة. أما نتنائيل فكان عضواً في فريق الخفر: هل كان هذا ثمن فرضه الزيارات الليلية إلى القرى؟

نُفذت العملية بعد ذلك بيومين، في الليل. قرر الرجال أن يذهبوا فرادى إلى أريحا. كان كل منهم يعرف دوره، وكان كل منهم قد عمل على نقل سلاحه مخبأ في ثيابه أو في أكياس على ظهر حمار. واعتبر يهوذا أن من الحكمة أن يخبىء شيئاً من السلاح عند أشخاص متعاطفين معهم ويشكلون ملاجىء لهم.

رأوا المدينة من بعيد، وكانت تنبجس من الصحراء غارقة في بحر من النخيل والرمان. كانت تهب عليها ريح منعشة تخفف من وطأة الحر

فيها. وتجعل من منطقة أريحا واحدة من أمتع مناطق فلسطين. كان مخزن السلاح على بعد خطوتين من الحامية الرومانية، وكان يحرسه رجلان كانا بلا شك سوريين، نظراً إلى ارتدائهما البزة الرومانية بطريقة خرقاء. الفرق التي كانت تعمل عند أطراف الأمبراطورية كانت أحياناً دون المستوى المطلوب. اعتقد باراباس أنه كان في الداخل ثلاثة رجال. أما العصاة فكانوا ستة.

كان يهوذا متوتر الأعصاب للغاية وهم في الطريق، فأحس الآن بأنه هادىء تماماً. كان باراباس قد أناط به المهمة الأرفع شأناً: أن يتقدم إلى مسافة كافية من المدخل ويقتل الحارسين.

استل خنجره ومشى.

كان الزقاق خالياً من المارة. وكانت ترى في مكان أبعد قليلاً أولى قصور المرمر التي شيدها الرومان الأثرياء وأسهم أرشلاوس وهيرودس في إنمائها على غرار المثل الذي ضربته كليوباترا التي كانت قد حصلت على المدينة من أنطونيوس.

«الشجرة التي هناك».

كانت شجرة جميز تنتصب إلى جانب المدخل. فإذا نجح في الصعود إليها، سيتمكن يهوذا من القفز على الحارسين قبل أن يطلقا إشارة التنبيه.

لم يكن الفتى يعرف سبب اختيار باراباس له.

فهل كان يثق بدقة طعنة خنجره؟ أم كان راغباً في جعله يلتصق به؟ كان يهوذا يشعر منذ بضعة أسابيع بأنه موضع عناية خاصة تماماً من جانب رئيسه، وكان له من الفطنة ما جعله يفهم أن السبب ليس مهارته وحسب. وكان حتى قد شعر بشيء من الحسد بين الذين انضموا إلى المجموعة وإياه في آن واحد.

زحف صوب الشجرة، دون أن يحدث أي صوت، وكان رأسه

فارغاً. كانت جبته الرمادية تذوب في لون التراب. وعندما ألقى نظرة صوب الباب لاح له أن النعاس يغالب الجنديين.

عندما وصل إلى أسفل الجذع انتصب وراح يتسلق الشجرة. كانت الأغصان متينة وسهلة المنال، وكانت الغصينات تضايق تقدمه. وعندما وصل إلى نصف العلو أزاح بيده أوراقاً وكان يخشى أن يكون قد أحدث صوتاً.

كان الغصن الأقرب إلى المبنى يبدو متيناً تحت قدميه. ولم يعد يسمع إلا نبض دمه العميق في أذنيه.

كان الجنديان جامدين. وعندما بات على مسافة متر واحد منهما تبين الموضع الذي يجب أن يضربه.

وقفز.

بضربة واحدة أصاب عنق الأول فقطع وريده فراح يبصق موجات من الدم القاني. ثم أغمد خنجره في بطن الثاني تحت الدرع تماماً، فأرسل الرجل زفرة، فأخرج خنجره وغرسه في عنقه. لم تستغرق العملية خمس ثوان. سقط الرجلان إلى جانبه وشربت الأرض العطشى دمهما بسرعة. غمره شعور كبير بالسعادة. وذابت في ذاكرته ملامح جويل المتشنجة. وهكذا كان يمكن أن يكون القتل أيضاً ذلك الفرح الذي لا غبار عليه...

لم يكد الرجلان يسقطان حتى هرع باراباس وشركاؤه الثلاثة إلى الداخل، وطرقوا الباب عند وصولهم إليه. واستعمل اسحق مجدداً لغته اللاتينية الصافية، فانفتح الباب.

لم يتسع الوقت لأي من الجنود الرومان كي يردّ. قتلوهم بطعنة خنجر، وبسهمين. وبصق باراباس على الجثث قائلاً:

«هاكم أسياد العالم».

كان يجب العمل بسرعة. دخلت إلى الفناء عربة محملة بالقش يقودها

إرميا. كان الآخرون قد بدأوا يخرجون الأسلحة من المستودع ويخبئونها تحت القش. كان بينها سيوف وخناجر وحراب...

وبان وجه القمر وغمر نجاحهم بضوء فياض. كانت تتصاعد من كوخ الجنود رائحة الحساء المحترق الذي كانوا يعدونه.

وخرجت العربة بعد ان امتلأت.

«إبقَ معي يا يهوذا. سنضرم النار بعد أن تبتعد العربة».

تطلع يهوذا إلى جاذبية وجه باراباس الذي كان جامداً في مكانه. كان ينبعث من القائد شعور بالقوة والصلابة أحس فجأة حياله كم كان صغيراً. وانتابه شعور غامر بالجميل تجاه هذا العملاق الذي جعله يعيش هذه اللحظة الميمونة.

انتظر باراباس قليلاً، ثم أشعل عدة بؤر. ولم تكد النار تشب حتى لاذ الرجلان بالفرار.

كانت العودة بلا مشاكل. وأتاح لهم أحد المتعاونين معهم في عين دوق أن يخبئوا معظم الأسلحة، وحملوا الباقي إلى الكهف. قطعت الدوريات الرومانية الطرق بالحواجز منذ أولى ساعات النهار.

ووُزعت الأسلحة التي غنموها، وصار بالامكان تسليح القادمين الجدد. وأقيم احتفال كبير بنجاح العملية. حاول باراباس أن يحصر الاحتفال في الكهوف الأكثر بعداً، لكن النبيذ الذي كان يسيل بغزارة أطاح بجهوده. كان يخامر يهوذا شعور بالحماسة وبالقلق في آن: كانت الرغبة في القتال تمنعه من الاستكانة.

تكاثرت الغارات على الرومان. وتعاقبت الهجمات على قوافلهم وكذلك قتل جنود منفردين. وباتت القوات الرومانية بعد بضعة أيام في حالة توتر قصوى. وبلغت قوات باراباس من المهارة في القتال درجة جعلت الرومان يخسرون نحو خمسين جندياً تقريباً خلال الشهرين الأولين فيما لم يخسر العصاة سوى عنصرين فقط. أصيب يهوذا بجرح لأول مرة في أثناء اشتباك. فقد عاجله روماني بضربة على جبينه بواسطة

حربة: لو كانت سيفاً لكان شجّ رأسه حتى العنق. وضعت على الجرح ضمادة طُليت بعشبة منقوعة في روح الخمر فشفي بسرعة، وكان هذا كافياً ليترك في نفس الفتى شعوراً بالفخر أكثر من المرارة.

حصلت عدة اعتقالات. حاول ثلاثة من أكثر المتطوعين حداثة، بعد أن رفضوا التقيد بمرحلة الأشغال الداخلية وعدم الخروج التي يفرضها باراباس، أن يهاجموا قافلة شديدة الحماسة، لكي يختطفوا تاجرين حبشيين. كان الجميع قد نهوهم عن القيام بذلك. لكنهم لم يرعووا. فقبض عليهم وصلبوا.

لكن الجميع تأثروا باعتقال شاب كان يهوذا يحبه كثيراً، يدعى عبدياس، وكان يساعده في المطبخ. كان عبدياس هذا غير مؤهل للعمل الصرف، لكن باراباس كان يتمسك بعدم استثناء أحد تماماً من ذلك. كان قد خرج في ذلك اليوم لينقل رسالة فوقع على دورية رومانية. فحاول الفرار واشتبك مع رجال الدورية، وجرح أحدهم، كما أصاب يهودياً مسناً كان يرافقهم، بجرح بليغ. كان هذا اليهودي من الصدوقيين وقد أقلع عن مزاولة التجارة، كما كان أكبر وجهاء قرية طبقة التي جاءها ليعيش فيها بقية حياته. كان سخياً صادقاً، وكانت القرية تمني النفس بالافادة من المال الذي يحمله. فكان غيظها لرؤيته يهلك على هذا النحو التافه عظيماً جداً.

ظل عبدياس موقوفاً طيلة النهار واستجوبه الجنود. ثم جاء سكان القرية يطلبونه. سلمهم الرومان إياه وتركوهم يذهبون به إلى حفرة الرجم حيث كانت جثث المرجومين الثلاثة الأخيرين (عاشقان زانيان وسارق ضبط بالجرم المشهود) في آخر مراحل تعفنها. فهم عبدياس في الحال ما كان ينتظره، فظل منتصباً باعتزاز، حتى تلقيه أول حجر على الأقل. كان الراجم قد انتقى حجراً مدبباً جداً رماه به ابن الضحية بكل دقة. سحق الحجر شفتيه واقتلع أربعاً من أسنانه. وعندما أصابه الحجر الثاني قرب عينيه صرخ صرخة قوية وسقط ورأسه تحت ذراعيه. وأخذ كل

واحد من الأهالي حجراً واقترب منه حتى ملامسته. وعندما توقفوا عن الرجم كان جسده قد أمسى جرحاً دامياً واحداً. كانت نتف صغيرة من اللحم قد زرعت التربة بلطخات وردية اللون سرعان ما كمدت تحت أشعة الشمس. وتقدم أنسباء الضحية، وبضربة قدم، دفعوا الجثة إلى قعر الحفرة.

ما كاد يهوذا يعلم بما حدث حتى اختفى. زحف طول الليل إلى الحفرة، ونزل إليها، وتقيأ مرتين من جراء الرائحة الكريهة المنبعثة من الأشلاء، باحثاً عن جثة عبدياس. فرفعها واندهش لخفة وزنها، ثم حملها على ذراعيه ليعود بها إلى الكهوف كي يدفنها كما يليق. استغرقت عودته أربع ساعات سقط خلالها على الأرض مراراً ولكنه لم يتراجع. عند وصوله، وكان هو نفسه مصبوغاً بالدم الجاف، لم يعرفه الحارس وكاد يطلق عليه سهماً. لم يجرؤ باراباس على توجيه اللوم إليه بسبب هذا العمل، الذي كان الجميع يؤيدونه في قرارة أنفسهم، لكنه اكتفى بطلب دفن الجثة في مكان بعيد عن مخبأهم، كي لا تنبشها بنات آوى وتتيح للعدو أن يهتدي إليهم.

استأنف يهوذا زيارات القرى بصحبة نتنائيل. كان فتى يدعى هارون يرافقهما بانتظام في هذه الزيارات. كان عمره أربع عشرة سنة، كعمر يهوذا، وكان وجهه أشبه بوجه دمية لم تتمكن اللحية من غزوه بعد، الأمر الذي كان يحزنه ويحمله على تعجيل ظهور الشعر بقص بعض الوبر بسكينه. كان يؤدي دوره بجدية كبيرة، ويفكر ملياً قبل أن يجيب. كانت قصة الإغارة على مستودع الأسلحة في أريحا قد انتشرت، فراح الناس في كل مكان يستقبلونهم بمزيد من التعاطف. على أنه كان عليهم أن يبدوا مزيداً من الحذر، لأن الضغط الروماني قد ازداد. فكان الجنود يدهمون القرى باحثين عن مؤشرات تواطؤ مع العصاة. وقد سمع الرجال أن بعض الناس في بعض الأماكن أخذوا يتكلمون مع المحتلين. ولوحظ

أن بعضهم تخلص من بؤسه، وأن عاطلين عن العمل وجدوا لهم عملاً، وأن بعض غرف المؤن تمتلىء من جديد...

كان الجو صاخباً في ذلك اليوم. كانت هذه ثالث زيارة لهم إلى سايد، وهي بلدة غنية، قريبة من الطريق بين بيتل وإفريم، ويرتادها التجار كثيراً. كان موقف ممثل هؤلاء، ويدعى أبيما، هجومياً.

«لماذا تريدنا أن نتبعكم؟ وما لنا وتلك الحرية التي تعدنا بها؟ أنا لا أشعر بأنني مقيَّد. أنا آكل حتى الشبع، وأملك ما يخولني الاستمتاع بالحياة.

ـ لكن ما قيمة هذا في أرض وعد بها الله ويحتلها غاصبون؟»

كانت هذه الحجة تفعل فعلها عموماً. كان ذكر الله يضع حداً لكثير من النقاشات، إذ أن أحداً لا يجرؤ فعلاً على الاقرار بلامبالاة كان بعضهم مع ذلك يحس بها تجاهه.

بيد أن أبيما تجرأ:

«لو كان الله مستاءً إلى هذا الحد من حضور الرومان لكان أقصاهم من زمان. ألم يسبق له أن شق البحر الأحمر ليساعد موسى على الفرار؟».

كان الدجل في هذا الاستشهاد واضحاً، ومع ذلك أحس يهوذا بأن أبيما حظي بتعاطف الجمهور. فباتت كل ملاحظاته تصطدم بجدار من التشكك. كان أبيما يؤجج النار، لكن آخرين يسيرون وراءه. وعندما تذرع التاجر بالخطر الذي يشكله حضور العصاة على البلدة كلها، أحسوا بأنه آن لهم أن يرحلوا أمام هذا النجاح الذي حققه التاجر، تجاسر صاحب الدكان وقال لهم:

«لا تعودوا، فلا فائدة من ذلك. أنتم غير مرغوب فيكم وليس لكم أصدقاء هنا».

بدا نتنائيل أشد تأثراً من يهوذا بهذا الانقلاب.

تحدث الاثنان طويلاً عن هذا الأمر بعد عودتهما إلى الكهف، وكانا

يحسان بأنهما أسيرا الوعد الذي قطعاه على نفسيهما بعدم الرجوع ليلتين متواليتين إلى التجوال، بغية الحد من مخاطر الوقوع في أيدي الرومان.

بادر يهوذا إلى مفاتحة باراباس بالأمر.

«لقد أساؤوا استقبالنا لأول مرة».

كان يتحدث إلى قائده بثقة متعاظمة، وقد خفف باراباس من استعلائه المعهود ليستمع إليه بانتباه.

«ما كان يمكن لك أن تأمل بأن الجميع سيفهمونك».

بعد انقضاء ليلتين على ذلك، كان يهوذا غافياً فأحس بيد تهزه، فأفاق متأهباً للضرب، فعرف أنها يد نتنائيل وكان هذا في حالة ذهول.

«تعال».

* * *

سمح لهما الحارس بالمرور، وبعد أن، باتا في الخارج أخبر نتنائيل يهوذا بالمكان الذي يقصدانه.

«إتبعني».

ـ لماذا؟ هل حدث أمر ما؟

ـ هدموا كل شيء في سايد. لا أفهم. يجب أن نستطلع الأمر.

ـ أن نذهب إلى سايد؟ هذا يستغرق مسيرة ساعتين. لا علم لأحد بالأمر. وهم هناك نائمون. أنت مجنون؟

ـ لا، إنهم ينتظروننا. ألا تذكر صوفونيا، تلك الفتاة الصغيرة التي تعيش مع النجار؟ لقد كلمتني أصيل هذا اليوم وقالت إن علينا أن نمر بهم. يجب أن نمضي.

كان نتنائيل يمشي بسرعة وكان يبدو أنه لا يمكن أن يردعه شيء. وصلا إلى سايد بعد ساعتين. كان يهوذا يحس بألم في خاصرته ويزفر بقوة، وكان قد فهم بالكاد إبان المسيرة ما رواه له صاحبه. يبدو أن

باراباس جاء ونشر الرعب في القرية، وسرق مواد غذائية... فعزف عن الفهم وظل يسير وراء رفيقه.

كانا بالكاد قد دخلا القرية حين لاح لهما ضوء مشعل من وراء باب مفتوح جزئياً.

«الآخرون نيام، لكنني كنت أعلم أنكما آتيان. تعالا».

توجهت صوفونيا إلى بيت آخر، أكبر. أيقظ صرير الباب الرجال الذين كانوا هناك، وشاعت في الغرفة جلبة خافتة.

«هذا أنتِ؟ أنتم هنا؟ تعالوا، تعالوا».

كان هارون، شيخ القرية، لا يزال بين الغافي والواعي، يتكلم متلعثماً، وكاد يسقط على الأرض، فقاده أحد رجاله إلى حيث كان يهوذا ونتنائيل.

«أتقسم لي بأنك لم تكن على علم بالأمر؟» بادر فوراً إلى طرح هذا السؤال.

ـ نعم، لا سيما وأنني حتى الآن لا أفهم ما جرى. ما الذي حدث بالضبط؟

ـ حدث ذلك قبل ثلاثة أيام، في أول الليل...».

في تلك الليلة شاهد وجهاء القرية نحو عشرة رجال قادمين وعلى رأسهم باراباس الذي كان لا يعرفه أحد. قال إنه قائد العصاة. بينما كان هذا يتكلم كان رجاله قد تغلغلوا في كل مداخل القرية.

وحضر هارون. كانت لهجة باراباس قاسية منذ البداية، وشكا من أن القرية ترفض حقاً أن تساعدهم وأنها تحتضن بعض المتعاونين مع العدو.

«هناك أمر يجب أن تفهموه. لا مكان للحياد. إن لم تكونوا معنا، فأنتم علينا.

ـ لكن نحن معكم. ورحبنا بكم. ولم يشِ بكم أحد.

ـ لا يزال بعضكم يتاجر مع الرومان. وبعضكم يتاجر مع أريحا.

ـ ماذا تريد منا؟ أن نتوقف عن العيش خارجاً عنكم؟ هذا مستحيل. نحن مستعدون لفعل أي شيء من أجل مساعدتكم، ولكن. . .

ـ كل شيء؟ تقول كل شيء؟

ـ أجل، كل ما نقدر عليه.

ـ إن عددنا يتكاثر هناك. ويجب أن نؤمن الطعام لكل أولئك الرجال. وأنتم تستطيعون مساعدتنا.

ـ كيف؟ . . .

وبدا هارون أكثر حذراً.

«إن كنا لا نستطيع أن نمنع كل تجارة مع العدو، فيجب على الأقل أن نفيد نحن أيضاً من هذه التجارة. سنمر كل أسبوع لنأخذ مواد غذائية».

وسرت تمتمة احتجاج. فوقف رجل وقال:

«باسم أي شيء ستفرض ضريبة جديدة؟ ألا يكفي ما يأخذه منا الرومان؟ ألم تأتِ الى هنا كي تكافح ضد هذا؟

ـ ليس لهذا علاقة بالأمر ـ أجاب يهوذا ـ نحن نأخذ لكي نبقى أحياء وليس لكي نثري. ولن يدوم هذا إلا إلى حين نحقق النصر. وكلما كان النصر أقرب كان الخلاص من هذه الضغوط أسرع.

اقترب الرجال الوافدون بصحبة باراباس من المستائين، قابضين على هراواتهم بشكل لافت، فزالت الاحتجاجات. وعاد باراباس تلك الليلة بأول كمية من المواد المفروض تسليمها.

لم يشأ يهوذا ونتنائيل أن يصدقا هذه الرواية في بادىء الأمر، ولكنهما اضطرا إلى التسليم بصحتها، وقال يهوذا لصاحبه وهما في طريق العودة:

«لقد أخذ منهم في الحقيقة ما رفضوا إعطاءنا إياه في المرة الأخيرة.

ـ لكننا إذا أخذناه بالقوة دمرنا كل ما حققناه حتى الآن. هذا خطأ جسيم، وسندفع ثمنه غالياً. سندخل الآن في سباق ترهيب مع الرومان، وهذه كارثة».

وقابلا باراباس صباح اليوم التالي.

«ما قمت به عمل شائن. كان أولئك الناس يثقون بنا. ماذا تظن أنه سيبقى من هذه الثقة إذا استمر هذا الأمر؟

كان نتنائيل في حالة غضب لم يعهدها يهوذا قط من قبل.

«سيصبحون يخافوننا كما يخافون الرومان. لقد عانينا الكثير طيلة أسابيع محاولين إقناعهم بالانضمام إلى الدفاع عن قضيتنا، ونجحنا في استمالة كثيرين منهم كما تعلم جيداً. وها أنت الآن تحطم جهودنا. أنا لا أفهم».

وعلت اللهجة، فصاح باراباس:

«لا أسمح لك بتاتاً بأن تخاطبني هكذا. أنا قائد هذه المجموعة: لن أذكرك بذلك مرتين».

والتفت صوب يهوذا وقال متنهداً.

«ممارسة الثورة هي أيضاً أن تناضل دوماً ضد الذين يقاتلون معك.

فأجاب نتنائيل:

ـ وهي أيضاً أن تتقبل الانتقاد والمعارضة. وبدون هذا لا تكون الثورة سوى صخرة جامدة، وتكون عمياء. متى كان الناس من حولك يفكرون بحرية فلا بد لهذا من أن يخدم القضية، حتى ولو ثلم سلطتك الصغيرة.

ـ واجبنا الوحيد هو استعمال كل الأسلحة التي نملكها حتى لا نمنى بهزيمة سخيفة. لا قيمة للأفراد ما دامت سلطة من يريدون التغيير محترمة».

ثم توجه إلى يهوذا قائلاً:

ـ لم يعد الوقت وقت إقناع بالكلام وحسب. كنت تجيد ذلك، ونتنائيل أيضاً. لكن هذا ليس كافياً. نحن محاربون لا مبشرين.

فأجاب يهوذا:

ـ لكننا نحارب أعداءنا وليس أصدقاءنا. إسرق ما شئت من الرومان،

لن لا تسرق أولئك الذين يريدون أن يساعدونا. هذا... هذا غير عادل.

ـ يهوذا... أنت لا تزال فتياً وساذجاً. أنا أحب هذا فيك، لكن يجب عليك أن تنضج. أتعلم ما سيفعل هؤلاء الذين تسميهم أصدقاءنا؟ لن تكاد معرفتهم بنا تشكل خطراً حتى ينقلبوا من جديد نحو من يخافونهم. فعلينا منذ الآن أن نربطهم بنا عن طريق الخوف أيضاً، أن نجعلهم يشعرون أن واجبهم هو أيضاً مصلحتهم. سيجعلهم هذا أكثر إخلاصاً. نحن لا نناضل بالكلمات بل بالأسلحة. إن أعمال الرومان تركت آثارها في القرى، حتى تلك التي زرعتموها. ويتساءل بعضهم في كل مكان عما إذا كان من الأفضل لهم أن يكونوا إلى جانب الحكم. فيجب أن نبين لهم أن لا، ولا توجد إلا طريقة واحدة لتبيان ذلك. لا يمكن الحصول على شيء عن طريق الثقة، ويمكن الحصول على كل شيء عن طريق القوة».

كانت لهجة باراباس لا تقبل الرد.

«سنستأصل الميل الذي قد يحدو بعض القرى إلى التنكر لنا. سنقوم بعمليات جديدة، وأنا اعتمد عليك يا يهوذا».

وأمسك عن الكلام لحظة، متعمداً تجاهل نتنائيل.

«يجب أن نقتل المتعاونين. يجب أن نُرهب القرويين إلى حد لا يبقى لهم معه من خيار غير مساعدتنا. يجب أن نحرق بيوتهم، ونسلب مواشيهم... يجب أن نعاملهم كغرباء.

ـ ما سيقول كل الذين ساعدونا حتى الآن؟ سيكرهوننا قدر كرههم للرومان.

ـ أنا لا أقاتل سعياً إلى الحب بل إلى النصر. سيكرهوننا نعم، وبعد ذلك؟ عندما نصبح الأقوى، صدقني، سيحبوننا من جديد».

أزعجت هذه الصلافة يهوذا كثيراً. وتدخل نتنائيل قائلاً:

«أنا لا أستطيع الموافقة على ما تقول. تحرير الناس لا يبدأ بتقييدهم.

ـ وكيف يكون ذلك إذن؟ أبإهدائهم شيئاً لن يستطيعوا الافادة منه؟ دعك من الأحلام يا نتنائيل. إن شبابك خلاب، فلا تجعل منه ضعفاً. أنا لا أمنعك من مواصلة زياراتك. بل على العكس، فهي تبدو لي الآن أكثر ضرورة. لكنها لن تكون كافية لكي تؤمن لنا تواطؤ السكان. هذا فيما نحن بحاجة إلى عون حقيقي لا إلى تعاطف. من هنا أنا لا أعبأ بما إذا كانوا يحبوننا أو لا. لكنني أريد أن يخافونا.

ـ لماذا الآن؟

ـ لأننا سنعاود القيام بعمليات كثيرة. لذا سأكون بحاجة إليكما.

وابتسم باراباس ابتسامة شرهة، وأحس يهوذا، رغماً عنه بميل إلى القبول، وقال بشيء من الاحتجاج، لكن قبوله كان حاصلاً:

«بحاجة إلي من أجل أي شيء؟»

«بحاجة إليك لكي تقتل».

طافت الكلمة في جو الكهف، وحلّت في أذن يهوذا كهدية.

«يجب ترهيب الرومان والقرويين. نحن لا نملك الوسائل اللازمة لتكرار العمليات الباهرة كعملية مستودع السلاح. فالقمع في منتهى العنف، وهذا كلفته باهظة بالرجال. هل عرفت ما جرى لسمعان؟

كان يهوذا قد سمع من بعض رفاقه أخبار الدمار الذي ألحقه هذا الرقيق الملكي السابق بدارات البيري الفخمة التي نهبها وأحرقها.

«تصدى له غراتوس ورماة السهام من تراخونيديا، فمات منهم العشرات، وقطع غراتوس شخصياً عنق سمعان. كانت انتفاضته العنيفة والمسرحية بلا فائدة. علينا أن نضرب بعنف، بصورة متقطعة، كما يفعل البعوض إذ يجعل العيش مستحيلاً على الجاموس، أن نهاجم أهدافاً فردية: وجهاء، متعاونين مع العدو، جباة ضرائب. أنا أحتاج إلى قتلة، فهل تريدان أن تكونا بين القتلة؟».

غادر نتنائيل الغرفة دون أن يجيب. أما يهوذا فقال «نعم».

الفصل السابع

ابتدأت بعد ذلك بالنسبة إلى يهوذا مرحلة أمست الحياة فيها كفاحاً متواصلاً. فقد اكتشف عنده باراباس الصفات اللازمة فجعل منه واحداً من أعتى قتلته. وأثبت الفتى أنه يتحلى بالفاعلية والفطنة وروح المبادرة معاً.

انتُقي من بينهم عشرة، ومن هؤلاء اسحق، وإرميا، وحزقيال، وعدة شبان تدربوا مع يهوذا ونتنائيل. لكن هذا الأخير لم يكن عضواً في الفريق، الأمر الذي أسف له يهوذا.

«إنتقيتكم لأنني بحاجة إليكم ـ قال باراباس يوم جمعهم لأول مرة. ستكونون رأس الحربة في عملنا. يجب أن تخيفوا الناس. منذ سنة تقريباً بدأ بعض أصحابكم يجولون على القرى كي يشرحوا للناس ماهية كفاحنا. هذا جيد، كان جيداً في البداية على الأقل».

توجهت الأنظار نحو يهوذا، فواجههم هذا دون أن يرف له جفن.

قبلت بعض القرى بتقديم العون لنا. هذا ممتاز. وهناك قرى أخرى أكثر تحفظاً، وهذا ليس جيداً. وأخطر ما في الأمر أن كل هؤلاء الناس لم يفهموا أن ليس لهم خيار. فإذا لم يكونوا معنا فهم علينا. فقررت أن أفرض ضريبة، وأن أدفع هذه القرى إلى مساعدتنا. فإذا رفضت ذلك فسنقنعها. يجب أن نقدم للناس عِبراً. وقد اخترتكم نظراً لمهارتكم في القتال».

وتوقف لحظة، ثم أضاف:

«أنتم تحسنون القتل. ستقتلون. ستستعينون بخناجركم. يجب أن تتعلموا الضرب بسرعة والاختفاء بسرعة دون أن تتركوا أثراً. يجب أن يتحدث الناس عنكم. لا يجب أن تعرضوا أنفسكم للخطر، ولكن يجب أيضاً أن تختبئوا أقل ما يمكن. أتركوا الجثث في أماكن عامة، وتصرفوا على نحو يمكن الجميع من معرفة مصدر الضربة.

«أنتم عشرة. عليكم أن تضربوا في الأيام الثلاثة القادمة. وبعد قتل عشرة رجال، ستتغير الأمور».

كان هدف يهوذا صاحب مزرعة من أرشيلاوس يمون الحامية الرومانية بالماشية. وقد فاز بهذا الاحتكار بفضل دعم شقيقته المقيمة في أورشليم والتي هي زوجة أحد مزودي الهيكل بالحيوانات المعدة للتضحية.

كان يهوذا قد صادف الرجل وهو يسوق قطعانه. وكان هذا قد اشترى أراضي، وبهائم جديدة، وبات الآن يستخدم شخصين للاعتناء بها. غير أن نمط حياته لم يتبدل، وكان يؤم سوق أريحا دائماً.

وصل يهوذا إلى أريحا عند العشية، بعد أن اجتاز حقول المزروعات الطبية التي جاء بها هيرودس. كان ظل جبل نيبو يتمدد فوق المدينة. وعندما مر بالقرب من ضريح الملك، بصق على التمثال الذي يعلوه. ولما بلغ السوق كان قد وصل إليها عدة بائعين، وكانت الساحة الكبيرة التي تجري فيها المبادلات تغص بالحيوانات. كان التجار يعدون مضاجعهم لأجل الرقاد في الليل. وكان الهواء المنعش عابقاً بروائح بستان البهارات المشهور في المنطقة كلها. لم يكن يهوذا راغباً في النوم في المنزل. فتوجه نحو زاوية مظلمة في الساحة، والتف بعباءته، ثم نام نوماً خفيفاً.

أفاقت السوق مع شروق الشمس. كانت الأغطية قد رفعت عن العربات، وكانت الثمار، والبقول، والملابس، معروضة على أديم الأرض فوق أغطية كبيرة. ووصل أوائل الشارين. كان يهوذا ينتظر، وقد

عقد العزم، كما طُلب منه، على أن يكون أول عمل قتل يقوم به مشهوداً إلى أقصى حد ممكن.

كان ينظر إلى الجمهور وكأنه لا يراه. وكان ينهض بين حين وآخر ويمشي، عالماً أن هذا يسهل تعرف الناس عليه. وقام حتى بمجازفة جنونية إذ راح يدور حول دورية رومانية تقوم بعملها.

وكاد لا يرى ضحيته. فالشمس والروائح خدرت رأسه قليلاً، كما أن التوتر والانتظار أرهقا أعصابه. وصل صاحب المزرعة قبل قطيعه، الذي كان مؤلفاً من عشر بهائم كان أحد أعوانه يسوقها صوب زريبة كان الرومان سيأتون لاستلامها منها. رافقت مروره بضع همهمات. كانت حداثة نعمته تجلب له حسد كثيرين، وكان أشد معيّريه شراسة أولئك الذين كانوا فعلوا مثلما فعل لو لم يسبقهم هو.

أدرك يهوذا أن عليه أن يتصرف بسرعة. شدد قبضته على خنجره وتقدم نحو صاحب المزرعة، الذي رآه آتياً دون أن يحسب له أي حساب، ظاناً أنه طالب شراء. هل ارتاب بشيء؟ فقد لاحظ يهوذا أن نظره قد جمد، لكن الوقت لم يتسع أمامه ليتساءل. استل خنجره، وبطعنة قوية، غرزه في بطن التاجر فبقره كخنزير في المسلخ. فسال الدم بسرعة وأخذت أحشاؤه تتناثر حتى قبل أن يسقط على الأرض. ضرب يهوذا ضربته وابتعد سريعاً. وتصاعدت من خلفه صيحات. وعلا صراخ امرأة. لكنه لم يلتفت إلى الوراء ولم يخفف سرعته.

وصادفه شخص فسأله: «ما هناك؟

كانت الجلبة تصل إليه.

أجاب: «لا أدري. لم أرَ شيئاً».

تجاوزه الرجل وحث خطاه نحو مكان تجمع الناس. وتحركت الدورية الرومانية.

لم يستطع يهوذا أن يكبت ابتسامة، وتابع سيره.

وتكاثرت أعمال القتل. ولم يعد المتعاونون مع العدو، ولا الجنود

الرومان، ولا الجباة، في أمان في أي مكان. كان يهوذا وشركاؤه ينقضون عليهم كالطيور الجارحة. بطعنة خنجر كانوا يمحون كائنات، تاركين وراءهم جثثاً تبث الرعب في قلوب من يرونها. وشدد باراباس قبضته على القرى، دون أن يحتاج إلى قول شيء أو يشير إلى مسؤوليته عن أعمال القتل. فباتت القرى المحيطة بالكهوف تؤدي ضريبة قوامها أغذية وعمل حدادة. وقد حددت الكميات على نحو لا يتسبب معه دفع الضريبة بإحداث أي عوز. ومع ذلك، بدأ التململ يظهر في أماكن كثيرة. ففي سايد مثلاً، قام ثلاثة شبان فلاحين يستثمرون حقلاً مشتركاً بطرد رجال باراباس رشقاً بالحجارة حينما جاء هؤلاء يطلبون ما يعتبرونه ديناً لهم. ووُجد الثلاثة في اليوم التالي مشنوقين على ثلاثة أغصان في تينة عتيقة عند مدخل القرية.

كان نتنائيل قد حاول أن يحتج على هذا التطور الذي يعتبره خطراً. وهدد حتى بالانفصال عن المجموعة، متحدياً باراباس أن يمنعه أو يقتله. لكن مكر باراباس حمله على تحاشي المواجهة، فقال له:

«أنا أتفهم دوافعك يا نتنائيل. هناك نوعان من الرجال تحتاج الثورة إليهما: الرجال الذين يستطيعون أن يحلموا مثلك، والرجال القادرون على البناء مثلي. فيجب أن تكون معنا لكي تمنعنا من نسيان الهدف الذين نكافح من أجله. لكن علينا أن نتمكن من أن نكافح كما نريد. إذا شئت أن تتركنا، فأنت تستطيع ذلك. أنا أثق كل الثقة بك، ويقيني أنك لن تغدر بنا أبداً. لكنني سآسف لرحيلك أكثر من أي شخص آخر بيننا. يمكنك أن ترحل عنا يوم الأحد إذا شئت. وحتى ذلك الحين، فكّر في الأمر. أكيد أنك لن تعود تشاطر الجماعة عيشها لأنك تنوي الانفصال عنها».

فعلت الحيلة فعلها. فإذا أمسى نتنائيل بلا فائدة، وابتعد عنه أقرانه وبات هؤلاء يرتابون به، فإنه سيصبح فريسة لليأس. فقرر البقاء.

وتحاشى حتى التساؤل عما إذا كان باراباس سيدعه حقاً يرحل، كما ادعى. لكنه بات يعلم بعد الآن شروط بقائه هنا.

لم تعد علاقاته مع يهوذا على مثل البساطة التي كانت تتحلى بها يوم كانا يقومان بجولاتهما المشتركة. ظل نتنائيل يقول له كل ما لا يستطيع أن يقوله لباراباس. لكن يهوذا بات لا يصغي إليه. فقد صار شخصاً مرموقاً، وكان باراباس يجيد استغلال غروره هذا. وبلغ الخامسة عشرة، ثم السادسة عشرة. وأمسى حقده على الرومان أشد قوة الآن بعد أن بات يستند إلى واقع مآثره. وجعل من إقدامه قدوة للمجندين الجدد، الذين كان باراباس قد كلفه بتدريب بعض منهم. لقد اهتدى إلى طريقه، وأخذ يجد في القتل متعة يموهها بالدفاع عن القضية.

ما كان ليعود إلى خورازيم لولا الريبة. لم يكد يسمع الشائعة حتى هرع الى نتنائيل. كان هذا قد خرج ومعه ثلاثة رجال لجلب عشرة رؤوس من الغنم، وقد حاولوا الصعود بها حية إلى الكهوف، لكن الحبال الضرورية لرفع الحيوانات المرتجفة خوفاً كان من الصعب تثبيتها، فاضطروا أن يذبحوها في مكانها. وانضم يهوذا إليهم.

«هل جئت لتساعدنا؟ ـ سأله نتنائيل مبتسماً

ـ لا. جئت لأحدثك في أمر ما.

ـ بماذا؟

ـ يزعجني أن أحدثك في حضور هؤلاء».

وأشار بأصبعه إلى مرافقي نتنائيل.

«يؤسفني هذا، لأنه يجب ذبح هذه الأغنام بأسرع وقت. ساعدنا قليلاً وبعدها سأكون بتصرفك.

اجتاح وجه يهوذا غيظ عاجز، لكنه تمالك نفسه، واستل خنجره.

«حسناً. فلنسرع».

أمسك بقائمتي الخروف بيد وضرب عنقه باليد الأخرى. فانبجس الدم.

«إحذر من أن تلوث لباسك».

كان غسل الثياب أحد أشد المشاكل اليومية حدة. فقد ألقي القبض مؤخراً على أحد الرجال لأنه كان قد غسل ثيابه في مياه ساقية وحملت مياه الساقية آثار الغسيل إلى دورية رومانية كانت تشرب من الساقية في مكان غير بعيد. لا شك في أنه صمد تحت التعذيب لأنه لم يحدث شيء بعد اعتقاله.

ذبحوا الخراف العشرة وسلخوها، ولفوا جلودها معاً: ستُغسل وتدبغ في الكهوف. ثم انزلت الخراف التي كانت لا تزال دامية إلى الكهوف تباعاً، وطُمر الدم بالتراب لكي لا ينم الذباب عن المذبحة.

«ماذا كنت تريد أن تقول لي؟» ـ سأل نتنائيل.

كان يبتسم وهو يمسح بالرمل يديه الملطختين بالدم ثم يذروه. كانت قد مضت عدة أسابيع دون أن تتاح له فرصة للاجتماع بيهوذا.

«هل تعلم ما إذا كان باراباس يذهب غالباً إلى خورازيم؟».

توقف نتنائيل.

«نعم إنه يذهب إلى هناك. فهو يسعى إلى تشكيل مجموعة في الجليل كتلك التي شكلها في اليهودية. وقد ترك والدك هناك ذكرى لا يريد لها أن تموت...

ـ هذا أيضاً ما تناهى إلى سمعي...».

كان يهوذا يشعر بمرارة.

«هل أخبرك أحد عن مدى تقديسه لهذه الذكرى؟

نظر إليه نتنائيل.

«ماذا تعني؟

وبدا منزعجاً.

«تعرف جيداً ما أعني. إنه يعاشر أمي؟

ـ أمك، يا يهوذا، هل جننت؟

ـ أرجوك، لا تستغبني. يبدو أن الجميع على علم بالأمر إلا أنا.

ـ أقسم لك بأنني لا أعلم شيئاً.

أنعش ضعف يهوذا فجأة الثقة التي كانت بينهما في الماضي.

«صحيح أن شائعات سمعت؛ لم أحدثك عنها ولم أصدقها.

ـ لكنك في الحقيقة لا تعرف شيئاً. ما إذا كان...

ـ لا تُدِنه قبل أن تتأكد. فاتحه بالموضوع.

ـ لكي يخبرني مزيداً من الأكاذيب؟. لا، سأذهب إلى هناك. وعلى كل حال، أنا مشتاق من زمان طويل لمشاهدة أمي.

ـ سترتكب حماقة يا يهوذا. أنت مطلوب...

ـ سأعرف كيف أتحاشىٰ القبضَ عليّ.

ـ وإذا غضب باراباس؟

ـ فليغضب. أنا لست عبده ولا أسيره.

ـ لكنك تحت إمرته. تخيّل أن يقرر الاستغناء عنك.

ـ أنا واحد من خيرة جنوده. أشك في إقدامه على ذلك».

لاحظ نتنائيل أن لا شيء يمكن أن يحمل صديقه على تبديل رأيه.

ورحل يهوذا في اليوم التالي.

وصل إلى مشارف خورازيم بعد يومين، عند العشية. كان يعلم أنه غير قادر على دخولها إلا تحت جنح الظلام، لكي لا يراه أحد، فعرج على نزل يبعد عنها نحو عشر غلوات ينتظر قدوم الليل. كان تأثره برؤية بلده مجدداً أشد مما توقع. طلب قارورة من النبيذ وقليلاً من الجبنة التي بدت حلاوتها تمحو حموضة أجبان اليهودية الجافة تماماً. وراح يحاول ترتيب أفكاره. كانت صورة أبيه تمحي تدريجياً وتحل محلها صورة باراباس، فكان يجهد ليستعيد ملامح أبيه، ورنة صوته، ورائحته. كان يفشل في الغالب فتسيل من عينيه دموع الغيظ، التي كانت تستهدف معاً رئيسه وذكرى والده الهاربة.

وخرج عند هبوط الليل. كانت قد هبت ريح باردة فبددت ضباب النبيذ نوعاً ما. فأحكم شد كوفيته حول رأسه، وتوجه نحو بيته. لم يتغير

شيء هنا، لا الموقد حيث كانت النار لا تزال مشتعلة، ولا الكرسيان اللتان كان يقعد عليهما في طفولته، ولا الحيوانات القليلة التي كان يغالبها النعاس في الزريبة.

كانت أمه هناك. كانت تبدو مطمئنة، وشبه سعيدة، وبعيدة عن تلك الأرملة التي تركها فيما مضى. كان شعرها غير مرتب. وغذت النار بقطعة من الحطب، ثم سكبت ماءً في وعاء. في تلك اللحظة رأى يهوذا باراباس.

دنا هذا من الامرأة المقرفصة ولمس كتفها بيد حنون وحميمة. وثار يهوذا غاضباً أمام كل ُما تنم عنه هذه الحركة، فاندفع إلى الغرفة.

«يهوذا».

عرفته أمه فوراً وأشرق وجهها حبوراً.

«أنت تدأب على خيانتنا. من أنت حتى تظن أنك تحل محل والدي؟ من أنت حتى تتجاسر وتدخل هذا البيت؟

ـ يهوذا!

صرخت سيبوريه. ونهض باراباس ويداه منقبضتان.

لكن رائحة الخبز الفطير دخلت أنف يهوذا ومعها كل ذكرياته. فتخيل نفسه طفلاً يركض حول البيت في العشيات. وتخيل نفسه يرافق أمه إلى النبع. وتذكر ذلك الرعب الذي أثاره يوم تسلّل وهو في السادسة من العمر ليشاهد النساء اللواتي كن يستحممن فيه وقد سحره عريهن، فزلت به القدم وسقط في الماء، مثيراً في البداية الخوف ثم الضحكات العالية.

واستعاد خصوصاً وبالوضوح الذي كان يبحث عنه منذ يومين، صورة أبيه، ووضعها مكان صورة باراباس، الذي كان ينظر إليه حائراً بين الشفقة والغضب. وسمع صوته المتهاوي، المنطفىء، والمحطم، وهو على الصليب.

وأجهش باكياً، فتحت له أمه ذراعيها فارتمى بينها. وذاب فجأة كل

الغيظ الذي كان يغلي فيه. عاد صبياً صغيراً. وحلت السعادة فجأة محل الثورة. وبعد أن استعاد هدوءه، رفع عينيه الدامعتين فرأى أمه ووراءها وجه باراباس. فابتسم، وعادت إليه الطمأنينة.

لم يتحدث الاثنان أبداً فيما بعد عن هذه الحادثة. كان باراباس حكيماً فلم يؤنب يهوذا على عصيانه، وسلّم يهوذا راضياً بالعلاقات الجديدة التي نشأت بين أمه ورئيسه. راودته الرغبة في الصباح، مع ذلك، بإيلام أمه وجعلها تشعر بخيانتها، لكنه عدل عن ذلك وردّ عن سؤالها الأول الصامت بابتسامة غمرتها بالسعادة.

أمضى يهوذا الأسبوع بكامله في خورازيم. ورحل باراباس في اليوم التالي مدركاً أن عليه أن يتركهما لوحدهما. وتوالت بضعة أيام مباركة، عاد بعدها يهوذا إلى الكهوف وإلى مزاولة مهنته، مهنة القتل.

أنزل العصاة بالرومان ضربات متتالية طيلة خمس سنوات، وكان الرومان يردون على هذه الضربات بالمداهمات والاعتقالات وأعمال القتل. وقد استولوا على أحد الكهوف عنوة. وأسفرت الاشتباكات البالغة الشراسة والتي انتهت بمبارزات على شفير الجروف عن سقوط عدد كبير من الضحايا. لكن كبار القادة تمكنوا من الفرار. كان للمقاومين أعوان في المدينة، ويقال حتى بين أعضاء السنحدرين، ذلك المجلس المؤلف من واحد وسبعين عضواً من أشراف أورشليم، والذي يمثل أعلى سلطة روحية وزمنية يهودية. كان عدد المقاومين يتزايد، ونتيجة لذلك، أخذت الخيانة والريبة تذران قرنهما. وأمست كلمة «زيلوت» التي تطلق على المقاومين منذ عهد هيرودس الكبير ممقوتة عند بعض الناس ومكرمة عند غيرهم.

بعد أن أوكل باراباس إلى يهوذا مهمة تدريب العناصر المنضمة حديثاً، وكان هذا دليل ثقة متزايدة به، ارتفع شأن يهوذا وقتل عشرات من الأعداء. كان يهوذا مرتاحاً إلى وضعه هذا؛ لم يضعف عنده ذاك الحقد الجياش فكان يبدو كل يوم أشد شراسة منه بالأمس.

وانقطع عن المشاركة في الجولات الليلية التي ظل نتنائيل مواظباً عليها رغم ما كان باراباس يجبيه من القرى. كان الشابان قد استعادا علاقتهما الحميمة لكن هذا لم يردم الهوة القائمة بين نظرتيهما المختلفتين إلى النضال.

وتغير الجو في الكهوف أيضاً، حيث أخذت الحياة تكتسب لوناً دينياً قوياً، وكان هناك كثيرون من فقهاء الشريعة يطعنون بسلطة باراباس. وقد نجمت عن ذلك توترات كثيرة، كتلك التي حصلت في يوم من الأيام بعد عيد الفصح بقليل، حيث أمر ثلاثة من أولئك الفقهاء، في غياب القائد، بإعدام رجل لأنه انتهك حرمة يوم السبت. ثارت ثائرة يهوذا بعد عودته وطرد المجرمين الثلاثة.

* * *

كان ينبغي أن تكون هذه عملية بسيطة كعشرات العمليات التي نفذها سابقاً، وكان الهدف هذه المرة أيضاً جابي ضرائب. كان الجباة قد أصبحوا لا يتنقلون إلا تحت حراسة جنديين أو ثلاثة من الرومان، بعد أن سقط كثيرون من زملائهم تحت خناجر المقاومين الأصوليين. خطط باراباس هذه المرة لقتل الجنود أيضاً بالاضافة إلى الجابي. لكن نتنائيل، الذي كانت له كلمته بالنظر إلى ذكائه واعتداله، رغم ما كانت مواقفه تثير من غيظ عند القائد، احتج على ذلك، قائلاً: «هذا يتطلب تحريك كثير من الرجال دفعة واحدة، ما يجعل سبلنا أكثر تعرضاً للأخطار. الجنود الرومان مسلحون جيداً ويحسنون القتال مثلنا. هذا يفرض علينا أن نرسل رجلاً على الأقل مقابل كل هدف، ولا يجوز لنا أن نظن أننا سنتفوق عليهم كل مرة. إذن سنفقد بعض رجالنا. وحتى لو صرفنا النظر عن الاحباط الذي ستولده هذه الخسائر، فنحن لا نملك احتياطيات الجيش الروماني ولا يمكن للعبة الاستنزاف الصغيرة هذه أن تكون في مصلحتنا».

لكن باراباس لم يتراجع. انطلق يهوذا ومعه ثلاثة رجال هم شريكه القديم هارون، وإفراييم، وعنصر جديد فتي يدعى يشوع يتحرق شوقاً إلى القتال. اصطحبوا حمارين، حسب حيلتهم المعهودة، وبعض المأكولات، وكأنهم ذاهبون إلى السوق.

كان الجابي، حسب قول أحد خدمه، سيسلك طريق بيتيل. كان يقود عربة مغطاة ويرافقه اثنان من الفرسان الرومان.

هل كان هؤلاء على علم بالأمر؟ لم يكد يهوذا ورفاقه يظهرون حتى استل الجنود أسلحتهم. لكن يهوذا ظل يتقدم رغم ذلك.

«قفوا مكانكم وافتحو الطريق» ـ صاح الروماني.

أطلق يشوع الذي كان في الخلف مقلاعه فأصاب الحجر جبين الروماني فسقط. حينذاك انقض يهوذا والاثنان الآخران عليهم.

فارتفع غطاء العربة وخرج من تحته جنديان آخران، فجمد يهوذا في مكانه.

«هذا فخ. تعالوا بسرعة».

أطلق أحد الجنديين من العربة سهماً انغرس في عنق هارون، ووثب الآخر شاهراً سيفه على يشوع، فأطلق هذا صيحة وشهر سلاحه، وهجم عليه، وهو سعيد بخوض هذه المعركة الأولى. إلا أنه سقط بعد ثوان وقد انفلق وجهه.

أدرك يهوذا أنه خسر كل شيء. فانبطح أرضاً وتدحرج حتى بلغ قوائم الحصان، وتمكن بوثبة مذهلة من إسقاط الجندي عن ظهره، ثم امتطاه ومد يده إلى إفراييم صائحاً:

«بسرعة!».

فقفز شريكه إلى ظهر الحصان الذي انطلق بهما مسرعاً.

أدرك يهوذا من صفير السهم وصوت انغراسه الخافت في اللحم أنه أصاب شريكه. وأحس بجسد إفراييم يتراخى. فحاول التمسك به بإحدى يديه وتابع جريه. انطلق جندي روماني في أثرهما. وانخسف جسد

إفراييم، وأخذت سرعة مطيته تتباطأ. ولم يعد أمام يهوذا من خيار سوى المجابهة.

كان الروماني يتقدم على حصانه بأقصى سرعة. فوضع يهوذا حجراً في مقلاعه لكن يده زلّت وأخطأت هدفها. وفيما كان يلقم المقلاع حجراً آخر كان الجندي قد أمسى فوقه.

سقط الاثنان أرضاً وراحا يتدحرجان. ورأى يهوذا فوقه وجه عدوه المكشر وقد تقلصت قسماته تحت تأثير الجهد. فانكمش ودفع بالروماني من فوق رأسه. ونهض الرجلان في آن واحد، وتبادلا النظر لاهثين. قال الروماني شيئاً لم يفهمه يهوذا، فكرر قوله صائحاً به:

«سلمني أصحابك وسيكون عليك الأمان».

أحس يهوذا بالخجل عن الآخر وعن نفسه بسبب هذا الطلب.

ودسّ يده خلف ظهره حيث كان دوماً يخبىء سكيناً صغيرة، وأطلقها باتجاهه، مغامراً بكل شيء. انغرست السكين في عنق الروماني فترنح، وبدا على وجهه ذهول شديد.

استعاد يهوذا الحصان، ثم توقف بعد أن اجتاز بضع غلوات. لم يطارده الجندي الأخير. أنزل جسد إفراييم عن ظهر الحصان، وعاين أنه قد فات الأوان، فراح يتأمله وهو خائر القوى: لم يسبق له قط أن عرف مثل هذا الفشل.

وعاد فامتطى حصانه ووراءه جثة صاحبه. كان يحس بالعطش، وبألم في القلب، وانتابه شعور بالضعف.

بدت له معالم الكهوف بعد مسيرة ساعتين. فتوقف، ثم حمل صديقه الميت فوق ذراعيه وتقدم نحو الجرف. تذكر فجأة أن الروماني ناداه باسمه قبل أن يموت.

روى لباراباس بالتفصيل ما جرى وهو ممتقع اللون. فتلقى القائد الصدمة بشجاعة.

«لا بد أن يكون أحد قد تكلم، قد عصى الأوامر. من بيننا أو من بين القرويين».

ثم قال بلهجة عالية:

«كيف أمكن أن يحصل هذا؟

ـ لست أدري. إما أن أحداً نبههم، وإما أنهم قرروا صدفة» أن ينصبوا فخاً لأناس ينقلون أموالاً فوقعوا علينا.

ـ لكن ألم تقدروا على الدفاع عن أنفسكم؟

ـ من كانوا معي مبتدئون. أنت تحاول أن تفرض علينا المجندين الجدد وهم ليسوا مؤهلين لمثل هذه العمليات. فكان لا بد من أن يحدث يوماً ما حدث.

ـ لا تخاطبني بهذه اللهجة».

خفض يهوذا صوته، لكنه لم يعتذر.

«هل أنت متأكد من أن الروماني نطق باسمك؟

ـ نعم، أنا لم أرَ ذلك في حلم.

ـ كانوا إذن يريدونك أنت. لقد وشى بك أحدهم.

ـ من عساه يكون؟ لم يُعتقل أحد منا مؤخراً.

ـ شخص يعرفك شخصياً، ولكن بعيد عنا ربما صديق، أو متعاطف، أو شخص سمع أحداً يتكلم عنك... إن مآثرك قد تجاوزتك، فأنت واحد من أوسع قتلتنا شهرة، والشبان يتناقلون اسمك. لا تستهين بأعدائنا. هل رأوا وجهك؟

ـ بالتأكيد، فأنا لم أكن مقنعاً، وقد نجا منهما اثنان، بالاضافة إلى الجابي.

ـ إنهم يحوزون أوصافك.

ـ كانوا بلا شك يحوزونها من قبل.

ـ وسيقومون بالمزيد من البحث عنك. هذا أول فشل كبير لك.

ـ سيفعل هؤلاء الكلاب كل ما في وسعهم للقبض عليك.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟

ـ لست أدري الآن. كنت أفكر منذ لحظة بالتقليل من عدد طلعاتك. أنت تركب أكثر فأكثر من المخاطر. وسينتهي بك الأمر إلى تعريضنا جميعاً للخطر. لست ألومك بتاتاً، فالعمل الذي تقوم به يثير الاعجاب. لكن...

ـ لكن ماذا؟ هل يجب تنحية العتاد القديم؟

ـ دعك من المرارة السخيفة هذه لم أحزم أمري بعد، وأنت تعرف التقدير الذي أكنه لك. أمهلني يومين أو ثلاثة، وفي هذه الاثناء إبقَ مختبئاً».

عاش يهوذا اليومين التاليين حائراً مضطرباً. وتحدث عدة مرات مع نتنائيل عما يمكن أن يقرر باراباس، دون أن يستطيع صديقه التخفيف من حيرته. كانت قد سرت في الكهوف شائعة مفادها أن العدو تعرف على هويته فنشأ ما يشبه الحاجز بينه وبين الآخرين. أخيراً استدعاه باراباس. ما أن رأى يهوذا وجهه الرصين حتى فهم:

«عليَّ أن أرحل؟

ـ ليس هذا ضرورياً. لكنك لن تعود تخرج وتقوم بعمليات قد تعرض أمننا جميعاً للخطر».

أحس يهوذا بالدمع يبلل عينيه.

«أتطردني؟

ـ لا، لا. إنما سأبعدك موقتاً. ستعود إلينا. أتظن أنني استطيع الاستغناء عنك؟».

ودنا منه باراباس ودس يده بحنان في شعره.

«لكنني لسوء الطالع لا أستطيع أن أترك لك الخيار. فعليك أن تطيع. إما أن تبقى معنا هنا، في الكهوف، لكن متخفياً، وأظن أنك لن تطيق هذا طويلاً؛ وإما أن ترحل إلى أحد أصدقائي. إنه يقيم في ضواحي

أورشليم. هناك يمكن أن تكون مفيداً لنا. اتصالاتنا تتكاثر مع المدينة، وإذا كان لنا هناك واحد مثلك فهذا سيكون مفيداً بالتأكيد.

«أنت تمدحني لتسهّل عليك إقناعي.

ـ لا تتحامق. أنت تعلم جيداً أنني سأفعل كل شيء كي احتفظ بك. لكن هذا وحده هو الحل المعقول. نحن لسنا بحاجة إلى مزيد من الشهداء».

لم يكن هناك فائدة من التردد؛ وحسم يهوذا أمره في الحال. رحل بعد يومين إلى أورشليم، وهو لا يعلم كم سيدوم غيابه. ودّع نتنائيل. وقبل بضعة أعضاء في فريق القتلة الذي كان تابعاً له، وأقسم بأنه سيعود، وتظاهر الآخرون بأنهم يصدقون. بدأت حياته تنهار وهو في العشرين من العمر.

مضى دون أن يلتفت إلى الوراء، حتى عندما سمع نعيق الغراب الأليف، الذي كان أصغرهم سناً يطعمونه على قمة الهضبة.

الفصل الثامن

اقترب من أورشليم عند هبوط الليل واندهش لرؤية هذا العدد من الناس. كان هناك بابليون علقت في أنوفهم حلقات، وأحباش، وسودانيون، وزنوج بلون الابنوس. وكان على جانبي الطريق بضعة تجار يعرضون بضاعتهم من التمر أو حليب النعاج، التي يرتفع ثمنها كثيراً داخل أبواب المدينة. وكان على بعد نحو مئة متر من البيوت الأولى ثلاثة رجال مصلوبين حتى على الشجر.

«هل هذه الطريق تقودني إلى بيت عنيا؟ ـ سأل مجموعة رجال يرتدون ملابس غريبة.

رد عليه رجل يتكلم الآرمية بصعوبة. رجل غريب بلا شك، وربما غير يهودي. وازداد استياؤه.

«نعم، لكنك ستلاقي حواجز تفتيش رومانية. فإذا شئت أن تتحاشاها، فما عليك إلا أن تنعطف صوب اليمين.

ـ ليس عندي شيء يستوجب المؤاخذة.

ـ هذا يعنيك. إذا سرت إلى الأمام بلغت بيت عنيا عن طريق أورشليم. وإذ سرت صوب اليمين ستبلغها عبر دروب صغيرة. رافقتك السلامة».

أحس يهوذا برغبة في سلوك الطريق الرئيسية تحدياً للرومان. غير أنه أدرك عبثية سلوكه، فانعطف بحماره نحو الطريق الأكثر أماناً. وعندما

رآه الرجل يمضي وجه إليه تحية لمح يهوذا ما فيها من سخرية، فزاد هذا من غضبه.

وصل الى بيت عنيا مرهقاً، فلم يلاحظ سيماء البلدة ذات السعة المطمئنة. كانت جمال وحمير القوافل الآتية من أريحا، والتي لم يستطع بعضها أن يدخل المدينة، تعيث فساداً في أشجار الزيتون والتين، التي تشكل ستاراً أخضر أمام حجارة الأسوار. وكان لون السماء البرتقالي المتهاوي وحده يشير من بعيد إلى حضور أورشليم المتوارية وراء هضبة. كانت البيوت عالية وثرية المظهر. سأل عن بيت صموئيل، متحاشياً بالكاد دلو البراز الذي كانت امرأة تفرغه من فوق في مسيل مكشوف. فدله ولد على البيت.

طرق الباب.

«من الطارق؟ ـ سأل صوت أبح.

ـ أنا يهوذا.

ـ يهوذا؟

ـ نعم. أرسلني إليك صديق مشترك.

ـ من هو؟

ـ هل أنت صموئيل أم لا؟

ـ نعم بالتأكيد.

ـ ألم تكن تنتظر أحداً؟

سُمعت كلمات تجديف، وتحرك مقبض الباب. وظهر رأس رجل شبه غليظ، وجه تبرز منه عينان جاحظتان غارقتان في بحر من الشعر الأسود الكثيف وكانت خِصل منه رمادية وقذرة تبرز من تحت قلنسوة مائلة على الرأس. كانت ملامح الوجه مترهلة ونفَس الرجل عابقاً برائحة النبيذ. خنق يهوذا زفرة في صدره.

«نعم، كنت أنتظر شخصاً، لكن ليس اليوم.

ـ لقد أسرعت في المسير. أنت تعرف السبب...».

مسح الرجل وجهه بيده، فاستعادت عيناه بريقهما.

«هذا صحيح. أدخل. أعذرني على هذه الفوضى، فأنا أعيش لوحدي و...».

كان زيت القنديل يشرف على النضوب، ولم يتبين يهوذا جيداً ما يحيط به. كانت أرض البيت ترابية، والأثاث بدائي الصنع. وكانت تشيع فيه رائحة طعام فائت، وإهمال محبب...

«هذه مملكتك الجديدة. لا بد لك أن ترى الفرق بينها وبين مملكتك السابقة...».

وتحركت الظلال، كاشفة في الزاوية الصفراء عناصر أخرى في الغرفة. فكتم يهوذا صيحة وقال:

«هذا...».

وأمسك بيد مضيفه ووجهها صوب عمق الغرفة.

«أرأيت حقاً مخرطة؟».

كان في صوته من السعادة ما جعل صموئيل يبتسم.

«كما عند كل فاخوري حقيقي. لماذا تسأل؟ ماذا... نعم بالتأكيد... كنت أعتقد أن باراباس أخبرك. هذه مخرطة، نعم. أنا فاخوري، لكنني خففت كثيراً من وتيرة عملي. أخبرني باراباس أنك أنت أيضاً... فإذا طاب لك أن تساعدني...».

لم يعد يهوذا يسمع. مرّر يده على المخرطة التي كانت لا تزال تحمل نتفاً من التراب؛ وكانت يده تكاد ترتجف.

«هل يمكنني...

ـ بالتأكيد».

وضحك صموئيل.

يمكنك أيضاً أن تدني القنديل، كي ترى بصورة أفضل».

قعد يهوذا خلف المخرطة وراح يديرها بلطف، كأنه كان يخشى أن يكسرها. وراحت يده تنزلق فوقها بينما كانت قدمه تزيد من سرعتها.

كان لم يلمس برودة الغضار منذ أن التحق بباراباس. فأخذ منه حفنة براحة يده وأدناها من أنفه.

وأرشده صموئيل بإشارة من رأسه إلى كومة من التراب مغطاة بورق شجر رطب، وقال:

«هذا خليط من الغضار والرمل، وهو لا يتحمل حرارة الشّي العالية، فيجب أن تنتبه. أترك لك القنديل. نم في إحدى زوايا المشغل متى شعرت بالتعب. أنا سأنام في الجهة الأخرى. سنتكلم غداً.

لم يتوقف يهوذا عن العمل إلا عندما أطلت الشمس من النافذة الصغيرة وأضاءت الأواني العشر غير المتقنة التي صنعها في الليل.

لم يستطع أن ينام إلا قليلاً إبان الوقت القصير الذي حاول فيه أن ينام. فقد كانت هناك جلبة متواصلة ـ ثغاء الغنم، رغاء الإبل، هزيم أبواق ـ كانت تختلط في موجة تزعجه: أين منه سكون ليالي الصحراء، حتى متى كان واجب التأهب يجعله لا يغفو سوى نصف غفوة؟ نهض منزعجاً، وراح يدور على نفسه في البيت طوال النهار، عاجزاً عن فهم ما جاء به إلى هنا وما عساه يستطيع أن يفعل هنا. لم يشعر حتى بالرغبة في اكتشاف أورشليم، تلك المدينة التي كان مجرد ذكرها ينقله إلى عالم الأحلام.

ثم قصدها في اليوم التالي مرغماً، متسائلاً عن سبب زوال رغبته في ذلك: أهو الخوف من الخيبة، أم تهيب الريفي الصغير أمام المدينة العظيمة؟ أم الخشية من مواجهة الناس أو مواجهة الرحابة؟ انتظر حتى المساء، كما لو أن الغسق كان أكثر مؤاتاة لهذا اللقاء. وأصيب بخيبة. فقد بدت له أورشليم كتلة باردة وقاسية. وشعر، وهو الذي لم يعرف سوى الخشب والطين المجبول بالقش، بأن المدينة العظيمة تنبذه من قبل أن يدخلها. كان احمرار الشمس يسحق الأسوار الضخمة أكثر من أن يضيئها، ولم يوقظ ظل الهيكل الكبير في نفسه ما كان يأمل. اجتاز باب التينة فاكتشف ما هو أسوأ من الغليان الذي كان يخشاه، بضعة أشخاص

يعبرون مسرعين، ونوافذ مغلقة لا يتسرب منها سوى بصيص ضوء شاحب، وخليط من روائح الجيف والزيت المحترق... وكان هناك في زاوية مرضى يفترشون حصيراً وهم يئنون. وكان الجو عابقاً بروائح جثث قطط أو كلاب تخلى عنها أصحابها. وكان هناك عراف قاعد على الأرض وقد بسط أمامه منديلاً عليه كمية من الرمل الأبيض الذي يفسر علاماته. وعاد يهوذا أدراجه، لكنه ضل السبيل فوصل إلى وادي جهنم، المملوء بالنفايات التي كان الهيروسوليميت يلقونها من فوق الأسوار. كانت تتصاعد منها ألسنة لهب، وكانت الريح تنقل روائح النتانة حتى المدينة. وكانت قد طرحت فيها جثث مصلوبين راحت تحترق مع النفايات. وتناهى إلى سمعه صراخ وِلدان تخلت عنهم أمهات شديدات الفقر منذ ولادتهم.

«إذن، كيف كانت هذه النزهة؟».

لم يشعر برغبة في التحدث مع صموئيل عن تلك الجولة، وراح يلهو بمخرطته.

«تُراها كانت سيئة بهذا القدر؟».

كان الشاب يلاقي صعوبة في حبس دموعه، فأخذ حفنة من الطين ووضعها على اللوحة، لكنه لم يتمكن من تثبيتها، لشدة انفعاله، فسقطت.

«أنظر. سأريك شيئاً. هل سبق لك أن زخرفت بواسطة الطلاء؟».

كان صموئيل قد أمسك بإحدى الأواني التي صنعت بالأمس.

«أنا أجد النتيجة جميلة جداً في الغالب. إفعل مثلي. تأخذ الطلاء...».

وجمع بين الكلمة والاشارة، وراح يبحث في المشغل.

«تطلي الوعاء بهذا الدهان. ولكن طلاءً رقيقاً، إنتبه. فإذا كانت طبقة الدهان سميكة فلن تستطيع حكها بعد ذلك، وتخاطر بتحطيم كل شيء».

كان العجوز في منتهى السرور، سعيداً بوجود شخص يستطيع التحدث معه عن الشيء الأساسي الباقي من حياته، رغم تذمراته الدائمة.

«لون الطلاء هو تقريباً لون الإناء. تقريباً لا أكثر. لا يبقى عليك بعد ذلك سوى أن تحكه حتى يتطابق اللونان.

كان يهوذا ينظر إلى النتيجة باهتمام فجائي.

«أنا كنت أرسم بالبكرة أو بالختم...

ـ هذا أيضاً حسن، لكنه أقل أناقة، أقل دقة».

وأخذ من يده الإناء، ثم راحا يتجادلان حول مسألة معرفة ما إذا كان من الأفضل قولبة القطع بالجملة، كما كان يفعل صموئيل، أم قطعة قطعة، ولم يلاحظا قدوم الليل.

«هيا، تعال لتناول الطعام» ـ قال له صموئيل في آخر الجدال بابتسامة خبيثة. وأدرك يهوذا أنه نسي كل خيبته.

وتبين له سريعاً أيضاً أن مضيفه قذا عتاد على العيش كعازب عتيق وفي إسراف في معاقرة الخمر، بعيداً عن الحمية الثورية التي يتميز بها ثائرو الكهوف. على أي حال، كان صموئيل لا يعرف إلا القليل جداً عن منظمة باراباس ما عدا كونها تناضل من أجل مجيء مملكة إسرائيل. وكان ينتظر مجيء المسيح بثقة تحدوه خصوصاً على عدم بذل جهد مفرط لتعجيل هذا المجيء.

في الليلة الثالثة دعا يهوذا إلى مشاطرته الشراب، فقبل الشاب الدعوة دون حماس، فأحس في البداية بلذة الدوار، وراح يقهقه، ثم انتبه إلى أنه يستسلم للإسراف في الكلام عن نفسه وعن الكهوف، فحاول الاقلاع عن ذلك، لكنه لم يتمكن، وانتهى به الأمر إلى التقيؤ على عتبة الباب، تحت ضحكات صاحبه. كان في اليوم التالي يشعر بالصداع وبالخجل، وحاول أن يعرف مدى استرساله في الكلام ليلة أمس. لم يدعه صموئيل يشعر بأنه حفظ شيئاً من شبه الحديث الذي دار بينهما. فأقسم بأنه لن يعود إلى الشراب مرة ثانية، ثم نكث بقسمه هذا بعد ثلاثة أيام.

ودأب بعد ذلك على الشراب حتى السكر، وأخذت محبته لصموئيل تتنامى، واعتاد بسرعة على تحمل مفاعيل الخمر. كان الاثنان يتحادثان،

ويتشاجران، ويشتغلان معاً. وكان صموئيل، ككثيرين من أبناء اليهودية، يسخر سخرية لطيفة من أبناء الجليل ويثير حنق يهوذا بمزحات ليست في صالح أبناء الشمال.

«ما قولك في الذهاب إلى الهيكل؟ أود أن أضحي فيه ببضع حمامات. تعال معي».

لم يستجب يهوذا فوراً لدعوة صموئيل. كان يتردد، شاعراً بأنه مذنب مرتين، مذنب تجاه الله لأنه لم يقم بتكريمه بعد حيث هو موجود أكثر منه في أي مكان آخر، ومذنب تجاه ذكرى يهوذا المكابي الذي كان دخوله هذا الهيكل قبل مئة وخمسين سنة وقد ولّد عنده كثيراً من الأحلام.

خرج الاثنان باكراً صباح اليوم التالي. كانت الشمس تضيء بخجل تلك الهضاب التي كانت تزمع أن تلهبها في النهار، ووصلت إلى كتلة الهيكل الضخمة البيضاء حينما كان الرجلان، مع مئات من الآخرين، معدمين وأغنياء معاً، يطوفون حول الجدران المحيطة بالهيكل والبالغ ارتفاعها اثني عشر متراً. كان قد أُنجز منه فقط بناء أعمدة الرواق الملكي المواجهة للجنوب. وكان هناك عشرات العمال لا يزالون يشتغلون في الأسس، وكان غبار أبيض يتصاعد من الحجارة التي يعالجونها ثم يتساقط حبيبات دقيقة على الحجاج.

اجتاز يهوذا وصموئيل الباب الغربي ليصلا إلى «ساحة الأمم» وهي سوق تحيط بها ثلاثة صفوف من الأعمدة الكورنثية. كان هناك أبقار وأغنام مربوطة تحت الرواق، تضرب بقوائمها الأرض المرصوفة بالمرمر الأخضر، وتدور على نفسها، وتثغو وتخور، مثيرة غمامة من الغبار.

كان اختلاط الأصوات لا يوصف. كان تجار الزيت والبخور، والملح، والطحين يصرخون بأعلى صوتهم كي يسمعهم الناس. وكان هناك وسطاء يبيعون بالمزاد أختاماً تسمح لهم فيما بعد بأن يستلموا حيواناً من عند التاجر. وكانت هناك دكاكين تعرض زينة رخيصة،

وحلقات ثمينة، وعلباً للبهارات... وقف صموئيل منتظراً شراء حماماته، وبحث في جيوبه عن المال: كانت القطع النقدية اليهودية المصنوعة من النحاس أو البرونز وحدها مقبولة، وكان هناك صرافون تجمعوا جنوب باب كوبونيوس يعرضون فوق صناديق عملات من جميع الأنواع الممكن تصورها. وعلى مرأى من يهوذا، كان زوجان بائسان يساومان على شراء زوج من الحمام، وهي الضحية الوحيدة التي تسمح لهما حالهما بشرائها، بينما كان خدم الأشخاص الأكثر ثراء يسوقون ثوراً أو عدة ثيران للتضحية بها. وتعالت احتجاجات:

«دينار ذهبي ثمن الحمامة! لكنه كان يباع بدينار من الفضة الأسبوع الفائت!».

ودار شجار بين تاجر وحاج شاب اصطحب خروفه للتضحية به فلم يُسمح له بذلك. وكان رجلان أو ثلاثة وراء البهائم يلتقطون روثها لكي يجففوه ويستعملوه كوقود. وكان هناك كهنة يتجادلون في موضوع ديني، غير مبالين بكل ذلك الضجيج.

كان الحراس عند المدخل يتحققون من كون الحاجَين لا يحملان شيئاً نجساً. كان نحو عشرين من هؤلاء الحراس يحاولون مراقبة الحشد: يجب أن تكون الثمار، والبقول، ومشتقات الحليب، والأخشاب مطهرة، وذلك لقاء رسم إضافي. أما العميان والمقعدون فكانوا نجسين، فلا يجوز لهم أن يدخلوا، فكانوا يمكثون عند الباب يتسولون. دفع صموئيل ضريبتين إضافيتين لافتداء نفسه، وعندما رفع يهوذا نظره إلى فوق شاهد الجسور الخاصة التي يسلكها الكهنة.

ثم صادف جنوداً من الرومان يقومون بتفتيش الناس وكاد يعود القهقرى. كانت دروعهم ترسل تحت أشعة الشمس لمعاناً فضياً. كانوا خليطاً من جميع الأجناس: زنوجاً، شقراً، من اللاتين، أو الغاليين، لا يجمع بينهم إلا بزتهم العسكرية، ويصعب عليهم حتى أن يتفاهموا بلغة هي خليط من لغاتهم القومية المتنوعة. كان كثيرون منهم لا يكتمون

احتقارهم للشعب الذي يمر أمامهم، وكانوا يتهكمون عليه، ويهزؤون صراحة بأشد أبنائه بؤساً.

رأى يهوذا فوقه حصن أنطونيا الذي يتيح للرومان أن يرصدوا نشاط الهيكل. وأحس بغيظ شديد عندما فكر بأنه لا يستطيع أن يعبد ربه هنا إلا بموافقة أولئك الغرباء. أحس صموئيل بأنه مغتاظ فأمسك بساعده. ودنا منهما أحد اللاويين ودلهما على الدكان التي يجدون فيها أجمل التذكارات.

طالعتهما عند مدخل السور الثاني كتابات تحرم على الوثنيين اجتيازه تحت طائلة الموت، ثم دخلا واقتربا من قدس الأقداس. كان قلز الأبواب يلمع كأنه جديد. وكان ينتصب في الداخل جرم مكعب كبير تتناوب في جدرانه كتل الحجارة البيضاء والرقائق الذهبية. كان الذهب في كل مكان، كان يكسو القباب والسهام، يكاد يعمي البصر، وينتشر فوق الموائد والمذابح والشمعدانات. وحول المكان كان يمتد فناءان رحبان على مسافة عدة مئات من الأمتار وتفصل بينهما من جديد أعمدة ضخمة. كان كل شيء قد صنع كي يلفت الأنظار، كان كل شيء تمجيداً للعظمة.

اجتاز الرجلان فناء النساء، حيث كانت الأمهات تحتفظ بأولادهن القاصرين دينياً، وبعد أن ثبتا وشاح الصلاة على رأسيهما، وصلا عن طريق باب نيكانور إلى فناء إسرائيل. كان هناك كاهن يستلم الحيوانات، ويسوقها إلى المسالخ المقدسة، ثم يحمل دم التضحية إلى أقرب مذبح. كان الكهنة يحتفلون بالذبيحة وقوفاً، يرتدون ثوباً من الكتان، متمنطقين بحزام أحمر غامق، معتمرين التاج، ومرتدين الصدرية ذات الاثني عشر حجراً كريماً.

كانت الحيوانات تعوي، ورائحة الدم تزكم الأنوف. وكانت الأضاحي تتوالى ولا تكاد تذبح حتى يجري تقطيعها على موائد كبيرة من الرخام. أما اللحم الذي يشوى على الجمر، فكان بتصرف أول من يلتقطه. اندفع

صموئيل بين الحشد ونجح في العودة بقطعتين صغيرتين من اللحم محروقتين قليلاً وقدمهما برصانة مصطنعة إلى يهوذا. كانت هناك رائحة لا توصف للحم المحروق والدهن تمتزج برائحة البخور المنبعثة من المجامر.

جال يهوذا بنظره فيما حوله، حائراً بين إعجابه بأعظم مبنى شاهده على الاطلاق وبين التأسف على عدم نيل الإلّه اليهودي سوى هذا البازار اليوناني ـ الروماني. ولاح له فجأة أنه يفهم الآن على نحو أفضل ما يمكن أن يكون قد جاء يفعل في المدينة المقدسة. وعض على اللحم بحمية، ثم اندفع بدوره بين الجمهور محاولاً التقاط قطعة أخرى من اللحم.

* * *

عرف الناس سريعاً أن متدرباً جديداً يعمل عند صموئيل وأنه بارع. وسرعان ما ازداد عدد زبائن العجوز. كان يهوذا في البداية لا يبتعد عن مخرطته إلا لكي يتحقق من شي القطع، ثم أخذ يتبادل بضع كلمات مع الزبائن شيئاً فشيئاً، ثم إلى التحادث طويلاً معهم. ومرّ به تجار جدد، وبضعة لاويين، وكاهن بلباسه المزدان بكرات كبيرة من الحرير الأصفر... وكانت كثيراً ما تأتيه أمهات يصحبن بناتهن. فلاحظ أنه لم يعد ينظر إليهن كما من قبل، أو على الأصح أنه أخذ ينظر إليهن.

كان قد بلغ الثانية والعشرين ولا يزال بكراً. لكن هذا لم يكن بمشيئته: كان مكرهاً على العيش في الخفاء التام تقريباً، وقد وجد في تحمسه للقتال ما يستوعب كل طاقته. كان عدم الحضور الانثوي إلى جانبه يمنعه من فهم ما يمكن أن ينقصه، وسرعان ما انقطع عن مرافقة أصحابه في طلعاتهم الليلية، لأسباب أمنية. هذا كما أن الهالة المحيطة به كقاتل كانت قد أضعفت شيئاً فشيئاً روح الإلفة بينه وبين الآخرين، الذين أخذوا تلقائياً يمتنعون عن الممازحات ذات الطابع الجنسي في

حضوره. أما في أورشليم، فقد تبدل الوضع. وراحت أحلامه تتخذ لوناً آخر. كان أحياناً يفكر بأمه وبباراباس، وكان لا يجرؤ بعد على لصق صورتهما بتلك الصور التي كانت تبث العتمة في ذهنه بعض الأحيان.

خرج في إحدى الليالي إلى أورشليم. كان يعرف إلى أين يذهب. كان قد سمع ممازحات في المشغل، وطرح أسئلة على صموئيل ظاناً أنها جيدة التمويه، فجاءته المعلومات وبثت الحرارة في دمه. فتوجه نحو الأحياء السفلى واجتاز مجرى سدرون دون أن يدري.

عندما وصل إلى الشارع أحس باضطراب. بحث عن البيت الذي قيل له عنه. كانت جدرانه مزدانة برسوم خلاعية تنقصها المهارة في الشكل والخيال في المضمون. كان يلوح له أن الجميع يعلمون تماماً ما جاء لأجله فيحس بخجل مشوب بالمتعة. ومع ذلك، طرق الباب.

لم تستطع الامرأة التي جاءت تفتح الباب إلا أن تلاحظ اضطرابه. كانت شديدة التبرج، يبرز الكحل عينيها، ووجهها مطلي بطلاء أبيض.

«تبحث عن صحبة لطيفة يا بني؟».

اقشعر بدن يهوذا وسرى فيه إحساس بالقرف ممزوج بالهياج. كان يلوح تحت التبرج أن الامرأة لم تعد شابة. كان في صوتها شيء من الابتذال والحشرجة، وكان مفعماً بشهوانية مصطنعة جديدة على أذنيه. ظل جامداً في مكانه، ينتظر. قلدت الامرأة بفمها عملاً فاحشاً كشف الغطاء عن أسنانها التي نخرها السوس.

فدفعها بعيداً عنه وفرّ هارباً، فيما كانت قهقهتها تطارده.

وعاد مع ذلك بعد يومين. لم يخبر صموئيل بما جرى له، وظل يجتر خذلانه وشعوره بالاهانة والعجز. كان لا يفهم سبب هذا الخوف الذي يساوره وهو الذي اعتاد على القتل ببرودة، وكان لا يخشى الدوريات الرومانية. ولم يحظَ بالقوة التي كان يحتاج إليها إلا بفضل السكر.

كان هناك عدة رجال يتمشون في الشارع ولا يتنحون إلا عند مرور أبرص يدندن بجريسته. طرق الباب إياه، موجساً أن تفتح له الفتاة

السابقة إياها. لكنها كانت فتاة أخرى أكثر هزالاً وتبدو خجولة. كانت لا تجيد التبرج بعد، وكان أحمر وجنتيها يصل إلى العينين. لم يعرف يهوذا ما يقول، ثم خاطر بكلمة «مرحبا» قالها بثقة أقل مما كان يتمنى.

فردت عليه بسرعة قائلة:

«أنا لا أضاجع الأبكار».

أحس بالدم يصبغ وجهه.

«لا تضاجعين من؟

ـ لا تحاول أن تخدعني. سبق لك أن أتيت إلى هنا، وأنت تكاد لا تجرؤ على النظر إلي. قلت لك: أنا لا أضاجع الأبكار».

رفع يهوذا يده. وراحت الفتاة تشتمه.

«هدىء من روعك يا فتى».

الامرأة التي قالت هذا كانت قد ظهرت لتوها خلف المومس. كانت جميلة، ترتدي فستاناً أبيض كان أعلاه فقط ينم عن مهنتها.

«لا تثر فضيحة. نحن تحت المراقبة، وإلا فلن تخرج منتصراً».

ولاحظ يهوذا بلمحة جانبية وجود رجلين يتفرجان على المشهد. فأمسكت الامرأة بيده وقالت:

«أدخل معي، ولن يكون هناك مشكلة».

كان الدرج وسخاً. وكان هناك رجل نائم على درجة.

«ليس لك أن تخجل. كلنا مررنا بمرة أولى. لكن هذا يبدو بوضوح أكبر عليك؛ هذا كل ما في الأمر».

ودغدغت خده.

«هي أيضاً ليست هنا من زمان طويل. لذلك تراها تتصنع الكبرياء. لكنها ستتخلص من ذلك».

وفتحت باب غرفة عابقة بالعطور. ورأى يهوذا ترفها الغريب: لم يكن هناك في الواقع إلا بضع ستائر بالية، وفراش ذو قوائم بدلاً من أن

يكون مطروحاً على الأرض. وكان هناك ناموسية تتدلى من السقف. وعلى الجدران قناديل تضفي على الغرفة لوناً أصفر باهتاً.

«هذا مكان أنيس هنا كما ترى. أتريد كوباً من النبيذ؟».

استسلم يهوذا. بعد أن سار إلى حيث بات يصعب عليه التراجع.

«هل معك شيء من المال؟».

ـ أجل بالتأكيد. أعذريني. خذي. لا أعلم ما إذا...».

ضحكت قائلة:

«هذا يكفي».

أخذت بضع قطع وأعادت إليه الباقي.

«لا، لا، احتفظي بها».

لم ترفض، فأخذتها ووضعتها على طاولة صغيرة بجانب السرير.

«أقعد».

ومسح وجهه شعرُها الطويل الأمغر المصبوغ بالحناء عندما انحنت لتقدم له الكأس.

«خذ وأشرب. سيفيدك هذا. أنت ساكن في الحي؟.

ـ لا، في مكان أبعد...».

واختنق صوته فسعل ليستعيد أنفاسه.

«أبعد قليلاً، في بيت عنيا.

ـ وما حرفتك؟

ـ أنا فاخوري. اشتغل مع المدعو صموئيل».

تحدث قليلاً عن عمله، ثم صمت.

«أنت لم تأتِ لكي تحدثني عن نفسك بالتأكيد».

وضحكت ضحكة صغيرة مكبوتة.

«بل أتيتَ لأجل هذا...»

وفكت رباطات ثوبها. كان نهداها ثقيلين وقد أخذا يترهلان. وكان

فرجها الأسود والكثيف الشعر يبدو كأنه ينظر إلى يهوذا. كانت بعض الشعرات تتعدى المثلث القابع بين فخذيها وتضيع في أعالي الفخذين.

«هذا جميل، أليس كذلك؟ لقد رأيت مثله من قبل كما أظن» ودنت منه، ففاحت رائحة أقوى ممزوجة بعطرها.

«لكن، هل لمست مثله؟ إليك به، إن كنت تشتهي. إنه ناعم الملمس». لم يعد بين الاثنين سوى بضع سنتمترات. لامس يهوذا الكتلة الجعداء أول مرة، ثم أعاد الكرة، وأطال اللمسة، واشتبكت أصابعه مع الشعرات السود.

«هل تحسّ كم هذا طيّب؟».

استعاد صوت الامرأة رنينه المهني.

«سترى، سيكون هذا أطيب متى صرت في داخله».

وأدنت فرجها من أنف يهوذا حتى كاد يلتصق به، وتنشق يهوذا رائحته بقوة.

«أنا متأكدة من أن هذا يؤثر بك».

وانحنت عليه، وداعبته من فوق جبته.

وأرسل الشاب أنة، واستسلم للنشوة، ثم احمر وجهه. أحست بأنه يشعر بالاهانة، وراحت تواصل ضغطها بيد حازمة.

«لا بأس عليك. هذا طبيعي. انتظر قليلاً، وسترى. سيعود الانتصاب فتتمكن من البدء مجدداً.

واصلت مداعباتها، ونزعت عنه جبته، وراحت تقبل جسده الذي لم يعد يعرف ما يفعل به. وكما تنبأت له، عادت إليه قواه وتمكن من معرفة سبب مجيئه إلى هنا.

كان يود أن تطول تلك اللحظة، لكنه لم يكد ينتهي حتى دفعته عنها ونهضت والتقطت ثوبها.

«إذا شئت أن تغتسل، يوجد هنا طست فيه ماء. وبعد ذلك إطرح الماء من النافذة».

كانت هي مقرفصة فوق طست.

«إذا شئت أن تعود، ما عليك، إلا أن تطلبني ـ قالت له دون أن تنظر إليه حتى ـ إسمي مريم. الجميع يعرفونني هنا».

عاد إلى المكان في الأسبوع التالي، ولم يجد مريم. وعرف أنهن أربع فتيات يعملن في هذا البيت، لكنه امتنع عن مضاجعة فتاة أخرى، ورجع إلى بيته.

في اليوم التالي أخبر صموئيل بمغامرته. كان لدى الفاخوري من اللياقة ما منعه عن الضحك.

«أعتقد أنني أعرف هذا المكان. فأنا نفسي...».

وارتسمت على وجهه ابتسامة حذرة كأنه يريد معرفة مدى وقع الأمر على يهوذا.

«أنا نفسي، أذكر أنني كنت ارتاده بين حين وآخر. أنا عشت متزوجاً بضع سنوات. لكن زوجتي كانت... لا تحب ذلك كثيراً. كنت بحاجة إلى غير ذلك.

ـ هل ضاجعت كثيراً من النساء؟»

كان يهوذا يتكلم بسرعة أكبر قليلاً من المعتاد.

«لم يكن هذا البيت وحيداً من نوعه. فأورشليم مدينة ملأى بالمجالات، رغم كونها تعج بالكهنة».

وضحك.

«نظراً إلى عدد الناس الذين يؤمونها، صدقني إن للحج مفاتن ليست دينية فقط.

ـ هل انقطعت عن ارتيادها؟

ـ ما زلت أرتادها ولكن نادراً. أنت تعلم أن الحمية عند رجل في مثل سني تستكين. صرت الآن أفضل رفيقات أخرى.

وداعب جرة كانت أمامه. لم يتحدث أحد قط إلى يهوذا عن هذه الأمور بهذه الطريقة.

«هل عرفت سمراء طويلة القامة، جميلة جداً؟

ـ عرفت كثيرات مثلها. ما اسمها؟

ـ مريم».

لفظ يهوذا الاسم وكأنه يقدم هدية ثمينة الى الفاخوري. انفجر هذا ضاحكاً.

«مريم؟ بالتأكيد. إنها ملكة... إنها تستطيع أن تأخذك في فمها وتجعل الأمر يدوم دقائق. مريم... كنا نلعن من يصل قبل الآخرين ويحتفظ بها طوال السهرة. يا لها من امرأة! جاءت إلى هنا دون أن يعلم بذلك أحد لنحو عشر سنوات خلت. إلا أنه لم يمض على وصولها شهر حتى صارت شهيرة. هي التي ضاجعتها... كنت محظوظاً: أحسنت الخيار دون أن تدري...».

عندما أخلد يهوذا إلى النوم كان مستاء من صموئيل بسبب ما قاله عن مريم، ومستاء من مريم لأنها تركت له هذه الذكرى، وكان ناقماً على جميع الناس.

وعاد إلى المكان في الأسبوع التالي، فاستقبلته بابتسامة. لكنه أبعدها، ودخل غرفة امرأة أخرى، وكان متضجراً وحزيناً طيلة السهرة.

لكن هذا الخصام من طرف واحد لم يدم. ووجد يهوذا توازناً بين حياته كفاخوري وصداقة صموئيل الأبوية وارتياده بيت مريم. عرض عليه صموئيل مرة أن يذهب بصحبته، لكنه أحس بأن فكرة الجمع بين حياته في المشغل وحياته خارجه لا ترضي الشاب، هذا الذي راح ينام خارج البيت مرة كل أسبوع. كان يهوذا يمكث طويلاً عند مريم بعد الجماع، وكانت هذه لا تحاسبه أبداً على الوقت الاضافي.

كانت لا تحاسبه على ذلك لأنها اكتشفت عنده موهبة نادرة: موهبة الاصغاء. فقد كان يصغي باعتناء وطول أناة، بعد أن يكون قد وضع على الطاولة الصغيرة ما يتوجب عليه حسب التقليد وكان هذا يزعجهما كليهما قليلاً. قصت له في البداية نوادر عن الرجال الذين كانوا يقصدونها، ثم استسلمت إلى الكلام قليلاً عن نفسها.

«هل أنت جليلي؟ ـ سألته في أحد الأيام.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ يصعب عليّ أن لا أتعرف على لهجة سمعتها طيلة أيام طفولتي.

ـ هل أنتِ أيضاً...

ـ نعم، أنا أيضاً.

ـ من أين؟

ـ من مجدلى. وأنت؟

ـ من خورازيم».

وضحكا طويلاً، سعيدين كل منهما بالآخر، وتذكرا الأماكن التي يعرفانها. أحس يهوذا بغصة تكاد تخنقه، واجتاحه حنين شديد إلى أمه.

«ما بالك تبدو حزيناً...

ـ لا، لا...».

نهضت لتعيد طلاء حلمة نهديها بالأحمر، وغرست مشطاً خشبياً في شعرها المنفلش.

«ما هذا؟ ـ سأل يهوذا محاولاً تغيير الحديث، وهو يشير إلى تمثال صغير كان على الطاولة الصغيرة.

«إنها إلّهة الخصب.

ـ أتؤمنين بهذه الترهات الوثنية؟

ـ أنا لا أؤمن بها، لكن نساءً كثيرات هنا يؤمنّ بها. جُل على بيوت ليهود وسترى مفاجآت. هذه التمائم الصغيرة تملأ حتى بيوت أكثرهم تقوى. من أين يجني تجار الموجوهرات في المدن العشر ثروتهم في عتقادك؟ أنظر إلى هذا، إنه تمثال صغير لبعل، سقط من رجل شديد لتقوى، وعندما رأيته، تظاهر بأنه ليس له. فاحتفظت به. وهذا، أنظر، ين وضعته؟... ها هو».

وأخرجت من علبة صغيرة قضيباً مصرياً، وطرحته على ركبتي يهوذا.

«ألا يذكرك بشيء؟

ابتسم يهوذا والتصقت به.

«هل تحب عملك؟ ـ سألته يوماً.

ـ أنا أمقت عملي. لكنني أحب العمل المتقن. لذلك اجتهد.

ـ كأنك تلميذ في مدرسة دينية يتكلم عن فروضه».

لم تبتسم لهذا التشبيه.

«أحاول جعل الرجال سعداء، إعطاءهم ما جاؤوا يبحثون عنه. إنهم في الغالب تعساء لم يعثروا على من يحبون. فأنا بالنسبة إليهم ضرب من الوهم أكثر مني وعاء للصديد».

كانت كلماتها فظة بطبيعتها لأن الجسد وشهواته كانت خبزها اليومي. وكانت غرفتها تعبق دائماً برائحة الصابون والغسيل.

«لقد عرفت ما معنى الذل. بعد وفاة والديّ ذهبت للعيش عند عمي. كان لعمي خمس بنات وصبي واحد. يوم دخلت بيته كنت في العاشرة من العمر. إغتصبني في الأسبوع التالي. كنت أعرف ما في الأمر. فقد شاهدت والديّ، في الغرفة التي كنا نسكنها جميعاً: كان والدي يحتاج إلى ذلك العمل كل ليلة، فكان يجبر أمي على الرضوخ. كرهت عمي. ووليت هاربة. لكنهم كانوا دوماً ينجحون في الإمساك بي. عندما بلغت الرابعة عشرة، تزوجت بابن أحد الجيران. كان يدعى يشوع. كنت محظوظة لأنه كان لطيفاً معي. غير أنه حتى لو كان غير لطيف لما كان تغير شيء بالنسبة إلي: رحلت حباً بالرحيل».

أحس يهوذا بشيء من الانعطاف. ضحكت مريم قائلة:

«لا تحاول إغرائي. ستضيع وقتك لو فعلت.

ـ لكنني لا أحاول ذلك بتاتاً» ـ احتج الشاب، وبدا منزعجاً لضبطه بالجرم المشهود.

وعادت إلى الكلام وعلى وجهها ابتسامة تبدو كأنها تعزلها عن بقية العالم.

«الذل شيء رهيب. إنه الشعور الغالب علي منذ تلك السنين. كنا لا

نضحك كثيراً في بيت أهلي، لكنني كنت أشعر بأنني محترمة. وبعد ذلك لم أعد محترمة قط...

ـ بسبب الرومان، هذا ما تعنين...

ـ لا، ليس بسبب الرومان. لماذا تحدثني عن الرومان؟ إنهم ليسوا أسوأ من غيرهم. ماذا تظن؟ هل إن الحد الفاصل بين الناس الطيبين والأشرار يمر عبر اللغة؟ لقد التقيت كثيرين من اليهود الذين هم أكثر لؤماً من أكثر الرومان شراً. والتقيت أيضاً يهوداً جديرين بالاعجاب، ساعدوني على البقاء، إن لم يكن بأعمالهم فبكونهم قدوة على الأقل.

ـ لا يحق لك أن تقارني. فاليهود في ديارهم، والله معهم. أما الرومان...

ـ لعلك واحد من العصاة؟».

توقف يهوذا عن الكلام وكأنه تجاوز الحد. كان يميل أكثر فأكثر إلى الافصاح عن أفكاره منذ أن يطمئن إلى محدثه، وهو يعلم أن عليه أن يكون أكثر حذراً.

«لا، لست من العصاة. لكنني لا أرى شيئاً يصعب تحمله أكثر من القهر الروماني».

وأحس بالغضب.

«وليس يمكن أن نقارن بينه وبين مغامرات امرأة فاجرة».

خشي لحظة أن يثير غضبها، لكن مريم ابتسمت قائلة:

«لكم أنت فتي يا يهوذا. للشر وجه واحد، وللألم سبب واحد...».

وابتسمت ابتسامة ساخرة.

«لو كان هذا صحيحاً لكانت الأمور في غاية السهولة. فهل تؤمن أنت بذلك، هل أنت على قناعة به؟ أنظر إلى نفسك. أنت أشبه بديك غاضب... أتمنى لك أن لا تسرع الحياة كثيراً في تعليمك أنها أكثر تعقيداً من ذلك بكثير».

ومررت على شعره يداً صدّها.

«أنا لا أعرف من أنت ولا ما تنتظر. لكنني أكبرك بعشر سنوات، وأحوز خبرة لن تنالها أبداً؛ أتمنى لك ذلك على الأقل. سأقول لك ما انتظر أنا. أنا لا أنتظر أحداً يخلصني من الرومان ولا من المعتوهين، وهذا على كل حال طلب فيه مبالغة. أنا أنتظر رجلاً قادراً أن يحب، أن يحب حقاً، أن يحب كل الناس، اليهود والرومان، البغايا والديوك الصغار، الفقراء والأغنياء. هذا يمكن أن يغويني. لكنني لم أصادفه حتى الآن.

ـ وهو الذي سيعيد إلى الله الأرض التي له؟ كيف يمكن لك أن تعيشي في أورشليم وتتفوهي بمثل هذا الكلام؟

ـ لأنني شهدت عبور أناس كثيرين. المستقبل ليس في أيدي عصاة لا يرون سوى عدو واحد. أولئك العصاة الذين لست واحداً منهم بالتأكيد يا يهوذا».

وقهقهت.

«هيا. أظن أنه خير لك أن تعود إلى بيتك، فأنا مشغولة».

الفصل التاسع

جاء باراباس يوماً إلى الدكان، وكان يرتدي قفطاناً فضفاضاً يحجب ملامحه. أحس يهوذا بسعادة غامرة لدى رؤيته، الأمر الذي جعله يشعر بمدى عزلته منذ ستة أشهر في أورشليم، وصاح:

«ها أنت!

كانت الغضون الكثيرة التي ظهرت على جبين باراباس وحول عينيه تجعله يبدو مسناً. حياه بالكاد واختلى مع صموئيل في الغرفة. لاحظ يهوذا أنهما يتكلمان بصوت خافت، ولم يفهم ما كانا يقولان. وساءه عدم الاهتمام هذا به.

«تعال، سنذهب إلى الحمام».

مشى الاثنان صامتين حتى قطع القائد الصمت الثقيل أخيراً حين قال:

«كيف حالك؟

ـ آكل جيداً

ـ وغير ذلك؟

ـ يلوح لي أنني لا أصلح لشيء، وأورشليم تضجرني».

كان يحاول أن يضفي رنة ساخرة على صوته، لكنه لا ينجح كثيراً إذ كانت تغلب عليه فرحة اللقاء.

«تعرف لماذا أنت هنا. لم تُتح لي حتى الآن فرصة لتكليفك بشيء. لكنني لا أنساك.

ـ هذا كلام!

ـ سأثبت لك صحة ما أقول. كن صبوراً، وسترى.

ـ كن صبوراً، كن صبوراً! ليس في فمك إلا هذه الكلمة. أنت لست من يمضي أيامه في شيّ أواني الفخار!

ـ أنت تحب هذا.

ـ أحب هذا، أحب هذا... أجل أحب هذا. لكنني ليس بواسطة هذا سأشكل خطراً على الرومان. أنا أراهم كل يوم، كما لو أنهم كانوا في ديارهم...».

وصلا إلى جوار الحمامات. كان عند الباب رجال يبيعون الصابون.

«تستطيعان الدخول، فالماء متوفر اليوم».

كان تدفق الحجاج بمناسبة الأعياد الكبيرة شديداً إلى حد يجعل أورشليم محرومة من الماء أحياناً. وكان على اليهود كما على الرومان أن تكون لديهم خزانات خاصة بهم تلافياً للحرمان من الماء.

دفع باراباس ربعين نحاسيين، ونزلا إلى حوض النظافة، ثم دخلا مكفاحاً غير نظيف جداً حيث كان يهود أتقياء يتوضأون.

«يجب أن تبدل مظهرك ـ قال باراباس وهو يتفحص جسد يهوذا ـ أرخِ لحيتك، وقصّ شعرك أقصر مما هو الآن، والبس ثياباً أكثر أناقة، وتصرف على نحو لا يعود معه أحد يعرف أنك جليلي».

احتج يهوذا:

«لا أريد أن أبدل اسمي، على كل حال.

ـ ليس في هذا ما يكفي من الاحتراس. كان عليك أن تفعل ذلك عند وصولك...

ـ لا؛ هذا هو الاسم الذي أعطاني إياه والدي وسأحتفظ به.

ـ حسناً؛ لكن فكر بما قلته لك».

كان زعيم العصاة يغرف الماء ويسكبه على جسده من حوض كبير يصب فيه ماء نبع جرى تحويله لتغذية الحمامات. رأى يهوذا الندوب

التي تجتاحه في عدة أماكن. وكان في عريه ينضح بوحشية أشد من تلك التي تبدو عليه وهو في ثيابه.

«يجب أن...».

كان باراباس يبدو مرتبكاً.

«نعم؟ سأل يهوذا بقلق فجائي

«أنا...

لم يسبق أن رأى يهوذا قط قائده على مثل هذا الارتباك.

«أنت لم تأت لكي تراني فقط...

ـ كلا، ليس لأجل ذلك فقط. يجب أن أقول لك... أردت أن أخبرك بنفسي و...

ـ ماذا تريد أن تقول لي؟».

سأل يهوذا بصوت عال استرعى انتباه عدة رجال كانوا يصلّون، فالتفتوا نحوه مستاءين.

«إنها أمك...

ـ ما بها أمي؟ هل أصابها سوء؟

ـ إنها...»

وخرج من صدر باراباس ما يشبه أنيناً.

ـ «ماتت.

ـ ماتت. وكيف؟

ـ قتلتها الحمى منذ أسبوع.

ـ في خورازيم؟

ـ نعم

لكن ألم يكن معها أحد؟ ألم يكن هناك طبيب؟

ـ سعى الطبيب جهده. لكنها توفيت بسرعة. وهي ليست الوحيدة، فقد مات في القرية عشرة أشخاص خلال بضعة أيام...

ـ وهل كنت هناك؟

ـ نعم. كانت فرصة طيبة. كنتُ قد مررت من هناك لكي أراها، وأتيح لي أن أكون إلى جانبها.

ـ فرصة طيبة... هذا ما تقوله أنت.

ـ هي التي طلبت مني أن أخبرك بالأمر شخصياً، ووعدتها».

نهض يهوذا. كانت الكلمات تشق طريقها في وعيه، وكانت كل ثانية تجعله أشد إحساساً بالمصيبة التي حلت به. كان واقفاً، ودون أن يمسك بالمنشفة التي انزلقت عن جسده، راح يطرق الحائط بقبضته.

فنهض باراباس بدوره.

«كفى يا يهوذا!

ـ لكن لماذا؟ كان يجب أن أكون أنا، أن أكون بقربها. لماذا لم أكن هناك؟».

وعاد يصيح من جديد، وباتت احتجاجات المصلين أشد عنفاً.

«هدىء من روعك! لا يجوز لنا أن نلفت الينا الأنظار. هيا، تعال!

ـ لا أريد!

وعلا صراخه. لم يعد باراباس يعرف ما العمل، حينما انهار يهوذا دفعة واحدة وراح يبكي ويتأوه. وشرح صاحبه الأمر للآخرين، فسُمعت همهمات شفقة حلت محل الاحتجاجات.

وقص باراباس ليهوذا حكاية مرض أمه. حين عاد إلى خورازيم بعد انقطاع دام ثلاثة أشهر كانت طريحة الفراش. وعاجلها الهذيان بعد ساعتين، وماتت بعد يومين. كان نزاعها مؤلماً وعسيراً: تقيؤ متكرر، إرتخاء العضلات الضارّة، هذيان. إلا أنها كانت بين حين وآخر تستعيد وعيها فتتكلم عنه معربة في آن واحد عن أسفها لعدم رؤيته وعن اعتزازها بما يقوم به. لفظت أنفاسها وهي تفكر به. أما أخته حنة فقد احتضنتها خالتها.

صحيح؟ هل قالت هذا حقاً؟».

أقسم له باراباس على ذلك. غادرا الحمام بعد ساعة. وطلب يهوذا

من باراباس أن لا يحدثه عن أمه بعد الآن. وأمضى باراباس وصموئيل قسماً من العصر في قص شعر يهوذا. كان صموئيل قد اشترى له ثياباً جديدة، فتغير مظهره تماماً. ضحكوا عدة مرات، وشعر يهوذا وباراباس بأنهما قد يكونان أكثر قرباً منهما في أي وقت مضى. ثم رحل باراباس بعد أن أقنع يهوذا بأن من غير المعقول أن يذهب إلى خورازيم، حيث ينتظره الرومان دون شك...

«سأحاول أن أعود بعد بضعة أشهر. وحتى ذلك الحين...

ـ بضعة أشهر؟ هذا وقت طويل جداً.

ـ أعرف. أعدك بأن أحاول أن أجد شيئاً لك. لكن إعادتك إلى صفوفنا ستكون عملاً انتحارياً لك وللمجموعة. أتعلم ما يقولون في بلاد هيرودس الجميلة: حتى الطيور في السماء تنتمي إلى الشرطة.

وافترقا متأثرين تأثراً صادقاً.

لم يدرك يهوذا حقاً ما فقده منذ لحظة إلا بعد رحيل باراباس. كان قد اجتمع بأمه عدة مرات بعد اكتشافه علاقتها مع زعيم العصاة، وكانت على جانب من اللباقة كافٍ لكي لا تعكر صفو علاقتها بابنها. غير أن الأخطار السائدة جعلت لقاءاتهما نادرة فيما بعد. وكان دائماً يعد نفسه بالتعويض عن ذلك فيما بعد، حيث سيتاح لهما أن يستأنسا ببعضهما عندما يلتقيان مجدداً. وقد انتهى الأمر الآن. انتهى الأمر. كان يردد هذه الكلمات دون أن يتمكن من إعطائها أي معنى.

«هل أنت بخير؟».

كانت عناية صموئيل به مزعجة. وعاد إلى بيت مريم، لكنه لم يتوصل إلى الجمع بين ذكرى أمه وبين المحيط الذي تحيا فيه مريم، فلم يحدثها عنها.

كان يتحرق شوقاً للعودة إلى القتال، كما لو أنه بممارسة القتل يستطيع بدوره أن يملأ الفراغ الذي حفره الموت في حياته. وكان كلما صادف رومانياً أو متعاوناً شهيراً مع الرومان يمد يده بصورة غريزية إلى

خصره رغم كونه لم يعد يحمل أي خنجر. كان يحس بفرح عكر حين يتذكر سنوات القتل التي عاشها، ويرتعد حيال ما كان يعتقد أنه يرى فيها. ولكي يعوض عن هذا النقص أخذ يتردد أكثر فأكثر على الكنيس، ويتقرب من الله، هذا الذي يغفر له، باعتقاده، كل ما فعل.

كان غارقاً في هذا الاضطراب المشحون بالألم والحرمان، حينما دخل يوماً إلى عند صموئيل شخص غريب الشكل، يرتدي جبة طويلة بيضاء. كان شعره قصيراً جداً، وكان وجهه الوردي اللون كخديه المستديرين يضفيان عليه ملامح طفل كبر بسرعة مفرطة.

كان يهوذا يعدّ الطين، فنظر إلى صموئيل وهو يوشك أن يضحك.

«صه: إنه أحد مجانين الصحراء».

تقدم صموئيل صوب الشاب.

«هل لي أن أساعدك في شيء؟

ـ أنا من جماعة أسينيي صهيون. جاءنا بعض إخواننا في زيارة الأسبوع الماضي، وأعجبوا بجودة إناء أهدتني إياه أمي وكانت قد ابتاعته من هنا. وتمنوا أن يعرفوا ما إذا كان في وسعهم أن يوصوا على صنع مثيل له لأجل دير قمران.

ـ نعم، بالتأكيد. هذا يتوقف قليلاً على الكمية التي تتمنونها، ولكن إذا أفسحت لنا الوقت..

ـ إنهم مئتان هناك. نحن لا نعيش في ترف. أعتقد أن مئة إناء ستكون كافية، الآن على الأقل.

ـ عد بعد أسبوع، وستكون جاهزة.

ـ هل سيكون ممكناً أن يصحبني أحدكما لأجل نقلها إلى قمران؟

ـ سيكلفك هذا ثمناً أغلى قليلاً، لكنه ممكن بالتأكيد».

انحنى الرجل. وبعد خروجه التفت يهوذا إلى صموئيل.

«من هو هذا المجنون؟

ـ إنه واحد من أسينيي أورشليم، وهؤلاء يقيمون على تلة صهيون.

ـ أليسوا في الصحراء. . .

ـ المؤسسون، بلى، غير أن لهم أتباعاً في المدينة. أعتقد أنه يوجد بينهم عازبون ومتزوجون. العازبون كلهم يعيشون في قمران، عيشة جماعية. أنت ستشتغل لأجل هؤلاء. أما الآخرون فهم يعيشون عيشة عائلية في القرى. إن لديهم نظاماً صارماً. لا أعرف بالضبط كيف يعمل هذا النظام. ما عليك إلا أن تزورهم.

ـ لكن ما الذي يميزهم عن غيرهم؟

ـ إنهم يؤمنون بالله إيماناً قوياً، وهم مهووسون بالطهارة. يغتسلون مرة في اليوم. . . أرأيت هذا؟ وإذا أرادوا أن يتغوطوا يوم السبت، حفروا حفرة صغيرة بواسطة رفش خاص وبعمق معين».

وأرسل ضحكة عالية

«طاهرون ونظيفون. هؤلاء الناس لا يصلحون لنا».

وضحك يهوذا بدوره.

اشتغل طيلة الأسبوع لإنجاز الطلبية، دافناً ألمه في رتابة عمله.

«أفترض أنني من سيحمل إليهم هذه الأواني؟ ـ سأل صموئيل.

ـ هل يعجبك هذا؟

ـ بل إنه يثير فضولي. ثم إنها ستكون لي فرصة للخروج قليلاً، فأنا لم أغادر المشغل منذ أكثر من ثمانية أيام. وإلا. . .

ـ وإلا، سأركب العربة.

ـ كما تشاء».

وعاد الأسيني. فتقدم نحوه يهوذا، لكن الشاب ابتعد.

«لا أستطيع أن ألمسك. يجب أن أبقى طاهراً.

تفحص بعض الأواني.

«هذا ما كنا ننتظره. متى تعتقد أنك ستسلمنا إياها في الدير؟

ـ إذا كنت تستطيع الرحيل بعد ساعة، فأنا موافق».

أراد يهوذا أن يستفزه. لكن الآخر وافق دون أن يتأثر.

هل سنأخذ عربتك أم يجب أن آتي أنا بعربة؟

ـ جئ بعربة، جئ بعربة. لكن الثمن لن يتغير».

بدا أن هذه الملاحظة التافهة صدمت الأسيني، فأجاب بلهجة جافة:

«أنا لم أتوقع أن يكون الأمر غير ذلك».

أثار الاحتقار الواضح في كلامه هذا حفيظة يهوذا.

«حسناً، كن هنا بعد ساعة، فنحمل الأواني ونمضي. والآن، لدي عمل. أعذرني.

وعندما التفت ليرى تأثير موقفه هذا، كان الآخر قد توارى.

حرص يهوذا على أن يكون جاهزاً، حينما ظهر الأسيني عند باب المشغل في الموعد المعين بدقة وهو يقود عربة يجرها حمار.

أخذ يهوذا يحمل الأواني في العربة بعد أن فرشها بغطاء لحماية الأواني من الكسر. ووضع قدراً من القش فيما بينها باعتناء ليعزلها عن بعضها.

«هل حرصك على الطهارة يمنعك من مساعدتي أيضاً؟» ـ سأل الأسيني متهكماً.

فشمّر الأسيني عن ساعديه وحمل بدوره كومة من الأواني ضاحكاً.

«أعذرني إن كنت بدوت لك فظاً منذ لحظة. فأنا لا أحيا إلا لخدمة الله وأعتقد أن المرء لا يستطيع أن يحسن القيام بهذه الخدمة ما لم يتقيد بانضباط صارم».

إنتهى التحميل بسرعة، وفي جو أكثر دفئاً.

«سنرحل الآن يا صموئيل ـ قال يهوذا ـ أتعتقد بأننا سنصل هذا المساء؟

ـ لا بد من ذلك إذا شئنا أن ننام في الدير. تمضية الليل في الخارج لا تعجبني.

ـ هيا بنا، إذن».

وأطلق الأسيني نأمة خفيفة، فانطلق الحيوان.

كانت الطريق ساخنة، وحرارة الشمس ترتفع كل دقيقة. بعد أن تجاوزا أورشليم، أشار الأسيني إلى المدينة المجلببة بلون الورد وقال ليهوذا:

«أنظر كم هي جميلة».

كانت أشجار الأرز لا تزال غارقة في الظل ولا يُرى غير حصون أنطونيا.

«أنت تجدها جميلة حقاً؟» ـ أجاب يهوذا بلهجة متعجرفة، قاطعاً الطريق على غنائية رفيقه.

كان يسير إلى جانب العربة، ينظر إلى الأسيني دون أن يجرؤ على مكالمته.

«ماذا في الأمر؟» ـ سأله الأسيني بعد لحظة ـ هل عندك أشياء تريد أن تقولها لي إذ أنني أراك تنظر إلي هكذا من طرف خفي؟ تكلم، أنا لن آكلك، وإذا كان لا يطيب لي أن أجيبك فسأقول لك ذلك.

ـ كلا، لا شيء».

كانت تبدو على وجه يهوذا سيماء الحرد، التي كانت تثير أعصابه هو بالذات ولا يتوصل إلى التخلص منها.

«لا شيء.... ليتك ترى وجهك».

وقهقه الأسيني، فأعادت هذه الضحكة إليه كل شبابه. وارتاح يهوذا إذ شعر بأنه يقدر هو أيضاً أن يسترخي، فسأله:

«منذ متى أنت في أورشليم؟

ـ أنا ولدت في أورشليم. وأهلي ساكنون على تلة صهيون من زمان طويل. كانوا أثرياء، ولا أذكر أنني احتجت يوماً إلى شيء. ثم...

ـ ثم ماذا...

كانت الطريق منحدرة، وكان يهوذا يجهد قليلاً.

«أتريد أن نتبادل؟ إصعد أنت وقد العربة. وأنا سأمشي».

وافق يهوذا

ـ ثم . . .».

ـ ثم التقوا مناحيم، وتغيرت حياتهم. وانضموا إلى الجماعة.

ـ جماعة من؟

ـ مناحيم، معلم العدل.

ـ وحذوت أنت حذوهم؟

ـ كان لي أن أختار غير ذلك. لكنني كنت مقتنعاً بخيارهم، ونمط عيشهم يناسبني تماماً.

ـ وماذا تفعلون طيلة النهار؟ تصلّون، وتضجرون. . . وما الفائدة من ذلك؟

ـ الحياة في شيعتنا تتلخص بكلمتين: الله والطهارة.

ـ مثل حياة كل الناس، أليس كذلك؟

ـ الفرق كبير. أنظر إلى ما حولك، فلن ترى غير النفاق، خصوصاً عند الكهنة.

ـ ليس كلهم، فالفريسيون. . .

ـ الفريسيون هم بالتأكيد أقل فساداً من الصدوقيين، لكنني لا أدري. . .

ـ هؤلاء الصدوقيون الذين يتهافتون على نيل رضى روما. . .

ـ أنا آخذ عليهم خصوصاً عدم إيمانهم بالمسيح.

ـ وهل تؤمن به أنت؟

ـ أنا أعلم أنه جاء من قبل، وأنه سيعود.

ـ جاء من قبل. . . ولم يفعل شيئاً سوى تركنا نرزح تحت نير روما: أحسنت أيها المسيح!

ـ لا تهزأ. ألم تسمع قط بمناحيم؟

ـ لا، أخبرني

ـ أنا لست أهلاً لذلك. لكنك ستجد بلا شك فوق إخواناً يحدثونك عنه.

ـ أتظن أن فضولي سيسمح لي بالانتظار؟

ـ أتمنى ذلك، لأنني أنا لن أستطيع إشباعه».

وتبادلا النظرات، راضيين عن بعضهما رغم خلافهما، بعد أن جربا أفكارهما كما يجرب كلبان صغيران مخالبهما.

عندما حان أوان تناول الطعام، أخرج يهوذا اللحم المجفف وثمار التين من كيسه وقدمها إلى الأسيني.

«لا قبل لي بذلك» ـ قال الشاب.

ـ ماذا تعني بقولك هذا؟

ـ يجب أن أتوضأ توضوءاً كاملاً قبل أن أتناول الطعام.

ـ وماذا تفعل عندما تكون في الصحراء؟

ـ أتدبر أمري بحيث لا آكل إلا بعد أداء الشعائر.

ـ يحسن بك إذن أن لا تجوع غالباً...».

امتنع يهوذا عن تناول الطعام، معبراً بذلك عن احترام كان ليجد نفسه عاجزاً عنه أمام مبالغات تثير غيظه دائماً.

«منذ متى أنتم هنا؟

شيعتنا موجودة منذ مئتي سنة. كان مؤسسوها فريقاً صغيراً، ولكنهم كانوا منذ ذلك الحين ينبذون الهيكل. واحد منهم خصوصاً، هو يوناتان؛ الكاهن الكافر.

لاحظ يهوذا في صوت صاحبه الحقد إياه الذي يكنه هو للرومان.

«تشاجر هذا مع سيد العدالة يهوذا الأسيني. نحن كنا أبناء النور، وهم كانوا أبناء الظلمات والأكاذيب. كانوا يعبدون بيلائيل، ونحن نعبد الإلّه الحقيقي.

ـ وانتصرتم عليهم.

ـ أنا لا أعتبر هذا صراعاً. بل إنه مقاومة. سترى في قمران.

ـ أنت تعيش هناك؟

ـ منذ ستة أشهر. والداي لا يزالان يقيمان في صهيون. لم يقبلا

بالتخلي عن طائفة أورشليم. إنهما على أي حال متزوجان، ولا يُقبل في قمران إلا العازبون.

ـ ألا تشعر بميل إلى البنات؟

نظر الأسيني الى يهوذا بابتسامة مشفقة محببة.

«ليس إذا كان الثمن هو التخلي عن الله.

ـ هذا ليس تخلياً عن الله. هناك وسائط أخرى لخدمته غير الحرسان مما تعطيه الحياة من أطايب.

ـ أتؤمن بهذا حقاً؟».

كانا يقتربان من قمران. كانت الشمس قد بدأت انحدارها، لكن الحر لا يزال خانقاً. كانت البقعة الميتة، بقعة بحر الملح البعيدة قد باتت في الظل وكانت النار آخذة في الشحوب على قنن جبال مؤاب.

«هل الجميع يفكرون مثلك هناك؟

ـ نعم، وهذا ما يجمع بيننا.

ـ وهل تنوي البقاء هنا؟

ـ ربما. أنا مبتدىء. أما بعد ذلك، فلست أدري ما سأفعل....

ـ وما الذي يمنعك عن ذلك؟

احمر وجه الأسيني

«لقد كذبت عليك قبل لحظة. التقيت فتاة منذ سنة، ولست واثقاً من أنني أريد البقاء عازباً».

ابتسم يهوذا ابتسامة غير ساخرة.

«هذا فعلاً سببه وجيه. أنت محظوظ لأنك وجدت ما لا أزال أنا أبحث عنه».

وساد الصمت بينهما لحظة.

«ولم أسألك عن اسمك.

ـ إسمي زكّا».

شد يهوذا على يده، وقال:

«مرحبا زكّا. أنا يهوذا.

ـ كنت أعلم. مرحبا يهوذا».

وساد الصمت بينهما من جديد. وكانا يشعران بالارتياح.

عندما ظهر الدير من بعيد، كانت الشمس الغاربة تضفي لوناً وردياً على حجارة المباني الكلسية البيضاء. لاحظ يهوذا وجود ثلاثة أو أربعة مبان، وتصوينة، وبرج. أحس بشيء من الخيبة، لأن حماسة زكّا كانت عارمة إلى حد جعله يتوقع شيئاً أكثر ضخامة.

«غداً، سترى، عندما تبلغ الشمس أوجها، لن تعود تراها إلا بالكاد لشدة بياض النور. أنظر، لقد رأونا نعود».

ولاح ليهوذا طيف إنسان في البرج.

«علينا أن نتوخى الحذر. والدير يقع في مكان مرتفع بحيث يستطيع مبتدىء أن يرصد العربات القادمة نحوه».

كان حول التصوينة نحو عشر خيام.

«أظن أنك ستنام هنا. فلا يحق للغرباء عادة أن يمكثوا داخل الدير».

وانفتحت الأبواب. وخرج شاب وابتسم ابتسامة عريضة حين شاهد زكّا.

«أدخل. من معك؟

ـ يهوذا، الفاخوري. شاهد المعلم شموئيل مرة شغله، ورأى أنه يحسن أن نشتري منه بضع أواني.

ـ هذا فيما نحن نملك مشغلاً للفخار؟ كنت أعتقد أنه يجب أن يُصنع هنا كل ما يمكن صنعه.

ـ لكل قاعدة استثناء، وهذا الخروج على القاعدة جرى باسم ما هو جميل. أليس هذا سبباً كافياً؟

ـ بلا شك، إذا كان السيد شموئيل يقول ذلك، فمن أكون أنا كي أخالفه؟

عبرت العربة البوابة الكبيرة وولجت إلى فناء داخلي. كانت المشاغل

إلى اليمين. كان يعمل هناك بضعة إخوان يرتدون لباساً لم يعد لونه الأبيض سوى ذكرى. تبين يهوذا مشغل حدادة، ومشغلاً لتقصيب الحجارة، ودباغة. ولم يكد يرى مشغل الفخار حتى توجه إليه. فأمسكه زكّا من ذراعه.

«مهلاً، لا يجوز لك أن تتجول هكذا، قبل أن تقابل أحد المعلمين على الأقل».

ودنا رجل يرتدي لباساً أبيض. كان الرجل مسناً ويسير متوكئاً على عصا.

«لك الشرف، هذا شموئيل، العميد. إنه هنا منذ خمس وأربعين سنة. وقد عرف مناحيم».

وانحنى زكّا. وقلده يهوذا.

«إنهضا يا ولديّ».

كان صوته عذباً، يتناقض مع وقار وجهه.

«جئتنا بهذه الأشياء الجميلة. إنها ترف صغير أقدمه لأصدقائنا. كان يطيب لي أن أفعل ذلك.

قال هذا وكأنه يعتذر.

«لا أعلم ما إذا كان زكّا قد أخبرك، فنحن نعيش هنا في انتظار يوم الدينونة. فهل تنتظر أنت أيضاً يوم الدينونة؟».

لم يشعر يهوذا بميل إلى نقاش لاهوتي ولا إلى تخييب أمل الرجل المسن فقال كاذباً:

«نعم

قطع الحديث وصول فريق من الرجال يرتدون اللباس الأبيض هم أيضاً.

«يطلق على هؤلاء اسم «الأعداديون» ـ وشوش زكّا ـ لا يجوز لك الاقتراب منهم ولا توجيه الكلام إليهم ما لم يكلموك هم».

كان عدة أشخاص من الأعداديين قد دنوا من حوض التطهر وبدأوا

يتوضأون. كان واحد منهم يحملق في عيني أحد جيرانه ويتلو برتابة: ميسمايا بيزبايا كيسكازاي شارليه أماريله».

«ماذا يقول له؟

ـ إنه يتلو له أسماء الملائكة الذين جاؤوا من أرض سدوم: هذا دواء قديم يشفي الدمامل».

قدم زكّا يهوذا إلى قيّم الطائفة، فقال هذا:

«ربما يجب إنزال الأواني. فلنسرع قبل بدء الطعام. أنقلاها إلى هنا، إلى المطبخ».

وراح الشابان يعملان. عبرا عدة مرات أمام باب قاعة الطعام، حيث كان الأعداديون الاثنا عشر قد قعدوا إلى المائدة. كان على المائدة بضعة أطباق بسيطة جداً وأكواب ملأى بالنبيذ. كانت ترى من النافذة آخر أشعة الشمس تداعب البحر الميت. لم يمد أحد من القاعدين حول المائدة يده إلى الطعام قبل أن يتلو الكاهن عبارات البركة التي كان يرددها الجميع تبعاً لرتبة كل منهم. ولم يتبادلوا أية كلمة أخرى.

«ألا تأكل معهم؟

ـ لا. أنا لست سوى مبتدىء. ربما بعد سنة».

كان يجب انتظار الانتهاء من تناول الطعام حتى يتفرق الجميع في الفناء الداخلي، وعاد بعض منهم إلى المشاغل. حمل القيم إلى يهوذا وزكّا خبزاً وزيتوناً سكبا عليها شيئاً من الزيت. أكل يهوذا بشهية بينما كان زكّا يتمتم بصلاة. جاء أحد الكهنة وقعد إلى جانبه، وارتسمت على وجهه ابتسامة رقيقة للغاية. كان مسناً، كان في الأربعين على الأقل، وكانت لحيته الطويلة تتدلى فوق جبته وتكاد تختلط بها.

«قيل لي إنك لا تعرف مناحيم، معلمنا الكبير.

لم يحاول يهوذا أن يكتم جهله فقال:

«لا. أعذرني. من عساه يكون؟

ـ المسيح.

ـ هو أيضاً.

ـ لا، ليس هو أيضاً، بل هو وحده. وهو الذي سيخوض الحرب على ابن الظلمات».

أثار هذا الجزمَ الصادر بهذه القوة حفيظة يهوذا.

«كان مناحيم كائناً معقداً. كان غالباً ما يدعى إلى بلاط الملك هيرودس، لكن هذا البلاط كان يثير قرفه، فراح يعمل سراً على إعداد الانتفاضة.

ـ وهو يذهب كل يوم إلى البلاط؟

ـ ليس كل يوم، لا، بل أحياناً كثيرة».

رأى يهوذا في هذا السلوك المزدوج عملاً شاقاً، وهو الذي يعتبر كل خطوة في اتجاه العدو خيانة.

لم يكن هيرودس ذاك الرجل المتبجح الأحمق كما يصفونه. لقد كان لديه ميل حقيقي إلى معرفة الأفكار وكان يكن لنا عطفاً وفيراً. في زمن طفولته، التقى يوماً في الطريق مناحيم فقال له هذا: «أحيي فيك ملك اليهود»، فانتفض هيرودس قائلاً إنه ليس سوى ولد بعد، فقال له مناحيم: «ستكون مشهوراً وتتمتع بسلطان واسع، لكنك ستنسى التقوى والعدالة، والله سيتذكر هذا النسيان». تذكر هيرودس هذا الكلام لما صار ملكاً، واستدعى مناحيم إليه، وسأله عن مدى دوام ملكه. رفض مناحيم أن يحدد مدة معينة، لكنه قال إنه سيمتد إلى أبعد من ثلاثين سنة. حينذاك أخذ هيرودس ينظر بعطف إلى الأسينيين. واستقبل مناحيم في بلاطه حيث بات أحد مستشاريه وأحد ولديه».

لم ترق انتهازية هذا الصعود في عين يهوذا، هذا الذي كان كل ما يعرفه عن هيرودس، بالاضافة إلى ذلك، يتناقض مع رؤية ملك حكيم وعطوف.

«ثم مات هيرودس. وأعلن مناحيم عن نفسه أنه المسيح.

أراد أن يشاطره الفريسيون هذه الفرحة، لكنهم نبذوه، فاضطر أن يرحل بعد أن ألقوا عليه الحرم».

وكشر الرجل عند ذكر هذا الأمر.

«لم يمنعه ذلك عن المشاركة في الثورة على أرشلاوس. ودافع عن الهيكل في وجه الرومان، وقتله هؤلاء. وتركوا جثته على الأرض ثلاثة أيام».

أحس يهوذا بالنقمة أكثر من إحساسه بالانفعال عند سماع هذه الرواية.

«لكن كيف لكم أن تعتقدوا بأن المسيح تألم، ونبذه أهله، ومات قتلاً؟ فالمسيح ظافر، وكلي القدرة. وإلا فأي معنى سيكون لمجيئه؟».

لم يعد الرجل يصغي إليه وكان يتلو وهو يحرك رأسه على وقع الآيات:

«من الذي احتُقر مثلي؟ من الذي نبذه الناس مثلي؟ من يمكنه أن يضاهيني في تحمل الألم؟ من هو مثلي بين الملائكة؟ أنا حبيب الملك، أنا خدن القديسين». في كتاب دانيال، يتكلم دانيال عن البهائم الأربع، هل تذكر؟».

دمدم يهوذا.

«يقول إن «البهيمة الرابعة تحارب القديسين وتنتصر عليهم». ويقول زكريا: «سيتطلعون إلي بشأن ذاك الذي طعنوه. ظل جسد المسيح المطعون في الطريق ثلاثة أيام على مرأى ومسمع الجميع».

كل قدره كان مكتوباً في إشعيا».

وعاد الرجل التقي يتلو.

«موضوع احتقار، منبوذ من الناس، إنسان ألم، أليف الوجع، كواحد يشيح الناس بوجوههم عنه، مهان، كنا لا نأبه له.

مع أنه كان حامل آلامنا وحامل أوجاعنا.

وكنا نحن نعتبره معاقباً ومغضوباً عليه من الله، ومهاناً».

«ويقول النبي بعد ذلك

«لذلك ستكون له حصة بين الجماهير، ومع الجبابرة سيتقاسم الغنيمة،

لأنه سلّم نفسه طوعاً للموت وأُحصي بين المجرمين، بينما كان يحمل في مواعظه على خطيئة الجماهير ويتشفع للمجرمين». ألا تفهم إذن؟».

لم يرغب يهوذا في المسايرة. فتفرس فيه الرجل وصرفه بإشارة من يده.

أمسك زكّا بيده.

«هذا الرجل من الحكماء. فهل جننت حتى ترد عليه؟

ـ قد يكون حكيماً، لكنه ينطق بحماقات».

وارتسم على وجه الأسيني شعور بالصدمة.

«كيف لك أن تؤمن بأن المسيح استسلم للقتل هكذا؟

هذا مناف للعقل. أنا أقل اطلاعاً منك على النصوص، لكنني مع ذلك لم أسمع قط فكرة كهذه. المسيح سيأتي ويقضي على أعدائه عن بكرة أبيهم. هذا كل شيء.

ـ لكن مناحيم لم يمت موتاً عادياً، بل إنه ضحى بحياته. ولأنه تألم ولأنه مات سنُفتدى نحن. إنه سيعود.

ـ وهذا ما تنتظرون؟

ـ ننتظر؟ لا. كنا نعتقد بالتأكيد أن النصر سيعود بعد موت هيرودس. إن كثرين من القدامى أحسوا باليأس بعد موت مناحيم.

ـ أتصور هذا، نعم. جسد المحرر متروكاً ثلاثة أيام لبنات آوى...

ـ ما برح القدامى حتى اليوم يتحدثون بكثير من الغم عن تلك اللحظات. ورحل بعضهم حتى، انفصل عن الجماعة. كان هذا رهيباً. ثم فهموا. وقرأوا الكتب من جديد.

ـ قرأوها، ووضعوا فيها ما يريدون أن يجدوه فيها. يلوح لي أنهم أخطأوا التعرف على المسيح، ثم، بعد أن ثارت ثائرتهم لعلمهم بأنهم خُدعوا، آثروا أن يلفلفوا المسألة على طريقتهم، فراحوا ينقبون في نصوص لم يقرأها أحد. أظن أن من الأجدى لهم أن يحملوا السلاح وينضموا إلى أولئك الذين يجرؤون على أن يقولوا للرومان ما يفكرون

به. التحرير لن يأتي بتلاوة الصلوات والانتظار. المسيح الذي يموت ثم ينبعث... هذا بصراحة غير معقول».

امتنع زكّا عن مواصلة النقاش. وشعر يهوذا بأنه آلمه، فرضي بالتكلم عن شيء آخر. وفاجأهما النعاس بينما كانا يتحدثان عن طفولتيهما المختلفتين والمتقاربتين في آن. فأوى كل واحد إلى فراشه.

استيقظ يهوذا في صباح اليوم التالي على الأناشيد. فخرج من الخيمة التي اضطر أن يتقاسمها مع تاجر أتى ليرى ابنه، وكان يشخر طيلة الليل.

كانت بوابة الدير مفتوحة جزئياً. أومأ له الحارس الشاب بأن لا يقترب، لكنه تركه يتطلع. كانوا جميعاً جاثين على الأرض، مرتدين ثوبهم الأبيض، كان «الأعداديون»، والمبتدئون يصلّون ويرتلون مزامير فيما رؤوسهم تتمايل قليلاً. وكان بين جملة الأصوات، ونور الصباح الشاحب الذي يداعب الوجوه، وسيماء الخشوع على وجوه هؤلاء الرجال المجتمعين، تناغم سرعان ما بدد سوء مزاج يهوذا. فاستسلم للتأثر، وتخيل نفسه لحظة حتى أنه باق هنا. وأحس لأول مرة بأنه قادر على تقبل موت أمه. دامت هذه الطمأنينة النفسية طوال الصبيحة، هذه التي أمضاها في التأمل. غير أن المتطلبات المفرطة في القساوة لعيش الأسينيين الخاضع لطقوس صارمة، وهذا التمسك بالشريعة الدقيق والعبثي، والذكريات المثيرة الآتية من حياته الثورية، قطعت عليه حبل التأمل. وحتى لو لم يكن هناك سوى الحقد على الرومان، فإن هذا الحقد ما كان ليكتفي، على أي حال، بمثل هذه الصلوات وهذه العبادات.

بعد أن انتقل بسرعة من الإعجاب إلى الرفض، أحس برغبة في الرحيل. حاول أن يهتدي إلى زكّا بين جمهور الجاثين، لأنه كان حريصاً على وداعه قبل أن يرحل.

بعد أن انتهى الشاب من صلواته، توجه نحوه.

«هل أنت راحل؟

كان في صوته أكثر مما كانت تعد به تلك اللحظات التي عاشاها معاً.

ـ أجل. يجب أن أرجع.

ـ ألا تريد أن تبقى قليلاً؟

ـ شكراً، هذا غير ممكن. صموئيل ينتظرني. و...»

لم يكن أي منهما مغفّلاً. فيهوذا كان يشعر بأنه لو كانت الأحوال مختلفة لكان يمكنه أن يعتنق نمط عيش الشاب الأسيني. كان يعلم أن هذين اليومين قيمتهما عنده، وأنه وجد فيهما، رغم كل شيء، شكلاً من أشكال الطمأنينة لن يزول لمجرد خروجه من هذا المكان.

ومشى في الطريق، ثم التفت إلى الوراء، فحياه زكّا وهو في لباسه الأبيض.

«إذا كان لديك طلبيات أخرى من الأواني فنحن تحت تصرفك».

أعادت هذه الملاحظة ذات الطابع التجاري علاقاتهما إلى إطارها الطبيعي وأتاحت تبديد الانزعاج الذي كان قد ذرّ قرنه.

عندما غادر الدير، كانت الشمس في أوج ارتفاعها.

الفصل العاشر

عاد يهوذا عدة مرات إلى عند الأسينيين، حيث اجتمع طويلاً بزكّا، واستسلم مجدداً لسحر هذا العيش الذي كان يعلم أنه لا يناسبه. كان يحن أكثر فأكثر إلى العمل المقاوم، ويمضي بعض الأحيان ليالي بكاملها لا يعرف الرقاد ويداه قابضتان على خنجر وهمي. الساعات الأشد قساوة كانت ساعات الفجر، حين كان يعيش من جديد وهو بين الواعي والغافي لحظات نضاله السري الأشد قلقاً والأشد حماسة، ثم يستيقظ مبللاً بالعرق وفي قلبه شعور جارف بالحرمان.

دامت حاله هكذا ستة أشهر. ثم اتصل به رجل لا يعرفه.

«يجب أن تأتي عشية السبت إلى مفترق طريق بيت حورون، عند هبوط الليل. سيكون باراباس هناك في انتظارك: عنده أشياء يقولها لك».

وخرج الرجل بالسرعة التي جاء بها. تساءل يهوذا عما إذا كان في الأمر فخ، لكنه طرد هذا التساؤل، لأنه كان لا يطيق الصبر أمام فكرة لقاء جديد.

مضى إلى المكان المحدد، إلى مفترق طريقين شديدتي الخطر ليلاً بحيث تخلو من المارة. مرّ شخص واحد كان يغني أغنية معادية للصدوقيين:

كلهم من كبار الكهنة، وأبناؤهم أمناء على بيت المال

أصهرتهم مفتشون على المعابد
وخدمهم ينكلون بالشعب
ويضربونه بالعصي.
نظر إلى الشاب نظرة متعالية، استفزازية.

كان الهواء منعشاً. أسند يهوذا ظهره إلى تينة وراح يتطلع إلى النجوم. أحس وهو يراها جامدة في مكانها بأن حياته في مأزق من جديد. هذا مع أن شعوره بأن مصيره على وشك أن يتغير لم يفارقه؛ ثم ضحك مرتاحاً لما رأى نجماً مذنّباً يعدل الخريطة التي أمامه، متخيلاً أن لقاء هذه الليلة سيغير حياته هو أيضاً.

ولم يكن مخطئاً.

وصل يهوذا فوجده نائماً. لم يعرفه يهوذا لأول وهلة: حلق لحيته، وارتدى ثياباً رثة، وكان يجر جثته الثقيلة وراء عصاً، كما لو كان يصعب عليه أن يمشي.

«هل لي أن أقعد بجانبك يا فتى؟ ـ سأل باراباس يهوذا.

كان يهوذا يتأهب ليفسح له مكاناً حينما أدرك من يخاطبه.

«أعتقد أن بإمكانك أن تفعل: فالوقت ليل ونحن لوحدنا.

ـ أعرف ذلك، لكنني لست واثقاً من أن أحداً لا يقتفي أثري. إذا حصل أمر ما، فالأفضل أن يظنونا غريبين الواحد عن الآخر. تكلم دون أن تنظر إلي. كيف حالك؟

ـ قطعت أخبارك عني من وقت طويل.

ـ كنت أود أن أوافيك بأخبارنا. لكننا أُصبنا... أُصبنا بنكبات».

كانت الكلمات تخرج من فمه بصعوبة.

«اعتقل الرومان عدة عناصر من بيننا. ولم يصمد هؤلاء أمام التعذيب. أتذكر إشعيا بن زبدى... كان قد وصل بعدك ببضعة أشهر».

وتذكر يهوذا فتى أسمر في العشرين من العمر.

«قبضوا عليه وهو يحمل سلاحاً. وعندما قطّبوا له جفونه حتى يرغموه على مشاهدة اغتصاب أمه وأخته، تكلم. طوق الجنود كهوفنا. وبالرغم

من أن الحراس تمكنوا من تنبيهنا في الوقت اللازم تقريباً كي يتشتت كثيرون في السراديب، فإنهم تمكنوا مع ذلك من القبض على نحو ثلاثين عنصراً ولم يكن هؤلاء من الأقل شجاعة. قتلوا عدة أشخاص منهم، وسيقدم بضعة أشخاص إلى المحاكمة وسيُعدمون ليكونوا عبرة لغيرهم. هذه أكبر نكبة حلت بنا منذ موت يهوذا.

ـ وصارت الحركة بلا قيادة؟

ـ لا، ليس بهذا القدر. استطاع معظم القادة أن يفروا. إلا أنه يجب إعادة بناء كل شيء من جديد».

أحس يهوذا بغصة تكاد تخنقه.

«من الذين ماتوا؟

لا أملك حتى الآن اللائحة الكاملة: كل الذين فروا لم يعاودوا الاتصال بعد. غير أن من المؤكد موت حزقيال وبرنابا وإيليا وزكّا...».

كان يهوذا يرى وجهاً وراء كل اسم. وسأل:

«و... نتنائيل؟

«لا، تمكن من الفرار، لكنني حتى الآن لا أعرف مكانه.

وأحس يهوذا بارتياح لا يليق بالآخرين الموتى.

«لا بد من أن يمر وقت طويل قبل إعادة تنظيم كل شيء: تجميع الرجال، إيجاد مخابئ جديدة، إعادة الثقة الى الجميع...

ـ وكيف أمكن حصول هذا؟

ـ كانت تنقصنا نقاط الارتباط. أنا رفضت دوماً أن أتعامل مع السلطات: مع الرومان طبعاً، ولكن أيضاً مع الفريسيين والصدوقيين... ولو أن أحداً أخبرنا لكنا عرفنا أن إشعيا قبض عليه، وكنا تمكنا من...».

وشد قبضتيه في سورة من الهياج العاجز.

«هكذا كنا قد تحاشينا كل هذا. علينا الآن أن نبدأ من أول الطريق.

لا يمكن أن ننطلق من جديد نحو المجهول. فيجب أن نحصل على دعم من داخل المجتمع الراقي في أورشليم».

كان يهوذا يصغي دون أن ينطق بكلمة، لشدة تأثره بما حدث.

«وهذا الدعم ستوفره لنا أنت.

ـ أنا؟ لكن كيف؟ فأنا لا توجد أية صلة لي مع هؤلاء الناس.

ـ لك معهم أكثر مما تظن. فأنت منذ سنة تعاشرهم، وترصدهم، وتخدمهم. هل هناك وسيلة أفضل لمعرفة شخص ما؟

ـ لن أستطيع أن أتصرف كما يتصرفون، ولا أكن لهم سوى الاحتقار.

ـ ستعرف تماماً كيف تتصرف، أنا واثق من هذا، وليس هناك ما يمنعك من كتمان مشاعرك الشخصية. لقد سمعت بمناحيم، معلّم الاسينيين. كان هذا يزور هيرودس، ولم يمنعه ذلك من أن ينتفض، من أن ينزل به ضربة.

ـ المسيح الذي يتألم وينبعث حياً بعد أن يكون قد تعفن ثلاثة أيام في الطريق. يا لها من ضربة، فعلاً!

ـ لا تتكلم هكذا!

ـ هل أنت متعاطف مع الأسينيين؟

ـ متعاطف، لا: معظم هؤلاء لا يرون أبعد من حوض طهورهم. إلا أن بينهم كثيرين احترمهم. ومثال مناحيم يبين أنه يمكن التقرب من العدو دون الكف عن محاربته.

ـ هب أن هذا صحيح. ماذا تريدني أن أفعل؟ أن أذهب الى السنحدرين وأتكلم بالسوء عن الرومان، أو أن أمسك بواحد من زبائن صموئيل واقترح عليه أن أذهب إلى بيته كي أراقب أصحابه؟

ـ أنت لا تظن أنك أصبت. لنا أصدقاء داخل السنحدرين...

ـ هذا جديد. ومن هم؟

ـ رجل يدعى نيقوديموس، خصوصاً...

ـ نيقوديموس معنا؟

ـ ومن زمن بعيد.

ـ لم يكن هذا في علمي.

ـ قليل منا يعرف ذلك. ما عساها تكون قيمة هذه التحالفات لو كان يعرفها الجميع؟

ـ وكيف حصل ذلك؟

ـ فساد كبار الكهنة أثار اشمئزاز آخرين غيرنا. اتصل بنا نيقوديموس بواسطة أحد خدمه. كان واضحاً جداً في عزمه على مساعدتنا وفي حدود هذه المساعدة في آن. المهم اليوم هو أنه مستعد لإفساح المجال أمام بضعة شبان في صفوفنا كي يتسللوا إلى أوساط أغنياء أورشليم.

ـ لكن كم سيدوم هذا؟

ـ بالنسبة إلينا سيدوم حتى إعادة تنظيم قواتنا».

كان يهوذا مذهولاً بما عرض عليه فجأة.

«ترسلني أولاً على مدى سنة إلى عند صموئيل، ثم تريدني أن أمضي إلى حيث أتعفن عند الأثرياء؟ أهذه هي الثورة؟

ـ أول مرة، كان ذلك لأجل إنقاذك أنت. واليوم لأجل إنقاذنا نحن. وقد لا يدوم هذا طويلاً.

ـ حتى ولو لم يدم طويلاً، من قال لك إنني راغب في مواصلة هذه الحماقات؟

ـ يهوذا، يهوذا... لماذا لم تأخذ من والدك إلا طبعه الحاد؟ لن نقهر الرومان بمجرد قتل بعض منهم فقط. يجب الانتقال إلى شيء آخر. وقد اخترتك أنت لأجل ذلك. هل تلومني على ثقتي بك؟

ـ وأي شخص تريدني أن انتحل هذه المرة؟

ـ عليك أن تهذب أساليبك. ولهجتك ستفضحك لا محالة.

لا تستطيع أن تنتحل إلا دور رجل غريب. لنيقوديموس أصدقاء جاؤوا من أبيلين الواقعة وراء جبل حرمون، واستقروا في أورشليم منذ

نحو سنة. وقد بدأوا يتغلغلون بواسطته في أوساط الصدوقيين وفي أوساط رجال الدين. الأب تاجر. فإذا قلت أنت إنك آت من هناك...

ـ لكنني لم أذهب مرة إلى ما وراء حرمون...

ـ سيحدثونك عن ذلك.

ـ فليكن. وبعد، كيف سأتمكن من خدمتك؟ حتى لو صرت عضواً محترماً في هذه العائلة، فأنا لا أرى كيف سيخبرني غراتوس قبل أن يدفع بقواته إلى القتال.

ـ لا تتعذب. تستطيع دوماً أن تسمع شائعات، تصريحات، أن تلتقط ارتعاشات... كنت أؤمن بأن مجرد وجود الله إلى جانبنا يمكن أن يقيض لنا النصر: لم يكن هذا صحيحاً. هذه مشيئته بلا شك. علينا أن نتعلم استعمال أسلحة أخرى.

ـ ونحن ننتظر مجيء المسيح؟

ـ ونحن ننتظر أياماً أفضل. أنا أعلم يا يهوذا أنني أطلب منك الكثير، وأنك تفضل أن تقاتل والسيف في يدك، كما فعلت من قبل. لكن ساعة تلك المعارك انقضت مؤقتاً. إنها ستعود. وأنت قادر أن تساعدنا لأجل هذه العودة.

وتفرس في وجهه برقة على غير عادته.

«لن ننساك. ستكون دوماً على رأس الكفاح».

وحدق يهوذا بدوره طويلاً في وجه باراباس. كانت الأزمة التي تعتلج بها نفسه بادية على وجهه، وانتزع الكلمات انتزاعاً من فمه كي يعبر عن قبوله:

«متى يجب أن أستقر في مسكني الجديد؟».

اكتفى يهوذا بالقول لصموئيل إن عليه أن يرحل، في بحر الأسبوع بلا ريب. ولم يطرح عليه الفاخوري أي سؤال.

«سأشتاق إليك يا صغيري» ـ قال ليهوذا، وكتم دمعة. كاد الشاب يرتمي بين ذراعيه، لكن صموئيل أخذ يغمغم:

«كيف سأتدبر أمري، الآن، مع كل هذه الطلبيات التي لن تعود تؤمنها بعد الآن...».

وعاد إلى مخرطته ولم يعد يرفع رأسه طيلة نصف ساعة. ابتسم يهوذا وفي قلبه حسرة.

رحل بعد أربعة أيام. حضر شاب ومضى به إلى غرب أورشليم، نحو الأحياء الثرية. وصادفا على طول الطريق أشخاصاً ذوي لباس غريب لم يعتد يهوذا على رؤيتهم: سوريون، أنباط، قبارصة، حولاتيون... دخلا من الباب الذهبي، وسارا بمحاذاة الهيكل وقلعة أنطونيا، وشقّا طريقهما عبر الجمهور الغفير المحتشد في الساحة، ثم توقفا أمام بيت كبير من طبقتين مسوّر بجدران.

«هنا يقيم نيقوديموس بن غوريون زعيم إحدى أكبر عائلات أورشليم، والراغب في رؤيتك. أدخل.

ترك الشاب هناك بعد أن طرق الباب بمقرعة خشبية. جاءت نوبية وفتحت الباب. كان هناك شبكة من الأنابيب تؤمن انتشار برودة منعشة في الحديقة لا تخطر ببال أحد في الخارج. وكانت هناك عدة فناءات داخلية تتوالى وقد زرعت فيها أشجار الخروب والجوز والمشمش.

كان داخل البيت أكثر ترفاً أيضاً. محتوياته نادرة ولكنها حسنة الترتيب وكلها في غاية الجمال. لاح ليهوذا أنه موجود في نسخة مصغرة للهيكل. وأورشليم التي عرفها حتى حينه لم تفاجئه من قبل برؤيا على مثل هذه الضخامة.

«أنت الشاب الذي حدثوني عنك؟».

الرجل الذي ظهر أمام يهوذا كان مسناً ولكنه كان يتمتع بكثير من الحيوية. كانت له لحية بيضاء تقضم جزءاً من وجهه، ذات حدود مرسومة بالموسى على نحو دقيق. كان كبير الأنف، وقور العينين، وتجتاح وجهه شبكة من التجاعيد تنم عن سنه وعن حكمته.

«أنا نيقوديموس. أعتقد أن صديقنا المشترك حدثك عني؟».

لم يقابل يهوذا قط من قبل عضواً في السنحدرين، ولم يتمالك نفسه، رغم كل ما كان يعرفه عن فسادهم، من الإحساس بشيء من الاحترام الوجِل.

«لا تستغرب أن تراني إلى جانبكم: مجلسنا المحترم ممزق بين عدة تيارات، وليست هذه كلها على درجة واحدة من مراعاة الرومان. لهذا اتصلت بصديقنا».

كان يتحاشى بعناية ذكر اسم باراباس. وحذا يهوذا حذوه تلقائياً.

«هل شرح لك ما نتمناه منك؟».

كان صوت نيقوديموس دافئاً وقد بعث الثقة في نفس يهوذا أكثر من الايماءة التي أشار بها الرجل المسن إلى يهوذا كي يدنو منه.

«أنا لا أوافق على كل ما يفعل صديقنا، وقد ناقشنا هذا الأمر كثيراً من قبل. يبدو لي، ولمشاركتي في السخدرين دور كبير في الوصول إلى هذه القناعة، أننا نستطيع أن نحاول إنقاذ شعبنا بطريقة أخرى غير أبلسة الرومان. لكنني أعتقد أيضاً أن الطريق التي يدعو إلى سلوكها لا يمكن تجاهلها، رغم كون عنفها ينفرني، وأنه يجب بالتالي أن نحمي أولئك الذين أرادوا من إخواننا أن يسلكوها. لهذا أنا مستعد لمساعدته. سأدعي أنك عضو في أسرة صديقة بعيدة آت من أبيلين. هل كل ما أقوله واضح في نظرك؟

ـ أجل، يا معلم.

ـ ما عمرك؟

ثلاث وعشرون سنة.

أصدقائي في العائلة التي ستتعرف عليها أناس طيبون ينقصهم شيء من الوعي والجرأة. الرجل تاجر عطور ومنسوجات مقرب جداً من الفريسيين وأوساط الهيكل. وهو يتعامل مع الرومان، دون أن يخضع لهم. بواسطة أعضاء هذه الأسرة ستكون حيث يتمنى صديقنا أن تكون. قلت لهم إنك ابن صديق مقاوم قتله الرومان، ولم أتكلم أكثر عن دورك، الذي لا

أعرف كل شيء عنه على أي حال ولا أريد أن أعرف كل شيء. أظن أنهم متعاطفون مع قضيتنا، إلا أن كونهم غرباء عن بلادنا يجعلهم أكثر عطباً وأكثر حذراً في آن. إنهم يستقبلونك لكي يؤدوا خدمة؛ وبعد ذلك عليك أنت أن تجعل نفسك مقبولاً».

ومدّ نيقوديموس يده إلى إناء غمس فيه أصابعه، ثم مسحها بقطعة قماش.

«سعينا إلى أقصى حدود التبسيط للصعوبات التي يمكن أن تنجم عن ماضيك. فيُفترض فيك أن تكون أحد أبناء عمهم البعيدين، حفيد جد مضيفك، الذي رحل فعلاً منذ سنين. وسيكون من سوء الطالع حقاً إذا ما قرر أن يظهر مجدداً بعد غياب طويل. ويُفترض أن والديك توفيا، وأنك على أثر هذه الوفاة، وبعد أن افتقرت وضاقت بك السبل، كتبت إلى عائلتك في القدس فقبلت أن تستقبلك. كن في البداية متحفظاً فيما خص أبيلين حيث يُفترض أنك عشت، ثم تمثّل جيداً ذكريات مضيفيك».

وحمل خادم إلى نيقوديموس معطفه، دون طلب منه، وخيل ليهوذا أنه أمام رؤيا سحرية.

«سأرافقك إلى هذا اللقاء الأول... المكان ليس بعيداً.

كانت الشوارع تغص بالناس رغم الوقت المتأخر. كان الناس يبتعدون عن طريق نيقوديموس، وانعطف هذا يمنة، ثم يسرة، ثم توقف أمام بوابة مشبكة. البيت الذي كان يظهر وراءها كان من الطراز اليوناني. جاء خادم وفتح الباب ورافقهما إلى الداخل، بعد عبور جنينة فيها أحواض ماء مزدانة بالزهور، وأجمات صغيرة من الدفلى، وباحة معمدة.

أدخلهما الخادم إلى غرفة ملأى بالأواني، والسجاد، والمصنوعات الخزفية، والأشياء المختلفة. وكانت إطارات من النبات المجدول تسد النوافذ بحيث لا يخترقها إلا ضوء شاحب. وعلى نقيض بيت نيقوديموس ذي الأناقة الصارمة، كان هنا خليط طاغ يجمع بين التراكم غير المستحب وبين حرارة الفوضى في آن.

«أيها السيد نيقوديموس. لماذا لم تنبئني بزيارتك؟».

كان الرجل الذي دخل الغرفة لتوه يتكلم تلقائياً باللغة اليونانية، لغة كل التجار، ويهشمها بلهجة آرامية.

«جئتك في زيارة قصيرة لأصحب الشاب الذي نرعاه.

ـ آه، ابن عمي العتيد. . .؟».

كان يرتدي ثياباً ثمينة وعديمة الذوق على غرار زينة بيته. وكان سميناً يرتدي جبة من قطعة واحدة، أصابعه مثقلة بالخواتم، وعلى شفتيه ابتسامة معسولة وبشوشة. تطلع إلى يهوذا بعينين يتناقض ذكاؤهما الحاد مع بساطته الطيبة. كان حليقاً على الطريقة الرومانية، بينما كان على كل يهودي أن يرخي لحيته.

«إذن ستعيش معنا الآن؟».

لم يعرف يهوذا أي موقف يتخذ: لم يكن يعجبه شيء من كل ما يرى، وكان عليه مع ذلك أن يتظاهر بالرضى على الأقل إن لم يكن بالحماسة.

«اسمي يفتاح. سترى، حياتك هنا ستكون. . . بلا شك مختلفة جداً عن تلك التي عرفتها. لكنني لا أشك في قدرتك على التكيف معها».

كان نيقوديموس ينظر بعين ساخرة إلى هذا الاتصال الأول غير المضمون العاقبة.

ربما يحسن بي أن آمر الخادم بأن يرشدك إلى جناحك في البيت. وفي هذه الاثناء يشرفني السيد نيقوديموس بأن. . .

ـ لا، مع الأسف. أنا مضطر أن أعود إلى البيت سريعاً.

ـ حسناً، حسناً».

بدا الرجل السمين مرتبكاً. استدار قليلاً على نفسه، ثم عمد إلى مرافقة نيقوديموس حتى الباب. عندما رجع وجد أن يهوذا باقٍ في مكانه ويبدو عليه أنه عاتب على راعيه لرحيله بسرعة.

«أنت لا تزال هنا؟ نعم، صحيح أنه لم يأتِ أحد لكي. . . هيه

هانيبعل، قُدْ ضيفنا إلى جناحه. إلى الغرفة الأخيرة: سيشغل هذه الغرفة أمداً طويلاً».

والتفت نحو يهوذا.

«لست قادراً على البقاء طويلاً معك. لقد خرجت زوجتي ولن تتأخر في العودة. خذ راحتك. إنها تعرف من أنت. والأولاد يعتقدون حقاً بأنك ابن عم بعيد لي. فلا تخيب ظنهم».

ودخل خادم. كان قصير القامة، ويداني الخمسين من العمر. فانحنى انحناءة كبيرة، وأحس يهوذا بضيق كبير أمام هذا السلوك. وتمالك نفسه كثيراً ولم يعترض حين أخذ الخادم منه كيسه، لكنه استعاده منه منذ أن غابا عن الأنظار.

«لا تتعب نفسك، سأحمله أنا».

بدا أن الرجل لم يفهم ما قال له.

اجتاز الاثنان باحة داخلية نيّرة تنفتح وراءها سلسلة من الغرف توقف هانيبعل أمام إحداها. ودخلت وراءه جارية مصرية مثقوبة الأذن على غرار الأرقاء. كانت تحمل قنديلاً مملوءاً بالزيت وفتائله الخمس لم تُستعمل بعد، وهي جاهزة للاشتعال.

«عندك هنا غرفتان، والدرج الذي هناك يسمح لك بالصعود إلى السطح. وإذا احتجت الى شيء، فجناح الخدم من هنا».

وأشار إلى ثقب أسود في آخر المجاز.

«ما عليك إلا أن تناديني، وسأكون حاضراً. اسمي هانيبعل. وإذا أردت أن تغتسل فالمكفاح هناك».

وأشار بيده إلى غرفة استحمام خاصة، وكان هذا ترفاً لم يحلم به يهوذا قط. وجد في الحمّام قصعات ملأى بورق الزهر وبعشب يابس، وثوباً من الكتان، ومناشف مطوية باعتناء، وآنية تحتوي زيوتاً معطرة... إلى جانب حوض الماء اكتشف صابوناً من القلي المعطر بروح الصندل: لا بد أنه سيحتاج إلى وقت طويل كي يعتاد على رائحته.

انصرف هانيبعل تاركاً الشاب حائراً وسط الغرفة.

أمضى يهوذا جزءاً من الصبيحة مستلقياً على سريره الذي كانت طراوته تزعجه. وغرق تحت الأغطية الدافئة، فأحس بانزعاج كأنه غارق في سائل لزج، وبات عاجزاً تقريباً عن التنفس. وظل ينام على الأرض طيلة أسبوع، عاجزاً عن الإغفاء دون أن يحس قساوة الأرض تحته.

كان على الطاولة لفافة من البردي استطاع أن يقرأ عنوانها: سيرة أغسطس بقلم نيقولا الدمشقي. ونقب في الخزائن فوجد ملابس. راح يجربها وهو غير مرتاح. فلعن باراباس كما لم يلعنه يوماً من قبل.

وصعد إلى السطح فلم يبدّد ذلك كآبته. رأى في إحدى الجهات باحة الدار الداخلية التي تقوم في وسطها شجرة ذات زهور حمراء متوهجة ونافورة تنبعث منها سقسقة الماء. وتطلع إلى جهة أخرى فرأى الريف. أحس فجأة بأنه أسير تماماً.

تعرف يهوذا على العائلة قبيل أول وجبة طعام، وكان الجو كئيباً. كانت الأم امرأة لطيفة، سمينة، ذات يدين طويلتين نحيفتين، وهي السمة الوحيدة التي تشير إلى شيء من النبل في مظهر يبرز فيه ابتذال لا يمحوه ثراء الحليّ ولا أقمشة بابل التي تلفه. كان زوجها يدعوها لافينيا.

«هذا ليس اسمها الحقيقي، إلا أنه مُستحسن في مجال الأعمال» ـ قال يفتاح هذا معتذراً دون أن يكتم تماماً، نظراً إلى طريقة تلفظه به، الفخر الذي يجلبه له هذا الاسم المستعار. الابن مالاخيا والابنة سارة يلجان سن البلوغ. مالاخيا في التاسعة عشرة، وسارة تصغره أربع سنوات. أخذ الشبان يغازلون سارة، فكانت هذه تزهو بذلك، وتغمغم بكلمات غامضة كلما ذكر اسم أحد المعجبين بها.

أمسك يفتاح بإبريق من الفخار، وسكب الماء على يده اليمنى، ثم على يده اليسرى، وتلا بصوت منخفض: «مبارك أنت أيها الخالد، أنت الذي تنبت الخبز من الأرض»، وطلب إلى يهوذا أن يستلقي. كان أفراد العائلة يتفرسون فيه بفضول لاه. وكان يفتاح قد احتاط للأمر، فأخبر

الجميع بالصعوبات التي عاناها «ابن العم» والبؤس الذي تركه والداه فيه، وبخشونة تصرفاته. لكن هذا لم يحل دون إحساس يهوذا بأنه موضع رصد واستكشاف، فكان يخشى في كل لحظة أن ينهض أحدهم ويتهمه بأنه دجال كما هي حقيقته. كان لا يعرف كيف يستعمل الأدوات الغريبة للغاية الموضوعة على المائدة ولا يجرؤ على استعمال أي منها إلا بعد أن يرى آخر يستعملها. وسقط من يده شيء من الطعام مرتين. أما النبيذ الذي كانوا يشربونه، والذي جرى تدخين عنبه على نار الحطب، فكان قوياً جداً، أكثر بكثير من ذاك الذي اعتاد أن يشربه. وعندما أراد أن يتحدث عن ذلك خانته لهجته الجليلية فقال حارو (حمار) بدلاً من خمر (نبيذ)، ما أثار قهقهة مالاخيا. عاد إلى غرفته وهو يشعر بأنه مثير للسخرية. على أن احتياطات يفتاح أتاحت مع ذلك عدم الوقوع في ما هو أسوأ: كان الابن والبنت يتوقعان شيئاً ضخماً ففوجئا، وربما أصيبا بخيبة، حين لاحظا أن ابن العم ليس آتياً من عالم آخر، وأشفقت لافينيا كثيراً على ما صدر عن الشاب من حركات رعناء.

لم يزر أول روماني يفتاح إلا بعد ذلك ببضعة أيام. كان هذا مجرد قائد عشرة جاء يطلب سجادة ثمينة لأحد معاوني الوالي الروماني. كان يفتاح يستقبل الزبائن في داره كما في دكانه عندما يتعلق الأمر بمشتريات كهذه. البضائع الثمينة المكدسة في كل مكان كانت تعيق المرور، وتثير حفيظة الولدين: كان هناك أواني زجاجية آتية من صيدا، وأرجوان من صور، وبردي من أريحا...

عندما دخل قائد العشرة كان يهوذا يجر قدميه قرب الـ «تريكلينيوم» الذي كان يرفض تسميته هكذا على أي حال. بصورة تلقائية، هرع للاختباء وراء أحد الأعمدة خافق القلب لدى رؤيته البزة العسكرية. وهرول يفتاح لاستقبال الضابط، وراحا يتحدثان طيلة ربع ساعة تقريباً فيما كان هانيبعل يلف السجادة التي حملها قائد العشرة على كتفيه، ورافقه التاجر حتى الباب، وسار قليلاً بجانبه ثم عاد وعلى شفتيه ابتسامة

رائعة. حينذاك وقع نظره على يهوذا الذي كان لا يزال شاحب اللون من جراء التوتر الذي أصابه.

«ماذا تفعل هنا؟ ألست بخير؟».

كانت لهجة الرجل السمين مترفقة وكان ينظر إليه بما يشبه الحنان، لكثرة ما كان مسروراً بالصفقة التي عقدها.

«ستذهب وتسلم البضاعة في بيته؟

ـ نعم، أنا أو أحد المستخدمين. لماذا؟

ـ الشريعة تحرم على اليهودي دخول بيت الوثني. ألا تعرف ذلك؟».

نظر يفتاح إلى ضيفه بشفقة معجبة، فأحس يهوذا بحقد بالغ عليه.

الفصل الحادي عشر

منذ ذلك اليوم أخذ يهوذا يغيب عن البيت أكثر من ذي قبل. فقد بات لا يطيق جو البيت ولا جو الدكان. وأخذ نيقوديموس يعطيه من المال كمصروف شخصي أكثر مما حظي به قط من قبل. راح يمضي أيامه متسكعاً في الشوارع، ويذهب حتى في تسكعه هذا إلى الضياع في زحمة جماهير الحجاج. وساقته قدماه إلى سوق الخياطين، وسوق الحائكين، وسوق الجزارين. ودخل وتفرج على عمال الدباغة وهم يعالجون جلود الحيوانات المضحى بها في جو عابق برائحة حمض ما تحت قبة منخفضة يدخلها الضوء من بضع نوافذ صغيرة قليلة. كان قد انتشى بروائح حي العطارين، وصادف صانعَي الفخار، وصانعي اللباد، وقصابي الحجارة، وجميع حرفيي المدينة السفلى الذين هم في خدمة الطبقات الدينية التي تقيم في المدينة العليا. كان يبدي اهتماماً بصنعتهم، ويطيب له أن يستمع إلى شروح الذين كانوا بينهم يصبرون على إعطائه شروحاً. وأمسى يألف ثراء الأسواق، ويرى تدفق التين والرمان، والكزبرة واليانسون، وتونة البحر الأحمر وترويت نهر الأردن.

كان، لدى عودته إلى بيت مضيفيه، يشعر بعداء متزايد له: لم يكن محبباً ولا مهذباً، وكان يتغيب أحياناً أوان تناول الطعام ولا يبذل سوى قليل من الجهد كي يتناول طعامه كما يجب، موهماً نفسه بأنه بفظاظته

هذه إنما ينال من الرومان عن طريق تحقير الذين يخدمونهم. ومع ذلك، فقد أقنع يفتاح أفراد أسرته بأن لا يوجهوا إليه أي لوم.

ارتدى في إحدى الليالي ثيابه القديمة ومضى الى عند مريم. ضاجعها عدة مرات. وترك لها كثيراً من المال. فسألته من أين جاء بكل هذا الثراء، وكانت حائرة، وسعت إلى معرفة ما صار إليه، فإدرك أنه ارتكب عملاً طائشاً.

قال له يفتاح يوماً: يا يهوذا؟

ـ نعم

ـ أستقبل هذه الليلة بضعة أصدقاء، من فريسيي الهيكل. وأرى من المستحسن أن يراك هؤلاء الأشخاص الآن بعد أن صرت تعيش معنا».

غمغم يهوذا مستاءً، ثم وافق. فإذا كان ينوي فعلاً أن يؤدي المهمة الغريبة التي كلفه بها باراباس، فعليه أن يتحمل بعض المناسبات الاجتماعية.

وصل المدعوون وكانوا ثلاثة ويرتدون ملابس شديدة الاحتشام. كانت أسماؤهم فيلون وسمعان وداود، وعرف يهوذا فيما بعد أنهم أصحاب شأن خصوصاً في تزويد الهيكل بالشموع والشمعدانات. انحنى الثلاثة أمام يهوذا، ثم أخذوا يتناقشون وكأنه غير حاضر.

«لقد نهبوا دارة يوسف ـ تذمر فيلون.

ـ صار هذا أمراً مستأصلاً ـ قال سمعان ـ لا أدري ما يأتي به السلام الروماني في المدينة الأم، أما هنا...

ـ أخشى أن يكون الأمر أسوأ. لقد وقع طيباريوس في قبضة سيجان، وأمست الترقيات مكافأة على الوشايات. الدعاوى تتكاثر، وكلها لصالح الحظي إياه. ومن المستغرب أن معظم ضحاياه يتركون قبل أن يسقطوا أمام شريعته وصيات لصالحه... فيقوم، مدفوعاً بطيبته، بردّ ثلث الميراث إلى الأرملة أو اليتيم. إنه شخص عجيب، ثمرة مدنية عجيبة».

ويضحك الرجل، وتضفي ضحكته على وجهه مسحة من القساوة.

شرب كثيراً من نبيذ ريزيا. أما الاثنان الآخران، فلم يشربا إلا الماء الذي يقدم في آنية حجرية هي الوحيدة التي تحفظ له نقاوته.

«يا لرداءة أولئك الموظفين الرومان ـ قال فيلون ـ قل لي لماذا كان يجب على الأمبراطورية أن تزعج نفسها بإرسال خيرة رجالها إلى أقاصي العالم، إلى أرض عاصية فوق ذلك؟

ـ المنطقة تجتذبهم، مع ذلك. وقد ضاقوا ذرعاً، حتى هم، من ثلاثي الكابيتول. وتنكروا للآلهة الوطنية: غلبت عليهم مفاتن الشرق، والآلهة القريبة والأليفة، ديونيسيوس، أسكليبوس، إيزيس وسارابيس، أتارغاتيس».

«قل لي يا سمعان ـ سأل داود بعد صمت قصير ـ هل يجب تحطيم الإناء الذي صُنع من تراب نقله في عربةٍ رجل يهودي، أم يجب الاحتفاظ به؟

ـ نوقشت هذه المسألة مطولاً في الكنيس منذ أيام. وكان هناك بضعة أشخاص يجزمون بأن لا. لكن الغالبية اتفقت على نعم، على أن هذا ممكن.

ـ هذا لا يعني أنه يمكن الشراب من هذا الاناء يوم السبت».

وانقضت ساعتان وهم يتحدثون في الموضوع. وتبين ليهوذا أن النقاش يصل دوماً إلى لحظة يعود فيها الجميع إلى البحث مطولاً في العواقب العملية التي لم تلحظها النصوص. فالفريسيون، رغم علمانيتهم، كانوا يقفون جامدين أمام نص الشريعة وكأنهم أولاد يستمعون الى صوت أب صارم. وكان تفسير الشريعة أحد ألعابهم المفضلة، لعبة كان عقمها يبدو رهيباً ليهوذا. وكان بعضهم حتى يعتبر نفسه مقاوماً شجاعاً للحكم الروماني إذ يبني على هذا النحو منظومة معقدة من المحظورات حول رفض كل ما ليس يهودياً.

كان يهوذا يسعى جهده كي يكون لطيفاً متى كان أشخاص مرموقون يزورون مضيفه. لكن عدم معرفته بالثقافة كان يضايقه. فكان يحاول

يائساً أن يتذكر ما حاول باراباس أن يعلمه إياه، وكانت محاولته تذهب سدى في الغالب. فراح يصغي. وكان ذكاؤه يسمح له أكثر فأكثر بأن يدلي برأي بين حين وآخر، رغم عدم حيازته الوسائل النظرية الكافية لدعم براهينهم.

سألهم في أحد الأيام: «ماذا تفعلون غير أن تصنعوا لأنفسكم قواعد لا تعني أحداً غيركم؟ ومتى قررتم أن كل ما يأتي من الغريب أو كل ما مسّه الغريب هو نجس، فهل تكونون قد قلّلتم قيد أنملة من سلطان الرومان؟

ـ نكون قد أنقذنا روح إسرائيل ـ أجابه متبجحاً أحد الثلاثة. نكون قد حافظنا عليها ليوم مجيء المسيح».

كان يفتاح يستضيف أبرز وجوه الفريسيين: كتبة، تجار، رواة الشريعة. واستقبل حتى مرة قيافا، رئيس السنحدرين، الذي كان صدوقياً معروفاً. بعد قدوم الرومان أصبح شاغل منصب الحبر الأكبر قابلاً للعزل، ولا يبقى هذا في منصبه إلا لقاء خضوعه المطلق للمحتل. كان قيافا قد أثرى عن طريق مقتطعاته من الصفقات التي تُعقد داخل الهيكل وقد بنى لنفسه داراً بالمرمر الأبيض والخشب الثمين. قدم يفتاح في ذلك اليوم أطعمة شهية وفيرة، وكان فخوراً باستلامه كمية من الفلفل الحبشي، الذي أسرف في نثره على كل الأطباق.

النفوذ المتعاظم الذي كان يتمتع به الحبر الأكبر، هذا الذي كان كثيرون يعتبرونه مجرد قناع لحميه حنّا كان لا يمنعه عن أن يذم في مجالسه الخاصة أسياده الذين كان يشيد بهم في العلن. كان قديراً، متميزاً، ووسيماً. تحدث طويلاً عن أسفار موسى الخمسة، وحمل على القائلين بوجود الملائكة، وهاجم الحركات المسيحانية، ولم يتحدث مرة واحدة عن الصفقات التي كان يأملها يفتاح. وقد أتاح هذا كله ليهوذا أن يفهم أسباب الحقد العميق الذي يتبادله الفاعلون في الحقل السياسي آنذاك، الغارقون إلى هذا الحد أو ذاك في التعاون مع الرومان، على

حساب إسرائيل الذي خسر كل شيء وبات مقسماً إلى خمسة أقاليم:
أبناء اليهودية يحتقرون أبناء الجليل، والفريسيون يكرهون الصدوقيين،
ويعادون كلهم معاً المقاومين والاسينيين.

بعد أن غادر يهوذا المائدة، راح يتسكع في الشوارع، فلوّث ذيل بزته
بالوحل على أثر نزول مطر خفيف في آخر السهرة، وتوجه أخيراً إلى
شارع الصباغين. لقد قيل له إنه يوجد هناك بيت للقمار ترتاده بعض
مومسات. كان هناك عدة أحصنة قُصت أعرافها على الموضة الرومية
تنتظر أمام الباب خروج أصحابها. وكان هناك فتيان يجولون في
الشوارع: التأثير اليوناني كان لا يقتصر على الفلاسفة فكان اللواط كعقد
للتربية ينتشر أيضاً في أثره.

كان الباب محجوباً بستار كبير من المخمل الأحمر. ومن المستغرب
إذ أن المكان لا يرتاده بصورة أساسية إلا بضعة جنود من الرومان ويهود
موسرون، أن يهوذا لم يشعر بأي قرف من دخوله ونجح تقريباً، عندما
جابهته هذه المفارقة، في إقناع نفسه بأن ارتياده يدخل في إطار الوعود
التي قطعها لباراباس.

كان هناك رجال متجمعون حول طاولات يلعبون بزهر النرد. كانت
الأيدي تنكمش على الأكياس، والأنظار شاخصة إلى تدحرج القطع
الصغيرة المصنوعة من العظم. وكان آخرون يشربون وهم متمددون فوق
فُرش في جوار نافورة شحيحة الماء. وختم أحدهم لفافة من ورق
البردي، وعلى وجهه سيماء سر كبير، ثم سكب عليها بضع قطرات من
صمغ جرى تسخينه على نار شمعة. كان يهوذا يعلم أن عليه أن يتنحى
قليلاً، وأن يجول بين المجموعات، ويطلق بعض الأحاديث، لكنه لم
يشعر بالجرأة اللازمة. ودنت منه شقراء تسأله من أين ابتاع جزمته
المصنوعة من جلد ابن آوى، والتي هي مؤشر أكيد على ثراء حرص
يفتاح على تزيينه به، ودعته فوراً إلى الصعود إلى مضجعها، فاستسلم
للإغراء، لشدة ما كان لون شعرها نادراً. كان جماعهما آلياً. وكذ

يتأهب للخروج وهو أكثر هياجاً مما قبل دخوله، حينما اصطدم في الدرج بمالاخيا. عرف كل منهما الآخر. وراح مالاخيا يغمغم بشكل مؤثر. لاحظت انزعاجه الفتاة التي كانت ترافقه وكتمت ابتسامة.

«أنا... أنا... أيمكن أن تنتظرني، من فضلك، يا ابن العم؟ من فضلك؟».

كان تقريباً يتوسل، ويبدو حتى على استعداد للتخلي عن الفتاة خوفاً من أن يرحل يهوذا قبله.

«لا تخف. سأنتظرك. تمتع جيداً».

الفرحة التي غمرت وجه مالاخيا كان من شأنها أن ترضي أي علج، وقد أدخلت شيئاً من العزاء الى قلب يهوذا. وراح ينتظر. كان مالاخيا لا يزال مبتدئاً في فن الغرام إذ أنه لم يمكث فوق سوى عشر دقائق بالكاد.

«هيا».

وأخذه يهوذا إلى إحدى زوايا الباحة.

«أنت إذن من رواد هذا المكان يا ابن العم ملاخيا».

وشدد ساخراً على الكلمة. وانتقل الارتباك فجأة من جانب إلى آخر. فقد أصبح، وهو الفقير الفظ التصرفات والمتعثر في ثياب بالغة الثراء بالنسبة إليه، هو الأقوى. أحس ملاخيا بالأمر فوراً، وسلّم به. فشعر يهوذا بالامتنان له على هذا الموقف الذي أسهم في تحسين علاقاتهما أكثر من أي شيء آخر.

وبادر ملاخيا إلى الاعتراف. نعم، إنه يرتاد هذا المكان منذ قدوم عائلته إلى أورشليم، وأنه كان بعض الأحيان يغرف من صندوق والده ليؤمن نفقات طلعاته، إذ أن الوالد الطيب، الذي لم يكن حذراً إلا في التجارة، كان يترك صندوقه مفتوحاً، وكان حتى بعض خدمه يغرفون منه بين حين وآخر. وكان هو حتى في أبيلين يتحرق شوقاً إلى اكتشاف المدينة العظيمة وأسرارها. وقد عاشر السفلة من بين الشبيبة المحلية،

وبات يحيا حياة ماجنة في ظل كتمان تام. وقال ليهوذا إنه سيكون ممتناً له إذا هو لم يفضح أمره. وكان، من جهة أخرى، يشدد في طلبه صمت يهوذا، على الألم الذي قد يسببه مجونه هذا لذويه أكثر منه على احتمال حرمانه منه. تأثر يهوذا بهذه المشاعر الرقيقة، وعاودته ذكرى والدته في هذا المكان مع أنه لا يذكر بها إلا قليلاً.

بعد هذه المصادفة أصبح العيش في بيت يفتاح أقل مشقة على يهوذا. وقد أتاح له التواطؤ القائم بين الشابين بعد الآن أن يتمكن من التوهم بأنه يعبر عن احتقاره لمضيفه عن طريق تسهيل انغماس ابن عمه المزعوم في الرذيلة.

أخذ الاثنان يخرجان كثيراً معاً. وأعار ملاخيا يهوذا لفافات، بينها رواية نينوس، التي تحكي أخبار الحب بين الأميرة سميراميس وملك أشور والتي كان يقرأها كل الناس المتعلمين في أورشليم. كان يعرف الشبيبة الغنية في المدينة معرفة جيدة، من أبناء تجار، وأبناء كهنة، وأبناء عائلات تتعاون مع المحتل دون أن تكف عن التباهي بيهوديتها. ودخل يهوذا بواسطته إلى ما بين هؤلاء.

هل ذهبت يوماً إلى الحمامات؟ ـ سأله مرة.

ـ كلا.

ـ أنا ألتقي هناك عادةً بأصدقاء لي. هيا بنا إذا شئت».

وذهبا إلى الحمامات. دفع كل منهما ربعية، ودخلا إلى حجرة الثياب حيث تدثر كل منهما بقطعة كبيرة من القماش.

«نحن هنا يا ملاخيا».

ناداهما فريق من الشبان. كانوا نحو عشرة، غارقين في البخار وعيونهم حمراء متعبة.

«ماذا؟ تلك اليونانية؟ هل نلت منها وطراً؟».

ابتسم ملاخيا مرتبكاً وأثارت ابتسامته ضحك الآخر.

«ماذا؟ ألم توفَّق؟ كانت لا تنظر إلا إليك. قل، أخبرني...

ـ ليس الآن، ليس الآن.

ـ هيا، أخبرني!».

وانضم اثنان أو ثلاثة من المجموعة إلى الأول وراحوا يطالبون ملاخيا بحكاية مفصلة عن مغامرته.

«كنت... كنت أود أن أعرفكم على ابن عمي يهوذا. إنه آت من أبيلين، مثلنا، ويقيم في بيتنا.

هذا أنت إذن ذاك الريفي الذي حدثنا عنه! وقد هجرت أرضك لتأتي وتنزع عنك الوسخ مثلنا؟

ـ كفى يا أليعازر، من فضلك. أنت لست أنيساً.

ـ لماذا لست أنيساً؟ ألست أنت الذي أعطيتنا هذا الوصف عن ابن عمك. لكن بما أنك جئت به إلينا فلا بد أن يكون قد تغير...

ـ نعم أنا، لكن هذا كان فيما مضى... قبل أن أعرفه جيداً.

دنا منه أليعازر وقال:

«لا تعتب علي يا ابن العم، فأنا أهوى الاستفزاز. أهلاً بك في شلتنا. لكنني لا أدري إذا كنا بذلك نقدم لك هدية جميلة...

وغلى دم يهوذا في عروقه، وكان يتأهب لتأديب الوقح عندما وضع هذا يده على كتفه وأجلسه بالقرب منه.

ترددوا كثيراً على الحمامات. وراق هذا المكان ليهوذا: الاسترخاء الذي يبعثه البخار، وضعف الرؤية، والجو الحميم، كانت تخلق أرضية مؤاتية للقاءات كان طابعها الفريد يزيد من قوتها. كانت الحمامات مكاناً يرتاده كثير من الناس، وصورة مصغرة لكوسموبوليتية أورشليم: أنباط، إيدوميون، أحباش، كانوا يختلطون باليهود وببعض الرومان. كان يهوذا على يقين من دونية الغرباء، إلا أنه كان يحب أن يسمعهم يتحدثون عن حياتهم، وعن بلدانهم... وكان يتفق له حتى أن يتوجه إلى أحدهم في الشارع ويمضي لحظة بصحبته، فيشعر بأن عالمه ينفتح. وهذا الشعور

كان يروق له وإن كان لا يقوده بعد إلى إعادة النظر في الوجوه المتزمتة من حياته.

كان أحد أولئك الغرباء، وهو يوناني، حاضراً على الدوام. وكان أحياناً يجلس إلى جانب ملاخيا وأصدقائه، إلا أنه لم يكن يبدو قط أنه معهم بصورة كاملة، فكان أليعازر، زعيم الشلة، لا يحبه كثيراً لأنه لم يستطع أن يكتنه سره. وكان يهوذا يشعر أحياناً بأن نظره يسرح عليه بعض الأحيان. كان اليوناني هو الذي بادر يهوذا بالكلام عند مدخل قاعة الملابس العائدة للرجال.

«هل تريد أن تذوق هذا» ـ سأله الشاب.

فمد يهوذا يده سائلاً:

«ما هذا؟».

ـ هذا خبز حلب. إنه خليط من نباتات نُقعت في زيت الزيتون وروح الغار ثم طُهي طويلاً في وعاء من فخار وجفف تحت نور الشمس طيلة تسعة أشهر.

ـ يا لها من وصفة! وما وجه استعمالها؟

ـ إنها تستعمل لتجميل كل السيدات الرومانيات. لكنها ليست وقفاً عليهن».

ضحك يهوذا. وأخذ المكعب الأسود الصغير في يده، فانبعثت منه رغوة خفيفة تحمل أريج التوت.

«إسمي أرشيبيوس، وأنا آت من أثينا».

كان يهشم النبرات الآرامية المرهفة الى حد يجعل السامع أحياناً يفهم الكلمة على غير معناها. لكن صوته كان رخيماً وابتسامته صادقة.

«أدخل معي إذا شئت...».

اعتاد يهوذا بسرعة على طريقته في الكلام.

«منذ متى غادرت أثينا؟

ـ منذ زمن طويل. لكنني ولدت فيها.

ـ وكيف هي؟ هل تختلف كثيراً عن مدينتنا أورشليم؟

ـ ليس كثيراً. العيش فيها طيب كما في أورشليم، والناس يفكرون بالأمور إياها.

ـ ما هي هذه الأمور؟

ـ الحب والحرب والله».

تحدثا في المواضيع الثلاثة، وكثيراً عن الحب، رغم تحفظ يهوذا الغريزي إزاء الأخلاق اليونانية، وقليلاً عن الحرب، رغم خشيته من أن يسرف في الافصاح عن أفكاره، وتكلما أكثر من ذلك عن الله. كان أرشيبيوس يبدو شغوفاً بهذا الموضوع، وطاب له أن يزغزغ يهوذا. فشدد هذا بلهجة هجومية على إيمانه بإلّه واحد، يرعى شعبه من أقدم الأزمنة.

«أجد أمانتك جديرة بالإعجاب ـ قال له اليوناني ـ إن إلّهكم يهوه يرميكم منذ قرون بكل المصائب الممكنة، وأنتم لا تزالون تستقبلونه خير استقبال. لماذا، ترى، لا يتحلى أصدقائي بمثل هذه الأمانة؟

ـ لو كان عندهم مثل هذه الأمانة، لما كان الرومان قد التهموا الآلهة اليونانية. ويبدو حتى أن بعض آلهتكم يحمل اسمين، واحداً باليونانية والآخر بالرومانية...».

وانتقلا إلى القاعة الكبيرة، وقعدا على بنوك كان يتعرق عليها عدة شبان.

«كل الديانات تتحلى بحكمة التأسف على ماض ما. أما أنتم اليهود، فتريدون أن تبنوا مستقبلاً. وفيما الأولمب وراءنا نحن، فأنتم ترون مملكتكم أمامكم. أنتم تأملون أن يكون التاريخ سهماً يطلق نحو الخير فيما أن كل شيء يثبت أنه ليس سوى حلقة تسير إلى الانغلاق على نفسها. وبعد، فإن هذا الأمل الطفولي هو أحد الأشياء التي أجدها الأكثر تحبباً عندكم.

ـ هل يبدو لك أننا بحاجة إلى تعاطفكم؟

ـ إلى الاقتداء بنا. ماذا تنتظر؟ رجوع إلّهك؟ ومتى؟

ـ متى قرر هو. من واجبي أن أنتظره وأن أسهل رجوعه.

ـ وما سيفعل بهذا الرجوع؟

ـ ما يشاء. لقد اختار شعبنا وهو سيقوده إلى جانبه حتى النهاية.

ـ هذا الإلّه الذي تعبده إذن يقرر مصيرك كما يشاء، وما عليك إلا أن تذعن. أين هي تلك الحرية التي تود استعادتها؟

ـ كيف يمكن الحكم على ما يشاء الله؟

ـ يمكن ذلك، بلا ريب، ولكن ليس بالإذعان دون تفكير لكل ما يفرضه عليك من يدعون أنهم ممثلوه.

ـ ماذا تقصد؟

ـ ما هو الإيمان؟ لقد علموني أن الكون خالد، وأنه يتحرك حسب ظاهرات تتكرر بانتظام، وأن الآلهة مجموعة أشخاص على قدر من الجاذبية يقودها رئيس لا يقدر أحد على تعريفه. هذه رؤية إلى العالم بسيطة وتترك لنا الحد الأدنى من الاختيار. أنتم تمضون وقتكم غارقين في التوراة القديمة، التي تنادي بإلّه واحد، خلق كل شيء، وجعل منكم أخبث شعب في العالم. ليس الرومان مخطئين إذ يعتبرون ديانتكم انعزالية وتكره البشر. أنتم أعداء جميع الناس، ما خلا اليهود. وأنتم تخصون أولادكم...».

احتج يهوذا. كان أشبه بكلب يتأهب للعض، فيما كان أرشيبيوس يمضي في كلامه بلهجة ساخرة ومتعالية.

«أقدر أن أثبت لك هذا في الحال. ناولني هذه الصابونة. أنتم تختارون مآكلكم حسب مقاييس منافية للعقل، وفريضة السبت عندكم تتميز بنفاق تام. فأي منكم لا يتحرك إذا تعرضت أمواله للخطر إبان هذه الاستراحة المقدسة؟

ـ لا أعرف أحداً يمكن أن يفعل ذلك. ولست أنا بالتأكيد».

كان الغضب يهز يهوذا، ولكنه رفض مع ذلك أن ينهي النقاش، كما

لو أنه علق في الشرك الذي نصبه محاوره. ولاحظ أرشيبيوس هياجه فقهقه ضاحكاً.

«أن تؤمن بإلّه واحد ألا يعني أنك تؤمن بأنك أنت إلّه؟».

والتقى يهوذا أرشيبيوس مراراً عديدة بعد ذلك، ووجد في الحوار معه متعة أدهشته. وبينما كان قد تعلم أن يؤمن إيماناً أعمى بشيء واحد، أخذ يكتشف إلى جانبه سحر البرهان، والمتعة في تأسيس أفكاره على فهم عقلي وليس على قبول أبكم. وفتح أرشيبيوس عينيه على مبادىء الفكر اليوناني، وجعله يستوعب فكرة العقل الأول، تلك الفكرة المذهلة القائلة بأن العقل وحده يمكن أن يعطي فكرة غير واضحة عما هو إلّهي. «أليس حب السجال هو الشيء الوحيد الذي يجمع حقاً بين اليهود واليونانيين؟» ـ أجابه يوماً حين كان يهوذا يعرب عن دهشته إزاء ما يتحمله بطيبة خاطر من كلامه.

كان لا بد من مرور بعض الوقت حتى يعتاد اليهودي الشاب على تذوق هذا الهجاء الذي أدخله الشعراء والفلاسفة الرومان في حياة المدينة، وعلى التسليم بأن الضحك ليس بالضرورة إهانة.

«شُكَّ قليلاً وسترى؛ سيكون هذا مفيداً لك ـ كان أرشيبيوس لا يني يردد له هذا القول ـ أَقلع عن يقينياتك. الشك هو وجه الحرية الآخر، وهذا أصل عظمته.

ـ كلّا، بل إنه الفخ الذي ينصبه إبليس لغرورك لكي يذهب بك إلى حيث يشاء» ـ أجاب يهوذا. لكن السهم كان قد أصاب.

* * *

كان الكلام يتكاثر في أورشليم عن أعمال الشغب التي ترتكبها عصبة من اللصوص. فقد هوجمت عربتان مشحونتان بأموال الضرائب. وسقط مرة ثانية نحو عشرة رجال بين قتيل وجريح، ويقال إن الجيش في حالة

يأس. كانت هذه الأخبار تملأ قلب يهوذا بالحزن، لأنه كان على يقين من أن أولئك الرجال هم آخر أصحابه.

اقترب منه الرجل عند خروجه من الحمامات وهزه، فاستدار ليحتج على ذلك:

«غداً، الساعة العاشرة، عند المفترق».

ثم توارى. لم يتمكن يهوذا من رؤية وجهه، إلا أنه اعتقد أن صوته هو صوت زبدى، بائع التين، الذي انضم الى مجموعتهم قبل أن ينتقل هو إلى عند صموئيل بسنة.

خرج في اليوم التالي في الساعة المحددة قاصداً المكان الذي التقى فيه بباراباس آخر مرة. انتظر طويلاً. كانت قد عبرت عشر عربات تقريباً، وعرض عليه بعضها أن يعيده إلى المدينة.

كان سائق العربة الحادية عشرة يرتدي برنساً تدلت كبوشيته فسترت وجهه.

«إصعد إلى جانبي».

كان هذا نتنائيل. وثب قلب يهوذا في صدره. لم يكن لديه أخبار عن صديقه منذ أمد طويل... رغب في معانقته، لكنه امتنع.

«كن حذراً - قال له نتنائيل وقد حزر رغبته - يُفترض أنني تاجر وأنقلك إلى مسافة ما. كان باراباس يريد أن يرسل شخصاً آخر، لكنني طلبت أن آتي أنا. فقد كان يجب أن أراك».

ورفع نتنائيل كبوشيته، فرأى يهوذا عينيه اللتين لاح ليهوذا أنهما محمومتان.

«عشنا أياماً رهيبة يا يهوذا. باراباس أصيب بالجنون. لقد زج بنا في أسوأ أعمال اللصوصية. فهاجمنا مزارع، واختطفنا رهائن من بين الفلاحين البسطاء. وطعن بخنجره مرة رب عائلة رفض أن يعطينا حبوباً. لم يعد القتال ضد الرومان سوى ذريعة. الشيء الوحيد الذي يهمه أمسى النهب. احتج الجميع في الفريق على ذلك. فعمد إلى طرد بضعة عناصر

من بيننا لكي يعيد تثبيت سلطته. ولكي يثبت أنه لم يتخلَّ عن الكفاح، عمد إلى مهاجمة عربة تنقل أموال الضرائب. كنا خمسة عشر رجلاً، وبقي عشرة منا على الأرض. لعلك سمعت الناس يتحدثون عن ذلك؟

ـ نعم، ولم أرد أن أصدق أنكم كنتم أنتم.

ـ بلى، للأسف.

ـ وهو؟ هل قتل؟

ـ لا، بل أصيب بجراح. تمكنا من الفرار، وبقي معنا زبدى، وجُود، وقزحيا. كان علينا أن نتفرق. وطلب مني باراباس أن أقابلك وأتحدث إليك...

ـ وماذا تقول لي؟

ـ أن تبقى حيث أنت. إنه لا يعلم ما سيحل به، ولا ما إذا كان سيعاود الكفاح...

ـ لكن هل هو راغب في ذلك؟ تقول لي إن...

ـ لست أدري. لا أظن أنه يستطيع العيش بلا عنف. فإذا ظل على قيد الحياة، واستطاع أن يختبىء، فسيبدأ مجدداً، وحينذاك سيتصل بك.

ـ ومن قال له إنني سأوافق؟

ـ لا أحد، يا يهوذا، لا أحد. لكنه لا يستطيع أن يعرض عليك شيئاً آخر.

ـ وما سأفعل...؟

ـ أن تحافظ على حياتك، وتختبىء. لا بد أن يكون نيقوديموس على علم بإخفاقنا. إبقَ معه، وانتظر.

ـ لكن، هذا مستحيل. إن يفتاح الذي أعيش عنده يخدم الصدوقيين، وحتى الرومان أحياناً. كنت لا أتحمله إلا لعلمي بأن الأمر لن يدوم.

ـ كن صبوراً. إذا كنت في سجن، فإنه ذهبي...».

باتت الطريق أكثر زحمة بسبب الاقتراب من أورشليم، وصمت نتنائيل لحظة لكي يوجه حماره.

«هناك آخرون أقل حظاً بكثير. أنا مثلاً».

وظهرت أنانيته فوراً ليهوذا.

«أعذرني. هذا صحيح، وأنت؟ وأنا الذي كنت أظنك الأكثر فتوراً بيننا، والأقل التزاماً... واليوم أنا الذي يعيش في الترف وأنت الذي قاتلت حتى النهاية. أنا أشعر بالخجل، صدقني، أشعر بالخجل.

ـ دعك من هذا الكلام التافه. لقد خدم كل منا بطريقة مختلفة. لم أكن سوى جندي، كما أنت. فإذا وجدت نفسك حيث أنت، فهذا يعني أنك أعددت لكي ترقى إلى أعلى أكثر مني. لقد تحطم صعودنا. لكننا لم نخرج من المعركة. لم ينتصر أحد، وخصوصاً أعداؤنا.

ـ وما ستفعل الآن؟

ـ سأمضي بلا شك فترة من الزمن عند عمتي التي تقيم في جوار أريحا. أنا لست مشبوهاً قدر ما أنتما مشبوهان، باراباس وأنت. يمكنني أن أرتاح هنا بعض الوقت، وربما اتصلت بمجموعات أخرى. أنا لا أيأس. ولكن يجب الانكفاء فترة من الزمن.

ـ هل سنلتقي مجدداً؟

ـ سيكون هذا مخاطرة كبيرة الآن. فمجرد مجيئي هذا المساء... انظر، باتت أورشليم قريبة. يجب أن تنزل. لا أريد المجازفة بدخول المدينة».

لم يسبق ليهوذا قط أن أحس بمثل هذه الرغبة الشديدة في معانقة رجل. كان يشعر بأنه تافه على تلك العربة، غارقاً في ثياب بالغة الثراء بالنسبة إليه، ولا يستطيع أن يظهر تأثره. وصافح صديقه مصافحة طويلة.

«هيا، يا يهوذا... أنا أيضاً سأشتاق إليك».

فهم يهوذا. نزل من العربة، وحاول أن يلتقط نظرة نتنائيل، فلم يفلح لأنه كان قد أسدل كبوشيته على وجهه.

ومضى عائداً إلى المدينة وهو يبذل جهداً كبيراً كي لا يلتفت إلى الوراء إلا عند وصوله إلى باب الدار. لكنه لم يستطع رؤية عربة نتنائيل التي ضاعت في خضم العربات الأخرى.

الفصل الثاني عشر

ومرت الأيام، واستقر يهوذا في حياته الجديدة. كان شعوره برسالته وحقده على الرومان لا يزالان موجودين، ولكن يبدوان على درجة أخف، وكأنهما أنزلا إلى الدرجة الأخيرة من الاهتمام. لقد وجد في أرشيبيوس الصديق الذي يخفف من قساوة شعوره بغياب نتنائيل، واندمج في شلة الشباب اللاهين القريبة من ملاخيا. وسرعان ما بات يتمتع بشعبية ملحوظة بعدما اكتشف دواءً فعالاً للغثيان الذي كان يصيبهم على أثر إفراطهم في الشراب (كرات صغيرة سوداء تبتلع، وهي خليط من الغضار والخربق).

ونسي تلك الفكرة التي لقنته إياها أمه والعائلة بأن المال هو مكافأة الحد الأدنى من الفضيلة.

عرض عليه يفتاح يوماً أن يشتغل معه في الدكان.

«أنت تعيش معنا منذ نحو سنة. نيقوديموس لم يحدثني عنك. ولست أدري لماذا طلب مني أن احتفظ بك، لكن لا يمكن أن يدوم الأمر على هذه الحال...».

واستدرك في الحال قائلاً:

«أنا لا أقصد بكلامي هذا أن عليك أن ترحل، بل على العكس، فالجميع هنا مسرورون برؤيتك في البيت. ملاخيا يحبك كثيراً، وحتى

ساره... لكن ساره في سنّ صعبة، كما تعلم. باختصار، نحن جميعاً مرتاحون لوجودك بيننا. لكن...».

كان يهوذا ينتظر، متسائلاً عما قد يكون الأمر الذي يصعب الافصاح عنه إلى هذا الحد.

«كنت أود... أخيراً، إذا شئت... أنا أحتاج إلى شخص يساعدني في المتجر، شخص قادر على مسك الحسابات، والتثبت مما يدخل ومما يخرج. بالتأكيد ستنال أجراً على ذلك. وأعتقد من جهة ثانية أن هذا قد يهمك. هذا كل ما في الأمر. فكر فيه طويلاً، ولا تجب في الحال».

وتراجع يفتاح وغادر الغرفة قبل أن يتمكن يهوذا من الاجابة.

تعجب يهوذا نفسه من سرعته في اتخاذ قراره: تُراه أمسى مطواعاً بهذه السرعة؟ أم أنه كان متضجراً ولا يريد الاعتراف لنفسه بذلك، إلى حد جعله في حاجة إلى شيء من النشاط؟ لقد قبل العرض على الفور، الأمر الذي كان لا يظن حتى أنه ممكن قبل ستة أشهر.

وباشر العمل بعد يومين. كانت البُسط، والأواني، والعطور، والحليّ مبعثرة على الأرض كيفما اتفق.

«هاك ما يجب عمله ـ قال له يفتاح ـ يجب ترتيب كل هذا. لقد وصلت عدة قوافل في الوقت ذاته، وغرقت في تدفق البضائع. عليك أن تنضد كل هذا، وتحصي عدد قطع كل صنف. انظر، سأريك الدفاتر.

أمضى يهوذا عدة أيام في التعرف على لوائح الأرقام: الداخل، الخارج، البضائع المخزونة، والمباعة، وتلك التي قُبض ثمنها، وتلك التي لم يُدفع ثمنها بعد... كان عقله، الذي يواجه مشكلة جديدة تماماً عليه، يجد صعوبة في الإمساك بالعناصر الضرورية. وجاء يفتاح ليساعده، دون أن يطلب منه الإسراع. وتمكن بعد أسبوع تقريباً من إتقان عمله، وشرع ينضد البضائع.

عندما دخل روماني ذات يوم إلى المتجر أحس يهوذا بالرغبة في

التخلي عن كل شيء. دخل يفتاح إلى مؤخرة المتجر وجاء بالمزهريتين اللتين جاء الرجل ليأخذهما. كان يهوذا قد اختبأ وراء عمود ويداه ترتجفان. فقال له التاجر:

«إن كنت لا تريد مقاربة الروماني فما لك إلا أن تلج الباب الصغير في المؤخرة، الذي يفضي إلى باحة داخلية، ثم تقفز من فوق الحائط فتجد نفسك في الشارع. عُد متى شعرت بتحسن حالك».

لم يضف شيئاً، وغادر الغرفة. وتأثر يهوذا بهذه الرعاية من قبله.

وفي يوم من أيام نيسان، وكان الطقس لا يزال بارداً، دخل الدكان قائد عشرة وعلى وجهه كل غطرسة الفاتح. جاء يسأل عن قماش لأجل مفروشات بيته كما قال ليفتاح الذي هرع إلى استقباله. وراح يجس الأقمشة بحركات ذات تحسسية تتعارض مع مظهره الفظّ.

بعد ذلك ببضع دقائق، دخل ولد يجر وراء عكاز قدماً ملتوية، وكانت ترافقه رائحة ملح مجبول بالعرق. لم يره يفتاح إلا بعد فوات الأوان؛ وفيما كان يتقدم نحوه ليدفعه إلى الخارج، كان الولد قد دنا من الروماني ومدّ نحوه طاسته الخشبية، وبما أن هذا لم ينتبه لوجوده، وضع الصبي يده على ذراعه وهزه.

انتفض الروماني وكأن نحلة لسعته، ثم تراجع مرتعداً، وكاد يتعثر بلفّة قماش، وعاد فصفع الولد صفعة اسقطته أرضاً. وطارت طاسته في الهواء وتبعثرت القطع النقدية القليلة التي كانت فيها على الأرض.

كان يهوذا بعيداً جداً بحيث لم يتمكن من الوثوب على الرجل. نظر يفتاح إلى الروماني، الذي أخذ يزمجر قائلاً إن الشيطان يأبى إلا أن يعكر الطمأنينة حتى في الأماكن المحترمة من هذه المدينة القذرة. ثم انحنى على الصغير ومسح وجهه بقطعة من قماش، ففتح الولد عينيه، ونهض دون أن ينطق بكلمة، والتقط عكازه، وانحنى في التواء غريب وراح يلتقط قطع النقود التي استطاع أن يعثر عليها. كان وجهه يحمل أثر صفعة الروماني. لم تبلل عينيه أية دمعة. وأخرج يفتاح من كيسه

قطعتين نقديتين ذهبيتين كبيرتين ودسهما في يد الصبي، ثم خرج هذا دون أن يشكره، وكان في حالة ذهول.

حبس كل واحد أنفاسه، منتظراً غضب الروماني. لكن يفتاح عاد إلى الغوص في أقمشته، وعرض واحداً منها على الضابط سائلاً إياه وكأن شيئاً لم يكن: «ما رأيك في هذا أيها السيد؟» فأخذه الضابط دون أي تلميح إلى ما حدث.

أحس يهوذا لأول مرة بموجة من الحنان تجتاحه تجاه ذاك الصبي.

ولام نفسه بعد ذلك على الانعطاف الذي كان قد شعر به تجاه يفتاح، لكنه لم يستطع الانفصال عنه. فإن تصرفه مع الروماني، وتلك الجرأة الصافية والمتكتمة التي لم تعبأ هذه المرة بطموحاته الاجتماعية، قد بددا تلك الصورة التي تكونت لديه عن التاجر. وباح له بذلك في إحدى الأمسيات، فاحمرّ وجه يفتاح سروراً وقال له بلهجة متلعثمة:

«لعلك تصورت أننا نؤيد الرومان بصورة مطلقة في كل ما يفعلون. هذا غير صحيح. إن تعيين أعضاء السنحدرين من جانب هيرودس لا يعجبني، كما أن تصرفات الصدوقيين المنافية للضمير تقرفني. لكنني أعيل أسرة وأحس بأن عليّ مسؤوليات تجاهها بالدرجة الأولى. أنا لا أتنكر لما أفعل. أعرف أنك قاتلت بصورة مباشرة أكثر. هذا جدير بالاحترام، لكنني لا أقوم به ولن أقوم به. فأنا لست ثورياً، بسبب من قلة الشجاعة أو حسن الفطنة، وإنما أنا مجرد تاجر غريب يحاول أن يجد مكاناً له في مدينة معقدة. كنت طيلة حياتي أتكيف مع ما يحيط بي، مع الناس الذين أحبهم، وأولئك الذين استقبلهم، ومع الوضع المحيط بي. لو خُيرت لما ارتضيت أن أعيش تحت نير روما، لكن لو فُرض عليّ ذلك لتكيفت معه. أنظر إلى هذا كما تشاء، فهذا من حقك، حتى ولو كنت قد تعودت كفاية عليك لكي أفضل أن تفهم هذه الخيارات».

لم ينبس يهوذا ببنت شفة. ولم يكلمه يفتاح بهذا الأمر بعد ذلك أبداً.

وتأثر بما كان يخمنه الآن عند يفتاح، فازداد تقرباً من لافينيا، التي اكتشف بدوره عمق طيبتها. كان يفتاح يدفعه أكثر فأكثر في سياق أعماله. فالتقى عدة أعضاء ذوي شأن في السنحدرين: بينهم يوسف الأريماتي، والقاضي المسن غملائيل، وهو مفكر بارز من مدرسة الحاخام هلال، وقد سحره بظرفه وفضوله. كان هذا شارحاً بارزاً للكتاب المقدس، شديد الانفتاح على العلوم الأخرى، وكان يقيم بين هذا وتلك تطابقات تخلب لب يهوذا، وإن كان لا يفهمها كلها.

«هل تعرف هذه القصة ـ قال له يوماً بعد أن أخذ الشاب يكثر من الأسئلة ـ ذهب رجل يوماً إلى الحاخام شماعي، وقال له: «أيها الحاخام، سأعتنق الدين اليهودي إذا تمكنت من أن تجعلني أحفظ التوراة وأنا واقف على رجل واحدة». فطرده شماعي. فذهب إلى هلال وطرح عليه الأمر نفسه، فأجابه هلال: «لا تفعل بجارك ما لا تريد أن يفعله بك. هذه هي التوراة. والباقي ليس سوى تعليق. إذهب وتعلّم».

* * *

يوم التقى بيتسابيه كان قد مضى قرابة السنة على انخراطه في هذه الحياة الجديدة وقد بلغ الخامسة والعشرين من العمر. كان التاجر يتعامل أكثر فأكثر مع الهيكل، الذي كانت حاجاته التزينيية غير محدودة، كما موارده. اكتشف يهوذا مدى تعاون الطبقة الكهنوتية اقتصادياً مع الرومان، ومدى تبعية أورشليم كلها للهيكل. وعرف كثيراً من خفايا الصفقات المشبوهة التي تعقد فيه: أعمال التطهير لقاء رسوم تدفع تحت شكل ثمار وبقول، ومشتقات الحليب، والخشب قبل دخوله الحرم المقدس، ومنع الجلود الآتية من مكان آخر (من السامرة المكروهة في الغالب) لأجل صالح الدباغين المستقرين في الجزء الأسفل من أورشليم، والواجب

الملزم لكل يهودي تقي بأن ينفق في الهيكل وفيما يحيط به عشر مداخيله... كان الجزء الأكبر من الكتلة المالية هذه ينتهي إلى جيوب العشرين ألف كاهن وأسيادهم الصدوقيين. وكان هناك حبران يغرفان من الأموال المخصصة لصفقات شراء البخور التي كانت سرية تماماً، لكن يهوذا عرف أن البائعين كانوا من عائلتيهما. كان أحدهما يدعى عاموس.

رآه لأول مرة عند يفتاح حيث دعي إلى العشاء ومعه عائلته. كان يهوذا قد أمضى ما بعد الظهر في الحمامات، حيث يواصل سجالاته الخطابية مع أرشيبيوس. عاد إلى البيت متعباً وغير راغب البتة، بعد نقاشاته الحادة مع هذا الأخير، في أن يضيع في تفاهة كلام لافينيا الباهت، لا سيما وأن ربة البيت كانت غارقة في مشكلة واحدة: عدم وجود ما يكفي من الماء في أورشليم نظراً لاتساع المدينة واتساع حاجات سكانها، وهي لم تكن قد حرصت على تخزين ما يلزم منه.

كان عاموس طويل القامة نحيلاً. وكان وجهه الضامر يحمل في جانبه الأيمن ندبة نجمت عن سقوط قنديل مملوء بالزيت. أما زوجته وتدعى بوسطوميا ككل بنت تولد بعد وفاة أبيها، فكانت تشبه أولئك السيدات التافهات اللواتي تعاشرهن لافينيا كثيراً. وأما ابنته بيتسابيه فكانت وسيمة دون أن تكون جميلة، ولها عينان لونهما أزرق شاحب، وشعر أشقر يكاد يكون شفافاً. كان شكلها غير المألوف هذا يضفي عليها مظهراً كثير الهشاشة تزيده بشرتها الشديدة البياض بروزاً.

انضم يهوذا إليهم؛ لم تنبس الفتاة ببنت شفة طوال السهرة، مكتفيةً بالنظر إليه من طرف خفي وخجول بين حين وآخر. لم يستطع تفسير هذه النظرة. فهل هي وليدة عدم اليقين من رغبته في لقائها مجدداً؟

وسنحت له الفرصة لأجل ذلك قريباً. فقد شاء عاموس بدوره أن يدعو الجميع إلى داره. حاول يفتاح أن يقنع يهوذا بعدم مرافقته.

«ولماذا؟ ألم أعد أهلاً لثقتك؟ ـ قال هذا ضاحكاً.

ـ لا أظن أن هذا سيعجبك، لا أكثر. تعال إن شئت، لكن لا تتذمر بعد ذلك إن لم يعجبك الأمر».

في المساء ارتدى يهوذا جلباباً من الكتان ذا حواش وذهب برفقة ابن عمه المزعوم إلى دار الحبر الكبير.

وأحس بالفعل لأول وهلة بأنه غير مرتاح وأدرك أن الاسراف في التزيين الذي كان يثير حنقه عند يفتاح كان ثمرة حساسية ما. فكل ما لم يكن عنده إلا ترفاً يغدو عند عاموس فخفخة رهيبة، تباهياً صرفاً بثراء وعدم ذوق باديين للعيان. فالأشياء المطلية بالذهب، والستائر الواسعة ذات اللون الأحمر القاني والموشاة بخيوط من ذهب، والأقمشة البراقة، كانت تسحق الغرف. وكان هناك أعمدة صاعدة حتى السقف الذي تتدلى منه ثريات مذهبة تحمل شموعاً. وفي كل مكان تحف، وأوان، وتماثيل يونانية، منتشرة دون أي هم سوى تكديسها. وفي وسط الباحة الداخلية ثلاث آلهات عاريات يبصقن الماء.

عندما دخل الغرفة أربعة من الرومان، استدار المدعوون الاثنا عشر صوبهم كما يفعل دوّار الشمس. تفحص الأربعة النساء الحاضرات بعين مازحة، ثم توجهوا إلى عاموس. بحث يهوذا عن نظرة يفتاح، فبدا التاجر منزعجاً جداً، ولاح له أنه يذكّره بأن حذره يغمغم معتذراً.

نهض عاموس فوراً للترحيب بضيوفه. عرف يهوذا فيما بعد أن الرجال الأربعة كانوا المساعدين الرئيسيين للوالي وبينهم جابي الضرائب لروما. أحس بالدهشة لوجوده وإياهم في غرفة واحدة، ولم يقل كلمة واحدة، وأدرك أنه توصل، رغماً عنه تقريباً، إلى فعل ما كان يتمناه يهوذا. على أن هذا النصر بدا له اليوم غير ذي جدوى تماماً.

«ما أخبار ديلف؟» ـ سأل أحد الرومان.

كانت ديلف هي الفضيحة التي يتناقل أخبارها الناس آنذاك: تبين أن تنبؤات بيتيا الشهيرة كان يمليها عليها الجنرال تريمالكيوس، الذي كان يستعين بها لأجل تمرير أغراضه السياسية.

حينذاك دخلت بيتسابيه مرتدية ثوباً أبيض بسيطاً جداً وكأنه كان يشتم البذخ المحيط بها. عبرت بين الموجودين في أثر أمها، وكانت تجيب على كلمات الإطراء بصوت خافت.

عندما وصلت زوجة عاموس إلى جوار يهوذا أشارت إلى ذكرى ميلاد ابنتها القادمة. فتبختر يفتاح مظهراً أن بلوغ السادسة عشرة يستحق اهتماماً خاصاً. وردّت بيتسابيه بكلمة مبتذلة ومهذبة معاً. وعندما حاول يهوذا أن يقول كلمة لطيفة عن أناقة ثوبها البسيطة نظرت إليه وكأنها لا تراه.

وتوثقت العلاقات بين الأسرتين. لم يفت يهوذا أن يوجه إلى يفتاح اللوم الذي كان هذا يخشاه، وأن يأخذ عليه مجدداً علاقاته مع الرومان. فنعته بالطاغية، والمتعاون مع الرومان، فجعل لافينيا تبكي ثم أخذ يهدىء من روعها وهو يحس مجدداً بأنه منحرف المزاج جداً.

كان قد عيل صبره حين عاد عاموس وأسرته إلى بيت يفتاح بعد ذلك بيومين. أخذ الحبر يتباهى بصداقاته القوية وبالسهولة التي توصل بها إلى رفض عروض البخور المقدمة من أسرة نبطية مع أن سعرها كان أرخص من سعر العرض المقدم من أنسبائه. واستعرض أسماء الولاة مبيناً سهولة تلاعب كبار الأحبار بهم: بويتوس، وفاروس، الذي أمر بإعدام أصحاب يهوذا الجولاني المئتين، وكوبونيوس، وماركوس أمبيغوس، وأنيوس روفوس، وفاليريوس غراتوس... حينئذ انفجر يهوذا وشن حملة عنيفة على التعاون مع العدو.

لم يرد عليه عاموس، بل انتصب شاحب اللون. حاول يفتاح وهو يغمغم أن يجد عذراً لابن عمه المتحمس. لكن قبل أن يتمكن من التلفظ بكلمة، سُمع صوت بيتسابيه الرقيقة.

«أقعد يا أبي. هذا الشاب على حق. اخترت أنت أن تستغل الوضع وفرضت على أسرتك السير في هذه الطريق دون أن تتمكن هي من أن تقول كلمة واحدة. ولأنني أحبك فقد آثرت أن لا أتكلم عن ذلك إلا

في إطار العائلة. لكن لا تفرض علينا كرامتك الجريحة حين تقابل أولئك الذين عرفوا الاحتفاظ بالحياء الذي نسيته أنت».

ثم قعدت. واتشحت وجنتاها بسمرة خفيفة تنم عن الانفعال الذي اعتراها.

وعندما صمتت، عرف يهوذا أنها يجب أن تصير امرأته.

بيد أنه كان من الصعب عليه أن ينالها بعد هذه المشادة. وداس على كبريائه، فطرق باب دار عاموس ليطلب الاذن بلقائها ونجح في صياغة طلبه دون أن يضطر الى الاعتذار. أحس الحبر برغبة شديدة في إهانته بصدّه لكن مصالحه منعته من ذلك: ليس من الحكمة أن يختلف مع يفتاح. فاستمع إلى الشاب وقبل طلبه والغضب يعتلج في صدره.

حين تمكن يهوذا من مشاهدة بيتسابيه مجدداً، كان لا يعلم بأيٍّ من وجهيها ستقابله. قعدت بتواضع، ووضعت يديها على ركبتيها وهي تنظر بالكاد إليه. تولت أمها الحديث ثم انسحبت تاركة مع الاثنين، مع ذلك، خادمة لم يحد بصرها عنهما لحظة واحدة. أحس يهوذا بخجل شديد وبالحيرة في ما عساه يقول. فهو لم يسبق له قط أن اقترب من فتاة دون أن يدفع لها سلفاً.

تحدث قليلاً عن نفسه، وكان متضايقاً جداً من الاضطرار الى تلفيق الأكاذيب وكتمان أمور أخرى. وكانت هي تتكلم بتهذيب دون أن تبوح بما عندها. ولما همّ بالعودة إلى الآراء التي عبرت عنها في تلك المقابلة المعروفة مع والدها، وقفت ووضعت حداً للحديث.

أحس بالاحباط، ولكنه عاد. وظل على مدى شهر يزورها مرة كل يومين بعد الظهر، وكان يبقى معها رغم أنه لم يُدَع يوماً إلى إطالة زيارته. تكلم كثيراً. ورافقها حتى إلى المسرح مع والديها حيث تحمّل تمثيلية هزلية يونانية فاسقة وأخرى مأساوية تتغنى بمآثر آلهة وثنية. وكان يستمع إليها ساعات وهي تعزف على الكنارة أو على القانون. وجاء يوم بدت فيه تستسلم للبوح.

تحدثت بدورها عن طفولتها في عائلة كانت فقيرة تقريباً. وحكت عن الخلافات بين أبيها وأمها حين أراد أبوها أن يتخلص من العوز، وكان لاوياً فقيراً ريفياً فعقد العزم على الصعود إلى أورشليم حيث أتاح له بخور العائلة أن يستقر. وروت كيف كانت حائرة بين حبها لأبيها وكرهها لانحرافاته، وأنها تحاول منذ سنوات أن تثنيه عن ذلك ولكنها تبوء بالفشل أمام قساوة شهوته الى الارتقاء. كانت علاقاتهما على غير ما تبدو للناس: كانت تبدي معه جرأة أتيح ليهوذا أن يأخذ فكرة عنها بمناسبة تلك المشادة المعروفة، وكان عاموس يحس أمامها بالحاجة إلى تقدير قيمة أعماله. كان الخلاف المتعاظم مع ابنته يسمم حياته دون أن يكبح من جماح أطماعه. وكان يأمل بأن زواج ابنته، الذي لا بد أن يمزقه بانفصالها عنه، قد يتيح لها هي أيضاً أن تخفف من غلوائها، بعد أن تواجه الأعمال اليومية وتدبير الأمور في منزلها الجديد. وخطر الأمر في بال يهوذا عندما نطقت هي بكلمة «زواج».

لم تفارقها هذه اللهجة الواثقة بعد ذلك أبداً. وأمسك بيدها لأول مرة. وبعد ذلك بيومين تجاسر ولامس شفتيها. وفي آخر الأسبوع جاء يفتاح يطلب يدها. تظاهر عاموس بالرد على الطلب بضحكة، لكنه وافق. وعين موعد الخطوبة عقب عيد الفصح.

لكنها جرت أخيراً بعد ذلك بشهرين. رفض يهوذا وكذلك بيتسابيه رفضاً قاطعاً إقامة حفل كبير يدعى إليه أناس لا يودان رؤيتهم. لكن عاموس تذرع أكثر من مرة أمام ابنته بالضرر الذي يلحقه ذلك به، وبالأقاويل التي ستنتشر حول الأسباب الحقيقية لهذا التكتم: كانت تجيبه كل مرة بأنها لا تعبأ بهذه الأقاويل. وانتهى به الأمر إلى الإذعان، وجرت الخطوبة في أواسط شهر تموز تحت وطأة حر لا يطاق. لم يدعُ يهوذا إلا بضعة أصدقاء. وأراد أرشيبيوس أن يلقي خطاباً استفزازياً لكنه عدل. وحضر عاموس وزوجته لوحدهما، دون أن يحملا أية هدية.

إنسحب يهوذا في آخر السهرة. لم يكن له الحق في مساكنة زوجته

العتيدة إلا بعد مرور سنة. لكن عاموس، غير المتمتع إلا قليلاً بالصرامة الدينية، فعل كما يفعل كثير من الوالدين، وسمح للخطيبين في اليوم الثاني بأن يعيشا كزوجين. لم يكن يهوذا قد لامس بيتسابيه قط من قبل. ولاقى صعوبة في الحصول على مشاهدتها عارية، ثم ضاجعها مبدياً من الاعتناء بها أكثر منه به. وأحس بأنه سعيد. وكان لشعوره الفجائي هذا ـ وهو الذي لم تكن السعادة يوماً هدفاً له، وهو الذي لم تكن حياته كلها موجهة إلا صوب الحقد والرغبة في تحطيم العدو ـ وقع الخيانة. في تلك الليلة، الأولى التي أمضاها بين ذراعي بيتسابيه، بكى على ماضيه وعلى الآلام التي صاحبته كما على أصدقاء ماتوا إلى الأبد.

* * *

كان سعيداً، والسعادة لا تُحكى. رُزقا بصبي، ثم ببنت. وعاش فترة حمل زوجته في رعب لكثرة ما عرف وسمع عن نساء لاقين حتفهن في هذه الفترة. لكنه كان شديد التعلق بولديه منذ البداية، وكان دائم القلق في الأشهر الأولى، فكان يزعج من حوله بالتثبت عشر مرات في اليوم من أن الخادمة مسحت بطنهما بالملح قبل الحمّام، ومن أنها شدت قماطهما كفاية لمنعهما من تحريك ساقيهما أو ذراعيهما، إذ أن هذا يجعلهما أشد قوة، ومن أنها دلكت جسديهما بزيت الزيتون والمرّ... وكان حتى يتطوع للقيام بذلك فيثير ضحك بيتسابيه، التي ما كانت لتتصور أن رجلاً ينحدر إلى أداء هذه المهام. ويوم اشترى حملاً وذهب به معها إلى الهيكل كي تتطهر، كما تفعل كل امرأة بعد الوضع، انقلب رأساً على عقب.

كان قد أقلع عن الحكم على الناس اعتماداً على معيار موقفهم حيال الاحتلال الروماني. وصارت علاقاته مع يفتاح وأسرته جيدة الآن، وكان التاجر قد ساعد العروسين كثيراً على إيجاد بيت لهما. وإذا كان لا يزال يحتقر حماه عاموس، فذلك بسبب سلوكه العام كما بسبب علاقاته مع

الرومان على حد سواء. على أنه كان يقدر له محبته لابنته وكل ما كان يحاول أن يفعله دوماً لاستعادة الروابط التي كانت قائمة بينهما في وقت مضى. أما بيتسابيه، التي كان يتنازعها جبها لذويها منذ بلوغها ومقتها لانحرافات أبيها، فكانت تعلم أن الأسوأ والأفضل يمكن أن يتعايشا في كل إنسان. وقد حاولت أن تعلم يهوذا هذا الأمر.

حصل هذا التطور شيئاً فشيئاً. لم يستطع يهوذا أن يرسم مسيرته (لا ريب في أن تشككية أرشيبيوس كان لها دور في هذا) وكان يهزأ بذلك على كل حال. لكنه انفتح على فهم أوسع للأشياء والأشخاص. فكان يحس بأن اندماجه يتحسن يوماً بعد يوم، دون أن يجد متعة في هذا الإحساس إذ أنه، وهو الذي عاش منذ طفولته في الشقاء والكراهية، يشعر أحياناً بأنه فقد ذلك اللهيب الذي كان يتأجج فيه.

لم ينسَ الخمس والعشرين سنة من عمره، وإنما هو وضعها جانباً ككنز خبيء.

كان باراباس لا يزال يراود أفكاره. وصار الآن يفهم بشكل أفضل كم أنه حل محل أبيه، ولا يعبأ بالدور الذي لعبه في جوار إمه. وبات الآن يفهم على نحو أفضل أيضاً، دون أن يتنكر لذلك تماماً، مدى تعلق الزعيم العاصي بالعنف. وحين كان يتحدث مع أرشيبيوس أو حتى مع ملاخيا، هذا الذي جعلته السنون أكثر نضجاً، كان لا يزال مقتنعاً بضرورة القيام بثورة، بثورة مسلحة، إلا أنه كان يبحث أيضاً عما يمكن أن يعقبها.

الفصل الثالث عشر

ومرت السنون. وعُين وال جديد فيما بلغ يهوذا الواحدة والثلاثين من العمر. كان يفتاح أول من عرف بالأمر، لأنه يترصد دوماً أقل خبر من شأنه أن يوجه أعماله.

«إسمه بيلاطس البنطي. ويقال إنه واحد من أسرة البنطي الكبيرة الشهيرة» ـ قال هذا لذويه.

وكان في غاية السرور.

«يبدو أنه على علاقة ممتازة مع سَيجان. لا أدري إن كان في هذا خير لنا. فإما أن يدع لنا سلاماً ملكياً، أو أنه على العكس سيشعر بأنه ملزم بإعطاء ضمانات. . .

ـ هل سيقيم في قيصرية؟ ـ سأل يهوذا.

ـ بلا شك، نعم. فالحياة هناك في نظرهم أحلى منها في أورشليم. ما دام البعد عن الهيكل لا يعني شيئاً لهؤلاء البرابرة. . .».

وسرعان ما عرفوا أشد أجوبة يفتاح إيلاماً. فبعد مرور بضعة أشهر على وصول بيلاطس، جاء إلى الدكان شخص يدعى سمعان. رآه يهوذا يقترب متنهداً: كان أحد أشد الفريسيين عناداً، وكان قد حدثه منذ فترة مجدداً عن مسألة معرفة ما إذا كان الخبز المشوي في فرن ملأه بالحطب رجل غير يهودي يمكن أكله أو لا.

«هل تعرفون. . . هل تعرفون. . .».

كانت الكلمات تجد صعوبة في الخروج من فمه.

«ما... سيفعل بيلاطس... وكل الجيش الروماني...»

وهرول يفتاح. كان سمعان قد ادخر مالاً كثيراً وإن كان هذا لا يلاحظ إلا قليلاً، وكان يستعمل قسماً لا يستهان به منه لشراء سلع دينية غالية الثمن.

«أرسل بيلاطس من قيصرية طغمة كبيرة من قواته إلى أورشليم. ستماية رجل. ودخلها... ليلاً... دخلها ليلاً ومعه قواته، وعلق على البرج العتيق إعلانات مع صورة ثيبيريوس...».

جمد الرجلان في مكانهما.

«أنت تمزح...

ـ كلا. والسنحدرين في حالة اضطراب كبير.

ـ لكن هذا غير ممكن».

كان التدنيس هائلاً، والموقف السياسي أحمق: الشريعة اليهودية تحرم وجود أية صورة داخل المدينة، وكان الرومان قد فهموا حتى حينه أنهم لم يحصلوا على ما يشبه السلام إلا إذا احترموا بعض الخصوصيات. وها هو بيلاطس يقترف إثماً بحق الله: لكن لأي غرض؟

«لا بد أن هناك خطأ ـ ماذا يقال في السنحدرين؟

ـ لا أعلم حتى الآن. لقد مررت بكم لكي انبهكم. علي أن أكمل جولتي وأنبه أكبر عدد ممكن من الناس. ليس يمكن القبول بإهانة كهذه لديانتنا».

أُعجب يهوذا بهذه الحمية.

بعد بضع ساعات على ذلك لم يعد الناس يتحدثون إلا عن هذه القضية: الانتفاضة لم تكن بعيدة. لكن بيلاطس كان قد أمر بمضاعفة عدد حراس منزله في قلعة أنطونيا، وتعرض للضرب عدة أشخاص من الذين حاولوا مخالفة هذا التدبير.

رحل الحاكم إلى قيصرية في آخر الأسبوع، دون أن ينزع الإعلانات.

وقرر وفد من وجهاء الفريسيين والصدوقيين أن يذهب إليه. ظلوا خمسة أيام يطلبون مقابلته وكان بيلاطس يرفض. وفي اليوم السادس استدعاهم إلى مدرج المدينة الفخم، الذي أنشىء على شاطىء البحر. تقدم قيافا، الذي لم يكن ليخطر في بال أحد أن يتحلى بمثل هذه الشجاعة، فتقدم الجنود المحيطون بهم خطوة. حينئذ جثا أعضاء الوفد وشرعوا صدورهم للسيوف، مؤكدين أنهم يفضلون الموت على ترك صنم يفرض حضوره في الأماكن المقدسة. فأمر بيلاطس بنزع الإعلانات، وعاد الوفد إلى أورشليم عودة الظافرين. كان يهوذا بين صفوف الحشد الغفير الذي كان ينتظر الوفد. أحس في ذلك اليوم بأن الحماسة التي ظنها نائمة تتدفق من جديد، ساخنة ومحرقة، ولم يلاحظ حضور بيتسابيه التي كانت تتأبط ذراعه وتنظر إليه بقلق.

إلا أن المجابهة التي كان يبدو أنها تميل لصالح اليهود لم تنته بعد. كان بيلاطس يفكر منذ أمد بعيد بمشروع إنشاء قناة لجر الماء إلى أورشليم. وبوشر العمل في المشروع بعد استلامه مهام منصبه ببضعة أشهر، وكان الجميع يعتقدون أنه سيتيح تزويد المدينة بالماء كما يجب. لكن خبراً جعل أهل المدينة يرتجفون من جديد: كان بيلاطس ينوي أن يأخذ المال اللازم لتمويل الأشغال من خزانة الهيكل، من المال المخصص لتمويل الذبائح العامة. كان يهوذا مع أرشيبيوس في السوق عندما سمع الخبر. وراح صاحبه يضحك.

«وستقاومون هنا أيضاً! أنتم أناس غير معقولين. مدينتكم تشكو من قلة الماء، وجاء الروماني لمرة على الأقل بفكرة طيبة. لأن المشروع يكلف غالياً، فإنه يأخذ قليلاً من المال الذي تبذرونه في نحر الحيوانات المسكينة، وها أنتم تفقدون رشدكم. أذكرك على أي حال بأنه إذا كان بيلاطس قد استعان بمالكم الثمين المخصص للمجزرة، فذلك لأن أحباركم سمحوا له بذلك...

ـ ما كان عليهم أن يسمحوا. وقد أخذ بيلاطس كل شيء...

ـ ستكونون دائماً على استعداد للتضحية بالخير العام إرضاء لخرافاتكم».

في ذلك اليوم بالذات، وبعد صمت دام سبع سنوات، أعيد الاتصال بيهوذا.

كان أرشيبيوس قد تركه قبل أن يجد السمكات التي كان ينوي أن يشويها لأجل العشاء. كما في كل صباح، كان تجار الفواكه والبقول يخلون المكان لبائعي الفخار وبائعي الجلود. واهتدى يهوذا إلى صبّاغ بفضل خرقتين من الصوف الأزرق والأحمر يحملهما في أذنيه بمثابة أقراط. كان الرجل قلقاً، يتطلع حوله برعونة كبيرة، متفرساً في الزبائن واحداً فواحداً.

كان يهوذا يلهو بالتفرج عليه، حينما بدا فجأة وكأنه مسحور عندما التقت عيناه بعيني يهوذا. واقترب منه.

«هل أنت يهوذا، الآتي من الجليل؟».

أحس يهوذا بالدم يتجمد في عروقه. فقد انقضت سنوات ولم يعد أحد يحدثه عن جذوره. فمن عساه يعرف ذلك؟

«إذن، هذا أنت؟

ـ كلا. أنا لا أدري عمن تتكلم ولا باسم ماذا تتجاسر وتتصدى لي على هذا النحو.

ـ لقد حذرني من أنك سترفض، وطُلب مني أن أذكر لك بعض الكلمات حتى تفهم: سيبوريه، نتنائيل، باراباس، الجولاني، خورازيم... ألا تعني هذه الكلمات شيئاً لك؟».

كان الرجل يرصد عند نطقه بكل كلمة ردة فعل يهوذا على وجهه.

«إذا كنت أنت فعندي شيء أسلمك إياه. وإلا فأحتفظ به لنفسي...».

تفرس يهوذا في عينيه. من عساه يكون؟ هل هو جاسوس لروما؟ هذا غير معقول. ولماذا ينبهه على هذا النحو؟ هل هو مبتز؟ ربما. لكن يهوذا أحس بأنه قادر على مصارعته.

«أتريد أن أقول لك شيئاً آخر كي تقرر؟ تريد أن أحدثك عن سيبوريه وباراباس؟ هذا يؤلمك قليلاً، لكن عليك أن تسلّم بأنني أعرف الكثير عنك. هذا إن كنت هو طبعاً...».

ارتفعت يد يهوذا، كما لو كانت تريد أن تضرب، وكان هذا بمثابة اعتراف.

«هيا، إنك هو. خذ هذا».

كان في يده رزمة.

«لكن لا تفتحها إلا بعد أن أصير بعيداً».

وعاد يهوذا إلى بيته بخطى شاءها أن تكون موزونة، لكن قلبه كان في حالة انهيار. أحس عشر مرات بالرغبة في فتح الرزمة وهو في الطريق، لكنه تراجع أمام هذه المجازفة. لم يكد يصل إلى البيت حتى هرع إلى غرفته.

كانت الرزمة تحتوي على عدة شذرات من أوان فخارية كتبت عليها كلمات بالفحم. أمسك بالشذرة الأولى على عجل.

«إن كنت هو».

إرتعد يهوذا أمام هذه العبارة الراغبة في عدم تسميته.

وأدرك أن باراباس عاد إلى حياته.

كانت الرسالة واضحة جداً مع أنها لم تتضمن كلاماً صريحاً عن أي شيء.

«يجب معاودة الحصاد، رغم العاصفة ـ يقول له ـ أعرف أين أنت، واحتاج إليك. يجب أن تلتحق بي لأن عندنا أموراً كثيرة يجب أن نفعلها معاً. كل ما يجري يثبت أن القمح نضج. كن جاهزاً».

لم يكن هناك توقيع.

وجرى اتصال بيهوذا بعد مرور ثلاثة أيام، عندما صدمه رجل في الشارع فكاد يسقط أرضاً، وتمتم في أذنه وهو ينحني فوقه:

«سر ورائي ولكن من بعيد».

صعد الرجلان حتى باب دمشق وسارا في الطريق المؤدية إلى قيصرية. وفي مكان غير بعيد عن المقالع، دخلا أحد الأحياء المبنية حديثاً والتي تجتذب كثيرين من التجار الذين ينتظرون الحصول على موقع في المدينة، كما تجتذب كل حثالة الصحراء، من لصوص ومجرمين يبحثون عن ملجأ يأوون اليه من وجه العدالة فيجدون هنا التستر والإغفال. كان الجنود الرومان لا يدهمون المكان إلا نادراً، تاركين كثيراً من المشاكل تحل عن طريق تصفية الحسابات.

أخذ يهوذا يشعر بالضيق لأن لباسه كان يتناقض تماماً مع لباس الناس الذين يصادفهم.

ولما وصلا إلى زاوية أحد الشوارع دخل دليله إلى حانة قذرة، تفوح منها رائحة كريهة، وسيئة الإنارة. وكان عند المدخل رجل يفترش الأرض ولا يُعرف ما إن كان سكراناً أو ميتاً.

فوراً عرف يهوذا باراباس، الذي كان قاعداً وأمامه إبريق خمر، ولاحظ بسرعة كم أنه شاخ. ما عمره الآن؟ خمسون سنة، وربما أكثر. كانت التجاعيد تملأ وجهه، وتحيط بعينيه جيوب شبه زرقاء، وتتشعب حول أنفه شبكة من العروق الحمراء. كانت لحيته قد نبتت قليلاً وكانت خِصل صغيرة من الشعر الأبيض تتدلى فوق خديه.

«مرحباً يهوذا».

الصوت كان على العكس لا يزال هو ذاته: قاس، قوي، ذو نبرة آمرة لا تُردّ. أحس يهوذا بموجة من الانفعال تجتاحه.

«كان الزمن طويلاً».

ـ مفرطاً في الطول».

هل كان بهما حاجة إلى قول شيء آخر؟

«يبدو عليك أنك غنمت كثيراً. أكثر مني ـ قال القائد السابق متنهداً.

ـ أنت الذي أراد ذلك. فماذا تريدني أن أفعل؟ لم أعرف شيئاً عنك منذ سبع سنوات.

ـ اليوم ستعرف.

ـ هل أنت واثق من أنني ما زلت أنتظر ذلك؟».

وجاءت المواجهة مبكرة. رفع باراباس عينيه فلمح يهوذا أن الشعلة التي كانت تلهبهما لم تنطفىء.

«إذا كان الأمر على عكس ذلك، فلن يعود لكثير مما فعلته من معنى.

ـ لا تحاول اللعب بالعواطف يا باراباس. فالذي تراه أمامك لم يعد ذلك الصبي الذي كنت تخيفه وأنت تعاشر أمه».

لم يسبق ليهوذا قط أن يخاطب باراباس بهذه الطريقة، وأحس برعشة لا معنى لها تعتري يديه.

«لم أعتبرك قط صبياً أخيفه يا يهوذا، وقد... أحببت أمك كثيراً».

لم يلاحظ يهوذا الكذب في كلامه. وهل كان يكذب حقاً على كل حال؟

لم يكن راغباً في الاجابة عن السؤال، وأبعده.

«أنت لم تستدعني كي تحدثني عن حياتنا العائلية؟

ـ لا، كنت أريد أن أعرف ما إذا كنت قد تدبرت أمرك.

ـ ماذا تريد أن أخبرك؟ بدأت بالعيش عند يفتاح كما طلبت مني. وأصبحت مقرباً من أوساط الهيكل، وعاشرت حتى أشخاصاً من الرومان. وبعدما انقطعت عني أخبارك، بقيت أعيش العيشة إياها، والتقيت فتاة وتزوجتها. ورزقنا بولدين، وأنا سعيد.

ـ أنت سعيد وبلدك لا يزال يرزح تحت النير؟ هل سمعت بما فعل ذاك الروماني القذر بخزانتنا؟».

بالرغم من اللوم الذي تضمنه كلام باراباس هذا فإن صدق هذا الغضب قربه منه أكثر من كل ما تفوه به من قبل.

«أنا سعيد قدر ما يمكن أن يكونه رجل مستوحد. ماذا كنت تريد أن أفعل؟ لقد دخلت حيث أردتني أن أدخل، وأرسلت إليك المعلومات التي طلبتها مني. أو كنت تنتظر أن أقوم بعمليات عبثية بمفردي. كل ما

عرفته عنكم لم يترك لي أملاً. هل كنت تتوقع أن أدخل على بيلاطس البنطي وأقتله بمبادرة مني؟

ـ كنت آمل أن تبقى واحداً منا.

ـ وأنا واحد منكم! هل تظن أنني تخليت؟

ـ هل أنت مستعد للرحيل معنا؟

ـ للرحيل...؟ وما الغاية من ذلك؟

ـ أن تفعل ما سأطلبه منك.

ـ لقاء أي عدد من الأخطاء؟

ـ خير لك أن تخطىء من أن لا تفعل شيئاً!

ـ وماذا تنوي أن تطلب مني؟ أن أعاود القتل من أجلك؟

ـ ولِمَ لا؟».

أغمض يهوذا عينيه. وعندما فتحهما، تكلم بسرعة وهو يتطلع بجرأة إلى قائده السابق.

«لقد تغيرت. لن أطيعك بعد الآن كما فعلت فيما مضى. إن لي زوجة، وولدين، وحمايتهم واجب آخر من واجباتي. حقدي على الرومان لم يتغير، لكنني لن أعرض عائلتي للخطر من أجلك...

ـ هذا معناه بوضوح أنك تتخلى عني. هل بات أفقك محدوداً بجدران بيتك الأربعة؟

ـ أنا لم أقل هذا. لكن لي حياة خارجاً عنك، وأنوي أن أحياها. لن أدوس على ما أحبه أكثر من أي شيء في العالم من أجلك.

ـ لأنك بلغت الشبع؟

أجاب يهوذا دون أن يفكر.

«نعم، اعتقد.

ـ إذن أنت رجل ميت. ألا تعلم أن الشبع نهاية كل شيء؟ فأنت متى شبعت لا تعود تفكر إلا بالهضم. إنك تذكرني بأولئك السجناء الذين ينتهي بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن سجنهم هو العالم الوحيد الممكن.

أين همتك، أي مثلك العليا، أين حماستك؟ إن أحلامك لم تعد سوى كلام.

ـ هل سأكون أسعد لو كنت غير شبعان؟

ـ لن تكون أسعد، بل تكون أكثر إنسانية. ماذا حل برغبتك في محبة الآخرين، في أن تكون رجلاً قوياً، صادقاً، عادلاً، صريحاً؟ ماذا حل بتمردك؟ هذا الذي ولد معك. إنه مأساتك ومجدك. ماذا فعلت به؟

ـ وضعته جانباً.

ـ أنا لم أمارس العنف دوماً بقلب جذلان، يا يهوذا، خلافاً لما قد تعتقد. لقد شعرت في كثير من الأحيان بأنني وحيد في الفوضى. وها أنا اليوم أتساءل عما تستطيع أن تفعل من أجلي...».

ضحك يهوذا بمرارة وقال:

«ألا تقدر أن تعتبر الناس، إلا إذا كانوا قادرين على فعل شيء لأجلك؟ لقد سعيت إلى توظيفي عند يفتاح. كنت تعلم آنذاك لماذا فعلت ذلك. توقف عند هذا الحد... أما زلت ترى نيقوديموس؟

ـ لا، حقاً لا. كان هذا قد آمن بنجاحي، لكن... الصعوبات التي واجهتنا ردعته عن التمادي في التورط معنا.

ـ لكنه تركني، مع ذلك، عند يفتاح؟

ـ ولماذا يسحبك من عنده؟ كان يفتاح يبدو مسروراً بوجودك عنده. فقد كنت مفيداً له. وحتى لو أمسيت غير مفيد، فإنك لم تكن ضاراً لذلك...

ـ كنت إذن لا أزال مفيداً. كما أنا اليوم.

ـ ربما، نعم.

ـ لكن لماذا؟ أريد أن أقول: بعد أن رفضت أن أقتل من جديد؟».

لم يجب باراباس، وعاد يقول وكأنه لم يسمع:

«كيف أمكن حصول فضيحة الخزانة هذه؟

ـ لأن الحاكم يفعل ما يريد.

ـ ألم تطلب منه روما أن يخفف من تجاوزاته؟

ـ بلى. هذا ما يقال على الأقل. لكن روما بعيدة. وفيما عدا هذه الاستفزازات، فإن بيلاطس يهيمن على البلد حسبما يطلب منه. وإذا حصلت بضعة أعمال فظة فإنها لا تغير شيئاً يذكر.

ـ ومن الذي سمح بذلك في الجانب اليهودي؟ إن أحداً لم يُستشر.

ـ لم يُستشر أحد، نعم، لكن لم يكن الجميع مناهضين له. وكان هناك حتى بعض المؤيدين.

ـ صحيح؟».

إشتد هياج باراباس فرفع نبرته، وشرب كوباً أخرى من النبيذ.

«يهوذا! لأجل هذا أرسلتك إلى عند يفتاح: لمساعدتنا في الحصول على معلومات عن أعدائنا.

ـ نيقوديموس في موقع أفضل من موقعي بكثير لهذه الغاية.

ـ أجل، ولكنه أيضاً أكثر بعداً. إذا أردنا أن يتحدث الناس عنا من جديد فيجب أن نشدد من حصارنا للسلطة؛ وأن يكون لنا رجل في المكان المناسب.

ـ أنت تريد أن تهاجم أشخاصاً ذوي سلطان في أورشليم؟

ـ أود أن أفعل هذا، نعم. لقد جمعت بعض القوات. ولم تذهب كل تلك السنوات سدى. و...

ـ أظن أنك مجنون. وما النفع من ذلك؟ لا شك في أنك ستخيف بضعة فاسدين. وبعد؟

هز باراباس رأسه.

ـ لقد تغيرت كثيراً يا يهوذا. فقبل بضع سنوات كنت على أتم الاستعداد للمضي قدماً في هذه الطريق.

ـ لكنني فكرت بعد ذلك. وتبين لي كل بطلانها.

ـ بطلان؟

قال باراباس هذا بما يشبه الصراخ، ما جعل ثلاثة أشخاص يلتفتون نحوه.

«آه يا يهوذا. لم أعد راغباً في الذهاب إلى أبعد في مناقشتك، وإني لأخشى أن يقودنا هذا النقاش إلى أبعد مما نشتهي. فهل تقبل بأن تساعدني؟

ـ بالشروط التي وضعتُها، نعم. لكنني لا أريد العودة إلى استعمال الخنجر شخصياً. ولا أريد أيضاً أن يتعرض أحد بالأذى لحموي عاموس مهما بلغت انحرافاته. فهذا من شأنه أن يؤلم زوجتي كثيراً. إذا رضيت بهذه الشروط، فأنا مستعد لمساعدتك.

ـ أنت تؤلمني كثيراً، ولا تترك لي خياراً. فليكن ما تريد.

ـ حسناً. وكيف ستتصل بي؟

ـ لقد تمكنت من ذلك اليوم، وسأعاود الكرة.

ـ حسناً. إذن سأكون بانتظار أخبارك».

خرج يهوذا من الحانة، متنشقاً الهواء الخارجي بمتعة مشوبة بالارتياح.

والتقيا مجدداً بعد ثلاثة أيام.

«قضية الخزانة تتضخم باستمرار ـ قال باراباس ـ بارتياح كبير. والاستياء يتعاظم. علمت أن بيلاطس سيذهب إلى روما الاسبوع القادم.

ـ وماذا تنوي أن تفعل؟

ـ أن أقوم بعمل مدوّ. فالشعب في حالة غليان. علينا أن نذهب إلى محكمته ونطلب منه أن يتراجع. لي رجال متفرقون في عدة أحياء، ومتأهبون للدعوة إلى الانتفاضة. وعليك أن تقنع بضعة أشخاص قريبين منك بالمجيء لمساعدتنا. لا بأس إن كانوا فريسيين أو صدوقيين، فليس المهم من يكونون أو ما يفعلون... يجب أن يكون عددنا كبيراً ومهماً».

خفض يهوذا صوته حين قال وهو يقاوم الارتعاشة التي عاودته:

«أعتقد أنني أقدر على تدبر هذا الأمر».

وشعر بأنه عاد يلعب لعبته المفضلة من جديد. وابتسم باراباس

مسروراً وطلب بإشارة من يده قارورة جديدة من النبيذ قدمتها له النادلة متأففة.

«قل لي يا يهوذا...

ـ نعم؟

ـ هل أنت متأكد من عدم رغبتك في الانضمام إلينا؟ أعني لأجل...

ـ نعم يا باراباس، لقد قلت لك ذلك. أنا أريد أن أساعدك، لكنني لا أريد حمل الخنجر مجدداً، لا. هذا موقف نهائي.

لن ألح عليك. لكنني اعتمد عليك. سترى أن أورشليم تعلم أن التحالف مع المحتل لا يمر دون عقاب. ولن يكون هذا سوى البداية.

وأرسل ضحكة مدوية جعلت اثنتين من المومسات قاعدتين في جوارهما تلتفتان نحوهما. ولدى رؤيته جذلاناً بهذا الشكل، نهضتا وتوجهتا نحوه وعلى وجهيهما ابتسامة مصطنعة.

أحس يهوذا في اليومين التاليين بأنه في حالة غريبة. فستكون هذه أول مرة يشارك فيها في عمل ما منذ أمد بعيد، وخصوصاً أول مرة يقوم فيها بدور صغير. فكان يحس بشيء من الحرمان ومن الارتياح في آن. تحدث مع أناس كثيرين من حوله ولاقى تجاوباً غير مأمول: حتى أرشيبيوس، الذي كان يبدي تحفظاً كبيراً تجاه كل هذا الشغب، وعده بالحضور. ولم يرفض الاصغاء إليه إلا بضعة أرباب عائلات كانوا قلقين على ذويهم واثنان أو ثلاثة من الصدوقيين المقربين جداً من الرومان. وبدا له أن خطر الوشاية به قليل جداً: كان الغليان شديداً في المدينة بحيث جعل الجميع يتآمرون، أو ينحاوزن، أو يلتزمون، أكثر بكثير مما كانوا ليفعلوا في الظروف العادية. على أنه تحاشى أن يحدث يفتاح وأسرته في الأمر، كما لو أنه كان يريد أن يحميهم. فهل إن تكتمه سمح بحصول الكارثة أم أنه سمح بتلافي كارثة أكبر؟ لم يستطع أبداً أن يعرف، حتى في أشد لحظات يأسه.

عشية اليوم الذي كان بيلاطس سيحضر فيه إلى محكمته، اشتغل يهوذا

في المتجر، وكان يوماً مثبطاً للعزيمة: إن قسماً كبيراً من الأقمشة التي كان يفتاح يأمل الحصول على أرباح كبيرة منها لم تلاقِ الاقبال الذي كان يتوقعه، فأصبح لديه كثير من الأقمشة الكاسدة.

«سيكون علينا أن نخفض أسعارنا حتى لا نعود نربح شيئاً. كيف أمكن لي أن أخطىء إلى هذا الحد؟ هذا أمر لم يحدث معي منذ أمد بعيد.

ـ ليس بإمكانك أن تربح في كل صفقة. وهذا الكساد لن يرمي بعائلتك إلى الشارع.

ـ لا، بالتأكيد. لكن المسألة ليست مسألة مال وحسب، وإنما هي مسألة ربح أو خسارة أيضاً. أنت لا تستطيع أن تفهم هذا الفرح. فالتجارة لم تكن يوماً في دمك حقاً. إنها هوى يُضني. أنا أعرف أن هذا الكساد ليس أمراً خطيراً جداً. لكن خيبتي شديدة. هذه حماقة، أليس كذلك؟».

وأرسل يفتاح ضحكة مدوية جعلت خديه المتهدلين يرقصان، وقد باتا أكثر فأكثر ترهلاً سنة بعد سنة.

«آمل أن نعوض عن ذلك بعد الأحداث. تعلم أن بيلاطس سيحضر غداً إلى المحكمة. ويقال إنه سيواجه حشداً كبيراً من الناس. ويقال حتى إنه تلقى تهديدات. لكنه سيخرج سالماً. لقد حصلت تسريبات. سيتوزع عدد كبير من رجاله بين الجماهير. رجال مسلحون. فخير لك أن تتحاشى الاقتراب من المكان إذا كنت تنوي الذهاب إلى هناك...».

تشنجت يدا يهوذا وهما تمسكان بقماش كان يعيده إلى مكانه.

«رجال من الرومان بين الجماهير كما تقول؟»

قال هذا آملاً أن لا يسمع يفتاح النبرة الانفعالية في صوته.

«هذا ما قاله ماركوس نيرو، قائد المئة في قلعة أنطونيو باللاتينية لمعاونه. وبما أن كل هؤلاء الحمقى يفترضون أنني أبله ولا أفهم، فقد تكلم الاثنان دون تحفظ».

كانت الأفكار تتصادم في رأس يهوذا. فإذا صح ذلك، فإن الناس الذين اتصل بهم ورجال باراباس يتعرضون لأخطار جسيمة.

ـ أنا خارج يا يفتاح.

ـ من الآن؟

ـ وعدت بيتسابيه بأن أعود باكراً اليوم؛ نحن لم نجتمع إلا قليلاً منذ بضعة أيام، وهي تعدّ مفاجأة للولدين. يشوع دعا أصدقاء له إلى البيت لإقامة حفلة صغيرة. وأريد أن أكون حاضراً.

ـ حفلة لأولاد؟ هذا خبل. لكن إمضِ إن شئت. إلى الغد».

كان يهوذا بالفعل قد وعد بيتسابيه بالعودة إلى البيت باكراً ليساعدها في إعداد الحفلة التي يقيمها ابنهما. وعندما قال لها إنه لن يستطيع أن يبقى ولا أن يبين لها السبب، قرأ القلق في عينيها.

«لا تتخيلي شيئاً. لا أستطيع أن أشرح لك الآن، لكن ليس هناك على الاطلاق ما يحملك على القلق».

وضمها بين ذراعيه ضاغطاً إلى حد جعلها تبتسم من خلال دموعها.

«أعدكِ بأن أعوض عليكم مئة ضعف ما آخذه منكم هذه الليلة. قولي هذا للولدين. لست فرحاً بعدم البقاء معكم. لكن لا خيار لدي. حقاً لا خيار لدي. سامحيني. إذا أسعفني الحظ قليلاً فسينتهي الأمر بسرعة».

وخرج وقلبه يتمزق. لكنه كان غير قادر على التهرب. قادته قدماه أولاً إلى السوق، ثم عرج على الحانات حيث سبق له أن التقى باراباس. لم يره أحد هناك. واصطدم بالفقراء، والمتسولين، وبجندي روماني يعبر وحيداً والناس يرمقونه بنظرات حاقدة. كان يشعر بأن ثيابه المسرفة في الثراء تعرقل سعيه وأن الناس لا يثقون به.

وابتسم له الحظ بعد ثلاث ساعات من البحث، فعثر على باراباس الذي كان يلعب بزهر النرد ويشرب. تظاهر باراباس بعدم رؤية يهوذا. وفهم هذا معنى ذلك، وبالرغم من نفاد صبره، قعد على الأرض وطلب كوباً من النبيذ.

أنهى باراباس لعبته ونهض. فاعترض أصحابه على رحيله، لكنه تذرع بأنه متعب وبأن الخمرة عكرت مزاجه، وخرج يقهقه ضاحكاً.

سار يهوذا في أثره، وأدركه في زقاق لا ينيره أي ضوء.

«ماذا دهاك؟ هل أنت مجنون؟ لا يجوز أن يرانا أحد معاً، وها أنت تأتيني مرتدياً ثياب أمير وتبحث عني في كل مكان إذ أنني افترض أنك لم تعثر بالصدفة على هذا المكان...

ـ أتظن أنني كنت لأركب مثل هذه المخاطر لو لم تكن هناك أسباب وجيهة؟

ـ آمل أن تكون كذلك. قل ما عندك».

تلاشى كل أثر للسكر في صوت باراباس، وعاد فجأة ذاك القائد الذي عرفه يهوذا دائماً.

«علمت لتوي أن بيلاطس على علم بمشاريعنا. وغداً سيكون رجاله متغلغلين بين الجماهير. فإذا حاولت القيام بشيء، فإنكم ستقعون في شرك.

ـ أأنت واثق من ذلك؟

ـ تقريباً. سمع يفتاح اثنين من رومان أنطونيا يتحدثان عنه.

ضرب باراباس الحائط بقبضته من شدة غيظه.

«ماذا عسانا سنفعل؟

ـ التأجيل.

ـ لكن أناساً كثيرين مستعدون للمشاركة. لن تتكرر فرصة كهذه أبداً في المستقبل. مع ذلك...».

وأمسك باراباس رأسه بيديه وهو يئن.

«يجب إلغاء العملية. حاول أن تعلم بذلك ما استطعت من الناس من جانبك، وسأفعل ذلك أنا من جانبي. لم يعد لدينا كثير من الوقت.

ـ أنت تتخلى إذن؟

ـ في الوقت الحاضر، نعم. وهل لدي خيار؟ إننا نعيد بالكاد تنظيم

صفوفنا ولا يسعنا أن نتعرض لأصغر المخاطر. إمضِ، وتصرف بسرعة، وليحالفك الحظ».

لم يكد يهوذا يمضي حتى ناداه باراباس.

«يهوذا؟

ـ نعم؟

ـ شكراً».

أمضى يهوذا الليلة في تنبيه هؤلاء وأولئك إلى الشرك الذي نصبه الرومان. كان خائفاً جداً لأنه لم يعثر على أرشيبيوس إلا عند الفجر. وبعد ذلك عاد إلى بيته منهكاً، وآملاً أن يكون باراباس من جانبه قد أدى المهمة كما يجب.

رأى ضوءاً أحمر في السماء، وهو على مسافة خمس دقائق من بيته. كانت الحرائق كثيرة الحدوث في أورشليم وكان الجميع يخشون أن يصيب الحريق يوماً حياً بكامله ويستعصي على الإطفاء.

وأحس بحدس غامض حمله على الاسراع في المشي.

وعندما وصل إلى شارعه، شاهد جمهرة من الناس يحملون سطولاً ودسوتاً واقفين في صف ينطلق من أمام سبيل ويحاولون إطفاء حريق كبير.

ورأى أن الاحمرار الذي يمزق الليل كان آتياً من بيته.

فاندفع وهو يصيح باسم زوجته وولديه.

وعندما تأكد من أنه ليس هناك من يجيب إلا زفير النار، انهار وسقط على الأرض.

الفصل الرابع عشر

لم يرجع إلى عند يفتاح. وظل يتسكع في الشوارع عدة أيام، يقتات بما يجده صدفة على الأرض أو يطلب صدقة من العابرين. وما كان لأحد أن يتعرف في هذا الرجل المذهول، ذي الوجه والساعدين التي يعلوها سواد الدخان، ذلك الشاب الذي كان على صلة بالمجتمع الراقي كله.

كان يهيم على وجهه بلا هدف. لم يفكر حتى بالهرب من المدينة، ولم يفلح حتى، بدافع من الغريزة، إلا في تحاشي المرور أمام بيته السابق. وراح يتنقل من سوق إلى سوق. ومن شارع إلى شارع، ويدخل أحياناً إلى دكان سرعان ما كان يُطرد منها، ويخالط مجموعة من المتشردين الذين كانوا يسخرون من ذهوله. وحملته قدماه إلى كنيس جذبته إليه قوة الأناشيد. كانت تنير الكنيس شمعدانات ذات شموع تلفظ أنفاسها. وكان إلى جانب حوض الوضوء قاعة صغيرة تستعمل كمدرسة، وكان فيها عجوز يتلو صلاة البركات الثماني عشرة. ضم يهوذا صوته إلى أصوات المرتلين. ثم جاءت قراءة النبوءات، فتراجع إلى آخر القاعة، وانطوى على نفسه لحظة طويلة، ومرت به بركة الأعداد دون أن تبدر منه حركة.

لم يحدث صدى في ذهنه سوى ذكر بيلاطس. كان هناك رجلان يتحدثان عن قساوة قمع التظاهرة أمام المحكمة. فقد تجمهر هناك حشد

كبير ليحتج على استعمال مال الخزانة في تمويل قناة الماء. لكن بيلاطس كان قد دس رجاله المسلحين بالعصي بين المتظاهرين. وحينما همّ المتظاهرون بالهتاف تعبيراً عن استيائهم، افتعل الخونة شغباً أدى إلى تدافع هائل، وهاجموا من اعتبروهم الأكثر حماسة بين المتظاهرين. وسقط نحو خمسة عشر قتيلاً وكثير من الجرحى، ومات عدة نساء وأولاد دوساً بالأقدام.

أحس يهوذا بأن شيئاً ما قد تمزق في كيانه. وتذكر الدور الذي أداه في هذه النكبة، والجهود التي بذلها لأجل تداركها. وأدرك سبب وصوله قذراً يائساً إلى ذاك المكان شبه المظلم والصلاة فيه. فإنه كان قد خان ربه إذ حاول أن يكون سعيداً، إذ قبل بغير المقبول. وكان قد ظن أنه يستطيع أن يتصرف بحياته، وذهب به الأمر حتى إلى نسيان علة وجوده. وتراءى له وجه أبيه المصلوب، ذلك الوجه المعذب الذي أقلع عن التفكير به منذ سنين. فاليوم الذي رسم فيه مسار حياته كان ذلك الذي سمع فيه كلمات تسقط من فم مرتعش، وليس اليوم الذي جثا فيه أمام جثمان امرأته. فليس له ولدان يقودهما في طريق الحياة وإنما أمة يقودها في طريق الحرية. كان لا بد له من أن يموت في القضية ثم أن ينبعث فيها بالألم، ذلك الألم الذي كان له من الحدة بحيث كان لا يعتبر فهمه ممكناً. لم يكن من حقه أن يكون سعيداً. إن قدره كان مكتوباً في مكان آخر، وخطأه كان نسيان ذلك. وأحس فجأة بالحقد يتفجر في عروقه من جديد، وببث فيه قشعريرة وحشية ورغبة هوجاء في الايذاء، وفي العثور على باراباس ومعاودة الكفاح معه مجدداً. أجل إنه بعد الآن لن يحيا إلا من أجل الكفاح، دون التفات إلى شيء، وإلى الأبد. وفي ذهنه الثقيل والضعيف أقسم على ذلك بينما كان الكاهن هناك، أمام المائدة فوق، يقوم برَدَن لفافاته.

وتمكن من استجماع قواه وحضر إلى بيت يفتاح. استقبلته لافينيا وكان يرتدي ثوباً. شق إلى يمين القلب كعلامة حداد، فارتمى بين

ذراعيها، ضاحكاً ثم باكياً. لم يكن أحد يعلم ما حلّ به. وظن بعضهم حتى أنه قضى تحت أنقاض بيته.

وعندما دخل يفتاح وملاخيا، كان قد جمع بعض حوائجه.

«سأرحل».

قال هذا بلهجة فيها من الجزم ما حمل سامعيه على عدم محاولة ردعه.

«إلى أين؟ ـ سأله يفتاح.

ـ لا أدري. لا أطيق البقاء هنا. هذه المدينة تذكرني أكثر من اللازم بالسعادة التي سرقت مني. فلم أعد أتحمل العيش فيها.

ـ لكن كيف ستتدبر أمرك؟

ـ سأجد السبيل إلى ذلك. أوَلم تعلمني أشياء كثيرة؟».

ابتسم يفتاح ابتسامة حزينة.

«و... هل سنراك مجدداً؟

ـ لست أدري. كنت سعيداً معكم...».

وخنق في صدره زفرة. حينما نطق بهذه العبارة غرق مجدداً في شعور رهيب بالذنب.

«لكنني... لا أستطيع أن أبقى إلى جانب ما كان سعادتي. ما عساي أجيبك؟ آمل أن أتمكن يوماً ما من القدرة على الرجوع. لكنني غير متأكدّ من ذلك».

لم يبق في تلك الساعة كلام كثير يقال. وتطلع يهوذا مرة أخرى إلى وجوه من يغادرهم: كانت لافينيا تفتل يديها محاولة أن لا تنهار، وكان يفتاح يبدو وكأن الألم محا عن وجهه كل أثر لطيبة القلب. وكان ملاخيا يغالب الرغبة في فعل أي شيء للاحتفاظ بشبه ابن عمه. وحتى ساره لم تستطع أن تحبس دموعها.

كلف يهوذا ملاخيا بتوديع أصدقائه نيابة عنه، ورفض أن يذهب ليودع أرشيبوس. وما النفع بعد أن تركوا كل شيء وراءه؟ وحمل كيسه ورحل بينما كان الغسق قد بدأ يرخي بظله على المدينة.

أمضى الليل في السوق، مع بضعة متشردين جاؤوا ليناموا هناك. وفي صباح اليوم التالي أوغل في حي الصباغين، باحثاً عن الرجل الذي كان قد اتصل به سابقاً من قبل باراباس. دخل عدة دكاكين محاولاً أن يسأل العمال الذين تلونت سواعدهم عن زميلهم، فلم يحصل إلا على أجوبة غامضة غموض طلبه. لم يصب بالاحباط. وظل يدور في الحي ثلاثة أيام حتى بات معروفاً لدى بضعة حرفيين. وفي اليوم الثالث اهتدى إلى الشخص الذي كان يبحث عنه.

«مرحبا».

لاحظ سريعاً أن الآخر عرفه.

«أحتاج إلى لقاء باراباس. أين هو؟

ـ لا أعرف عمن تريد أن تتكلم.

ـ لا تتظاهر بالبراءة. سبق لك أن حملت إلي رسالة منه.

ـ أنت مخطىء بلا ريب.

كان الرجل خائفاً حقاً.

«سيبوريه. خورازيم... هذا لا يعني لك شيئاً؟

ـ لا. دعني وشأني.

وعاد يهوذا فتذكر الحديث الذي سمعه في الكنيس. وبما أن العملية أخفقت بهذا الشكل، فيكون من الطبيعي أن يشعر محدثه بالخوف.

«سنفعل كما فعلنا في المرة الأولى. سأسلمك رسالة. فإذا كنت تعرف إلى من يجب أن تسلمها، سلمه إياها. وإلا، إطرحها جانباً. اتفقنا؟

ـ إن كنت تريد ذلك، لكن هذا سيذهب سدىً.

ـ بالتأكيد.

أخرج يهوذا من كيسه قلماً ولوحة خشبية مطلية بالشمع، وحفر عليها بضع عبارات.

«سأعود بعد ثلاثة أيام. إذا كان هناك جواب...».

ـ لا تأمل ذلك».

عاد يهوذا. وانتظر يوماً كاملاً. وعندما أغلقت آخر دكان بابها، سمع صفيراً فالتفت، فرأى الصباغ، فمر هذا بقربه، وبدون أن ينطق بكلمة، دس في يده قطعة من البردي لم يقرأ فيها سوى عبارة واحدة:

«غداً على المفترق عند غياب الشمس».

حضر على الموعد في اليوم التالي. توقفت أمامه عربة محملة بأكياس من الطحين.

«إصعد ـ أمره السائق.

ـ إلى أين؟

ـ لم يجب الرجل.

سارا بضع ساعات، وصادفا فيلقين من الجيش الروماني. وغلب النعاس على يهوذا رغم رجرجات العربة.

ثم أفاق لأن أحداً شده من ذراعه.

«وصلنا».

كان هناك راصد ينتظر فوق مرتفع صغير، وانطلقت في تلك اللحظة صرخة حيوان بدت له كأنها إشارة. وصلت العربة إلى قرية صغيرة. كانت قرية تتألف من عشرة بيوت هي مجرد مكعبات من الطين في غاية البؤس. وكان هناك جلود حيوانات تجفف على قضبان وتملأ الجو برائحة كريهة.

خرج باراباس من أحد تلك الأكواخ.

وكانت لحظة ارتباك بين الاثنين.

«هكذا أنت تعود إذن» ـ قال باراباس.

ـ نعم.. أجاب يهوذا.

لم يجدا شيئاً آخر يقولانه. وأنزل يهوذا حوائجه من العربة.

مضت عدة أيام قبل أن يتمكنا من التحدث معاً. كان يهوذا يمضي وقته في المشي، في التعرف على القرية، أو في صيد السمك في فرع

من نهر الأردن كان ينتهي إلى غدير على بعد خطوات من البيوت الأولى. كان يشوي سمكة على نار أمام بابه. وجاءه باراباس في اليوم الثالث. فقدم له يهوذا سمكة، ثم شق سمكة أخرى ورمى أحشاءها في الرمل وغرس فيها عوداً صغيراً.

«أنا آسف لما أصاب زوجتك وولديك. لم أعلم بالأمر إلا قبل مجيئك بيومين.

ـ أشكرك. لكن ما رأيته من موتى كاف ليجعلك لا تتأثر بموت زوجتي وولديّ.

ـ هل يمكن أن يعتاد الانسان على الموت؟

ـ أنت يمكنك ذلك، نعم، وكنت على وشك أن تجعلني أعتاد عليه أنا أيضاً.

وسادت لحظة صمت. انتهى باراباس من تناول سمكته ثم نهض.

«شكراً لك على هذا الاستقبال.

هكذا تمت الخطوة الأولى. وعاد في اليوم التالي، وما بعده.

«لم تتمكن من التراجع عن خطتك» ـ بادر يهوذا إلى القول.

ـ ليس بشكل كامل. أرسلت بالكاد عشر رجالي.

ـ وسقط مع ذلك خمسة عشر قتيلاً...

ـ لم أكن قادراً على منع الجميع من الذهاب إلى هناك. وكان يجب أن نبين لبيلاطس أننا لا نزال في الساحة.

ـ ولماذا؟

ـ لأن كفاحنا لا معنى له إلا إذا تواصل».

كان لهذه العبارة وجه خطابي أدهش يهوذا.

ـ هل هناك شيء آخر تريد قوله لي؟

ـ نعم».

واختنق الجواب.

«نعم ماذا؟

ـ كان بين الضحايا... كان...

ـ من كان؟

ـ كان نتنائيل».

ما كان ليهوذا أن يصدق، قبل ذلك بيومين، أنه ما زال قادراً أن يتألم.

«وكيف؟

ـ لقد ظهر بلا ريب أنه أحد قادة التظاهرة. فانقض عليه رجال بيلاطس المدسوسون بين المتظاهرين وحطموا رأسه بدبابيسهم.

ـ لكن هل كانوا يعرفون من هو؟

ـ لست أدري. هذه خسارة ضخمة للحركة.

ـ للحركة وحدها؟ ولكن لمحبيه أيضاً. ماذا تعتقد؟ هل كان هذا مجرد حادثة؟

ـ أنا آسف يا يهوذا.

ـ أنت آسف... ما معنى هذا، أنت آسف؟

ـ فقدنا رفاقاً آخرين...

ـ أنت تقدم لي عوناً كبيراً، فشكراً لك. ألم تخبره، رغم تحذيراتي؟ أم أنك تعمدت تركه يذهب إلى هناك؟

ـ لم أتمكن من إخبار الجميع كما قلت لك. و...

ـ كان يجب مع ذلك أن يذهب بعضهم، أليس كذلك؟

ـ هل كان عليّ أن لا أستبعد فكرة أن تكون معلوماتك خاطئة فأدع فرصة فريدة كهذه تذهب سدى؟ لقد حمينا الرجال خير حماية ممكنة، مع احتفاظنا بإمكانية للعمل. هو الذي أصرّ على القيام بالدور الأخطر. لا أعلم ما جرى بعد ذلك. لقد وقع في الفخ».

اغرورقت عينا يهوذا بالدموع. ورأى آخر صورة لديه عن نتنائيل، عابراً مجهولاً ضائعاً في زحمة الحشود عند الباب الذهبي.

تقبل يهوذا موت نتنائيل على أنه آخر ضربة ينزلها به القدر، وآخر

برهان على أن مصيره هنا، في هذا الكفاح الذي ضحى في سبيله الآن بكل ما أحب.

كم بقي لديك من الرجال؟ ـ سأل باراباس.

ـ حوالى المئة تقريباً. لم أستطع تجنيد كل من أردت تجنيدهم، كما اضطررت إلى قبول رجال لا يعجبونني كثيراً. كان يجب أن نؤمن الطعام كل يوم وكانت المطاردة تلاحقنا عن كثب. لم يكن الأمر سهلاً. لكننا صمدنا.

ـ وتحولتم إلى لصوص.

ـ لا تحكم علي، أرجوك. لا أنت».

هز يهوذا رأسه. بات باراباس عاجزاً عن تصور حياة غير تلك التي يحياها منذ سنين، حياة المطاردة، والقتل، والسرقة، والتخفي. وإذا كان عاجزاً عن أن يرى أبعد من العنف، فقد كان أيضاً عاجزاً عن أن يتخلى عن العنف. فكان يستمر في الكلام عن النضال كما يفعل محكوم بالأشغال الشاقة مربوط بسلاسل إلى مركبه. غير أنه بدل اتجاهه: لم يعد يجازف بتأليف جيش كبير متمركز في الجبال. فبات رجاله الآن يعيشون منفصلين، موزعين في قرى، ويريد الاحتفاظ بهذه البنى الموزعة إلى فترة ما. الماكنة التي كان قد بناها سابقاً كانت سريعة العطب، ومعرضة جداً لأخطار كان يمكن أن يسببها رجل واحد للجميع.

«ماذا تريد أن تفعل بي؟ ـ سأل يهوذا ببساطة.

ـ أنت عشت طويلاً بين أولئك الذين يجب علينا أن نقاتلهم. فبوسعك أن تدلنا على الأشخاص الذين يجب أن نفتك بهم لكي نضعف الرومان.

ـ سبق لك أن طلبت مني هذا وأجبتك بالموافقة، لكن بشرطين. ماذا يدور في رأسك؟ أنا لم أعد في الخامسة عشرة. لذلك، كف عن التلاعب بي وقل لي بصراحة ماذا تريد».

توقف باراباس ونظر إلى يهوذا نظرة احترام جديد.

«تأملت كثيراً في سبب إخفاقنا. أعتقد أننا كنا غير جاهزين ولم نعرف أن نتجاوز العمل العسكري البسيط إلى الاعتماد على قوة كافية. لم نكن سوى محاربين. وكان يجب أن نكون أكثر...

ـ أكثر؟ لكن ماذا؟

ـ كهنة».

بدا باراباس يستمتع باكتشافه.

«كهنة؟».

ـ في الحقيقة، لماذا نقاتل نحن؟».

وبدا كأنه ينتظر الجواب بلجاجة ساذجة. وسايره يهوذا في اللعبة.

«لكي نتخلص من نير الرومان.

ـ نعم، وبعد ذلك؟.

ـ لكي تقوم مملكة إسرائيل.

ـ ومن الذي سيقيمها؟

ـ الله. بواسطة المسيح الذي سيأتي باسمه.

ـ نعم، بواسطة المسيح.

ـ لكن أحداً لا يعلم من هو ولا بأية طريقة سيأتي. لا وجود لنص يذكر هذا بوضوح.

ـ هذا سيسهل قولبته وفق رغبتنا. الرومان يجسدون خطايا إسرائيل. لو كان إسرائيل طاهراً لما كان الرومان عندنا لأن الله ما كان ليسمح بذلك. لذا لن نستطيع طردهم إلا إذا كان الله معنا. قبل أن نقاتل يجب أن يغسلنا من خطايانا. نهاية العالم تقترب. أنظر كيف يتحقق «سفر الرؤيا».

ـ كان صادوق ويهوذا الجولاني يقولان هذا من قبل.

لعلني أخطأت، يوم جاءنا علماء الشريعة، بعدم الاستماع إليهم أكثر من ذلك. إن واجب طرد الرومان واجب ديني أكثر منه سياسي. وليس له من معنى ما لم يكن يعمل على أن يعيد إلى الله ما حرمه منه الظلم الوثني.

ـ هذا صحيح. وبعد؟

ـ نحن لم نخصص للايمان في السابق حيزاً كافياً في قواتنا. ولم تكن له قط قوة الكهنة في نشر أفكارنا ودفعها إلى الأمام.

ـ لأن الكهنة كلهم إلى جانب الرومان. لقد عشت طويلاً بالقرب من الهيكل الذي هو وكر هذه الأفاعي وأستطيع أن أؤكد لك أنه لا يرجى أي خير منهم.

ـ منهم، لا. لكن الشيع تتكاثر بانتظام. أنظر إلى تاحيب: لقد جمع في السامرة جماهير غفيرة عند سفح جبل غاريزيم.

ـ لكن هذا كان في السامرة: أية قيمة لما يجري عند أولئك الكلاب؟ على أي حال، ماذا كانت النتيجة؟ أرسل بيلاطس قواته، وكان عدد القتلى كبيراً.

ـ هذا ليس مهماً. والمهم أنهم كانوا هناك، مجتمعين. لم يكن عندهم من القوة ما يكفي، هذا كل ما في الأمر. هل تعرف الأسينيين؟

ـ أمضيت بضعة أيام في قمران.

ـ لقد انتشروا في المنطقة. الشيع تتكاثر، وعلى رأسها تارة أشخاص واهمون، وطوراً أشخاص من رجال الله الحقيقيين. معظمهم لا يحتج على روما مباشرة، لكنها تدافع بحرارة عن إلّه إسرائيل وعن اكتمال إرادته بحيث أن النتيجة واحدة. إنها تتشاجن حول نقاط تفصيلية، لكنها في الواقع متقاربة جداً. وهي فيما يتعلق بالمسائل الجوهرية مستعدة للسير وراء من يعرف أن يوحدها. والشعب لا ينتظر سوى أمر واحد: أن يرى ملكاً من ذرية داود، محارباً كبيراً، ينتقل من نصر إلى نصر، يأتي ليساعده على خلع النير الروماني. إنهم ينتظرونه جسدياً وليس في صلواتهم فقط.

«التقيت بعضاً من أولئك المبشرين، وسرت وراءهم أحياناً. يوجد الآن مثلاً بالقرب من نهر الأردن، في مكان لا يبعد كثيراً من هنا، شخص يدعى يوحنا يغطس الناس في الماء، ويكثر من اللعنات المخيفة

على هيرودس. إنه يستهزىء به، ويشتم امرأته، ويعيره بزواجه غير المقبول على الدوام.

ـ وهل تظن أن علينا أن نطلب منه أن يكون على رأس قواتنا؟

ـ لا، ليس إلى هذا الحد.

وكظم ضحكة.

«لكن أظن أن من مصلحتنا أن نحاول إقامة علاقة مع هذه الجماعات. إنهم قادرون أن يحملوا مشاريعنا إلى أعلى مما فعلنا نحن، وهم مقبولون. إن عائق العمل السري يغدو مفرطاً في الضخامة. فلو كنا نسير وراء هذه الجماعات لكنا استطعنا أن نكبر في الظل. ان إسم الله اليوم أقوى من فكرة الثورة».

تريث يهوذا لحظة قبل أن يتكلم.

«وماذا تريدني أن أفعل، فأنا أفترض أنك لا تعرض علي هذه الأفكار من أجل متعة النقاش لا غير؟

ـ لقد طواك النسيان. لذلك أنت قادر أكثر مني أن تتغلغل في الأوساط العليا دون أن يشعر بذلك أحد، كما أنك تعرف أناساً بين الكهنة. أود أن تجمع معلومات عن هذه المجموعات وأن تحاول إيجاد واحدة يمكن أن تساعدنا».

لم يجب يهوذا في الحال.

«دعني أفكر في كل هذا. على كل حال، شكراً على ثقتك بي».

نهض باراباس وانصرف من كوخ يهوذا. في تلك الليلة، لم يعرف كلاهما النوم.

أمضى يهوذا صبيحة اليوم التالي وهو يمحص فكرة باراباس. وكانت تبدو له أكثر صواباً كلما أوغل في تمحيصها. إن الحماسة الروحية كانت بالفعل غائبة عن حركتهم. وعاودته ذكرى قمران: لو أن أولئك الناس كانت لديهم إرادة القتال بدلاً من التثبت من نظافة أخفافهم قبل تناول الطعام، لكانوا محاربين جديرين بالاعجاب دون شك. فإذا توصل زعيم

ما إلى تحريك رجال من هذا العيار باسم الله لكان في ذلك خدمة للجميع. إلا أنه يجب العثور على شخص قادر أن يفعل ما يريده باراباس دون أن يتخلى عنهم عند إخفاق أول تجربة.

ومضى ليرى قائده القديم ففاجأه بقرب فتاة بدا منسجماً معها خير انسجام. من هي يا ترى؟ مومس كان قد طلب منها المجيء؟ أم فتاة مسكينة خدعها كما كان يفعل غالباً يوم كان يسود ملكاً على قواته؟ هذا ليس مهماً على كل حال.

«لقد فكرت جيداً يا باراباس».

أبعد باراباس ذراع صاحبته ونهض مسرعاً.

«أنت موافق إذن؟

ـ أعتقد فعلاً أن الفكرة جيدة جداً. سأمضي لكي اكتشف الطائر المنشود».

وراحت قهقهة يهوذا تدوي طويلاً في الهواء الجاف.

وبعد ثلاثة أيام، أمسك يهوذا بعصا متينة بيده اليمنى، وحمل كيساً خفيفاً على كتفه، ورحل باتجاه نهر الأردن.

الجزء الثاني

الفصل الخامس عشر

كان يهوذا لا يحب أريحا. فقد اتخذت هذه المدينة، بعد أن طورها هيرودس، شكلاً يونانياً ـ رومانياً مزعجاً، رغم جمال نوافيرها، وشوارعها المبلطة، وحماماتها ذات النظافة المبالغ بها تقريباً... كان عدد الوثنيين فيها يتزايد، وكان جنود حاميات اليهودية والبيري يرتادون حاناتها. وكان العيش فيها طيباً بلا ريب، لكن هذه الطيبة كانت في نظره تعني الاستسلام.

ترك إلى يمينه القصور الحديثة البناء، وتقدم نحو الساحة التي تضم ضريح هيرودس الكبير، وهو بناء روماني يعلوه تمثال للملك السمين. كان في الساحة رجل يلقي عظة.

انضم يهوذا إلى الأشخاص الخمسة عشر الذين كانوا يصغون إليه. كان الرجل جريئاً، فقد قال كلاماً تهجم فيه على الاحتلال الروماني، ودعا السامعين إلى الامتناع عن دفع الضرائب. كان وحيداً، وتوقف عن الكلام عدة مرات لكي ينشد. عندما دنا منه يهوذا بدا كأنه يريد الفرار.

«لا ترحل، أنا لا أريد إيذاءك، وإنما أنا استمتع بالإصغاء إلى الخطباء أمثالك، خصوصاً أولئك الذين لا يحجمون عن التنديد بمحتلينا. من أين أنت؟ هل تعرف كثيراً من الوعاظ الآخرين؟

ـ من أنت كي تطرح علي هذه الأسئلة؟

ـ أنا عابر سبيل، مثلك. أنا لا أعرف اسمك وأنت لا تعرف اسمي.

نحن لا نتعرض لأي خطر، كما ترى. . . لكنني تأثرت كثيراً ببعض كلماتك وأود أن أعرف ما إذا كنت حالة شاذة أو إذا كان وراءك كثير من الاتباع؟

ـ أتباع؟ أنت تطلب الكثير. لا، ليس لدي أتباع كثيرون. لكنني وجدت الشجاعة لأتكلم هكذا بعد أن سمعت يوحنا المعمدان.

ـ من هذا؟

ـ إنه نبي، نبي كبير جداً. الكثيرون يرون فيه المسيح. وأنا شخصياً لست بعيداً عن هذا الاعتقاد.

ـ لكن ليس تماماً؟

ـ لو كان المسيح قد جاء لما كانت المملكة في هذه الحالة؟

ـ أنت على حق ـ قال يهوذا ـ وهل تعرف أين يمكن لي أن أجد هذا المعمدان؟ إنه واحد من أولئك الذين يغطسون أتباعهم في الماء، أليس كذلك؟

ـ إنه في المكان ذاته كل يوم وفي الساعة ذاتها. حتى هيرودس يعرف هذا. المعمدان يبقى على ضفة النهر الأخرى التي ليست خاضعة له. إذهب إلى نهر الأردن عن طريق جيلفال. وعند وصولك الى النهر، إنزل بمحاذاته صوب البحر الميت. وهناك تجد مخاضة تسلكها القوافل الآتية من مؤاب: اسمها بيت عربة. يوحنا يعمد هناك يومياً في الموسم الحالي.

ـ أشكرك.

ـ إمضِ إلى هناك واستمع. بعد ذلك، إفعل كما أفعل أنا. أنشر أقواله. رافقتك السلامة يا صديق».

ثم نادى يهوذا بعدما ابتعد هذا قليلاً.

«هل لديك شيء من الطعام؟ التبشير لا يطعم صاحبه خبزاً دائماً، وأهل اليهودية قليلو السخاء. . .».

ابتسم يهوذا واقتسم رغيفه معه.

ارتاح يهوذا ليلة في النزل. وفي صباح اليوم التالي، مسح وجهه بماء غرفه من سبيل يعلوه تمثال لقيصر كان جنود قد نشروا عليه ثيابهم كي تجف، وتوجه نحو بيت عربة. كانت الطريق أطول وأشد وعورة مما توقع. وعند بلوغه نهر الأردن، سار بمحاذاة مجراه البطيء والساكن، القليل الماء في هذا الفصل من السنة. كانت كثبان الرمل الممتدة على طول مجرى النهر تصعد حتى تبلغ نتوءاً جبلياً. وعندما رأى المخاضة، ابتسم إذ لاحظ أن الشريط الأخضر بدا كأنه يتحدى الصحراء. كانت بيت عربة نقطة عبور لا غنى عنها لمن يريد أن يجتاز نهر الأردن: النهر هناك أكثر عرضاً منه في الأماكن الأخرى، وكان يقطع السهل بخط أزرق وحاد. كما كانت الحجارة التي تبرز منه قد بُريت لكثرة ما وطأتها الاقدام والحوافر. وبقدر ما كان يهوذا يتقدم كانت تظهر له كثرة أنواع النبات التي نبتت هنا وكأنها فعلت ذلك بالقوة: أشجار المائد، والميموزا، والأثل، والخنشار، والقصب، كانت تفرض نفسها حتى طرف التربة الصفراء. وكان الماء قد حفر مضيقاً تتصاعد منه سفسفة الأمواج الصغيرة. وإلى جهة السهل، كان شعر حرمون الأبيض يبدو وكأنه يسهر على الواحة، كما كان يمكن للمرء أن يلمح لمعان البحر الميت الفضي عند سفح مرتفعات مؤاب.

لم يسبق أن لاحظ يهوذا مثل هذا العدد من الناس في بيت عربة. كان هناك حوالى مئة شخص منتشرين في مكان صغير قرب أجمة، يكسوه عشب أخضر في هذا الفصل من السنة، وكانوا يصغون إلى نبي أشعث واقف فوق صخرة. وكان الجو مشبعاً برائحة الكبريت الآتية من غمام البحر المالح.

كان النبي هزيلاً، يكسو ساقيه وبر أصهب، وكانت بشرته قد لوحتها الشمس، وكان، على غرار إيليا، يرتدي ثوباً قصيراً من وبر الإبل ويتمنطق بحزام من الجلد. «لا يستطيع أي من هؤلاء الواعظين أن يهتدي إلى طريقه هو» ـ قال يهوذا في سرِّه.

وجد له مكاناً يتيح له سماع الخطيب، قرب راع لا تزال تفوح منه رائحة عنزاته القوية. كان قد رأى أنبياءً كثراً، لكنه لم يرَ واحداً منهم على مثل قذارة هذا النبي.

«أنتم يا حثالة الأفاعي» ـ صاح يوحنا فجأة.

كانت هذه المقدمة غير اعتيادية، لكن الحشد لم يتأثر بها على الاطلاق.

«من الذي دفع بكم إلى الافلات من الغضب الآتي؟».

وعلا صراخ طفل قطع عليه كلامه. فتطلع نحوه غاضباً. وانتفخ صوته، وتدفقت عبارات الذم.

«فلتتلاءمْ أفعالكم مع توبتكم. بصدق. لا تبحثوا في نفوسكم عن ذرائع. لا تقولوا: «إن ابراهيم أبونا» كما لو كان هذا القول يبرر كل شيء. ذلك، كما أقول لكم، لأن الله قادر أن ينبت من هذه الحجارة أبناء لإبراهيم. الفأس موضوعة على جذور الأشجار، والشجرة التي لا تعطي ثماراً طيبة ستقطع وتلقى في النار».

سمعت بضع تنهدات مرفقة بدموع بين الجمهور. والريح، التي كانت تهب في الوجهة المناسبة (هل كان المعمدان قد تنبأ بهذا الحدث الطبيعي؟) كانت تحمل إلى البعيد صوت النبي، الذي بات وجهه يتخذ شكلاً رهيباً، وكان الخوف ظاهراً في قسمات كثيرين. اكتشف يهوذا بين الجمهور عشارين واثنين أو ثلاثة من الوثنيين المرجح أنهم يونانيون. إذا لم يعد الواعظون يتكلمون ليس لأجل اليهود فقط فسيكون هناك شيء من الصعوبة في إعادة مملكة إسرائيل.

ما قاله يوحنا أثار اهتمام يهوذا ثم دهشته، وكان أكثر تأثراً بتعليله منه بالعبارات البيانية السهلة التي كان يرهب بها مستمعيه. الفكرة كانت جديدة ولها فعل الصدمة: إن مجيء المسيح لن يسجل بالضرورة انتقام إسرائيل الجماعي من الوثنيين ـ كان يقول ـ بل إنه سيقيم نظاماً لا يكفي

الانسان انتسابُه الى الشعب المختار كي يكون مقبولاً فيه، بل يجب عليه أن يتصرف على نحو يجعله مستحقاً له. وتساءل يهوذا قائلاً: ما معنى الشعب المختار إذن طالما أن أياً كان، وفقاً لمعايير لم يحددها المعمدان، يتمتع بالحقوق إياها، وقد يستطيع حتى أن يحل محل اليهود؟

«لا تنتظروا مني كلاماً يزعق ويخدر. أنا جئت لأجلب لكم القلق والرعدة، لأكون مهمازاً في لحمكم. جئت لأوقظكم، لكي ترحبوا بالذي سيأتي من بعدي».

كان أحياناً يمسك عن الكلام ويروح يصيح.

«التوبة، التوبة».

كان يتطلع إلى السماء، ولا يرف له جفن تحت وهج الشمس.

«ماذا علينا أن نفعل يا معلم؟» سأل أحدهم.

ـ من كان له ثوبان فليعط من ليس له واحداً منهما. ومن كان عنده طعام، فليفعل الشيء إياه!».

وفجأة مدّ يده النحيلة صوب اثنين من العشارين وحملق فيهما بحرارة محرقة.

«وأنتما، أطلب منكما أن لا تطالبا أبداً بأكثر مما هو مقرر».

حنى الرجلان رأسيهما، وذرى أحدهما التراب على وجهه وراح يدق صدره بيديه.

«هل هو دائماً هكذا؟» يسأل يهوذا رجلاً كان يبدو أنه يتلقف كل كلمة يتفوه بها المعمدان. فقد كان عنف الواعظ يخلب لبه، حتى وإن كان كلامه جارحاً.

«ليتك رأيته الأسبوع الفائت: لقد نصح جنوداً بأن لا ينكدوا عيش أحد. هؤلاء أيضاً كانوا مستائين، لكنهم لم يقدموا على قول كلمة واحدة.

ـ العشارون والجنود يحارَبون، ولا يتغيرون.

«إياك أن تقول له هذا».

«توبوا من أعماق قلوبكم ـ كان يصيح المعمدان الآن متوجهاً إلى الحشد. ولا تظنوا أنه يكفي أن تغسلوا أيديكم قبل تناول الطعام وأن تراعوا عطلة السبت حتى تكونوا في مأمن من الخطيئة».

ثم حمل على هيرودس، وندد بانحرافاته بلهجة نادرة العنف. كانت هيروديا، زوجة الملك التي كانت من قبل زوجة أخيه فيليبس، هدفه المفضل، فكان لا يمضي يوم واحد دون أن يكيل لها الاتهامات.

«أسرة ملعونة، لا تتعلم الشريعة إلا لكي تجيد انتهاكها. من أنت أيها الزاني حتى تسرق امرأة أخيك وتمشي الخيلاء متأبطاً ذراعها؟ أنت خاطىء مرتين، لأنها ابنة أختك ولأنك طلقت زوجتك من أجلها».

كانت هذه هي اللحظة التي كان الناس يأتون فيها ليستمعوا إليه. فقد كانت مغامرات هيرودس الزوجية موضوع ممازحات رائجة، ولكن محصورة في حلقات خاصة. وقد أثار يوحنا حماسة الناس إذ جعل منها حديثاً علنياً. كانت صيحات «أحسنت» و «لا فض فوك» تنطلق من بين الحشود فيفرح بها يهوذا لما كانت تكشف من حرمان، ويأسف لها في الوقت ذاته لعلمه بالفرق الشاسع بين هذا الغليان وبين الفعل.

وصاح رجل: «من أنت حتى تتكلم هكذا؟».

ـ أنا صوت صارخ في البرية. إفعلوا ما يقول لكم إشعيا، ومهدوا طريق الرب».

عندما صمت المعمدان، كان الجمهور قد آمن بكلامه. ونزل النبي عن صخرته، وتحلق حوله على الفور عدد من أتباعه ليصدوا موجة الحجاج، تداركاً لما حصل قبل بضعة أيام، عندما تدافع هؤلاء فسقط بعضهم في الماء. وحتى لو كان هذا السقوط خالياً من الخطر، فإن رعونة هذا الغطس الجماعي تسيء إلى مهابة ما سيأتي بعد ذلك.

خلع أول رجل ثيابه ولم يحتفظ إلا بوزرة حول خصره، ثم تقدم نحو

الماء. ثم ركع. فأمسكه يوحنا من شعره وغطس رأسه في الماء. وكان وراءه رجل ثان وثالث يستعدان.

«أعمدك باسم الله. إندم على خطاياك وتمنَّ الخير».

كان الرجال ينهضون مبللين، شاعرين بالاختناق، ويعودون إلى الضفة. بدت هذه المراسم رتيبة وفظة في نظر يهوذا. كان يقدّر كل ما فيها من تحدّ لسلطان الهيكل، لكنهم ليس بهذه الترهات سينافسون طقوس التضحية بالحيوانات...

كان لا يزال هناك خمسة أو ستة رجال يريدون أن يتعمدوا، وكان يهوذا قد ملّ من المشهد حينما جمد النبي فجأة في مكانه.

كانت الشمس الغاربة تحول دون رؤية ما يجري بوضوح، لكن يهوذا ظن أنه يلمح طيفاً أضفت عليه شمس المغيب لوناً أحمر.

«هذا هو رسول الرب» ـ صاح النبي فجأة.

وامتدت يده صوب القادم الجديد.

سرت الدهشة بين الحشود. كان بعضهم يلاقي صعوبة في التعرف على الرجل الذي أشار إليه يوحنا. وتبين يهوذا ثيابه العادية تماماً: جلباب من الكتان طويل الأكمام، وعباءة من الصوف مزينة بشرابات صغيرة، وكان يعتمر كوفية تدغدغ منكبيه.

«الذي يأتي من بعدي أقوى مني. أنا أعمدكم بالماء وبالتوبة. أما هو فسيعمدكم بالنار وبالروح القدس. أنا لست أهلاً لأحل شريط حذائه».

وسمعت همهمات. أحاط أنصار يوحنا به، متأهبين لمعاقبة القادم الجديد. لكن الواعظ ردعهم.

«قلت لكم: هذا هو رسول الله. أنا غير أهل لتعميده. بل بالعكس، أنا من يجب أن ينال العماد من يده».

بدا الوافد مذهولاً.

«ما الذي تقوله يا يوحنا؟ أنا ابن خالتك، ابن يوسف. ألا تعرفني؟ لطالما لعبنا معاً، قبل أن تغادر ذويك. لقد جئت طالباً منك أن

تعمدني، وأن أراك مجدداً. لست أفهم ما تقول. إمنحني سرّ العماد، كما فعلت مع الذين كنت لا تعرفهم».

وخلع الرجل ثيابه ونزل إلى الماء. لم يجرؤ يوحنا على تغطيس رأسه في الماء، بل جمع راحتيه وغرف ماءً سكب منه قطرات على رأس الرجل. فانحنى هذا وكأنه يشكره، ثم مضى دون أن ينطق بكلمة. تحلق التلامذة بسرعة حول يوحنا، الذي كان لا يزال تحت تأثير الصدمة، فاضطر أن يستعين بالقصب حتى يعود إلى الضفة.

«من هو هذا الرجل؟ ما قال لك؟ هل هو من سيخلفك؟

ـ إنه حمل الله، ذاك الذي يمحو خطيئة العالم» ـ راح يهتف يوحنا.

وتفرق الجمهور وهو في حيرة من أمره. وحاول تلاميذ المعمدان أن ينالوا منه معلومات إضافية عن الرجل الذي استقبله هذا الاستقبال الغريب. فكان الرجل، الذي لا يتخلى عادة عن لوحاته، قد وضع لوحات الوصايا العشر هذه على الأرض، وراح يلوّح بيديه في الهواء بعنف.

ومضى يهوذا أيضاً وفي نفسه شعور خفيف بالخيبة. فقد كان في عنف النبي وفي حميته أمور ينبغي الأخذ بها. لكن هذا الانقلاب الختامي، هذا النوع من نقل السلطات (إذا كان قد فهم ما جرى) ترك في نفسه شعوراً بالانزعاج. أفلا يقلل هذا من قيمة المساعدة التي كان يأملها من جانب المبشر؟

وبقي هناك يومين يستمع إلى مواعظ المعمدان حتى بات واثقاً من صحة فكرته. فإن حدته وجرأته في التنديد بهيرودس كانتا غير كافيتين لحمله على الشعور بالثقة. ولعل هذا كله ليس سوى نار في الهشيم: مبالغة في العنف، مبالغة في التكرار... كان يوحنا لاعناً موهوباً، لكنه لا يستطيع بلا ريب أن يكون قائداً حقيقياً.

قرر يهوذا أن يصعد بمحاذاة النهر ثم يسلك طريق ائتلاف المدن العشر، مروراً بسيشيم وسيتوبوليس، راضياً على مضض بالمرور بالسامرة

من جديد. مشى كثيراً، وصادف قرب سيشيم فريقاً آخر من المعمدانيين يطلق عليهم اسم «غطاسو الصباح»، فأمضى نهاراً معهم. غير أن هوسهم بالاستحمام يومياً وبالتحدث بعد ذلك طيلة ساعات عن النظافة والطهارة بدا له أمراً لا طائل تحته، دون أن يكون لطريقة عيشهم هذه سحر طريقة عيش الأسينيين.

ومرّ سريعاً بسيباست التي أطلق عليها هيرودس اسم أغسطس باليونانية، وتوجه نحو واحة جنين. وصادف في الطريق ثلاثة مبشرين تجمع حولهم نحو خمسين شخصاً (لكن هل كان هناك من تسلية أخرى في القرى التي مر بها؟)، وكان هؤلاء المبشرون يزعمون أنهم صنعوا معجزات كثيرة في طريقهم، دون أن يثبتوا ذلك. لم يعجبه أحد من هؤلاء. كان الأول يشدد على التقيد بالطقوس الإلزامية، ويرى خلاص إسرائيل في مراعاتها الصارمة. وكان يصحب الثاني مجموعة من الفتيات، فهم يهوذا، أن عملهن لا يقتصر على غسل ثيابه وحسب، وكان هذا يغرق في كلام طويل يحمل غموضه السامعين على التذمر. أما الثالث فكان أجدر بالاهتمام، رغم أن كلامه كان يحير الجمهور. التقاه يهوذا في جنين، حيث كان يعمل بالتبشير بين القوافل، مستغلاً استراحة المسافرين كي يفرض أفكاره عليهم. فقد دنا الرجل من مجموعة تجار كانوا مشغولين بإنزال الأحمال عن جمالهم وغير مبالين تماماً، وراح يستفيض في شرح أن النفس البشرية، التي هي جزء من الألوهة، هي الفلك الذي تتمركز فيه أشعة العالم، المرتبطة باللامتناهي في الكبر. وبعد أن سقطت هذه المسكينة من السماء بفعل الخلق لم يعد لها إلا أن تعود إليها، وهذا ما تجهد في السعي إليه، على كل حال. اكتشف يهوذا في هذا الكلام عدة أفكار من الفلسفة البيتاغورية الجديدة كان قد تشاجر حولها مع أرشيبيوس، وأحس بدفق من الحنين عند هذه الذكرى، التي كانت أول ذكرى مرتبطة بحياته في أورشليم أثارت مشاعره بعد ذلك الحريق.

استغرقت جولته هذه شهراً توجه بعدها خائباً نوعاً ما نحو صحراء اليهودية، التي يرتادها كثيرون من النساك ومن عشاق الله، آملاً أن يجد بينهم الرجل الذي يبحث عنه. وسلك هذه المرة طريق سالم وعينون.

في المساء، بينما كان يتناول طعام العشاء في الحانة، دعاه رجلان إلى مصاحبتهما. كان أحدهما يدعى يشوع والآخر غملائيل، وكانا تاجرين يتعاملان مع القبائل العربية المترحلة في صحراء مؤاب.

«سنمكث بالقرب من بطانيا ـ قال له يشوع ـ ننتظر قافلة تحمل إلينا بضائع. لا أعلم متى ستصل بالضبط، لكن بوسعك أن تمضي عدة أيام معنا».

وافق يهوذا، إذ أنه غير راغب في اجتياز الصحراء وحيداً.

مشى الثلاثة يوماً كاملاً قبل أن يتوقفوا في أول استراحة، فكانوا ينسابون بين الكتل الكبيرة الصفراء المنتشرة في الصحراء كحجارة عملاقة. وكانت تمتد وراءهم تلك البقعة المكسوة بشجر الأكاسيا والمستكة حيث تتقلص الشجيرات وتتباعد حتى الزوال، وكانوا لا يسيرون إلا في الصباح الباكر وبعد الأصيل، ويمضون في ظل الصخور أشد ساعات النهار سخونة. وبين حين وآخر، كان بياض رقعة من الملح يرسل بضع لمعات نحو السماء.

وصلوا في اليوم التالي إلى سفح جبل طبشوري الأديم. كان هناك بضعة نسور تتطاير فوق جنباته، وتشرب من مياه ساقية. لم يكن يجب الصعود كثيراً حتى يروا منخفض البحر الميت، بحر الملح. أحس يهوذا بالتعب: لياقته البدنية، التي نال منها كسل حياته في أورشليم، لم تعد كما كانت من قبل.

كان سعيداً بإلقاء كيسه على الأرض. أخرج يشوع من كيسه حجلين.

«يمكننا أن نحاول اصطياد حجال أخرى إذ أنها كثيراً ما تصادف قرب الجبل». كان قد اصطحب معه قوساً وكان ماهراً في استعمالها. بعد أن فرغوا من تناول الطعام، حكى لهما يهوذا قصة استمدها من ذكرياته.

بدأ البرد يشتد، فشد الرجال عباءاتهم على أجسادهم. وألقى غملائيل حزمة من الحطب في النار فأضاءت أطيافهم المرتعشة.

«هل تتصور ما يوجد هناك؟ ـ قال هذا وهو يتطلع إلى الأفق ـ هل تخطر في بالك أحياناً كل تلك الممالك السحرية القائمة هناك؟ بابل، أشور، نينوى...».

كانت الكلمات تتدحرج من بين شفتيه.

سُمع صوت حركة حصى فارتعدوا. ارتمى غملائيل على سلاحه، ووثب يهوذا إلى خلف الموقد، إلى الجهة المقابلة لتلك التي جاء منها الصوت. ونهض يشوع. وأمام هذه القوة المتأهبة للدفاع اجتاز رجل دائرة الضوء التي ترسمها النار.

«مرحباً أيها الأصدقاء. هل لي أن أقعد لحظة معكم؟».

كان الوافد طويل القامة، نحيلاً للغاية، وكان يرتجف من البرد، مرتدياً ثوباً ممزقاً وقذراً.

«اسمي يسوع بن يوسف. أمضيت أربعين يوماً في الصحراء، وأنا خائر القوى. هل تسمحون لي بأن أقعد معكم؟ أنا...».

وانقطع حبل كلامه من جراء التعب أو خوفاً من أن لا يفهموه.

«ماذا تفعل في الصحراء؟ هل أنت أحد أولئك النساك الذين يتركون الدنيا دائماً ليعيشوا هناك؟

ـ دائماً، لا، لكن يمكن القول إنني واحد منهم. ومكوثي هناك أتعبني. هل لي أن أقعد معكم؟».

قال هذه العبارة الأخيرة بلهجة أقرب إلى التمتمة.

«بالتأكيد. أعذرنا على هذا التردد. وشاركنا في طعامنا. إنه قليل، إلا أنه سيكون على كل حال أكثر من بضع جرادات لا بد أن تكون قد اكتفيت بها في الأيام الأخيرة».

قابل الرجل الغريب هذه الملاحظة بابتسامة شاحبة، واقترب من الموقد.

وأضاءت النار وجهاً في غاية الشحوب، نحيلاً، كانت تقرأ فيه آثار الحرمان الأقصى. لكن هذا الألم كان يبدو في الوقت ذاته مقبولاً ولكان من العبث البحث في هذه القسمات الأميل إلى القبح عن أثر آخر غير أثر صفاء أكيد.

«لدينا تين، وعسل، وبقية قطعة لحم بقري مدخن... عرض عليه يهوذا وهو يعود مرتجفاً إلى مكانه قرب النار.

هذا ممتاز. اسمحوا لي بأن أشكركم.

«لم أفهم اسمك جيداً. هل هو يشوع؟ أو أوسيا؟

ـ اسمي يسوع. أبي نجار في الناصرة، في الجليل.

ـ يسوع؟ لا تؤاخذني. لم أفهم جيداً. إذن، يا يسوع، طعامنا هو طعامك. فتناول منه ما تشتهي».

اندفع يسوع بسرعة نحو ما قدموا له وراح يأكل بنهم حتى كاد يختنق وأصابته نوبة طويلة من السعال.

«رويداً، رويداً ـ قال له يهوذا ـ ألا تعلم أن على المرء بعد الصيام أن لا يعود إلى تناول الطعام إلا بمقادير قليلة؟ إن شراهتك قد تقتلك، ولا أظن أن قداستك ستكون في هذه الحال كافية لحمايتك».

وضحك الثلاثة.

«أكمل طعامك أيها الناسك، واذهب وتمدد. لدينا غطاءان إضافيان إذا شئت أن تنام».

تناول يسوع بعد ذلك بضع لُقم من اللحم، وقرصين من التين، واعتذر عن سوء تصرفه واختلى لينام. وعندما حمل إليه يهوذا جلد الخروف الذي وعده به كان قد غفا.

كان أول من نهض في صباح اليوم التالي. وزالت آثار التعب عن وجهه، واستيقظ يهوذا على زفير النار التي أوقدها هو. رأى يهوذا من

خلال مزق في جلبابه آثار ضربات وخدوش على خاصرته، كما لو أنه خاض قتالاً.

«هيه، أيها الناسك، يبدو أنك استعدت قواك سريعاً.

ـ لست ناسكاً في الحقيقة.

ـ وما أنت إذن؟

ـ لكنت قلت لك لو كنت أعرف ما أنا. قل إني يسوع. هذا أسهل. أليس كذلك؟

ـ أنت يسوع. إلى أين أنت متوجه يا يسوع؟

ـ إلى بيتي في الجليل...

ـ إبقَ معنا يومين أو ثلاثة إذا شئت، ريثما تكون قد استعدت قواك بصورة كاملة».

لم يكد يهوذا ينطق بهذه الدعوة حتى تساءل عن سبب توجيهها. فليس من الحصافة في شيء أن يبقى مجنون الصحراء هذا معهم ويربكهم، لكن نظرة الصعلوك المسكين الذي أمامه كان فيها شيء يثير الاضطراب.

«أشكرك يا رجل، أنا أقبل دعوتك بطيبة خاطر. ولكن بشرط...

ـ ما هو؟

ـ أن تقول لي ما اسمك. لا أريد أن أبقى معكم هذه الأيام الثلاثة ولا أناديك إلا بكلمة «رجل» الاحتفالية».

وضحك ضحكة رنانة، صافية، طارت نحو السماء.

«بما أن لديك مثل هذه الاستعدادات الطيبة، فما رأيك في القيام برحلة صيد؟ أنا لا أحوز ما لديك من مروءة، لذلك تراني أسأم سريعاً من تناول العسل البري والجراد، كما فعلت أنت طيلة أربعين يوماً.

ـ خصوصاً الجراد. الجراد المشوي يصلح تماماً للأكل. أما المسلوق فلا طعم له البتة.

ـ أتعرف أن تستعمل القوس؟

ـ ليس كما يجب، لكن يمكن أن أحاول».

أخذ قوس غمالائيل من يد يهوذا، وشده، ووضع السهم بتوازن على إصبعه لكي يرى إن كان محكم التوجيه.

مضت لحظة طويلة قبل أن يقطع الرجلان حبل الصمت. كان يسوع يسير وعيناه شاخصتان نحو الأفق، مترصداً أصغر علامة تشير الى وجود طريدة: كان قد فر من أمامهما حجلان أبيضان وثعلب ولم يتمكنا من إصابتها.

«أين كانت خلوتك؟ ـ سأل يهوذا أخيراً

ـ هناك، في الجبل».

وأشار يسوع بيده إلى الكتلة الجبلية الضخمة البيضاء.

«لقد مررت من هنا وصعدت إلى فوق.

وأشار إلى مقطع الساقية.

«وأمضيت كل هذا الوقت هناك؟».

لم يسبق ليهوذا أن مرّ بهذه البقعة سوى مرة واحدة، وهي من أكثر بقاع صحراء اليهودية وحشية، وكان ذلك يوم زار بصحبة نتنائيل الدير الصغير الذي مات فيه آخر المكابيين؛ وكان لا يُسمع فيها سوى عواء بنات آوى. وهناك، كان قد تجمد من البرد وارتعد أمام وعورة الطبيعة، فأحس في نفسه تصميماً على القتال قوياً كالصخر، حتى لو كان وراء ذلك موته، على نحو ما فعل سمعان، هذا الذي حضر الى هناك لأجل تكريمه.

«كيف جئت إلى هنا؟» ـ عاد يسأل. كان يدرك من مراجعة ذكرياته تلك القساوة التي استهوت صاحبه، فأحس فجأة بأنه أقرب إليه.

«هل لي أن أثق بك؟

ـ ولمَ لا؟

ـ عليّ أن أتوجه إلى الناس، أن أكلمهم. وهذا يخيفني. أنت أول

شخص يجب علي أن أكلمه، ولكنني ألوذ بالصمت، ولا أتجاسر على قول شيء.

ـ هذه بالفعل علامة سيئة على مهنتك كمبشر».

وأطلق يهوذا ضحكة صغيرة سرعان ما دفعه اليأس الذي قرأه في عيني صاحبه إلى كبتها.

«أعذرني على ما بدر مني دون قصد. فأنا لم أكن يوماً شديد الميل إلى المواعظ. لكن لا بأس، أخبرني إن كان في ذلك ما يرضيك. لا أعدك بأن أصدق ما ستقول، لكنني أقسم لك بأنني سأصغي إليك».

وبدت على وجه يسوع ابتسامة بائسة.

«أمضيت أربعين يوماً في صحبة إبليس».

لم تفاجىء هذه العبارة يهوذا، إذ أنه كان قد سمع ما يشبهها في أثناء اختلاطه مع المبشرين.

«سهرت وصمت طيلة أربعين نهاراً وأربعين ليلة. حاول إبليس أن يغريني ثلاث مرات: عرض عليّ أن يبدل حجارة الصحراء بخبز عندما أجوع. وذهب بي إلى الهيكل، واقترح عليّ أن ألقي بنفسي إلى تحت كي أثبت أن الله يقدر أن ينقذني. ومن فوق قمة الجبل، وعدني بكل ممالك العالم إذا أنا سجدت له. وقد أثر بي الإغراء، يا إلّهي، أثر بي تأثيراً فظيعاً... لكنني لم استسلم قط. وبعد أربعين يوماً رحل عني، ونزلت إلى الصحراء، وهناك وجدتكم».

لم تبدر من يهوذا أية سخرية جديدة أمام صدق طوية الرجل وألمه الهائل.

«والآن؟ هل عليك أن تمضي وتخبر الجماهير بهذه التجربة؟

ـ أفترض ذلك، لكن رسالتي ليست واضحة. وآمل أن لا أتعثر حين أتكلم عن ذلك».

وواصل السير صعوداً. كانت هناك غمامة حارة ترافقهما، وكان كل منهما قد رفع ذيول كوفيته إلى قمة رأسه. وقعدا بعد قليل ليستمتعا بمنظر

الطبيعة. كانت الشمس تبزغ من وراء جبل نيبو، طاردة آخر الظلال. وكان نهر الأردن الذي تلونه ببصيص فضي، ينساب في الوادي. وكان الأفق يتمدد نحو أجمات الزيتون التي تشير إلى طريق أورشليم.

«تأثرتُ مؤخراً بواحد من أمثالك يدعى يوحنا، لا بد من أن تكون قد سمعت به. إن صيته آخذ في الانتشار، ويأتيه حجاج إلى النهر كي يجتمعوا به. يسمونه «المعمدان» لأنه يغطس أتباعه في ماء نهر الأردن.

ـ أعرف يوحنا هذا.

ـ صحيح؟ وهل استهواك خطابه؟ أنا وجدت فيه أشياء مثيرة جداً، رغم عدم اقتناعي بكل ما يقول. لم أفهم جيداً ما يوجد من جديد في هذا العماد. نحن نمارس من قبل طقوس التطهير. حاول أن تحمل فريسياً على دخول الهيكل دون أن ترشه بالماء أو اطلب منه أن يغسل يديه بعد حفلة ما بماء مأخوذ من وعاء نجس، وسترى...

ـ كل هذه الطقوس مبالغ بها دون شك ـ قال يسوع ـ لكن طقس المعمدان ليس مجرد تطهير. إنه يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير. إنه فريد، ونهائي. إنه يمحو الخطايا.

ـ هذا أمر جيد. كل الأيام هي يوم غفران عنده؟

ـ شرط أن يحس الانسان بتوبة صادقة وأن تكون لديه الارادة الصلبة لعدم الوقوع ثانية في الخطيئة، حتى لو كانت مواطن ضعفنا تدفعنا إلى ذلك.

ـ آه، مواطن ضعفنا...؟».

وابتسم يهوذا.

ـ يمكننا إذن أن نحب الله دون أن نذهب إلى أورشليم ودون أن ندفع رسوماً للكهنة؟ ليس من شأن هذا أن يُكسب واعظك أصدقاء فقط. إلا أنه يجعل الله أقرب إلى قلبي: يجعل الوصول إليه ممكناً بدون ضرائب...

ـ لا تهزأ! إن ما يقوله يوحنا هو تحدٍ حقيقي للهيكل. لكن لا بدّ من

أمور كثيرة أخرى حتى يرضي الهيكل الله. الله الذي احترمه على الأقل».

حينئذ عرف يهوذا فجأة يسوع.

«لكن، ويحي... أنت كنت هناك في ذلك اليوم... نعم كنت أنت... من دعاه وأراد أن يعتمد على يده. كان هذا أنت بالتأكيد! كيف لم أعرفك قبل الآن؟».

كيف كان له أن يعرفه الآن وهو لم يلمحه إلا بالكاد؟ ومع ذلك لم يدر هذا السؤال في خلده.

«كنت أنت، إذن؟

ـ كنت أنا ـ اعترف يسوع.

ـ وما قال لك بالضبط؟ لقد رأيت المشهد لكنني لم أفقه منه شيئاً. كانت الشمس ترسل حرارة قوية، وكنت استمع إلى خطابه منذ ساعتين...

الشمس لم تكن السبب. أنا شخصياً لم أفهم جيداً. معرفتي بيوحنا قليلة. إنه ابن خالة أمي. لهونا معاً كثيراً حين كنا أطفالاً. لكنني لم أره منذ سنين. لقد عاش فترة في قمران، وكان على مستوى يمنعه عن التكلم مع غير العارفين.

ـ في قمران؟ مع الأسينيين؟

ـ بالضبط. وقد احتفظ منهم ببعض التصلب الفكري.

ـ لكنه مع ذلك اعترف بأنك المسيح؟

ـ لا، ليس المسيح. لقد تكلم عن رسول من عند الله. لكن ألسنا جميعاً مرسلين من عند الله؟

ـ لقد أشار إليك أنت، ولم يشر إلي أو إلى واحد من الذين كانوا يستمعون إليه.

ـ ربما لأنكم لا تحوزون ما يكفي من الايمان؟ أوه، انظر!».

كان سرب من الحجال قد انبجس فجأة أمامهم. فأخرج يهوذا مقلاعه وأطلق حجراً، فدار أحد الطيور على نفسه وسقط على الأرض.

«ضربة طيبة.

ـ ساعدني الحظ.

ـ هل أنا من يجلب لك الحظ؟

ـ لا بد أن يكون الأمر هكذا فالشكر لك».

كانت نظراتهما قد أصبحت حادة وهي تبحث عن الطرائد في المنحدرات.

ثم عادا إلى السهل. فجأة قفز أرنبان أمامهما. أطلق يسوع سهماً انغرس في فخذ الحيوان الذي لم يعد قادراً على الفرار، فعاجله بسهم آخر انغرس في عنقه.

بعدما عاد الرجلان إلى المخيم، لاحظ الجميع أنه إذا كان المكوث في الصحراء قد ترك آثاراً في جسد الناسك، فإن شهيتهِ كانت تعود يوماً بعد يوم.

لم يبدأ يسوع يتحدث عن نفسه إلا في اليوم التالي. فتحدث عن صنعته كنجار، وشرح كيف يشذب قطعة من الخشب، وكيف يبري الألسنة، وكيف يشحذ شفرة، ويحفر فقرات متناسقة، وكيف ينحت وجهاً دون أن يكسره، وكيف يضلّع عموداً أو يصنع نيراً أو عريشاً للكدن. وكانت أصابعه تحمل ندوباً سببتها صنعته... كان يهوذا يصغي إلى النجار الشاب ويحس بأنه يحب الخشب كما يحب هو الفخار.

ثم تحدثا عن الناصرة، التي لم يزرها يهوذا إلا قليلاً، إلا أنه، على غرار يسوع، كان يطيب له أن يرقى إلى التلة ويلقي نظرة مبهورة على المنظر الجميل: المربعات الخضراء والصفراء في سهل إيسدرلون، وزرقة البحر المتوسط التي تلمع في الأفق البعيد، وجبل حرمون الضخم المتوج بالبياض، وبحيرة طبريا المختبئة بين استدارات الهضاب والأرض الدسمة التي تنبىء بحضورها.

«ماذا كنت تعمل هناك؟

ـ كنت أساعد أبي في المشغل. لكنه كان أكثر مهارة مني بكثير. لولا

يديه لما كانت يداي شيئاً... نحن سبعة، خمسة صبيان وبنتان. كان أبي أكبر سناً من أمي، لكنني أعتقد أنهما كانا متحابين حقاً. كنت أقرب إليه. كانت أمي أضعف حضوراً وأكثر انزواءً. كما هي كثيرات من نسائنا مع الأسف. فليس يسيراً عليهما أن...

ـ إنهن نساء لا أكثر. أنا أيضاً كنت أحب أمي، لكنني ما كنت لأطلب منها أن تقوم بـ... بـ...»

كان يبحث عن كلماته.

«بما يقوم به الرجال، مثلاً».

ـ هل كنتم أغنياء؟

ـ لا. إن أحد أعمامي اضطر حتى أن يعمل كرقيق. معظم أهلنا ملاكون صغار. وبعد أن يدفعوا الضريبة إلى الرومان، والعشر إلى الكهنة، ويقدموا إلى الهيكل أولى الثمار وأولى الحيوانات المولودة، كان لا يبقى لهم الكثير. كنا «آم هاآرتيس» ككثيرين غيرنا.

ـ ونحن أيضاً ـ قال يهوذا مقاطعاً إياه ـ وما زلت أتذكر احتقار الكهنة.

ـ حتى هلال قال إننا لا يمكن أن نكون أتقياء.

ـ اللعنة على الكهنة!»

بعد توقف قصير عن الكلام، عاد يسوع يقول:

«أحسست منذ صغري بأنني مختلف عن الآخرين. وكان الناس من حولي يشعرون بمثل هذا الشعور. كان هذا يثير حفيظة بعض إخوتي الذين استفادوا كثيراً من قوتهم. كنت لا أتفاهم جيداً حقاً إلا مع يعقوب، الذي ولد بعدي مباشرة. حاولت والدتي أن تحميني، لكن كثرة اهتمامها بي كان يزعجني. وكنت ألتقي كثيراً بابن خالتي...

ـ المعمدان؟

ـ الذي صار معمداناً. كنا متحابين إلى حد ما. ثم تخلى عني. كنت أنا الصغير، الصغير الذي يثير غضبه».

كان غملائيل ويشوع قد سئما بسرعة من حضور ضيفهما، لكن يهوذا كان يبدو أنه يزداد أكثر فأكثر اهتماماً به.

في الليل، تنحى يسوع جانباً.

ـ ماذا تفعل لوحدك؟ هل عاد إبليس يبحث عنك؟

ـ لا. لقد انتهيت منه. لكن ما بقي علي أن أفعل هو أصعب بكثير.

ـ من أين تأتيك هذه المعرفة بما عليك أن تفعل؟

ـ لست أدري. يلوح لي أنها كانت دائماً معي. إنها تتبعني منذ طفولتي. لقد درست، وقرأت، وتعلمت الشريعة، وتعلمت أن أنتفض عليها.

وخفض صوته قائلاً:

«أنا أيضاً نأيت بنفسي عن الشريعة ـ كأنه أراد أن يساعده. أحترمها متى استطعت، لكنني لا أضيع في الطقوس. أعز أمنية عندي هي أن تقوم مملكة إسرائيل مجدداً. وإذا كانت الشريعة تساعدني في ذلك، فخير لي. أما إذا كانت غير موجودة إلا لدعم أولئك الخونة الصدوقيين، فأنا لا أرضى بها.

ـ أنت أيضاً تحلم بالمملكة إذن؟

ومنح يسوع يهوذا ابتسامة أنشأت بين الرجلين روابط شدت كلاً منهما إلى الآخر. قال يهوذا في نفسه إنه عثر على النبي الذي يبحث عنه، على السلاح الذي سيتيح له أن يواصل السير في طريقه. فهذا الشاب الذي تكمن وراء ضموره قوة يندر أن توجد قوة مثلها، هو الذي يمكن أن يدعم حركتهم. وحتى بعد أن هدأت حماسته، وحتى عندما عادت إليه ملكة التقييم الواقعي، لم يشك بهذا الحدس الفجائي.

«أنا أيضاً أحلم بها. أنا أيضاً أعلم أننا سنفلح يوماً في إعادتها إلى هذه الأرض. وأعتقد حتى بأن هذا اليوم قريب».

فتح هذا النقاش الطريق أمام نقاشات كثيرة أخرى. ولاحظ الاثنان أنهما يلتقيان في معظم الأمور: انتظار مجتمع مختلف، الرغبة في تبديل

النظام القائم، في تحويل مملكة إسرائيل، في انتزاعها من السيطرة الرومانية ومن فساد هيرودس. وكان يهوذا يشعر، وإن كان في الغالب عاجزاً عن الرد على يسوع، بأن مجرد الإصغاء إليه كان يشيع الوضوح في أفكاره. لا بد أنهما سيتبادلان نقاشات أخرى، وستكون هذه اكثر عمقاً في الغالب، لكنها لن تكون على مثل نقاوة هذه الأيام الأولى.

ومضى أسبوع. وصلت القافلة التي كان ينتظرها غملائيل ويشوع وكان في طليعتها عربات وجمال محملة بالبضائع، ما أشاع الحبور عند الرجلين اللذين كانا يخشيان حصول حادث ما أو هجوم من قبل اللصوص. ونصبت خيام كبيرة، كما نحرت عدة خراف. وتناول يهوذا ويسوع طعامهما الأكثر غزارة منذ أشهر، وبعد أن شبعا ولوثا أصابعهما وثيابهما بالدهن، أخلدا إلى النوم. عندما استيقظا، وكان يسوع قد نهض قبل يهوذا، أخذ هذا الأخير على حدة وقال له:

«سأمضي لأبشر بعودة المملكة وسأكون بحاجة إلى رجال يرافقونني. فهل تريد أن تكون واحداً من هؤلاء الرجال؟ إذا أردت ذلك فستكون أول تلاميذي».

نظر يهوذا الى يسوع دون أن يجيب. ومرّ بسرعة في رأسه كل ما كان يمكن أن تكون له صلة بجوابه: إلتزامه بتنظيم الانتفاضة في أثر يسوع» والتزامه بالحفاظ على الحركة حية دون أن يدعها تسقط في يدي باراباس الداميتين...

«موافق. سأتبعك حتى أورشليم...

ـ لماذا أورشليم؟

ـ في أي مكان غير أورشليم تريد أن تحصل الانتفاضة؟

ـ آه...! الانتفاضة...».

وردّد يسوع هذه الكلمة عدة مرات.

«أشعر الآن بأنني استعدت كل قواي وأود أن أرحل بعد ساعة.

ـ ساعة؟ هذا مبكر جداً. لا أستطيع أن أترك غملائيل ويشوع هكذا، بعدما استضافاني كل هذا الوقت...

ـ لن استطيع أن أنتظرك. يجب علي أن أعود إلى الناصرة لأرى أهلي وأبدأ التبشير. وبعد ذلك سأذهب دون شك إلى كفرناحوم، فيمكنك أن تجدني هناك بعد شهر».

وتعانق الرجلان.

* * *

بعد ذلك بيومين، كان يهوذا في أورشليم وأتصل بباراباس.

«أظن أنني عثرت على الرجل الذي نبحث عنه.

ـ النبيّ المثالي الذي سيقيل الشعب من عثرته؟»

قال هذا بسخرية مرة كما لو أنه لم يعد هو نفسه يؤمن بذلك.

«ومن هي هذه اللؤلؤة النادرة؟

ـ إنه لم يبدأ فعلاً بالتبشير بعد. لقد رأيت مشهداً غريباً قرب المكان الذي يمارس فيه ذلك المعمدان نشاطه. أنت تعرف شيئاً عن ذلك الذي يغطس الناس في الماء ويحمل بشدة على هيرودس وتصرفاته الغرامية. لقد سبق لك أن حدثتني عنه...

ـ أجل، أجل، أرى ما تعني. وبعد؟

ـ لقد اعترف المعمدان هذا، منذ أيام، بخلف له هو ابن خالته.

ـ هذا شيء مألوف: متى شاخ الزعيم فإنه يورث أسرته السلطة لكي تبقى هذه في أيدٍ صالحة. هذا كل ما وجدت؟

ـ ما عدا أن الإفادة من العملية تبدو ضئيلة هذه المرة: لا أظن أن المعمدان ذاق طعاماً غير الجراد المسلوق منذ سنوات، كما أن لباسه ينفّر أشد الرعاة تقشفاً. وفوق هذا، فإن ابن الخالة قبل الميراث بالكاد، وانسحب وهو يقول كلاماً غامضاً، وبات بعد ذلك يصطدم بفظاظة أتباع المعمدان.

ـ وبعد؟ ما الذي يمكن أن يهمنا في كل هذا؟

كان باراباس ذا مزاج مقيت جداً.

«دعني أنهي كلامي. لقد صادفت ابن الخالة هذا في الصحراء بعد انقضاء شهرين على ذلك. يتحلى هذا الرجل بشيء مميز جداً، برقة وجاذبية قد تذهبان به بعيداً. تحدثت معه طويلاً. وبدا لي أنه على وفاق تام معنا، وهو ثائر أيضاً على الاحتلال الروماني، وعلى الظلم، ومصمم على إنقاذ مملكة إسرائيل. أظن أنه قد يكون الرجل الذي نبحث عنه...

ـ هل تنتسب عائلته إلى داود؟

أجاب يهوذا ضاحكاً:

«هل تعرف عائلة يهودية في فلسطين لا تدعي أنها متحدرة من داود؟

ـ وماذا تنوي أن تفعل؟

ـ أن أتبعه فترة، وأرى ما يستطيع أن يعطي. لقد عقد العزم على التبشير، بعد أن قاوم الشيطان أربعين يوماً؛ هذا ما فهمت من أقواله.

ـ قاوم الشيطان؟

قال باراباس هذا مقهقهاً.

«على أي حال، أنت الوحيد الذي رآه. بماذا يختلف حقاً عن عشرات المبشرين الآخرين الذين ينبؤوننا بنهاية العالم؟

ـ لا أدري حتى الآن. لكنني أحس بذلك. لا بد من السير وراءه لكي نتأكد.

ـ حسناً، سر وراءه يا عزيزي. لكن لا تضيع وقتك طويلاً إذا لاحظت أنك ضللت الطريق. على أي حال، ما اسم هذا المطيح بالامبراطورية؟

ـ يسوع

ـ حسناً، وافقنا على يسوع».

الفصل السادس عشر

مكث يهوذا يومين أو ثلاثة مع باراباس. كان الشتاء يوشك أن ينتهي وقد أخذ النبات يغطي الصخور، حيث عاد يكسو الأرض الوزال والزوفاء والكبر. وعاد الماء يسيل تحت الأديم. اجتاز يهوذا جبال مؤاب البنفسجية اللون؛ وعند العشية كان يتوقف لينام خارج النزول، راغباً في مشاركة الطبيعة يقظتها.

كانت الطرق تتحول تدريجياً إلى دروب ضيقة محجرة لا يستطيع سلوكها بالكاد إلا الحمير. وتبين له أنه غادر اليهودية: الرومان، الذين كانوا قد شقوا طرقاً عديدة في البلدان التي فتحوها، لا بد أن يكونوا قد اعتبروا هذا شيئاً لا فائدة منه في هذه المنطقة الصغيرة التي تخص هيرودس. وكان هذا أحد تلك الأعمال الظالمة التي تثير غضب يهوذا... على أن جمال البيئة بدل مرارته، كما لو أن الطبيعة انتقمت له من تفاهة البشر. كان الجليل قد بدأ يكتسي بالزهور. فكانت أزهار الشقار تكسو البّراري، وكانت شقائق النعمان تتسلق الهضاب. توقف لحظة، وتسلق إلى مرتفع واستلقى على العشب النضير. وراح يحلم مرة أخرى، مغمض العينين والشمس تغمر وجهه، بالمملكة المنقذة التي يحلم بها منذ أمد بعيد. وفيما كانت أفكاره تسرح بغير انتظام، برزت أمامه صورة يسوع. فانتفض ونهض ليكمل طريقه وكان منزعجاً من هذه الرؤيا.

لم يستطع مقاومة الرغبة في المرور بخورازيم، وهو يشك بأنه يتعرض بذلك للخطر بعد غياب دام عشر سنوات. وعند العشية ذهب وجثا أمام قبر أمه، وأحس بأن قلبه ينفطر حين تذكر أنه ودعها لآخر مرة دون أن يدري. وأرهقه شعوره بالوحدة.

ومرّ بعد هبوط الليل أمام بيته الذي لم يعد يسكنه أحد. وألقى نظرة صوب مشغل أبيه، ولم يستطع الصمود أمام رغبة الدخول إليه، رغم ما في ذلك من قلة احتراس. لم يسمع أي صرير للباب حتى. كان الغبار قد اجتاح كل شيء. وكان في إحدى الزوايا بضعة أوان مهشمة. ولم يبق من المخارط الثلاث سوى واحدة هي الصغرى التي تعلم الصنعة عليها. فقعد وراءها من جديد، وحاول تشغيلها لكنها دارت بصعوبة بالغة وهي تصر.

عندما خرج من المشغل كانت بضعة أضواء أمام البيوت تخترق جدار الظلمة. ومشى ساعة أو ساعتين، ثم تمدد على الرمل. وشدّ أهداب عباءته إلى بعضها، وتأمل لحظةً القمر البدر وهو يغمر الطبيعة بضوئه الأبيض، وغفا.

وصل إلى طبريا مساء اليوم الثالث. كان اسم عاصمة هيرودس هذا، الذي هو كناية عن إعلان الولاء لروما، وكانت المدينة التي بنيت فوق مقبرة، وهذا مكان نجس، كان كل هذا يثير غضبه كلما اضطر أن يأتي اليها. وكان عدد بيوت الموظفين الصغيرة المحيطة بقصر الوالي قد تضاعف مرات منذ مروره آخر مرة. ولم يتطلع حتى إلى ميدان سباق الخيل، والمسرح اليوناني، ولا إلى الكنيس الذي كان الملك يرتاده غالباً لأجل الصلاة. لكن غضبه دام أقل منه في الماضي نظراً لاستعجاله إيجاد فراش أكثر راحة من العباءة التي كان يلتف بها في الليالي الأخيرة.

كان لا يوجد في النزل الذي اختاره أكثر من عشرة نزلاء، وكان هؤلاء متحلقين حول موائد وضعت عليها أطباق من التين والسمك

المقلي على نار كبيرة أشعلت في الدار. كان هؤلاء بعضاً من البنائين الذين كثر عددهم في المدينة بعد بدء الأشغال... أنزل يهوذا كيسه الذي يثقل كتفه، وتنفس قليلاً. يجب عليه الآن أن يهتدي إلى يسوع، إذا كان هذا الأخير مصمماً على بدء مسيرته من هنا، حسبما قال له.

لكن الخبر البارز يومذاك لم يكن عن مجيء مبشر جديد بعد ذلك العدد الكبير من المبشرين. وسرعان ما أبلغه الخبر الرجلان القاعدان حول طاولة في جواره.

«تقولان إن يوحنا المعمدان اعتُقل؟

ـ البارحة، نعم. لقد عبر هذا الأحمق نهر الأردن فوجد نفسه على أرض هيرودس. ولم يدع الحاكم هذه الفرصة تفوته.

ـ وأين وضعوه؟

ـ في ماشرونت.

ارتعد يهوذا، إذ أن ماشرونت هذه كانت معقلاً يدافع عن حدود البيري الجنوبية في وجه أنباط البتراء. كانت موقعاً دفاعياً رئيسياً للبلاد، وقلعة حصينة من أكثر القلاع منعة. وقد سبق ليهوذا أن مر أمامها يوماً وتخيل نفسه سجيناً في هذه الكتلة الحجرية التي كانت أبراجها تبدو كأنها تنبثق من الصخر.

عرّف الرجلان عن نفسيهما، فكان أحدهما يونانياً آتياً من الاسكندرية، والآخر معلم بناء استقبل الأول قبل شهرين. سكب اليوناني كوباً من نبيذ فاليرن وقدمه ليهوذا الذي كان قد طلب تقديم طعامه على مائدتهما.

«لكن كيف أقدم على ارتكاب خطأ عبور النهر؟

ـ من يدري... كان الحشد يتكاثر، ولعله دفعه إلى ذلك. كان في الماء، ولم يعد يفكر في الأمر فوجد نفسه فجأة على الضفة الأخرى. وكانت شرطة هيرودس هناك تتربص به كل يوم. هذا ما لم يكن قد فعل

ذلك عمداً لأنه جزء من خطة غامضة. فإذا كان عليه أن يعيد بناء المملكة فكل شيء قد يكون صالحاً لأجل ذلك.

ـ أن يعيد بناء المملكة؟ هذا يستوجب أن يكون المسيح؟

ـ ولماذا لا يكون المسيح؟ إنه ليس أول رجل يدعي ذلك.

ـ إنه لم يدّع ذلك قط.

ـ على أي حال، أن يكون مسيحاً سجيناً هو أمر لا يعود عليكم بنفع كبير». قال اليوناني.

ضاق يهوذا ذرعاً بهذه الـ «عليكم». إن هؤلاء الغرباء الحمقى، ذوي الآلهة العديدة المقاتلة والجديرة بالسخرية، يتجاسرون على النظر باستخفاف إلى ديانة آبائه...

«أظن أنه قال ذلك ـ أضاف معلم البناء، لم أعد أعرف، فأنا لم أره سوى مرة أو مرتين. غير أنه كان في أقواله كثير من... الأشياء التي أحبها.

ـ وماذا سيحدث الآن؟ هيرودس ناقم عليه حتى الموت، وأشك كثيراً بأن تكون هيرودية أكثر تسامحاً. وبما أنها تسيطر عليه بهذا...».

وأمسك بعضوه الجنسي ضاحكاً.

ـ هذا مع ذلك أمر مؤسف. بعد أن جاء إنسان يجهل ببعض الحقائق... ومن سيحل محله؟».

رحل يهوذا في اليوم التالي متوجهاً إلى كفرناحوم. وعندما وصل إلى مجدلى، التي ذكرته بمريم، سأل عن يسوع فقيل له إن مبشراً مر من هناك وتحدث الليلة الماضية في الكنيس، وأنه لا يزال في المدينة بالقرب من سوق الغرب. فحث يهوذا خطاه. كانت السوق تغص بالناس. وكانت السلع المعروضة تنم عن الثراء: عرانيس ذرة، وكبّاد، ولحم خنزير مجفف، ومربى التين، وأطباق جاهزة من لحم الغنم أو الماعز المطيبة بالتوابل.

«هل مر مبشر بهذا المكان مؤخراً؟ ـ سأل أحد التجار.

ـ إذهب وانظر حيث يتجمع الناس، فأظن أنه هناك».

شكره يهوذا، واشترى شيئاً من كلى الغنم، وتوجه نحو التجمع.

ولما وصل سمع صوتاً يدوي فوق رؤوس الجمهور، فأدرك فوراً أن هذا ليس يسوع، إذ أنه كان يتكلم بابتذال صارخ ويقول كلاماً غير كلام يسوع:

«لن يبقى بعد قليل سوء النور لإنقاذكم. فانضموا إلى أبناء النور أيها العميان. انضموا إليهم وسترون...».

كان هذا واحداً من أولئك السحرة، الذين يتزايد عددهم، والذين يبشرون بنهاية العالم ويستغلون ذلك فيخدعون الناس بألاعيبهم... جيء إلى الرجل ببعض المرضى، فأخرج من كيسه أعشاباً وتمتم فوقها ببعض التعزيمات غير المسموعة، ووزعها. وكان هناك امرأة يسيل لعابها على الدوام، فبدت أحسن حالاً بعد تناول الأعشاب. وطاف معاون الرجل بين الجمهور حاملاً طاسته ليجمع التبرعات.

حمل يهوذا كيسه من جديد ومضى.

وشعر بأنه يقترب من كفرناحوم إذ رأى كثرة القوارب المستلقية على بطنها. كانت البحيرة تتلألأ تحت أشعة الشمس، نائمة، وثقيلة. وكان الصيادون يشتغلون، وكانت تلاحظ نوعية الصيد من خلال انحناء القوارب.

كان يهوذا لا يحب هذه المدينة أكثر من طبريا، فهي قد أمست المركز الاداري لـ «جليل غير اليهود»، وبات يؤمها بكثرة وانتظام فينيقيون، وعرب، وسوريون، ويونانيون بالطبع. وكانت كفرناحوم، وهي محطة للجمارك، ومركز تجمع لمعظم جماعات الصيادين من شمال البحيرة، كانت تتغير سنة بعد سنة، ما كان يفقد يهوذا معالم توجهه. على أنه سرعان ما بلغ الكنيس، الذي كان مبنياً بالحجر الأبيض على أرض منبسطة، فكان يرى من بعيد. كان يتمركز إلى جانب الكنيس فيلق روماني هام. كان كل شيء يبدو نظيفاً، وكانت أكثر البيوت ثراء، المبنية

بالحجر البركاني الأسود والمسقوفة بالقصب والغضار، تتجاور وتتشابه بأعمدتها وأقواسها.

كان بضعة متسولين ينتظرون عند باب المبنى، هذا الذي كان دخوله ممنوعاً على غير اليهود.

«أنت هنا منذ وقت طويل؟».

وتفل الرجل صوب يهوذا بصقة طويلة سوداء، ولاذ بالصمت. فهم يهوذا معنى ذلك فأخرج من جيبه نصف شاكل وقال للرجل:

«أبحث عن مبشر طويل القامة، أسمر، تجاوز سن الشباب... ويبشر بمجيء المملكة...

ـ حضر بالأمس وهذا الصباح، وأحدث اضطراباً كبيراً».

وابتسم الرجل ابتسامة شوهت وجهه البالي.

«وحمل على الحاخام اليعازر، وأراد هذا طرده إلى الخارج. كان المشهد ضاحكاً.

ـ وماذا قال؟

ـ لست أدري. أنا لا أهتم بالتفاصيل...

ـ وماذا حل به؟

ـ خرج في آخر الأمر. كان معظم الناس منحازين الى الحاخام، فاضطر أن يمتثل. لا أدري إلى أين مضى. ما عليك إلا أن تبحث صوب مراكز الصيد».

اجتاز يهوذا المدينة ووصل إلى مخيمات الصيادين. كان هناك أسماك تجفف في الشمس على حصائر. وكانت رائحة فلس السمك الذي تدوسه الأقدام تختلط بروائح الورد وزهر البرتقال. وتعرف من بعيد على طيف الرجل الذي يبحث عنه.

* * *

كان يسوع يحاول إشعال نار. وكان بجانبه رجل داكن البشرة يشرح

له كيف يجب وضع الحطب كي تخلق الريح فيه مجرى هوائياً. وكانت تنبسط وراءهما شبكات الصيد على البحيرة.

«أنظر أيها الإمام. تضعه هكذا. أنت تجيد الكلام، لكنك لست كثير الحذق...».

وأطلق الرجل ضحكة شديدة هزت جسده، وجعلت يهوذا ينفر من ابتذاله.

«عدت إليك يا يسوع!».

قال هذا بصوت قوي جعل الصياد يجفل رعدة. نهض يسوع واستدار نحوه، وأضاء وجهه..

«يهوذا! أنا سعيد بمجيئك! كنت أخشى أن لا تكون نقاشاتنا تركت عندك الذكرى التي تركتها عندي».

وعانقه، ثم التفت نحو الصياد الذي ظل بجانب النار وحطبته في يده.

«دعني أعرفك على هذا الرجل. سمعان استقبلني بلطف وإصغاء نادرين. البلاد قاسية، وقد طُردت من جميع الأماكن التي ذهبت إليها تقريباً. تعال واقعد معنا».

كان الفرح يغمر وجهه، حتى عند ذكر إخفاق محاولاته الأولى.

«أنا سعيد جداً بلقائك من جديد. بحضورك أحس بأنني أقل وحدة. بحضورك، وحضورهم».

وأشار بيده إلى الرجال الذين كانوا قد اقتربوا منه.

لم أعرفكَ على الآخرين. هذا أندراوس أخو سمعان. وهذان هما يعقوب ويوحنا ابنا زبدى. والدهما يسيطر على سوق السمك بكاملها تقريباً على الضفة الغربية للبحيرة».

كان يبدو فخوراً بذلك كما لو أنه كان هو صاحب المؤسسة.

تطلع يهوذا إلى الرجال الأربعة؛ كانوا جميعاً ذوي مظهر خشن، وإيديهم جائسة، وشعرهم أشعث، وتبدو عليهم البساطة إن لم نقل

السذاجة. لربما كان الأخير بينهم فقط، ذاك المدعو يوحنا، لكنه كان لا يزال صبياً. . .

«و. . . هل تعرفهم منذ وقت طويل؟

ـ يعقوب وأندراوس كانا مقربين من المعمدان، وسبق لي أن التقيتهما بصحبته. أما الآخرون، فقد تعرفت عليهم منذ يومين، منذ يومين فقط، وتركا كل شيء ليتبعاني على الفور. هذا عظيم، ألا ترى ذلك؟

ـ هذا يعني على الأقل أن الذين يصغون إليك ليسوا على خطأ.

ـ ما حاجتنا إلى البراهين يا يهوذا. المطلوب هو الاصغاء، ثم الاصغاء، ودائماً الاصغاء إلى الذي يكلمنا. تعال، نحن نسكن في بيت سعيد: والد يعقوب وأندراوس يملك كوخاً هناك، ويمكننا أن نمكث فيه بعض الوقت».

بيت سعيد هي قرية صيادين لا تختلف عن مثيلاتها المتناثرات على طول البحيرة، وتبعد مسيرة ساعة على الأكثر عن كفرناحوم، وكان سكانها يجتازون هذه المسافة غالباً في الصباح سيراً على القدمين أو بواسطة القوارب. كان الكوخ الذي أنزل أندراوس ويعقوب أصدقاءهم فيه نظيفاً وينم عن سعة. فرح يهوذا بذلك: رغم قبوله دون أي تذمر بكل متطلبات العمل السري، كان دوماً يعتبر الفقراء حثالة جديرة بالمقت.

كان الرجال المحيطون بيسوع ينظرون إليه بكثير من الاحترام. تناولوا بضع أسماك مشوية كانت تافهة المذاق لأنها لم تطيَّب بالتوابل.

انتهى يسوع من تناول طعامه قبل الآخرين ومدّ قصعته يطلب المزيد عندما سُمع صوت آت من الخارج يصيح:

«سمعان، يا سمعان!».

تظاهر الرجال الستة بعدم السماع. لكن يسوع أومأ بيده إلى الصياد فخرج. ولحق به الآخرون مدفوعين بالفضول.

كان هناك امرأة نحيلة في لباس أسود، تنتظر في الخارج. وكان معها ولدان أحدهما طفل نائم فوق ذراعيها.

«سمعان».

عندما رأت الصياد ـ صار صوتها في الحال أكثر عذوبة، وانهارت وسقطت على ركبتيها.

«أنت لا تزال هنا يا سمعان...».

أمسك سمعان بذراعها.

«إنهضي يا مريم. لقد شرحت لك الأمر البارحة...

ـ لا يحق لك أن ترحل هكذا، وتتركني وحيدة مع الولدين لكي تتبع... قولي له، أنت، قولي لأبيك إنه لا يحق له».

وهزت بيدها البنت الصغيرة التي لم تكن تعرف ما يجب أن تفعل.

«ماذا فعلت أنا؟».

ـ أنت لم تفعلي شيئاً يا مريم، ولن يظن أحد أنك فعلت أي شيء. يجب عليَّ أن أتبع هذا الرجل؛ هذا كل ما في الأمر.

ـ لكن، لماذا؟ ماذا يحوز هذا الرجل أكثر من...

ـ طلب مني أن أتبعه يا مريم. هذا كل ما في الأمر. طلب ذلك مني.

ـ هذا غير ممكن. هناك أمر آخر. أمن أجل امرأة أخرى، هه! أنت تمضي معه لأنك وجدت امرأة أخرى؟

ـ هذا غير صحيح على الاطلاق. لقد قلت لك ذلك من قبل. أعرف أن من واجبي أن أتبع هذا الرجل. لا تسأليني لماذا، لكنني واثق من ذلك. ودموعك لا تزيد الأمور إلا صعوبة».

كان صبر سمعان يكاد ينفد.

«لن يسيء الظن أحد بك يا مريم. بوسعك أن تواصلي العيش مع والدتك، كما سبق أن قلت لك، وهي موافقة. سيكون هناك دوماً من الطعام ما يكفي لك وللولدين. لكن من واجبي أن أرحل...».

واقترب يسوع.

«يا امرأة...

ـ إخرس أنت! لماذا تأخذ زوجي مني؟ ما حاجتك إلى تحطيم عائلة؟ إن كنت بحاجة إلى أرقاء فاذهب وخذهم من عند التنابل، من بين كل أولئك البؤساء المتسكعين على أبواب المدينة بلا عمل...

ـ كفى!

صاح سمعان ـ ونهضت مريم، وأمسكت البنت الصغيرة بيدها. وبدرت من الصياد حركة باتجاه الطفلة سرعان ما كبتها.

«هل الامرأة أكثر من بطن؟» ـ غمغم هذه العبارة ملتفتاً نحو الآخرين، فوافقه هؤلاء. كان جيران قد خرجوا ليتفرجوا على المشهد، لكنهم كبتوا تعليقاتهم حين رأوا شكل الصياد المتعجرف.

أوغلت مريم في الليل، الذي ظلت تضيئه نيران الشاطىء بضع لحظات. ولم يعد يسمع إلا بكاؤها. ولم يستيقظ الطفل.

أحس يسوع بأن عليه أن يقول شيئاً. فالتفت نحو الرجال الأربعة الذين كانوا ينظرون إليه، ثم رفع صوته لكي يسمعه كل من كانوا حوله:

«أقول هذا لكم، أنتم الذين تريدون أن تتبعوني: يجب عليكم أن تتخلوا عن كل شيء. آباؤكم وأمهاتكم، زوجاتكم وأولادكم، وأصدقاؤكم، يأتون من بعدي. أطلب منكم أن تضحوا بكل ما تحبون، وبكل ما كان عزيزاً عليكم حتى الآن. وإلا فلا فائدة من المجيء إلي. هل تسمع يا سمعان، لأنك أنت المشكو منك: لن ألومك قطعاً إذا قررت أن تتركني الآن. أما إذا شئت الاستمرار معي، فعليك أن تترك كل شيء وراءك».

عقب هذه العبارات صمت ثقيل. على أنه لم تبدر أي إشارة تراجع من الرجال الأربعة. وألقى سمعان وحده نظرة مشحونة بالتحسر على زورقه المربوط على شاطىء البحيرة. كان زورقاً جميلاً طوله ثمانية أمتار ويتسع لسبعة أشخاص، وكان قد دفع ثمنه غالياً، نظراً إلى ندرة

الخشب. كانت الريح تنفخ قليلاً شراعه المربع المربوط إلى الصاري. ثم أحس بانتعاش: هذه التضحية التي يقدمها، سيقدمها آخرون.

أحس يهوذا بالذهول أمام جسارة يسوع، والانتصار السهل الذي أحرزه. حقاً، إن عند هذا الرجل شيئاً استثنائياً. وبعد أن رأى تصميم الصيادين، بات يكن لهم مزيداً من الاعتبار، ولم يعد يشعر بذلك الاستياء الذي تركه لديه اجتماع هؤلاء العلوج الفقراء.

في صباح اليوم التالي، كان يسوع غائباً

«هل رأيت المعلم؟».

كان يوحنا قد أيقظ الجميع مذعوراً.

«دعنا ننام، وأخرس ـ صاح به أندراوس بقساوة. لم يتخلَّ عنك أحد. لقد اشتهى أن يختلي بنفسه، هذا كل شيء».

لكن كان قد فات الأوان: كانوا قد استيقظوا جميعاً.

«لننتظر قليلاً ـ قال يعقوب وقد ساءه انتهار أخيه على هذا النحو. أنا واثق من رجوعه قبل أن ترتفع الشمس.

وعاد يسوع فعلاً بعد ساعة.

«كنا قلقين جداً يا معلم» هتف يوحنا وارتمى على قدميه.

ألقى يسوع عليه نظرة عذبة جداً.

«لم يكن هناك شيء يا يوحنا. كنت أتكلم مع أبي في الصحراء».

تبادل الرجال النظرات. عمن كان يتكلم؟ لكن يسوع تجاهل تعجبهم. وأخذ قطعة من الخبز والتهمها بكل أسنانه.

«تكلمت معه، واتخذنا قراراً. يجب أن نمضي ونذيع النبأ في كل أنحاء الجليل».

وانتابت الجميع رعشة.

«أنت..».

بدأ سمعان ينطق بعبارة.

«نعم يا سمعان؟

«لا، لا شيء... متى تريدنا أن نرحل؟

ـ قلت لكم أن تتركوا كل شيء وراءكم. لكن إذا كان بينكم من يميل بعد إلى تبديل رأيه...

ـ لا، لا... أعذرني. أنا تحت تصرفك. متى تتمنى أن ترحل؟

ـ عند مغيب الشمس. حينذاك سيكون المشي أقل صعوبة».

وعادت مريم بعد تناول الطعام، مصحوبة بسيدة مسنة تسعل وتبصق. وتعمدت عدم النظر الى سمعان، هذا الذي نهض ليطردها، والتفت إلى يسوع.

«هيا، أنت يا ذا الدهاء الكثير، إشفِ أمي المريضة.

ـ لماذا تكرهينني يا امرأة؟ ألا تعلمين أن هناك أموراً تعصَى على فهمنا جميعاً، وأنها لامستكِ؟ ألا يليق بك أن تفرحي بها بدلاً من النحيب؟

ـ «أمور»؟ أي «أمور» صالحة يمكن أن تأتي من شفّاءٍ جدير بالشفقة. هيا، قلت لك، إشف أمي. هيا... تكون قد فعلت هذا على الأقل...».

أومأ يسوع إلى السيدة المسنة فاقتربت منه. وكانت مريم تنظر إليهما نظرة شريرة.

وضع يسوع يده على جبين الامرأة فوجده شديد الحرارة. وجسّ نبضها، وحدق في عينيها طويلاً. فانزعجت وأدارت رأسها. فأمسك يسوع رأسها بيديه وشد عليه. فصاحت به:

«توقف».

«لا. انظري إلي. هذا سينفعك».

وأفلتها بعد بضع دقائق قائلاً:

«أتشعرين بتحسن؟».

بدت الامرأة مذهولة.

«نعم ـ قالت متمتمة ـ أنا في حال أحسن بكثير. لم أعد أشعر بتلك السخونة. شكراً أيها الامام، أنت معلم كبير».

ومد يسوع يده إلى كيسه وأخرج منه بعض الأعشاب.

«إشربي ماءها هذه الليلة».

ابتعدت وهي تحملِ الأعشاب بيديها ومشت نحو ابنتها، فاستشاطت هذه غيظاً ومضت دون أن تنطق بكلمة. وبقيت الامرأة المسنة جامدة في مكانها وعيناها تبحثان عن سمعان.

وكان هناك عدة أشخاص شهدوا ما جرى فتقدموا نحو يسوع يريدون أن يعرضوا عليه أمراضهم. ففحص بلطف اثنين منهم وأعطاهما أعشاباً، ثم استبقى الآخرين.

«جئت يا أصدقائي لأحمل إليكم صحة الروح لا صحة الجسد. أنا لست ملاكاً، ولا شفّاء»، وإن كنت أعرف النباتات قليلاً. البلاد تناديني. عليَّ أن أرحل. أنتم لا تريدونني لكم وحدكم؟».

وضحك.

«هيا، دعوني أمر، كونوا لطفاء...».

والتفت يسوع نحو أولئك الذين يريد أن يصطحبهم، وتعجب يهوذا حين رأى هؤلاء يشدون نعالهم دون أن ينبسوا ببنت شفة. عانق سمعان حماته التي لم تستطع أن تحبس دموعها؛ ثم تحركت المجموعة الصغيرة.

«إلى أين نحن ذاهبون؟» ـ سأل يعقوب.

كان يعقوب أكبر ابني زبدى. كان شعره قليلاً والتجاعيد قد اجتاحت جبينه. كان يبدو عليه أنه يفكر قبل أن ينطق بعبارة وأنه يتقن كل ما يقول، خلافاً لأخيه الذي كان نزقه العفوي يدفعه إلى الكلام على الدوام.

«هل عندك فكرة؟ ـ أجاب يسوع.

ـ ربما ـ أجاب يعقوب باحترام وقد أعجبه هذا الاهتمام ـ أنا أعرف أين يمكننا أن نجد شخصاً آخر من تلاميذ يوحنا، وهو سيقبل دون شك بأن يلتحق بك...».

كان صوته مشبعاً بالحزن.

«لم يعد يوجد أحد قرب نهر الأردن. لقد رحل كثيرون. والذين كانوا يؤمنون بأن يوحنا هو المسيح أربكهم اعتقاله كثيراً، إذ أن المسيح جاء لكي ينتصر...

ـ لكن يوحنا لم يقل قط إنه المسيح؛ وقد سمعته شخصياً ينكر أن يكون إيليا.

ـ أعرف هذا. لكنه قال إنك أنت المسيح... ـ أضاف سمعان الذي كان قد اقترب.

ـ لم أسمعه يقول هذا أيضاً يا سمعان» ـ أجاب يسوع.

والتفت نحو يعقوب.

«قل لي من هو هذا التلميذ الذي نحن ذاهبون إليه؟

ـ إنه يدعى فيليبوس، وهو يقيم أيضاً في بيت سعيد. وسنجده مبدئياً على بعد غلوة أو اثنتين من هنا».

واهتدوا إلى فيليبوس بعد بضع دقائق. كان الرجل طويل القامة، ملتهب النظرة في وجه يبدو عليه التعب. تعرف على يسوع فوراً وأبدى استعداده في الحال.

«أنا مستعد للسير وراءك يا معلم. لقد دعاك يوحنا حمل الله.

ـ لم أسمعه. لكنك كنت تعرفه أكثر مني».

وانضم إليهم رجل آخر كان يعرفه فيليبوس ويدعى برتلماوس. كان هذا، على عكس صاحبه، قصير القامة فيما ذاك طويل القامة، وسميناً فيما كان ذاك شديد الضمور. وكان قذراً، كريه الرائحة، ويبدو خشناً وحذراً. عندما رآه فيليبوس، وكان الآخرون قد راحوا يتقاسمون بعض أقراص التين، هرع إليه وتنحى به على حدة.

«جئت أطلب منك أن تنضم إلينا. الرجل الذي أنا معه هو ذاك الذي يتكلمون عنه في شريعة موسى. لقد بشر به يوحنا. أنا أتخلى عن كل شيء لكي أسير معه. إفعل مثلي.

ـ لكن من هو؟

ـ ذاك الذي أراد يوحنا يوماً أن يتعمّد على يده. إنه ابن نجار، وهو آت من الناصرة.

ـ الناصرة؟

وأرسل برتلماوس ضحكة عالية.

«الناصرة؟ أي شيء صالح يمكن أن يأتي من الناصرة؟».

قال هذا بصوت عال طرق أسماع المجموعة الصغيرة. وانتصب سمعان لكي يؤدب الرجل الوقح. فمنعه يسوع.

«أنت ابن حقيقي لله، وليس فيك من كذب».

ـ هِه، حقاً ـ أجاب الآخر بلهجة شبه عدائية ـ وكيف عرفت هذا؟

ـ رأيتك حتى قبل أن يناديك فيليبوس. كنت هناك تحت شجرة التين وتنهل من شجرة المعرفة. وبدرسك للشريعة إنما أنت كنت تمشي نحوي».

تفرس برتلماوس بيسوع ويداه منقبضتان كأنه يبغي الوثوب عليه. وفجأة انفرجت أساريره. فانحنى بهدوء، ثم جثا أمامه ولثم الأرض أمام قدميه.

«أنت المعلم. أنت ملك شعبنا. وقد جئت لكي تنقذنا».

كانت المجموعة الصغيرة تشاهد ما يجري مسحورة. ورفع يسوع برتلماس عن الأرض.

«أنت آمنت لأنني قلت لك إنني رأيتك تحت شجرة التين. لكنك سترى أفضل من هذا أيضاً».

والتفت نحو الآخرين.

«الحق أقول لكم، إنكم سترون السماء مفتوحة وملائكة الله نازلة على ابن الانسان».

ها هي السماوات تنفتح من جديد.. . لكن يهوذا لم يلاحظ التكرار حتى، لشدة ما كان يصعب عليه أن يصدق ما يرى. فإن يسوع كان أكثر

مهابة أيضاً مما كان يظن. هذا ما لم يكن الاثنان متواطئين سلفاً على تمثيل هذه المهزلة لكي يبهرا المجموعة الصغيرة؟ لكن لا، فقد كان في المشهد من السذاجة والعفوية ما لا يمكن أن يكون مدبراً مسبقاً. وقعد برتلماوس بينهم، وسجلت ضحكة سمعان الكبيرة انضمامه.

وفي الليل تنحى يسوع عنهم لكي يصلي. وتعجبت المجموعة الصغيرة من ذلك لأنها كانت قد اعتادت على الصلوات الجماعية.

«سأفاجئكم بأمور كثيرة أخرى، حتى وإن كنتم تلاميذي.

قبل الجميع التسمية دون أن يفطنوا لذلك.

«أرغب في مواصلة التحدث الى الناس ـ قال يسوع ليهوذا في اليوم التالي. لكنني أظن أنه من الأفضل أن أذهب إلى المعابد أولاً. بعد أن نقنع العلماء سنتوجه بالكلام إلى الآخرين».

وافق يهوذا وأخذ على عاتقه تنظيم اللقاءات مع الحاخامات والكهنة، وكان يرسل كل مرة اثنين أو ثلاثة من الرفاق لكي يخبروا بقدوم المجموعة، وكانت هذه دوماً تجد صعاليك ومرضى ينتظرونها.

عادوا إلى كفرناحوم حيث كان يسوع ينوي أن يستفيد من يوم السبت كي يبشر.

«لن تذهب إلى كنيس كفرناحوم! ـ قال يهوذا محتجاً. فهذا الكنيس موّله الرومان الذين يدعون أنهم يحبون اليهود...».

كانت الفكرة تبدو غير مقبولة عند يهوذا.

«لن أكتفي بمواصلة التكلم مع مجموعات صغيرة من الصيادين دون غيرهم. فقد قال لي أبي: يجب أن يصل كلامي إلى أكبر عدد من الناس. كفرناحوم ملأى بالناس الآن. وهناك يجب أن أبدأ حقاً».

رأوا من بعيد الكنيس الذي شيد على أرض مسطحة، وكان جليلاً. كانت تدعم صحنه سبعة أعمدة وكان بلاطه من المرمر. كانت كل المقاعد مشغولة، وكانت تفوح منه رائحة قوية.

كان ذلك يوم سبت. في الكورس الصغير، حول الصندوق الذي

يحوي لفائف الشريعة، كان قد جلس سبعة أعضاء من الطائفة يرتدون الطليس الأبيض. كانت التبريكتان الأوليان قد انتهتا، وكان أحد الكهنة يقرأ بالعبرانية نصاً من الأسفار الخمسة. وبعد صلاة التبريكات الثماني عشرة، التي تُرتَّل وقوفاً والوجه شاخص صوب أورشليم، توجه الحاخام نحو القاعة سائلاً إن كان هناك أحد يتمنى أن يتلو نصاً آخر، من سفر الأنبياء هذه المرة، وأن يعلق عليه. لم يكن أحد فحولاً أكثر من غيره للقيام بذلك، ويمكن لأي يهودي معترف به قليلاً أن يفسر على مدى ساعات بضع آيات من السفر، وكان هذا العمل يكاد يقتل يهوذا من الملل. خاطب رئيس الكنيس القادمين الجدد. . .

«لعلك تتفضل بإعطائنا رأيك؟»

نهض يسوع، وصعد إلى المنبر، وفلش بدوره اللفافة الطويلة الثقيلة المصنوعة من الجلد التي ناوله إياها الحسّان.

قرأ يسوع بلا صعوبة النص المكتوب بالعبرانية الأصلية، وأدهش ذلك يهوذا.

كان النص مقطعاً من سفر إشعيا:

«روح الرب علي

كي أحمل الخبر الطيب إلى الفقراء.

وأبرىء المظلومين».

كان صوت يسوع جميلاً، وفيه شيء من السحر، وكان على وجهه مسحة من العمق الملهم تنسيك ملامحه غير الجميلة. كان جذاباً بلا ريب، وكان يهوذا يحس بتأثيره على السامعين كلما ألقى نظرة عليهم.

ثم بدأ يسوع تعليقه بالآرامية.

لم يطل الأمر حتى أخذت الهمهمة تزداد، لأن الرجل حطم القواعد فجأة، وراح يخاطب الحضور بصيغة المتكلم «أنا»، ويعطي رأيه كما لو أنه كان هو المعلم، بدلاً من الاكتفاء بما تقول الشريعة. وبشر بأن مجيء المسيح، الذي وعد به سفر إشعيا، قد اكتمل الآن. وبشر أيضاً

بما هو أسوأ من هذا إذ قال إن المسيح لن يكون بالضرورة قائداً عسكرياً وأنه سيقبل إلى جانبه مظلومي كل البلدان لا اليهود وحدهم. وتعالت الجلبة من صفوف الفريسيين. لكن يسوع لم يتأثر، بل كان ينظر اليهم ويواصل كلامه وبينما كان يهوذا وإلى جانبه سمعان يتأهبان للصدام، لاحظا أن عداوة الحاضرين تدنت وأن الكلمة الخارجة من فم يسوع تخلب ألبابهم. فكانوا شبه مخدرين. ولم يعبروا مجدداً عن دهشتهم، التي كانت أقرب إلى الشراسة عند بعضهم، إلا بعد أن فرغ الجليلي من إلقاء عظته.

جمع يسوع أصحابه في اليوم التالي.

«أنتم الذين تتبعوني سبعة، وعما قليل ستكونون مئات، وسأجعل منكم صيادي بشر. إلا أنكم، أنتم الأولون، ستكونون دوماً أعزاء على قلبي».

فتبادل هؤلاء النظرات بخيلاء.

«أنت يا سمعان، كنت الأول. بعد الآن سأسميك الصخرة وعليك سأبني كنيستي».

وسرت بين المجموعة تمتمة فيها غيرة. وردّد سمعان اسمه الجديد، كما لو أنه يريد أن يتذوق طعمه.

«بطرس، بطرس».

وراح يضحك.

«على كل واحد منكم أن يعلّم تلاميذ جدداً. لقد تخليتم عن الكثير، وسيكون عليكم أن تتخلوا عن أكثر منه».

ثم رحلوا، تحدوهم المغامرة التي بدأت تظهر تباشيرها. ولما كان لأي من السبعة، حتى يهوذا، أن يبدل مكانه بآخر.

وتوجهوا هكذا، متحدين، إلى قرية قانا.

كان سهل إسدرلون الذي يموج بالشعير والقمح قد بات وراءهم. وكان يسوع قد تمركز في ساحة القرية، عندما قاطعه صوت يقول:

«ماذا تفعل هنا يا يسوع؟».

والتفت يسوع.

«وأنت، ما الذي جاء بك يا جوست؟».

بدا عليه أنه لم يكن مسروراً برؤية هذا المجهول.

«أنا هنا مع أمي وإخوتي. والليلة عرس رفقة. أنت مدعو أيضاً، لكننا لم نعد نراك منذ شهرين تقريباً. فأين كنت؟».

كان في صوته مزيج من الرجاء والعتاب. ردّ عليه يسوع بشيء من القسوة.

«كنت مع أبي. أظن أنني أبلغتكم».

لم يتسع الوقت أمام جوست كي يرد.

«صباح الخير يا بني».

الامرأة التي دخلت لتوها دائرة المستمعين كانت قصيرة القامة، سمراء، وقد لفت شعرها بمنديل أزرق اللون.

«أنا لم أرك منذ وقت طويل. كيف حالك؟».

كانت النبرة عذبة وحازمة في آن. واقترب الاخوة الذين باتوا حولها كما لو أنهم يريدون أن يتكتلوا.

«ماذا تريدين مني يا امرأة؟».

استاءت أم يسوع وجرحتها برودة الجواب. كما أن يهوذا، الذي كانت ذكرى سيبوريه لا تزال حية في قلبه، أحس بصدمة هو أيضاً.

«هل ستحضر عرس ابنة عمتك؟ نحن في اليوم الثالث من العرس».

كانت رفقة نسيبة لوالد يسوع لجهة أخته. وكانت قد لعبت كثيراً معه في صغرهما. ما كادت تراه يدخل مع أصحابه حتى اتسعت ابتسامتها. كان العرس غنياً بالأطايب وكان الحاضرون نحو خمسين شخصاً. أخذ يسوع سماني مشوية وراح يمتص عظامها بلذة.

«إبدأوا يا أصدقائي، لا تستحوا: أنا لا أعدكم بمثل هذه الوليمة كل يوم».

كان التلاميذ واقفين عند مدخل القاعة في خجل. وكان يهوذا وحده يبدو مرتاحاً لو لم يوقفه تردد الآخرين. فاضطر العريس أن يأتي بنفسه ويفتح لهم ذراعيه.

«هذا إذن أنت يا ابن العمة، الذي لم يعد أحد يراه؟ يسعدني جداً أن تحتفل داري المتواضعة بعودتك إلى ما بين ذويك أيضاً.

ـ لكنني لم أعد ـ استدرك يسوع ـ لقد جئت لأنجز ما يجب علي أن أنجز، و. . .».

لكن صاحب الدار، الذي لم يقل إلا ما اقتضت اللياقة قوله، لم يسمع بقية عبارة يسوع. وقعد يسوع إلى المائدة. كان الرجال على جانب منها والنساء على جانب آخر؛ وكانت العروس قاعدة تحت سرادق. أمام منظر شهية المعلم، أخذ التلاميذ يتناولون الطعام. وتحت تأثير النبيذ، أمسى موقعهم إلى المائدة شديد الحركة. راح تاجر من الناصرة، وهو من أقدم أصدقاء العريس، يحكي لهم نوادر جمعها من خلال أسفاره. وتناول الحديث اعتقال يوحنا المعمدان، لكن المدعوين تحلوا بالحكمة فلم يروا فيه سوى الضرر الذي لحق بواحد من أفراد العائلة ولم ينزلقوا إلى الغوص في اعتبارات سياسية.

اختلط يسوع قليلاً بإخوته، لكنه ظل لحظة طويلة إلى جانب العروس. كان فرحاً، وكان يشرب دون استئذان، ثم قعد إلى جانب أمه دون أن يسرف في المكوث. كان يهوذا يتأمل صديقه الجديد لأول مرة وهو مع أفراد عائلته، ويتوقع حالات القطيعة التي يحس باقترابها. ولما حان وقت الرقص نهض وانضم إلى المجموعة.

كان الاحتفال في أوجه. وكان الخمر قد سال بغزارة، وهو نبيذ قوي جداً، وكان تقيؤ بعضهم قد انتشر على الأرض. كان يسوع يضحك بصوت عالٍ وقوي، حين جاءته أمه.

«يسوع؟

ـ نعم؟

ـ ربما يجب عليك أن تذهب وترى ما في المطبخ. أظن أن هناك مشكلة. لم يعد لديهم نبيذ.

ـ وماذا تريدينني أن أفعل؟

ـ لست أدري. حاول أن تدبر الأمر. جاءني ابن عمك يطلب مني ذلك. أما إخوتك، فلم يعودوا في حال تسمح لهم بوضع عبارة إلى جانب اختها.

ـ حسناً، سأذهب».

ونهض مستاءً. كان في المطبخ واحد من الخدم يقف عاجزاً أمام عدد كبير من الخوابي المصففة فوق قواعدها. وكان زميل له يعجن الخبز ويداه في قفازين من جلد الماعز حذر اختلاطه بعرقه.

«ما مشكلتك؟

ـ شربوا أكثر مما توقعنا. كان عندنا ثمان وأربعون خابية من النبيذ ولم يبق منها سوى ثلاث. لقد ذهب الباقي بكامله.

ـ في الحقيقة... خير لسيدك أن يدفع لأصدقائه بدلاً من أن يستضيفهم».

كان يهوذا قد رآه يدخل المطبخ فانسلّ في أثره.

«ما في الأمر؟

ـ أصحابنا الفرحون شربوا كل النبيذ. كان هذا من نبيذ كيو؟

ـ نعم ـ أجابه الخادم.

ـ هذا نبيذ مفرط في القوة على كل حال. وزِّع النبيذ الذي تحتويه الخوابي الثلاث الملأى على دزينة من الخوابي الخاوية، وأضف قدراً من الماء. هذا يخفف من قوة النبيذ وأنا واثق من أنه سيكون أجود. على أي حال، الجميع سكارى، فإذا شربوا نبيذاً أخف قليلاً فهو لن يؤذي أحداً منهم، هذا إذا استطاعوا أن يفطنوا للأمر».

نفذ الخادم أوامر يسوع، وساعده يهوذا في ذلك. وعندما قُدم نبيذ الخوابي الجديد، تعالى هتاف الضيوف. وذاق صاحب الدار النبيذ

الجديد فأقسم على أنه أفضل من الأول. وتبادل يهوذا ويسوع ابتسامة متواطئين.

وأخلدوا الى النوم بعد ساعتين. كان الفجر قد أخذ ينثر البياض على الطبيعة. وكان هناك بضعة مدعوين متمددين على الأرض. وكان العروسان قد أُدخلا مخدعهما. وبلغت حفلة العرس نهايتها.

استيقظ يسوع صباح اليوم التالي وهو يحس بوجع في رأسه سرعان ما بدده يهوذا بإعطائه واحداً من أقراصه المشهورة. وجمع يسوع تلاميذه. وكان بطرس أصعبهم إيقاظاً، بعد أن أزعج شخيره الرنان جيرانه طوال الليل. وذهب يسوع ليودع ابناء عمومته، وكان هؤلاء ينظرون إليه بقلق لم يفهم سببه.

ولم يحصل على تفسير لهذا القلق المستغرب إلا عند المساء. فقد جاءه يهوذا ضاحكاً.

«أتعلم ما يقال؟ يقال إنك البارحة حولت الماء إلى خمر. إنك اجترحت معجزة! إن سذاجة هؤلاء الفلاحين تدهشني دائماً. ما ستقول لهم؟».

ـ لن أقول لهم شيئاً.

ـ ألن تشرح لهم؟ هل ستدعهم يعتقدون بأنك قادر على إتيان هذا النوع من الشعوذة؟

ـ نعم.

ـ لكن لماذا؟ ألم تأتِ إلا للإيهام بأنك قادر على مساعدة السكارى على السكر؟ هل هذا هو خبرك الطيب...

ـ لا تتكلم بالسوء عن المعجزات يا يهوذا. إنها علامات على حضور الله، وسأفعل معجزات أخرى. أوافقك الرأي بأن قصة الماء الذي تحول إلى خمر هذه هي قصة جديرة بالسخرية، وسيطويها النسيان سريعاً. لكن من أنت حتى تحكم على إيمان الذين يؤمنون بها؟ وإذا اعترتهم رعشة، ولو قليلة، ففتحوا قلبهم للكلمة وهم يظنون أنهم يلهون

مجاناً، فأي ضير في ذلك؟ هل من الأفضل أن يناموا في الكنيس؟ لن أدعي اجتراح هذه المعجزة، لكنني أيضاً لن أفعل شيئاً كي لا يؤمن الناس بها. وبعد...

ـ وبعد؟

ـ وبعد، ربما بات الجليل بعد الآن مفتوحاً أمامنا. صدقني، سنكون بحاجة إلى ذلك».

لم يخطىء يسوع. فقد شاع خبر معجزة قانا في كل أنحاء البلاد، وراح بعضهم يستقبله بعد ذلك بجرار ملأى بالماء طالباً تحويله إلى خمر. وجاءه حتى تاجر من طبريا يعرض عليه شراكة، مبرراً ذلك بالقول إنها لن تكون هذه أول مرة يمارس فيها ساحر العمل التجاري. وقام أندراوس وفيليبوس تلقائياً بمنع الرجل من معاودة الاقتراب من يسوع، وكان هذا بداية ممارسة دورهما كحارسين، هذا الدور الذي باتا يضطلعان به أكثر فأكثر على مرّ الأيام.

وراح يسوع ينتقل من قرية إلى أخرى بلا كلل، ويتوقف في المعابد حيث بات حضوره يثير غضب الحاخامات أكثر فأكثر. وبلغ بعد بضعة أيام مستوى مدهشاً من الثقة بالنفس. كان يخاطب الحشود مخاطبة الند للند ومخاطبة السيد في آن، ويعرف في الوقت ذاته كيف يستعين بوقائع صغيرة من الحياة اليومية ويترك تشبيهات مبهمة بلا تفسير. كان التلاميذ يسيرون وراءه وقد أنهكهم التعب أحياناً كثيرة. وكان قد انضم أعضاء جدد إلى المجموعة الأصلية.

الفصل السابع عشر

أقنعت الأيام التي تلت يهوذا بصوابية اختياره. وكلما كان يقارن بين يسوع وباقي المبشرين، كان يشعر بأن عنده شيئاً قوياً جداً، شيئاً جديداً جداً، وموهبة لاجتذاب الجماهير وتقريبها منه. فكم مرة أقنع واحداً أو آخر بكلمة واحدة بالانضمام إليه؟ كان في صوته موسيقى، وفي حركاته جيش.

وأخذ يتكاثر عدد الناس الآتين للاستماع إليه. كان كل واحد منهم يعتقد، لدى سماعه يتكلم، بأنه يخاطبه هو. على أنه لم يكن يلجأ إلى العبارات الطنانة ولا إلى القدح والذم، بل كان يتكلم بهدوء، على نحو بعيد جداً عن عنف حركات المعمدان. كان بعضهم حتى يصيح به أن يتكلم بصوت أعلى، فكان ينهض، ويدخل في الجمهور متجولاً بين الناس، وغالباً ما كان يفعل هذا وهو يضحك ضحكاً صافياً جداً، وكان يهوذا ينظر إليه بإعجاب رغم إدراكه أن هذه البساطة الظاهرة تستند أيضاً إلى أساليب كبار الخطباء الذين كان أرشيبيوس قد حدثه عنهم، من أمثال سقراط وديموستين: وتائر منتظمة، ألفاظ باهرة تندمج حولها بقية الخطاب، وعبارات طباقية ترسخ في الذاكرة... أما ما كان كان يبدو خاصاً بيسوع فكان ذلك السلطان الذي يتسم به كلامه، كما لو أن كل شيء كان يصدر عنه.

«أنت لا تستند إلى أي من الفقهاء ـ سأله يهوذا ـ ألا تعرف هلال ولا شماعي ولا غماليل؟

ـ بلى، أنا أعرفهم واحترمهم. لكنني لم آتِ لكي أردد ما قاله آخرون».

كان غالباً ما يتنحى أثناء الليل في البرية لكي يصلي لمن أمسى يدعوه الآن «أبي»، وكان المقربون منه ينظرون إلى هذه التسمية غير المألوفة على أنها كلمة غريبة لا طائل تحتها.

كانت النهارات طويلة وقاسية. كانوا يمشون كثيراً، ويتوقفون أحياناً ليتناولوا الخبز والتين، أو يرتاحون قرب جدول، أو يستمعون إلى يسوع يتبادل الحديث مع أحد المارة ويقنعه أحياناً بالانضمام إليه. كان يسوع يناقش كثيراً، وكانت هذه النقاشات تنتهي أحياناً بضحكات صادقة. لم يكن يسوع صاحب نكتة، ولكنه كان دوماً يشيع جواً من المرح الدائم الذي يبدو أنه لن ينتهي، إذ أنه كان يغذيه بصفاء مزاجه تارة وطوراً بمهارته في إنعاش حديث أخذ يتلاشى. وكان يتفق له حتى أن يدندن مقاطع من أغان شعبية. ويوم شرع أندراوس يغني أغنية حب تبتدىء بهذه الأشعار:

إفتحي لي يا حبيبتي، يا حمامتي، أيتها الكاملة
لأن رأسي مبلل بالندى
ومزدان بجعدات الليل

أكمل يسوع الغناء:

أتوسل إليكن، يا بنات أورشليم
إن رأيتن حبيبي
قولوا له إنني في انتظاره.

كان يغني بصوت قوي، عالٍ أكثر من اللزوم قليلاً، وكان صوته جميلاً.

كانت تلك الأسابيع الأولى ملأى بالسعادة في كل لحظة، كانت سلسلة لحظات من البراءة التامة. لم يكن هناك أي طمع، أي تنافس بعد بين التلاميذ. كانت الجماهير محدودة، وكان يسوع، الذي يتنقل بين

قرية وأخرى حول بحيرة الجليل، يستطيع أن يخاطب الجميع دون أن يضطر أحد إلى التضييق على المعجبين به.

كانت الصلاة ترتدي أهمية متزايدة في حياتهم. وكان يهوذا مسروراً إذ عاد يجد حوله حرارة التقوى الجليلية. كان التلاميذ يتحلون بهذا الورع، بهذا الحب لِلّطم، للغيظ، للشغف، الذي طالما أحس بعدم وجوده في اليهودية التي كانت أكثر صرامة. فكانوا عنيفين، سريعي الانفعال، غير عادلين، إلا أنهم جذابون. وكان كثيرون منهم مشاغبين ممتازين، يمكن أن يشكلوا نواة عصابة فعالة.

جاءه في ذلك اليوم نحو عشرة أشخاص بعد أن أهملوا أعمالهم. وظل حمار رافعاً قائمته في الهواء لأن البيطار أراد أن يتفرج على قدوم يسوع وأهمل الحمار وصاحبه الذي ساءه الأمر كثيراً.

كان في مقدمة الناس رجل أعمى.

«إشفني أيها السيد. أرجوك أن تشفيني».

تفحص يسوع الرجل، فوجد أجفانه مغطاة بإفرازات مخضوضرة تجعلها ملتصقة ببعضها.

«أنا لم أعد أبصر منذ أشهر. ساعدني.

ـ سأساعدك.

تنحى جانباً مع الأعمى. وقام بعض تلامذته بمنع المتطفلين من اللحاق به.

«إنه يريد أن يختلي به. فدعوه».

أخذ يسوع وجه المريض بين يديه، وتفحص عينيه الحمراوين، ووضع قليلاً من لعابه في راحته ومسح عيني الرجل به.

«أنت لست بأعمى وإنما مصاب بالتهاب أفرز قيحاً جعل أجفانك تلتصق ببعضها. أليس من عادتك أن تغسل وجهك؟

ـ لا. ولماذا؟

ـ لأنه يكفيك أن تذهب وتغسل عينيك بماء البئر حتى يعود إليك البصر.

ـ وتكون قد أتيت معجزة.

ـ ليس هذه معجزة، بل نصيحة. إعمل بموجبها وستبصر.

ـ أنا أؤمن بك يا سيد.

ـ لأسباب باطلة؛ أنا أخشى ذلك ـ قال يسوع مبتسماً ـ واذهب ولا تخبر أحداً بما جرى لك».

توجه الضرير بخطى مترددة نحو البئر، حيث سمع حماراً يشرب، وهناك فعل ما أوصاه به يسوع. وبعد ساعة، كانت عيناه لا تزالان حمراوان وتفرزان القيح، لكنه صار يبصر. فعاد وجثا أمام يسوع، فنصحه هذا بأن يستعمل كمادات من الأعشاب، وطلب منه مجدداً أن لا يخبر أحداً.

لماذا يجب أن يصمت الرجل؟ ـ سأل يهوذا ـ قلت في قانا إن المعجزات، حتى المزيفة، تجعلك مشهوراً؛ وها أنت اليوم تشفي حقاً وتريد أن لا يعلم بذلك أحد.

ـ سيعرف الناس بذلك على أي حال. إن لي ثقة معتدلة جداً بكلام الناس».

وابتسم يسوع مستأنساً، ثم عاد يقول بلهجة أكثر جدية:

«انتصاري ليس في كون هذا الرجل عاد يبصر، بل في كونه ينظر، وينظر نظرة مختلفة. فهل كان لهذا أن يكون ممكناً لو أنه أحس في طيبتي مجرد الرغبة في أن يتحدث عني الناس؟».

بدا يهوذا غير مقتنع كثيراً.

«هذه الوزائع جديرة بكثير من التقدير، لكننا لن نصل إلى شيء ما لم نكن قادرين على جر الجماهير وراءنا. وهذا يستوجب أن يكون المرء معروفاً.

ـ ثق بالرأفة يا يهوذا، فهي ذات وزن أكبر من وزن الجيوش».

في مساء ذلك اليوم بالذات كان «الأعمى» قد بدأ يحكي عن المعجزة التي حصلت معه.

كانوا قد عادوا إلى كفرناحوم منذ البارحة. وأراد يسوع أن يعود إلى الكنيس. وفيما كانوا يسيرون في الشارع، مروا أمام دكان نجار.

«هَه، انتظروا!».

كان يسوع يبدو مشدوهاً. فدنا من الدكان وطلب أن يلمس الرابوخ والمطرقة، وداعب الخشب، ومضى في حديث طويل مع صاحب الدكان، فيما كان يهوذا والآخرون ينتظرون بفارغ الصبر.

«ستبدأ الصلاة يا يسوع».

ـ دعوني قليلاً. سآتي».

وطلب شيئاً من النجار، ثم رآه التلاميذ، مذهولين، يضع عباءته جانباً، ويمسك بمسحاج ويروح يسحبه فوق اللوح الخشبي، وعلى وجهه إمارات المتعة والفرح الطفوليين. وعندما خرج لم يكلف نفسه حتى عناء الاعتذار.

«لقد مرّ زمان طويل...». هذا كل ما قال.

وتوجه إلى الكنيس.

كان هناك بضعة فريسيين يمكن التعرف عليهم من تمائمهم ومن جبّاتهم الطويلة ذات الصرامة الصارخة، كانوا ينتظرونه، راغبين في سماعه مجدداً. طلبوا منه أن يتلو ويشرح ثلاث آيات. وقد أسرت نبرته، وإلفته، وامتزاج البساطة والعمق في كلماته، ألباب أولئك المستمعين المتطلبين. وخشي يهوذا مع ذلك أن يذهب يسوع بعيداً أكثر من اللزوم فيعلن أن الرب قد مسحه لكي يبشر الفقراء بالخبر الطيب ويحرر الأسرى.

لكن خشيته كانت باطلة، إذ أنه لم يكن عند محاوريه إلا إعجاب مشوب بالغيرة.

«هل أنت إمام؟ ـ سأله الكاهن بعد أن انتهى.

ـ لا.

ـ ألم ترتدْ قط مدرسة للتعليم الديني؟

ـ لا.

ـ فمن أين لك هذا العلم إذن؟

لم يكن أحد منهم قد سمع من قبل غريباً عن شيعتهم يتكلم بمثل هذه الثقة وهذه المعرفة. فالذين كانوا يدعونهم إلى الكلام نادراً ما كانوا لامعين، وكان التلهي باستعادة أقوال هؤلاء قد بات لعبة يتسلى بها أكثرهم هزءاً.

أراد عدة أشخاص من الذين سمعوه أن يتبعوه. ولم يكد يجتاز الأمتار القليلة التي تفصله عن مكان إقامته حتى كان الجمهور قد أمسى أكثرَ عدداً وحركة. وكان الرجل الذي استقبلهم مرتبكاً قليلاً.

«هل أنت واثق من أنه واحد منا؟ ـ سأل يهوذا.

كان الرجل قد تزوج قبل أربعة أشهر، وكانت زوجته حاملاً، وشرح قائلاً إنه يريد أن يبتعد عن الحركة.

«لكن لفت النظر على هذا النحو إلى بيتي لا يبدو لي أمراً حصيفاً. . .

ـ لا بأس عليك: لا علاقة مباشرة له بنا، ما عداني. لكنه إلى جانبنا، أستطيع أن أؤكد لك هذا. وهو حتى أقرب إلينا من كثيرين ممن يجاهرون بذلك».

كان يسوع قاعداً في برودة الغرفة الرئيسية ولا يبدو مهتماً بالجلبة القائمة في الخارج.

«يا معلم، أظن أنهم ينتظرونك ـ ظن برتلماوس أن من واجبه أن يلفت نظر يسوع.

«دعني أتناول طعامي. كلمة الرب تستطيع أن تنتظر قليلاً بعد».

والتهم بضع ثمار من التين، ثم صلى. وتوجه نحو النافذة.

«ألا تريد أن تخرج يا معلم؟ ـ سأله يوحنا؟

ـ لا، فالطقس حار وأفضل لي أن أبقى هنا. الناس سيسمعون، وما عليك سوى أن تسمح بالدخول للمرضى».

وأنضم وافدون جدد إلى الجمهور الذي كان هناك. كان كثير من هؤلاء فضوليين عابرين ولا يتوقفون طويلاً.

«سيكون من المستحسن أن يعلن مسبقاً عن الأماكن الذي سيبشر فيها ـ أسرّ أندراوس في أذن فيليبوس.

ـ لكنه لن يقبل. فهو يسير حسب وحيه وليس لديه خطة حقاً».

كان بعض المرضى قد أفلحوا في الوصول إلى الصف الأمامي، وراحوا يتوسلون إلى يسوع أن يمنحهم الشفاء. فبارك بعضاً منهم. ومضى اثنان أو ثلاثة على الفور مؤكدين أنهم يشعرون بتحسن. وكان آخرون لا يبرحون المكان فجأة، سمعت صيحات، و «أفسحوا الطريق!»، وتلتها احتجاجات. ووصلت مجموعة من الرجال تحمل رجلاً مشلولاً على نقالة. وطغى الضجيج في آخر الأمر على صوت يسوع.

«إذهب وانظر ما يجري يا يهوذا».

لاقى يهوذا صعوبة في اختراق الحشد المتراص عند الباب. لم يكن أي واحد يقبل بالانزياح من مكانه. وبين صراخ الأطفال وصياح بعض النساء وتوسلات المرضى، بات الوضع فوضوياً.

يجب أن نتعلم بعد الآن عدم المكوث في بيت قد نحشر فيه» ـ قال برتلماوس.

نجح يهوذا بعد كثير من المشقة في جولته وعاد.

«إنه مشلول يا معلم، ويريد أن يراك. لقد جاء به أصحابه على نقالة من مجدلى، فلا يسعك أن لا تراه. ثم إني تعرفت بين الجمهور على عدة فريسيين، وأظن أنهم جاؤوا ليروا ما تفعل. فيجب ربما أن...

ـ أن ماذا؟

ـ أن تضرب ضربة كبيرة... يذيعون بعدها اسمك متى عادوا إلى أورشليم...

ـ يهوذا، يهوذا. . . . أنا لا أفعل «ضربات»، بل أفعل ما يريده الله. فإذا تمنى أن أشفي هذا الرجل سأشفيه. وإلا فلن أفعل شيئاً.

ـ حسناً. لكن حاولْ مع ذلك. سأرى كيف يمكن إدخاله

ظل يسوع يتكلم. أما التلاميذ فكانوا قلقين ويتساءلون كيف سيستطيع أن يهدىء الناس إذا ما اشتد إلحاحهم.

فجأة لمع في الغرفة شعاع من النور أشد ألقاً. وتعالت صيحات: «انتبهوا، ليس من هنا»، «رأسه، انتبه لرأسه. . .». وظهر وجه يهوذا الضاحك من ثغرة حفرها لتوه في سطح البيت، الذي كان مصنوعاً من طبقة رقيقة من الطين المجبول بالقصب وبعيدان صغيرة فكان يسهل اختراقه.

«هاك مريضك يا يسوع».

وبعد لحظة أمكن إفساح مساحة كافية لتمرير المريض، الذي أُصعد على السلّم المؤدي إلى السطح ثم أُنزل الى الغرفة على سواعد الرجال.

كان ممدداً على نقالة خشبية وعليه غطاء. رفع يسوع الغطاء: كانت الساقان هزيلتين، جامدتين. فوضع يده عليهما.

«منذ متى أنت مريض؟

ـ منذ ولادتي يا معلم.

ـ إيمانك جاء بك إلي. إيمانك وإيمان الذين حملوك».

كان أصحاب المريض لا يزالون على السطح، يلقون على الغرفة نظرات قلقة.

«لقد غُفرت لك خطاياك يا بني ـ قال يسوع.

بدت على وجه الرجل مسحة من الخيبة، وسرت تمتمة حائرة بين المحتشدين. ثم ارتفع فجأة صوت جاء من الخارج.

«كيف لك أن تقول هذا؟ دعوني أمرّ. قلت لكم دعوني أمرّ».

كان في الصوت نبرة تنم عن الهيبة، ما جعل الفضوليين يبتعدون. ودخل الغرفة رجل يرتدي لباس فقهاء الشريعة.

«من تظن نفسك أنت؟ أتعلم من تهين؟ الله وحده يملك سلطة غفران الخطايا. أنت مجنون، أو دجال؟».

نظر يسوع إليه بهدوء، ما جعل الرجل يزداد غيظاً. وتعالت في الخارج أصوات مؤيدة للفريسي.

«صحيح. من أنت؟ من أعطاك الحق في تشبيه نفسك بالله؟.

ـ لماذا هذه الأفكار في قلبك؟ ـ أجاب يسوع. ألا تعرف الاستسلام إلا للكراهية؟ هل أتيت لتبادر إلى إدانتي؟ ما هو الأسهل في رأيك: أن يقال لهذا الرجل إن خطاياه قد غُفرت، أو أن يقال له أن ينهض ويرحل وقد شُفي؟».

كان يسوع يبدو مأخوذاً، كما لو أن شخصاً آخر يتكلم من خلاله.

«الآن، أُنظر، أُنظر». وافهم أن لابن الانسان سلطان غفران الخطايا...

ـ ابن الانسان؟ كيف تتجاسر...؟».

وعاد يسوع إلى المشلول، ومرر يديه على ساقيه، وجثا. فأخذ الرجل يصيح من الألم. وظل يسوع يضغط بيده. وأمسى الصراخ لا يحتمل، واضطر التلاميذ أن يقفوا على الباب كي يمنعوا دخول من أرادوا أن ينقذوا المشلول.

«حاول أن تمشي الآن».

بدا أن الرجل لا يفهم ما يقال له.

«هيا، إمشِ».

فتطلع إلى يسوع، وعلى وجهه إمارات عدم التصديق. فتفرس في وجهه يسوع، منتظراً منه أن يمتثل.

حاول أن يطوي ساقه. فبدت هذه ترتعش، ثم تحركت. فأجهش بالبكاء. وجثا أصحابه. وتمكن من وضعها على حافة النقالة، ثم وضعها على الأرض. ونهض وهو يصيح من شدة فرحه، وخطا خطوتين، ثم سقط على الأرض.

«لا تستعجل يا صديقي. إيمانك خلصك، وخطاياك غفرت».

كان الرجل يضحك ودموعه تسيل، كأنه مجنون. وأخذه أصحابه، بعد أن تركوا النقالة جانباً. ابتعد الجمهور دون أن يقول أحد كلمة. أما الفريسي فولى الإدبار متهجماً في أثر الموكب.

أحس يسوع بالارهاق، فقعد.

ودنا منه يهوذا والأسئلة تحوم على وجهه.

«لا تطلب مني تفسيرات يا يهوذا. أُنظر وآمِن ـ قال له يسوع.

وطلب من تلاميذه أن يفرقوا الحشد، وأخلد الى النوم.

في اليوم التالي، ودون أي كلام عن المعجزة، استدعى يسوع يهوذا وسأله، بعد أن عاين الطريقة الجديرة بالإعجاب التي حل بها كل الصعوبات التي اعترضت إدخال المشلول إلى البيت، عما إذا كان يريد أن يهتم بمال المجموعة الصغيرة وتموينها.

«أنت متعلم أكثر منا جميعاً.

ـ لكن مِمَّ سنعيش؟

ـ من الهبات التي ستأتينا عندما أقوم بالتبشير والتي سنحاول فيما بعد أن نكسب بها شيئاً.

ـ لِمَ لا؟ سأكون بلا ريب أكثر مقدرة من هؤلاء الجليليين غير المتوقدي الذهن دائماً الذين أحطت نفسك بهم».

وضحك، ولم يجد التواطؤ الذي حاول بذلك إقامته قبولاً عند يسوع.

«لا تخطىء يا يهوذا. هؤلاء الرجال هم بلا ريب أكثر بساطة منك، لكن يسؤوني جداً أن تحتقرهم.

غمغم يهوذا بكلمات اعتذار غامضة ومضى. وكان مع ذلك فخوراً ومغتبطاً بالثقة التي أولاه إياها يسوع.

أمست وقائع الشفاء أموراً يومية بعد الآن. فكانوا لا ينتقلون أبداً إلا ويأتي مرضى، ومعاقون، ومصابون بداء الخنازير، يطلبون من يسوع أن يشفيهم. وجاءته يوماً مجموعة من المجذومين فرّ التلاميذ عند رؤيتها

فدعاهم يسوع إلى العودة وأنبهم بشدة. كان هو نفسه لا يتحكم بما تفعل يداه. كان أحياناً يبدو مكتفياً بمعرفة بعض الأعشاب وبعض العقاقير، وكان أحياناً أخرى يبدو أن يستخلص منها نتائج غير متوقعة كلياً.

كان يسوع عائداً في أحد الأيام من كنيس كورسي فرأى أندراوس جاثياً فوق رجل أعرج ويحاول ليّ ساقه المريضة، وكان حوله ثلاثة تلاميذ.

«الله معي. لا تخف. سينجح الأمر».

كان العرق يتصبب من الرجل، وأسنانه تصطك من الألم، فيما كان أندراوس يسحق العضو المسكين.

انتفض يسوع.

«ماذا تفعل هنا؟».

ارتعد أندراوس، ونظر إليه وعلى وجهه سيماء ولد ضُبط وهو يرتكب غلطة.

«كنت، كنت... كنت أريد أن أشفيه، كما تفعل أنت، أن أصنع معجزة. لقد رأيتك كيف تفعل، واعتقدت أن...

ـ أن المسألة لعبة، حيلة يجب صنعها. يا لكم من أغبياء كريهين... أنت تدعي أنك تحب وتريد استغلال هذا الرجل كي ترفع من شأنك، ألا تشفق على هذا الذي تعذبه؟ لا. لكنك تقول في نفسك: هَه، إذا ما استطاع التلميذ أندراوس أن يفعل كما يفعل معلمه وعرف الناس بذلك، فيا لها من آية تتحقق آنذاك. يا لك من أبله، أبله ثلاث مرات!».

لم يسبق أن رأى التلاميذ يسوع مرة في هذه الحالة من الغضب. «وحده الايمان يخلّص. أتفهم، الايمان. لا التقليد، بل الايمان».

خُيل للتلاميذ حتى أن يسوع يوشك أن يضرب. لكنه آثر الابتعاد وهو ينحو باللائمة. ورافقه أندراوس بنظره وهو مضطرب جداً. أما الرجل المعاق فابتعد متكتماً يجر وراءه ساقه التي لم يفارقها المرض ولكنها أكثر إيلاماً بكثير.

إذا كان الشعب ميالاً إلى الترحيب بالمبشر، فالسلطات لم تكن كذلك، وبات الاستقبال في القرى يتزايد عداءً. كان وصول جمهرة التائهين يثير ذعر الحاخامات فكانوا يطلبون منهم أن يرحلوا. وأخذ بعضهم على يسوع أعماله الشفائية ومعجزاته، مشبهين إياه أحياناً بسحرة مشهورين. فكان يسوع يرحل أحياناً دون اعتراض، وأحياناً أخرى كان يؤكد عزمه على البقاء. وكان يهوذا قد سارع إلى تنظيم نحو عشرة رجال حوله متأهبين للإحاطة به متى احتدم النقاش.

كان بعض من الفريسيين يسيرون وراءهم على الدوام. وغالباً ما كان هؤلاء يتشبثون بنقاط عبثية في الشريعة (رفض يسوع مرة حتى أن يجيب على واحد منهم كان يريد أن يعرف رأيه فيما إذا كان يمكن للإنسان أن يضع أسنانه المستعارة في فمه يوم السبت، وغضب بكل معنى الكلمة، مرة أخرى، عندما طُرح على بساط البحث عدد الأذرعة التي يمكن شرعاً حمل طرد على مداها يوم السبت)، كما كان لهم موقف فكري حيال الايمان كان يتفق مع موقف يسوع تماماً. واتفق له مرة أن أسرّ إلى يهوذا ـ وكان ذلك في يوم تحمل فيه نداوة الشمس وكسل الجميع على الاستسلام للأحلام ـ كم أن هذه الحوارات كانت في نظره واحة في قحط علاقاته مع المجموعة التي ترافقه والتي ليست ميالة إلى النظر في دقائق اللاهوت.

«عندي الكثير مما يجب أن أقوله وأجد نفسي مكرهاً على إهدار لعابي في مجادلات عقيمة ـ قال هذا متنهداً ـ الفريسيون أقرب إلي من أي إنسان. لا أشاطرهم سعيهم وراء الدرب الضيق، لكننا نسعى لبلوغ البستان إياه... كل شيء صالح، ولامع، ومحيي يخرج من كتبنا المقدسة إنماء يأتي منهم. إنهم أكثر حياة بكثير من أولئك الأحبار الكبار الذين لا يفكرون إلا بمصلحتهم، وأولئك الصدوقيين الفاسدين، أولئك المتعاونين المكروهين الذين يخرجون شريعتنا من طريقها الصحيح وقد جعلوا من الهيكل مكاناً للمتاجرات غير المشروعة. هؤلاء هم الذين

ينبذونني لأسباب تافهة تتصل باحترام الطقوس وبممارسات شكلية بالية، فيما كان يمكن لنا، معاً، أن نقلب العالم رأساً على عقب...».

أمسى يهوذا شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه. فمعرفته بالعمل السري كانت تفيدهم في كل لحظات حياتهم، ودوره اللوجستي كان ستاراً مثالياً لمهمته. كان يعتني باستلام الهبات بعد عظات يسوع، ويسجلها على لوحتين، واحدة للهبات العينية وأخرى للهبات النقدية. وكان يسجل على لوحات أخرى المشتريات ومبيعات بعض الأشياء التي لا حاجة لها، كتلك البقرة التي وهبهم إياها رجل متوقد الايمان: ظلوا يجرونها معهم ثلاثة أيام، إلى أن اضطرهم سوء سلوكها إلى التخلص منها. وكان يهتم بترتيب استقبال المعلم، فيقصد أحدهم ويسأله عما إذا كان يمكنه أن يؤوي نبياً، وربما أن يطعمه. فكان الناس كثيراً ما يقبلون بأن يضيفوا فراشاً من القش أو جلد حيوان على السطح، كما كانوا أحياناً يستقبلون التلاميذ أيضاً.

كان يستعين بشبكة علاقاته، ويتصل بجهات خلفها له باراباس أو بأشخاص يعلم بأنهم يؤيدون النضال، مستغلاً المناسبة لإحياء حميتهم. الأمر الأصعب كان تقدير مدى صدقية الذين يفاتحهم، وتلافي أن يذهب أحدهم ويخبر السلطات بما يحاك في المجموعة. وأقنع شخصاً آخر يدعى سمعان، كان معاوناً أميناً لباراباس، بأن ينضم إليهم لكي يساعده في عمله اليومي لتأدية هذه المهمة التبشيرية. وكان سمعان هذا يفصح عن آرائه بكثير من العلنية والحماسة حتى لقب بسمعان «الأصولي».

واستقبله اللاويون استقبالاً ممتازاً. كان يشعر بأن هؤلاء يشكلون كتلة ناقمة، متحمسة، ومستعدة للسير وراء الواعظ حتى النهاية. وكان يهوذا يعرف جيداً إلى أين ينوي أن يدفع به.

* * *

كان يوحنا يجري أمامهم، متلاعباً بالحصى التي يقذفها على الطريق،

محاولاً أن يصيب حصى أخرى. وبعد أقل من عشر دقائق، راح ثلاثة آخرون من أتباع يسوع يقلدونه.

«طفولية هذا الصبي تضايقني كثيراً ـ قال يهوذا ليسوع.

ـ كن متسامحاً يا يهوذا. إنه لا يزال فتياً، ولا يفكر دائماً بالعمل. وما الضرر في ذلك؟ أنا لست واثقاً من أنني أسير بكم نحو أيام حلوة كثيراً بالضرورة، فاغتنموا هذا الوقت».

كان يهوذا عكر المزاج، دون أن يدري لذلك سبباً. لقد أتعبه المشي منذ الصباح، وكان رفاقه في منتهى البلادة. وكان لا يذكر أنه كان مثلهم، حتى قبل أن يعرف ترف أورشليم...

بينما كانوا يسيرون في الطريق لاحت لهم قرية صغيرة.

«ما اسم هذه القرنة الأخرى؟ ـ غمغم يهوذا. أما كان علينا أن نصل الى مجدلى بسرعة أكبر؟

ـ ستتاح لنا فرصة ممتازة لنتناول شيئاً من الطعام. ألست جائعاً. لعلك إذا أكلت ستستعيد مزاجك الطيب الذي يبدو أنك فقدته؟

ـ لا أعتقد.

ـ هل أعددت ما يلزم للغداء؟

ـ عندنا خبز، وبضع سمكات باقية من صيد الأمس. لقد طُهيت، وهي ما زالت صالحة للأكل.

ـ حسناً. هيا بنا إلى تلك الشجرات ولنطلب المكوث تحتها. فلربما راقت خطبي لبعضهم.

ـ لربّما...».

هذا الشك المرح جعل أول ابتسامة تظهر على وجه يهوذا منذ الصباح.

فجأة أمسك يهوذا بذراع يسوع.

«أنظر، هناك

ـ ماذا؟

ـ ألا ترى. . . الكوخ. . . هذا كوخ عشار».

كانت مكاتب جباية رسوم الطرق كثيرة في هذه المنطقة الحدودية، وكان يشغلها يهود تابعون كلياً للرومان. وكان الفريسيون يصفون كل اتصال بهؤلاء «المباعين» بأنه نجاسة.

«أنظر هناك رومان أيضاً. هنا يجب على السكان أن يدفعوا ما عليهم من ضرائب. ليس بإمكاننا أن نتوقف في هذا المكان.

ـ ولِمَ لا؟ ألم تقل منذ لحظة أنك جائع.

ـ لكن هؤلاء مراقبون. . . ولا يوجد أسوأ منهم بين الـ. . .

ـ لا تُدِن قبل أن ترى. كل الناس على حق.

ـ لا تقل لي إنك تبرر ما يفعلون؟

ـ أنا لا أبرر. لكن أن أنقذ الانسان كلما استطعت، بلى».

وصل يسوع ومجموعته إلى أمام كوخ العشار.

«صباح الخير.

ـ مرحباً ـ أجاب الجندي الذي يحرس الكوخ بنبرة خشنة.

ـ أنا أعبر المنطقة مع أصحاب لي. وقد أحسسنا بالجوع ونود أن نستريح في ظل هذه الشجرة. فهل تأذن لنا بذلك؟

ـ قهقه الجندي.

«أن أسمح لك بأن تأكل هنا؟».

أمسك يهوذا بذراع يسوع وكان ممتقع اللون.

«ماذا تفعل؟ هل أنت مجنون؟ إنه يتأهب للاعتداء علينا وأنت تتذلل عبثاً.

ـ أنا لا أتذلل، يا يهوذا. وكل ما أفعل هو لأجله.

ـ لأجل من؟ لأجله هو؟ أنت تركع أمام الرومان الآن؟

ـ ماذا تقول؟ ـ قال الجندي مجدداً. هيا، كفى، إرحلوا. أقول لكم إرحلوا.

ـ ماذا يجري هنا؟

الرجل الذي انضم اليهم كان يرتدي ثياباً ثمينة. كان قصير القامة، ويحتذي خفاً سميك النعل. ألقى على مجموعة المتشردين نظرة متعالية، وقال:

ـ ماذا تريدون؟

ـ لا نريد سوى التوقف هنا لكي نأكل».

كان يهوذا يغلي من الغيظ.

«ولِمَ لا. حُلّوا هنا».

انتفض الجندي الروماني بدوره: لم يكن معتاداً على رؤية يهودي يخالف أوامره.

«وكيف ذلك، حلّوا هنا؟ أنا قلت «لا».

ـ وأنا أقول «نعم».

وتبادل الرجلان نظرة قاتلة.

«استطيع حتى أن أعرض عليكم أفضل ـ قال المراقب ـ تعالوا إلى عندي، أنا أسكن بالقرب من هنا. تستطيعون أن تحلوا في الفناء، وتشاطروني طعامي.

ـ هذه فكرة ممتازة، ونحن نقبلها بسرور.

ـ ماذا؟

صاح يهوذا.

«أنت تلبي دعوة هذا الذي يجوّع الناس؟ هل فقدت رشدك؟ هذا الرجل يتعاون مع الرومان. إنه يسلب شعبنا لأجلهم. إنه خائن».

كان يهوذا يكاد يختنق من الغيظ، متأهباً للانقضاض على أي كان، يزرع المكان بخطواته طولاً وعرضاً كالديك المذبوح. كان الروماني ينظر إليه ساخراً فيما كان المراقب يتقدم نحوه غاضباً.

ـ إهدأ يا يهوذا. هذا الرجل يقدم لي بيته، وأنا أقبله. ليس في هذا ما يجرح. على أي حال، ما يفعله لا يعني غير ضميره وحده.

ـ ضميره؟ وكل إخواننا الذين ماتوا لكي ينقرض الناس الذين هم على شاكلته، هذا يعني من؟».

كان يهوذا يرغي ويزبد. انتزع من حزامه كيس مال المجموعة «إن وطأت قدماك أرض بيت هذا المسخ لن تعود تراني» وطرح الكيس عند قدمي يسوع فبادر برتلماوس إلى التقاطه.

«لا أستطيع أن أصدق أنك لا تفهم يا يهوذا. انتظرني هنا، وسنتكلم بعد تناول الطعام. ليس الأصحاء بحاجة الى طبيب، بل المرضى. لقد جئت لأساعد الخطأة، لا لأجمع الصالحين».

ولّى يهوذا الإدبار وهو لا يسمع حتى ضحك الروماني.

وجال طويلاً، وآلى على نفسه أن لا يرى مجدداً يسوع الذي جعلته هذه الخيانة كريهاً عنده. أن يتورط مع متعاونين... صار كل شيء موضوع تساؤل. وأطلق لغيظه العنان فراح يضرب حصى الطريق بقدميه، ويتكلم بمفرده. لم يستعد هدوءه إلا بعد عدة ساعات. فقعد على حافة الطريق وقد أدرك أنه كان يدور على نفسه في الحقول دون أن يبتعد كثيراً عن القرية التي قبل فيها يسوع ضيافة العشار.

واعتراه شعور بالغباء. وذهب غضبه، وحل محله حزن هائل. أتُراه كان مخدوعاً على طول الخط؟ ليس يسوع، يا ترى، وخلافاً لما كان يأمل، سوى مشعوذ كباقي المشعوذين؟ بيد أن هذه الفرضية بدت لي منافية للعقل. فهو لم يستطع أن يمحو من ذاكرته ما دار بينهما من نقاشات، ولا تلك الحمية التي كان يبديها في الهجوم معه على كل ما يكره... هل كان كل هذا نفاقاً؟ لا، هذا غير ممكن. لا يمكن أن يكون قد أخطأ الى هذا الحد. لا بد أن يكون هناك أمر آخر، أمر لم يفهمه، خطة لا يعرفها. لعل يسوع كان يضمر شيئاً ما: يريد أن يلاطف الرومان، أن يتحالف معهم لكي ينصب لهم فخاً. وراح يضحك وهو يحس بارتياح عظيم، وعظيم إلى حد جعله لا يحاول حتى وضع فرضيته هذه على محك الواقع. ولم يدرك كذلك أن ما يجعله سعيداً إلى هذا

الحد هو كونه وجد بذلك ذريعة لتبرير رجوعه إلى يسوع بقدر ما هو كونه اكتشف «خطته».

لم يجد أحداً عند الشجرات التي كان الرجال سيأكلون في ظلها. وضحك الجندي ضحكة ساخرة عندما رآه، ثم دله على بيت العشار. فذهب إلى هناك، وتردد كثيراً قبل أن يطرق الباب. لم يجبه أحد. فأعاد الكرة بإلحاح، مستغرباً هذا الصمت. وعاد إلى الكوخ فوجده خالياً أيضاً. سأل شخصاً بدا كأنه كان ينتظر ساعة إغلاق الكوخ. فقال له هذا إنه شاهد مجموعة كبيرة إلى حد ما من الرجال تذهب بعيداً، صوب رابية يمكن تمضية الليل فيها.

عندما وصل يهوذا كان رفاقه ينتظرونه. أحس بوطأة نظراتهم الساخرة، لكن لم يجرؤ أي منهم على إبداء ملاحظة. وخرج من الظل رجل بجانب يسوع، عرف فيه يهوذا العشار فاعتراه الذهول.

أعرفك على رفيق جديد يا يهوذا ـ قال له يسوع. لقد تمنى أن يبدل اسم لاوي فبات بعد الآن يُدعى متّى. سيمضي معنا».

لم يصدق يهوذا ما سمع. هذا العدو السابق، هذا الظالم شعبه، سيبقى معهم... وفجأت بدت له فكرة حيازة يسوع خطة مبيتة فكرة عديمة الاحتمال. وعاد الى الغضب، إلا أنه هذه المرة بذل جهداً كبيراً كيلا يستسلم له ريثما يتسنى له أن يفهم بقدر أكبر ما كان يجري.

كان الرجال قد بدأوا يعدون الطعام، وقد حفر بطرس حفرة في الرمل وغطاها بالجمر ثم راح يضع فيها العجين الذي يريد أن يخبزه.

«فاتك شيء ما يا يهوذا ـ قال له لما رآه. إن متّى المسن هذا، إذ يجب أن ندعوه متى بعد الآن، قد أتخمنا بكل ما كان باقياً لديه في كوخه. كان هناك أوزّ لذيذ جداً. نعم لقد فاتك شيء ما...

ـ فاتني خصوصاً أن استمتع بالجلوس إلى مائدة أولئك الذين يظلمون إخواننا. ألم تشعر بثقل الأوزة التي أكلتها يا بطرس؟ أو لعلك لم تلاحظ أننا نرزح تحت عبء جنود كبار يرتدون بزات حمراء...».

بدا أن بطرس لم يفهم ما يعنيه يهوذا.

«وبعد؟ أتظن أن حرماني من الطعام كان يمكن أن يعجل بمجيء المسيح؟».

وأرسل ضحكة مدوية رأى يهوذا أنها سخيفة إلى حد جعله يؤثر أن يغير له ظهره.

كان حول بطرس ثلاثة أو أربعة من الرفاق يتحدثون عن الوليمة. كانوا يسهبون في وصف المآكل، وكذلك في وصف غطرسة المدعوين الآخرين والإزعاج الذي سببه حضورهم بعد أن فرضه لاوي.

«هل رأيت خصوصاً سحنة السيدة السمينة مع ولديها؟ كانت تبدو عليها إمارات النقمة.

ــ وعندما وطىء متى على طرف جلباب الأسمر الطويل القامة؟».

كانوا يبدون في منتهى الفرح جميعاً.

لم يختلط يهوذا بالمجموعة. فجاء وأخذ حصته من الخبز، وقعد بعيداً عن الآخرين دون أن يلتفت إليهم. ولم يشعر بأن شخصاً قعد إلى جانبه إلا من خلال الهواء الذي أزاحه. والتفت فالتقى نظره بنظر سمعان «الأصولي».

ــ هل تنعزل؟

ــ أكره سرورهم. كما لو أن ما نعانيه منذ سنين ليس سوى ترهات.

ــ أنا أيضاً، لم يعجبني تضرفهم...».

ــ مع أنك جلست إلى المائدة معهم...

ــ جلست مع يسوع، إذ أنني أشعر بأن ليس من حقي أن أدينه، كما فعلت أنت. لكنني كنت غير مرتاح طيلة فترة تناول الطعام...

ــ وهو، كيف كان سلوكه؟ أتعتقد أنه صادق؟

ــ لا أدري.

ــ ماذا يمكن أن يبرر ما يفعل؟ ألا يحتج عليه أحد؟

ــ بلى، بالتأكيد. لقد شتمنا بضعة فريسيين عندما شاهدونا نخرج من

عند لاوي. وتعرض يعقوب للاعتداء وقالوا له: «لماذا يأكل سيدك عند هؤلاء الخطأة؟» ليتك رأيت المسكين يعقوب... وهو الذي ليست الشجاعة فضيلته الأولى.

ـ وهل رأى يسوع ذلك؟

ـ تصرف وكأن شيئاً لم يحدث، ثم توجه إليهم وقال لهم، كما قال لك: «ليس الأصحاء من يحتاجون إلى شافٍ، بل المرضى»، كما نطق بعبارة أخرى لم أفهم معناها جيداً حول الحب الذي يريده والذي يعطى له. إن أقواله ليست واضحة دائماً...

ـ ليت هذا يقتصر على الأقوال فقط، مع الأسف...».

وساد الصمت، فيما كان كل منهما يفكر بالقائد الغامض الذي اختاره.

في الليل، جاء يسوع إلى يهوذا وفي يده كيس مال المجموعة. «أنت راغب بلا شك في مواصلة الاهتمام به؟

ـ أنا لا أفهمك يا يسوع.

ـ لست الوحيد الذي لا يفهمني. اتبعني، وسترى.

ـ ما سأرى؟

ـ حبذا لو كنت أعلم أنا شخصياً... لكنني أعلم أنك سترى».

كان هواء الليل معطراً برائحة الحطب الذي كانت النار تجهز عليه.

ـ كيف أقدمت على ذلك؟

ـ ألا تستطيع الامتناع عن طرح الأسئلة؟ وهل يجب أن يكون العالم من حولك واضحاً على الدوام؟ ألا تعلم أنه مشحون بالأسرار، وأنه سيكون هكذا على الدوام...

ـ هل هذا يبرر عدم محاولة الفهم؟

ـ ألا توجد حقيقة أسمى من تلك التي تظن أنك تدركها؟

ـ وهل تظن أنك تدرك هذه بتناولك الطعام مع العدو؟

ـ بتناول الطعام وفعل شيء آخر.

ـ كيف لك أن تنسى ما فعلوا بنا؟

ـ أنا لا أنساه، أنا أغفره. أنا أناضل ضد الفظاعة التي يمثلونها عن طريق تحويلها بالحب.

ـ وتوهم الجميع بأن قتالهم لا فائدة منه، إذ أنه يكفي أن تأكل على مائدتهم حتى يتبدلوا. إذا أخذنا برأيك لن يعود في وسعنا عما قريب أن نكره أحداً. فكيف سنقاتل في مثل هذه الحال؟

ـ هل يبدو لك القتال بلا حقد أمراً مستحيلاً؟

ـ بالتأكيد. من أين تستمد القدرة على القتال؟ لعلك ستقاتل أناساً تحبهم؟».

وضحك يهوذا إذ بدت له هذه الفكرة بعيدة جداً عن المعقول. فنظر إليه يسوع.

«هل تعرف ما الذي يجمع بيننا أكثر من غيره؟»

ـ لا.

ـ إنه الغضب، يا يهوذا. إنه ينتابني كلما رأيت شعبنا محتقراً، يداس بالأقدام، تعيساً. هذا ما لمسته عندك منذ البداية: الغضب. لا شيء يثير نقمتي أكثر من تلك الرخاوة السهلة التي ترضى بكل شيء وتترك الحكم للقدر. لا تدع غضبك يهدأ أبداً يا يهوذا».

وصمت. ثم قال مبتسماً:

«لكن، اختر له بعض الأحيان أهدافاً أخرى».

وناوله كيس المال، وتمنى له ليلة طيبة، ومضى وتمدد قرب النار. وبقي يهوذا لحظة يتأمل النجوم.

الفصل الثامن عشر

كان يهوذا يلاقي صعوبة بالغة في التعود على حضور متّى. وبالرغم من اعترافه بأن التلميذ الجديد يضطلع بأكثر من حصته كثيراً في العمل المشترك، ومن أنه كان يبدو متحولاً حقاً، بما في ذلك من برهان إضافي على قوة الاقناع عند يسوع، فإنه لم يتمالك نفسكهمرة فأظهر له كل ما كان في قلبه من ضغينة.

كان الاثنان قد خرجا ليجلبا حطباً على طريق بيت سعيد. كان نهر الأردن، الذي يعتبر حداً بين ولايتين، قريباً جداً من هناك. صعدا إلى إحدى التلال فرأيا مكتب جباية: كانت هناك بهائم تنتظر وقد أنزلت أحمالها على الأرض، وكان أصحاب الجمال يتذمرون من الجنود الذين كانوا يفتشونهم.

كيف أمكن لك أن تفعل هذا؟ ـ نبح في وجه متى فجأة ـ ما جعل رفيقه يجفل فتسقط حزمة الحطب عن كتفه.

ـ أن أفعل ماذا؟

كان متى يبدو مرتعباً. كان يهوذا الشخص الوحيد الذي ما زال يتجاهله بين أفراد المجموعة.

ـ كيف أمكن لك أن تسلب أهلنا مالهم إرضاء للرومان؟

ـ هه، تقصد هذا...».

واعترته دهشة كما لو أن الذي يوجه إليه اللوم على تلك التجاوزات لم يعد موجوداً.

«ماذا تريد أن أقول لك؟ أنا عاجز عن الاجابة عن هذا السؤال منذ ـتَ التقيت معلمنا. لقد فعلت الشر، وكنت أعمى. ومنذ أن رأيته، هو، عرفت».

كان متّى لا يخفي عبارة كان يهوذا يجدها مدعاة للسخرة. وكان ـتقادمون الجدد غالباً هم الأكثر مجاهرة بإيمانهم.

«هذا جواب سهل. يوم كنت تفعل الشر وتستفيد منه كان الأمر لا ـزعجك.

ـ هذا صحيح. ولهذا السبب غادرت. منذ أن أدركت...

ـ ماذا أدركت؟ هكذا حل عليك الادراك فجأة؟ لعلك كنت مذنباً ـريئاً نوعاً ما.

ـ لسنا أبرياء أبداً. كنت مذنباً دون أن أعلم.

ـ أتظن أنك تقنعني بهذا الكلام؟

ـ أنا لا أعبأ بإقناعك يا يهوذا. إن حياتي سلكت وجهة أخرى ـيكفي أن تبين لي هذه الوجهة. قد أتعرض لعدم الفهم وأتألم لأجل ما كشفته...».

ها هو الآن يمثل دور الشهيد... وراح يهوذا يجمع الحطب محبطاً.

«وأنت الآن مستعد للتنديد بالرومان، للهجوم على أصدقائك ـسابقين...

ـ أوه، الأمر لا يقتصر على الرومان: أنا أود استئصال الشر من حياتنا.

ـ ولا تعبأ بكونهم مستمرين في نهب الناس بواسطة مأجورين مثلك؟».

لم يردّ متّى على الإهانة. لقد عمل طيلة ست سنوات كعشار ولم ـرحب به سوى ثلاثة من اليهود: كان الآخرون يغطون انحرافاتهم بثمن رخيص فيبصقون دوماً في وجهه، على مرأى من الجنود الضاحكين.

«يوجد شيء أبعد من معاركك الدنيوية يا يهوذا، وهذا هو الشيء ـتي لمحته. وأنا لم أعد أحسب نفسي إلا في هذا المنظور».

«يا لك من متوهم» ـ قال يهوذا في نفسه. ولم يعد ينطق بكلمة حتى عودتهما الى المخيم.

في الليل، أخذ متّى يكتب. أخرج من كيسه أوراقاً من الجلد يصار إلى خياطتها فيما بعد ومن ثم لفّها، وقمقماً فيه حبر، وقصبة مشطوبة.

ماذا تفعل؟ ـ سأله يهوذا.

ـ أسجل أقوال المعلم».

هز يهوذا كتفيه.

«وما الفائدة من هذا؟ إثنان فقط من بيننا هنا يعرفون القراءة، ولا يوجد أكثر من هذا العدد في هذه البلاد. أولى بك أن تساعد في تهيئة النار».

لكن متّى ثابر على الكتابة، ما زاد من غيظ يهوذا.

وجاء شفاء السورية ليزيد من غضبه. فقد شقت مرة عربة يجرها أربعة ثيران صفوف الجمهور المحتشد حول يسوع، ونزل منها رجل، وتقدم نحو يسوع.

«سيدتي في هذه العربة. وهي مريضة جداً، وتود منك أن تراها.

ـ من أين جئتم؟

ـ سيدتي من سوريا. نحن آتون من قيصرية حيث كانت قد ذهبت لتزور أختها، وسنعود إلى أورشليم.

ـ وآلهتكم الكثيرة، ألا تستطيع أن تفعل شيئاً لأجلكم؟» ـ قال له يهوذا فأثار عاصفة من الضحك في الجمهور.

كان الجميع يتوقعون أن يصرف يسوع الرجل، وكان معظمهم يمني النفس برؤية هذا الغريب يرحل خائباً. لكن يسوع رفع يده.

«احترموا هذا الرجل. إذا كان لا يؤمن كما نؤمن نحن، فإنه يؤمن، ويضحي في سبيل ذويه. فهل هذا جدير بالاستهزاء؟ ليس يليق بنا أن نتخلى عنه».

وتوجه يسوع نحو العربة. كان هناك امرأة تناهز الخمسين من العمر

تشد بيديها على بطنها وتبكي. واقترب كثيرون بدافع الفضول، فطلب من الحوذي أن يبعدهم، ونادى سمعان.

«أعطني اللفاح. إنه في كيسي».

جاء سمعان بالكيس، فأخرج منه يسوع عشبة كان قد جففها. كان للغاز المنبعث منها أثر مخدر، وفي الحال بدت الامرأة أحسن حالاً، دون أن تنام. ثم طلب خلاً يستعمله عادة لتذويب عقاقيره. وعندما ابتعد، أخبر الخدم بشفائها.

«يمكنكم أن ترحلوا. لقد شفيت».

وتحلق التلاميذ حول يسوع.

«هل هديتها؟

ـ لماذا يجب عليّ أن أهديها؟ الحقيقة تأتي الى الذين يبحثون عنها. ولا تُفرض.

ـ لماذا شفيتها إذن؟

ـ أكان عليّ أن أدعها تتألم؟

ـ لكنها ليست يهودية.

ـ ملكوت الله ليس مفتوحاً أمام اليهود فقط. لقد أتيت لكي أقول هذا: لغير اليهود أيضاً مكانهم هناك.

ـ غير اليهود...؟ بالأمس كانت النساء. ومن سيكون غداً؟ الرومان ربما...».

قال يهوذا هذا وأرسل ضحكة مرة.

«ربما، يا يهوذا، ربما. لقد قلت هذا لك! أبي يطلب منكم أن تحبوا أعداءكم، كل أعدائكم. ملكوت الله منتشر في كل مكان، في الزمان وفي المكان».

كان يهوذا يرى فعلاً أن يسوع يتوجه بالكلام إلى كل الناس. وكان يتزايد عدد الوثنيين والأدوميين وحتى السامريين في صفوف المستمعين إليه...

لماذا شفيت هذه الامرأة؟ ـ عاد وسأله ثانية في اليوم التالي.

ـ لأنها كانت بحاجة إلى ذلك.

ـ لكن لماذا هي؟ إن كنت تستطيع أن تشفي أحد هؤلاء المرضى بمثل هذه السهولة، فلماذا لا تستعمل قدراتك فتضرب ضربة قوية تبعث الرعب في نفوس أعدائنا؟

ـ أنا لا أقوم بألاعيب سحرية. كلمة الله وحدها هي التي تجعل لأفعالي معنى، والله لا يريد أن أسحق الناس بقدرته. ومن المهين لهم أن يُمنع عنهم حق الاختيار حتى النهاية.

«أنتم تضلون جميعاً إذ تعتقدون أنني قادر أن أخالف قواعد الخلق. أنتم تطربون عندما أعيد الحياة إلى ميت، ولا تعجبون أمام رؤية كائن يولد. أنتم تصيحون أمام الملأ أنني غذيت خمسة آلاف شخص بخمسة أرغفة، ولكنكم تشهدون دون ارتعاش كيف تنبت الحبة ويطلع النبات. تحكون أنني حولت الماء إلى خمر، ولا تنبهرون أما تحول التراب والحبة إلى عريش... ما هي المعجزة؟ العالم هو المعجزة الحقيقية. فانظروا إليه وكفوا عن البحث في ما أفعله عن براهين على شيء آخر. الحياة هي المعجزة. إن العادة قتلت الانبهار عندكم. فبماذا يمكن لي أن أستعين بعد لأجل إحيائه؟».

كانت أخبار المشادات مع الفقهاء، والأمل في الشفاءات، وقوة كلام يسوع، تزيد تأثيره انتشاراً يوماً بعد يوم. لقد بات يحيط به الآن نحو مئة شخص في غالب الأحيان. وكان تناول الطعام، إذا كانت المائدة عامرة، يجري في جو من المرح: إذا كان يسوع يستطيع أن يتحمل الحرمان دون أن ينبس ببنت شفة، فقد كان يبتهج أيضاً متى كان هناك وفرة في الطعام ولم يكن آخر من يقبل عليه. غير أن الطعام اليومي كان كالعادة زهيداً، وكانوا دوماً يشعرون بالجوع.

ولم يفت المنافسين ليسوع أن يروا هذا النجاح. ذهب بطرس ويهوذا

في أحد الأيام إلى إحدى القرى في مهمة استطلاعية فوجدا هناك ساحراً يباشر عمله.

«سيكون الأمر عسيراً. يجدر بنا أن نمضي إلى أبعد» ـ قال يهوذا.

ـ مهلاً ـ أجاب بطرس ـ إن كان هذا واحداً من أولئك المشعوذين فيمكن أن يخلي لنا المكان».

كان هناك رجل معه ولد تجتاح وجهه بقع حمراء، ويتوسل.

«ابني مريض جداً يا معلم. إشفه. إشفه».

واقترب الولد. راح الساحر المرتدي جلباباً أحمر يتمتم بتعاويذ غريبة لا تفهم منها كلمة واحدة. وألقى في الماء مسحوقاً بنفسجي اللون. ثم طلى راحتيه بالمحلول وأدناهما من وجه الصبي. وكان وراءهما امرأة تنتظر وأمامها ولد خاوي النظرة.

«أعرفهم ـ هتف بطرس ـ لقد رأيتهم في كفرناحوم. كان هذا الساحر نفسه وهذا الرجل نفسه الذي يمثل دور الأب. لقد أكل الولد عشبة تسبب بظهور هذه البقع على وجهه والتي ستزول تلقائياً بعد لحظة».

وقبل أن يتمكن يهوذا من الامساك ببطرس، كان هذا قد وثب إلى أمام الساحر المزيف وقلب قصعته.

«كم تطلب منهم؟ دراخمين؟ أم أكثر؟ أكثر من الضريبة التي تدفع للهيكل. يا لك من نذل مقيت!».

كان قد أمسك بالساحر الذي راح يتأتىء.

«لكن من أنت؟ وما تقول؟».

كان بطرس يهزه بقساوة. أما الجمهور فكان حائراً، لا يدري ما يجب أن يفعل. وكانت أم الولد الأعمى تتشبث بأذيال بطرس متوسلة إليه أن يدع الساحر يشفي ابنها.

أما الرجل المتواطىء والولد «المريض»، فقد تواريا عن الأنظار. وعندما انتبه الجمهور إلى اختفائهما أدرك أن بطرس كان على حق. فتطايرت بضعة أحجار أصاب أحدها صدغ الساحر فراح ينزف.

ومن حسن الطالع أن يسوع وصل في تلك اللحظة، فهدأ تلاميذه، وفحص الأعمى الصغير، ثم أخرج من كيسه مسحوق الصبر، الذي يحوز ميزة التخفيف من وطأة التهاب الأنسجة. واغتنم الساحر الفرصة فلاذ بالفرار.

كان يسوع يبدي ثقة كاملة بنفسه، إذا ما جابهه معارضون لآرائه. وكان يبدو أنه يسخر من ألقابهم، ومن علمهم، وأحياناً حتى من طقوسهم.

«لا تقل لي إنك لن تطرد ابنتك من بيتك إذا أرادت أن تتزوج غير يهودي؟ ـ سأله يوماً أحد هؤلاء المعارضين الذين يصدمهم مثل هذا الأمر حقاً.

ـ بلى، أقول لك هذا. ليس في وسعي أن أثبته لك لأنني لم أحظ بأن يكون لي أولاد. لكن عد بعد عشرين سنة، فلعلك سترى ذلك».

وضحك الجمهور.

«يصعب عليّ أن أصدقك. وهل تدخل أيضاً بيت روماني؟

ـ إذا كان هذا يستقبلني. بمحبة وإخاء، نعم. ولكنت حتى أمضي وأجلبه من بيته إذا بدا لي قادراً أن يستمع إلي. أنا لا أكره الرومان ولا غير اليهود. أنا أكره الاحتلال، أكره العنف، أكره الأذى الذي يمكن أن يلحقه الناس ببعضهم».

هذه الملاحظات كانت تثير غيظ يهوذا، مع أنه كان لا يرى فيها بعد سوى ميل صبياني نوعاً ما عند يسوع إلى الاستفزاز.

كانت مخالفات يسوع للتقيد الصارم بالدين تثير بعض ردود الفعل حتى في مجموعته. ففي أحد أيام السبت. أخذ بعض من التلاميذ سنابل من أحد الحقول. فثارت ثائرة تلاميذ آخرين وقالوا إنه حرام فعل هذا الأمر في مثل هذا اليوم. وارتفعت نبرة النقاش بسرعة. كان بطرس على رأس الساخرين من التحريم، فيما كان يعقوب في منتهى الغيظ. توقف يسوع ودنا منهم.

«ما في الأمر؟ ألا تستطيعون أن تسيروا دون أن تتشاجروا؟».

كان عكر المزاج قليلاً منذ الصباح، وكان صامتاً منذ لحظة طويلة، وهو الذي كان دوماً ينعش مسيراتهم بضرب مثل أو حتى بممازحات.

«ماذا هناك؟

ـ أخذنا بضع سنابل كي نأكلها ويعقوب يؤكد لنا أن هذا عمل، وأن العمل محرم يوم السبت.

ـ هل أنتم جائعون؟

ـ لم نأكل شيئاً مساء أمس، وهذا الصباح خرجنا باكراً جـداً لكي ننتظر وصول الصيادين.

ـ ألم يشترِ يهوذا شيئاً.

ـ بماذا يشتري؟ لم يعطنا أحد شيئاً منذ ثلاثة أيام.

ـ إذن، كلوا، إن كنتم جائعين...

ـ لكن اليوم يوم سبت يا معلم ـ اعترض يعقوب في الحال.

ـ وبعد؟ هل صُنع الانسان لأجل السبت، أم السبت لأجل الانسان؟ أوتظن أن الله يفرح برؤيتكم تتألمون بينما أن من السهل جداً إيقاف ذلك؟».

لم يحر يعقوب جواباً.

ألا تذكر يوم جاع داود وصحبه فدخلوا بيت الكاهن أباتابير؟ أولم يأكلوا الخبز الذي كان مخصصاً للكهنة؟ وأعطى داود من هذا الخبز حتى لأصدقائه. فهل حلت عليه اللعنة لهذا السبب؟. وهذا وارد حقاً في شريعتكم».

قال «شريعتكم» لا «شريعتنا»، لكن بدا أن يهوذا وحده لاحظ الأمر.

«إذن»، لا تسجنوا أنفسكم في القواعد. فهي قد وضعت لكي يجري تجاوزها عندما يكون في الأمر مصالح عليا. لهذا أنا أعلو على السبت: لأن الله معي وهو يرى إلى أبعد ما يرى الكهنة وقواعدهم».

التفت فيليبوس نحو يهوذا.

«إنه يبالغ قليلاً.

ـ نعم إنه يبالغ. وإذا كنا نحن مئات نفعل مثله، فإن الأمور ستتحرك قليلاً».

ومضوا بعد أن استعادوا نشاطهم بفضل هذا الكلام. وظل يعقوب يرفض السنبلة التي يقدمها له بطرس، لكن معظم أفراد المجموعة الصغيرة كانوا يستسيغونها.

ونشأت توترات جديدة بعد قليل. كانوا قد وصلوا جميعاً إلى دار للعبادة على بعد بضع غلوات من طبريا. وكما هي العادة، بعد أن ذاع صيت المعجزات التي يجترحها يسوع، كان هناك مرضى ينتظرونه. كان بين هؤلاء رجل تورمت أصابع يده ولم يعد قادراً على ليّها. عرضها على يسوع قائلاً إنه بات عاجزاً عن القيام بعمله منذ أسبوع، وأنه إذا طال هذا الأمر فأسرته ستتعرض للخراب. فهل يمكن ليسوع...؟

نظر يسوع إلى يد الرجل. فتسلل برتلماوس إلى جانبه.

«اليوم يوم سبت يا معلم. ومعالجة هذا الرجل تعتبر عملاً. فلا يحق لك».

من بين الرجال العشرة الذين تبعوا يسوع وصحبه إلى البيت؛ نهض واحد وقال:

«هذا الرجل على حق. الله وضع قواعد تسري على الجميع. فأياً تكن، لا يحق لك أن تنتهكها».

فغضب يسوع. وأبعد الذين كانوا حوله، ودنا من الفريسي.

«وما الذي تعتبره أفضل؟ ترك هذا الرجل يتألم؟ هل تعتقد حقاً أن هذا ما يريده الله؟ إذا كان هذا اليوم يوم سبت فالألم يتغلب على المحبة؟ وأنه من أجل قواعد عبثية...

ـ لقد قلت «عبثية»؟

ـ نعم، صاح يسوع، «عبثية» أقول «عبثية» كما أقول عن كل معاناة إنها «عبثية» إن لم نستطع إراحة صاحبها. أنا لا أنكر وجود الشر،

لكنني أتهم بالتواطؤ معه أولئك الذين لا يبذلون جهدهم لمحاربته. أخرج من هنا إن كنت عاجزاً عن فهم هذا. أنت لست سوى كائن مسكين ورؤيتك تشعرني بالإهانة».

لم يجد الرجل أحداً يسانده. وكان بعض رفاق يسوع قد تلمسوا سلاحهم. أما الذين كانوا يخالفون معلمهم، فلم يكونوا حتى على استعداد للتصرف ضده.

كيف يمكن لرجل يمارس واجباته الدينية مثلك، ويحب التوراة،أن يتصرف هكذا؟ ـ سأله رجل آخر آسف أكثر منه ناقم. إحذر مما تفعل يا يسوع. لن تكون دائماً الأقوى، وسيكون عليك أن تؤدي حساباً».

لم يرد عليه يسوع، ودنا من المريض وأمره قائلاً: «مدّ يدك» كان الرجل وجلاً بسبب ما أثاره، وكان يقبع في زاوية خائفاً.

«هيا. أعطني هذه اليد».

جسّ يسوع اليد.

«هنا موضع الألم؟

ـ نعم يا معلم. هذا مؤلم جداً ولا أستطيع تحريك أصابعي.

ـ أنا أيضاً سأؤلمك، لكن الحال ستتحسن بعد ذلك».

ولمس راحة اليد، ثم ضغط بقوة على وسطها، فأطلق الرجل صرخة وسحب أصابعه. ثم أدناها من عينيه، وراح يحركها ببطء. ثم راح يقهقه فرحاً.

«لقد شفيت. آه، إنك تنقذني. شكراً يا معلم، شكراً. كيف يمكنني...» وجثا الرجل عند قدمي يسوع، فأمسك يسوع بيده وأنهضه.

«إذهب وافعل الخير فيما حولك، كما فعلت أنا بك. أياً يكن اليوم».

لكن هذا الحدث لم يكن كافياً لفيليبوس، فجاء يحتج بدوره.

«لا أفهم جيداً، يا معلم.

ـ ما الذي لا تفهمه؟

كانَ يسوع يجيب غالباً بلطف عن أسئلة مرافقيه حتى متى كان جهلهم يحزنه، وكانت رغبتهم في الظهور تجعلهم لا يترددون في طرح الأسئلة عليه.

«تقول إنك جئت لأجل تطبيق الشريعة، وأنت لا تحترم السبت.

ـ لأن الشريعة، إذا كان يجب أن تراعى فلا يجب أن تراعى حرفياً، بل بحسب روحها، وهذه الروح هي روح أبي الذي يقول لكم «أحبوا بعضكم بعضاً». وإذا تعارضت الشريعة مع هذه المحبة، فلا يعود واجباً احترامها».

ـ وما سيحل بإسرائيل إن لم تعد تُحترم الشريعة؟

ـ سيظل إسرائيل يكبر ويستعيد المكانة العائدة له.

ـ يا معلم... نحن صغار جداً، والرومان في كل مكان، ونحن معزولون في عالم يملؤه الوثنيون. فإذا لم نعد نحترم تقاليدنا، ألن ينهار كل شيء؟».

كان في صوته خوف حقيقي.

«أن ينهار هنا، في هذه البراري وهذه الصحارى، ربما. لكن إسرائيل سيكون كبيراً في السماء، في جوار أبي».

وحار فيليبوس في أمره، فتطلع إلى يسوع ثم انسحب وقد أعوزته البراهين.

«آمِن يا فيليبس، آمِن. هذا هو المفتاح الوحيد».

«أنا لا أفهم أباك ـ جاء يهوذا يقول هذا ليسوع. لماذا تعقد كل شيء بقصصك عن المحبة وغير ذلك؟ الله بسيط، إنه الشريعة، وهو الديان. فإذا خالفت الشريعة قدمت ذبيحة لكي يُغفر لك. وإذا أردت نعمة، صليت أو قدمت ذبيحة. لماذا تريد تعديل كل هذا؟

لأنك بعملك هذا تلغي عنفوان الله. فالله لا يستجيب لانتظارك، مثل شبكة تمتلىء بالسمك عندما يلقيها الصياد في الماء. تخيل عمالاً يشتغلون بالحصاد. إنهم يشتغلون يوماً ويدفع لهم السيد أجر هذا اليوم.

إلا أن عمالاً آخرين يصلون في الساعة الأخيرة ويكون هناك عمل لهم، فيدفع لهم السيد أجراً مساوياً لأجر العمال الذين اشتغلوا طوال النهار. أيبدو لك هذا غير عادل؟

ـ نعم بالتأكيد. فبعضهم لم يشتغل إلا قليلاً والآخرون اشتغلوا طوال النهار...

ـ ليس هذا غير عادل في الحقيقة لأن السيد فتح ذراعيه لكل الذين يريدون أن يخدموه. العلاقات مع الله مماثلة لهذه: ليست علاقات تبادل، بل علاقات محبة. ومنذ لحظة التقائك به، تسقط القيود والحدود. عليك أن تعطي الله ذاتك كاملة. لكن المحبة، وليس الشريعة، هي التي تقوم بينه وبينك. يجب أن تأتي إلى الله كطفل.

ـ كطفل؟ لكن الطفل ليس شيئاً.

ـ الفقراء، والمهانون، والمجروحون ليسوا شيئاً هم أيضاً. ومع ذلك، فهم الذين ينتظرهم الله. الرحمة هي ما يريده الله، لا الذبيحة».

ونظر يسوع إلى يهوذا.

«هل أقنعتك؟».

لم يجب يهوذا

«تعجبني قصة الأجر هذه. أعتقد أنني سأستعين بها مجدداً ـ عاد يسوع فقال ماكراً.

ـ لن يكون لك في الهيكل أصدقاء وحسب».

ابتسم يسوع: عرف أن صديقه يتحاشى بهذه الملاحظة ذات الصفة العملية الصرف كل ما أيقظه فيه كلامه.

«لا، دون شك. لكنني لست على الأرض لكي أكتسب أصدقاء، أو أصدقاء وحسب، على الأقل» ـ عاد فقال يسوع وهو يطوق كتفي يهوذا بذراعه. وعاد يهوذا يقول بسخرية لاذعة:

«أنت الذي تحب الأولاد، عندك واحد منهم هنا».

كان يعني بذلك يوحنا، الفتى الذي كان يتبع يسوع كظله، وكان يسوع يعيره انتباهاً كثيراً.

«هذا هو أخي الصغير الذي حُرمت منه. مع إخوتي، لم يكن يوجد متسع من الوقت للّهو». كان قد باح يوماً بهذا ليهوذا، ما أثار حسداً شديداً عنده.

«أنت سعيد على الأقل.

ـ سعيد؟ لا أعتقد ـ أجاب يوحنا بلهجة رصينة. لكن ما أبحث عنه ليس السعادة؛ السعادة إفراط في الانغلاق على الآخرين، إفراط في الأنانية. وما أريده هو المحبة. ليس حب امرأة (واحمرّ وجهه)، أو حب أصحابي، لا بل محبة كل الناس، محبة الطفل الذي يتألم، والعجوز المهمَل، والامرأة المرجومة...

ـ والروماني الذي يضربك أيضاً، بلا شك؟

ـ بلا شك يا يهوذا، بلا شك، وإن كان هذا عسيراً».

ضحك يهوذا ضحكة ساخرة: كان يجد أقوال يسوع في ما يقوله يوحنا، وكان يضيق ذرعاً بما يعتبره تكراراً سخيفاً، دون أن يرى كل ما كان عند المراهق من نضج في سعيه إلى فهم وتبني أقوال أخيه الأكبر منه.

لم يكن يوجد في المجموعة المحيطة بيسوع مقاومون متدينون بكل معنى الكلمة، باستثناء سمعان؛ لكن حين كان يهوذا يتحدث إلى أصحابه كان يشعر بأنهم مؤيدون تماماً لهؤلاء. أما يسوع، فلم يعلن تأييده صراحة للحركة، لكنه لم يخالف قط صديقه حين كان هذا ينشط لأجل كسب مؤيدين لها. لذلك كان يهوذا يواصل حياكة شبكته من قرية إلى أخرى، بمساعدة بعض التلاميذ الأكثر التزاماً مثل توما الديديمي وتداوس. فكان يتصل، بعد كل خطاب ليسوع، بأكثرهم اعتراضاً على هذا الخطاب. ذلك أن المبشر كان لا يتهاون مع السلطات الحاكمة، متحاشياً المواجهة المباشرة مع الرومان، لكن مع التنديد بالاحتلال الذي

هو أصل كثير من الشرور. وقد لجأ يوماً حتى إلى تشهير متى على الدور الذي كان يؤديه كجابي ضرائب وعلى كيفية اختلاس قسم من هذه الضرائب المجباة. وقد خاف يهوذا يومذاك أن يكون قد أسرف في الذهاب بعيداً.

وجاء يسوع إلى يهوذا مساء ذاك اليوم وقال له: «لقد حان أوان تطوير عملنا. يوجد شيء من الجودة في هوسك الذي يدفعك إلى أن تترك وراءك رجالاً يعرفون ما نحن نريد. يجب الاكثار من هؤلاء الوسطاء. أرغب في الانفصال عنكم فترة ما وأن أرسلكم لتنشروا رسالتي.

ـ من تقصد بكلمة أنتم؟

ـ بعض الذين يرافقونني منذ البداية، ومن بينهم أنت يا يهوذا. أنتم ستمثلونني، ستكونون رُسلي. ستحملون البشارة بدلاً مني.

ـ هل سننفصل لمدة طويلة؟

ـ ريثما تكون كلمتي قد انتشرت. لا أعلم كم من الوقت سأبقى على هذه الأرض...

ـ لماذا تقول هذا؟

ـ لا أدري، إنه حدس. أبي يلمح لي به. ليس هذا واضحاً جداً حتى الآن... باختصار، علينا أن نسرع. وإلا فأنا غير واثق من إمكان عمل كل شيء.

ـ وما ستكون مهمتنا؟

ـ أن ترددوا ما قلت، وأن تهيئوا مجيئي. سأعطيكم أيضاً سلطة طرد شياطين الشر».

ابتسم يهوذا.

«شياطين الشر؟ يا لها من هبة لطيفة! ألا تفضل أن تعطيني ما يمكنني من طرد الرومان؟

ـ لا تمزح يا يهوذا. سيكون ذلك مفيداً لكم».

لم يتوصل يهوذا إلى محو السخرية من قسماته، لكنه شعر بأنه يجرح صاحبه، فأرغم نفسه على التظاهر بتركيز انتباهه.

في اليوم التالي جمع يسوع الرجال الذين كانوا معه.

«سأوكل إلى اثني عشر من بينكم مهمة نشر كلمتي».

سرت بين الحاضرين ارتعاشة. ونظر يهوذا الى هذا الخضوع باحتقار.

«ستسيرون في الدروب وترددون ما سمعتموه مني. ستكونون قادرين أن تشفوا الشياطين».

أثارت هذه العبارة الأخيرة فرحة المختارين العتيدين، فراحوا يتدافعون.

«أنا، أنا ـ كان يصيح بعضهم.

رفع يسوع يده.

«سيكون الأمر عسيراً. الناس لن يرحبوا بكم، دون شك، ولن يكون بإمكانكم الاتصال بي. هذا شرف، لكنه شرف سيكلف غالياً. لقد انتقيت من بينكم من سيحصلون عليه. تعال إلى هنا، يا يعقوب».

خرج من المجموعة رجلان.

«لا، أنت يا ابن زبدى ـ قال يسوع. لكن، إبقَ أنت أيضاً يا ابن ألفيه. لقد كنت اعتمد عليك أنت أيضاً».

وضع يسوع يده على رأس كل منهما وقال:

«ستمضيان إلى سيشيم...

ـ إلى سيشار؟».

وضحك الجميع لأن كلمة سيشار تعني السكر بالآرامية، وكان من المألوف الخلط بينها وبين اسم عاصمة السامرة.

ثم نادى يسوع تسعة رجال آخرين. فتقدم بطرس أولاً. ثم تقدم يوحنا أخو يعقوب، وأندراوس، وفيليبوس، وبرتلماوس، وجثوا أمامه. وسرت بين الجمهور همهمة مناوئة هدأها يسوع بنظرة قاسية، حينما نودي على متى، المعروف بلاوي سابقاً.

ودُعي سمعان أيضاً. وأخذ يهوذا يتساءل بقلق عما إذا كان سيدعى هو أيضاً، فسمع اسمه، وتقدم لكن دون أن يجثو.

وبدا أن الاثني عشر مختاراً لم يفهموا ما ستكون نتيجة هذا الانفصال إلا عندما تحلقوا حول يسوع. كان بطرس على حافة الاستسلام للبكاء واندهش الجميع إذ رأوا هذا العملاق يتهاوى. وأدرك يهوذا أن هذه المهمة الجديدة، إلى كونها تخدم خططه بشكل رائع، إنما هي تعني مزيداً من الوحدة، مزيداً من القلق، ونهاية لذلك العيش الجماعي الذي يدوم منذ نحو سنة والذي كان قد بات يطيب له فعلاً.

«لا أريد أن تحملوا أكثر من عصا: لا مال، لا عباءة إضافية، لا أغطية. إنكم ترحلون بمفردكم، ومعكم كلمتي وما يعينكم على المشي.

ـ لكن لماذا، يا سيد؟ ـ سأل أندراوس، الذي لم يكن يعرف البتة بوضوح ما هي حسنات عدم الرفاه.

ـ أريد أن تكونوا بفقركم قدوة. أنتم تتكلمون لأجل المساكين، فتشبهوا بهم».

لم يعد أحد يجرؤ على الاحتجاج.

«ما سنقول لهم؟ ـ سأل برتلماوس.

ـ إن ملكوت الله قريب وأنه يجب عليهم أن يتوبوا كي يدخلوه.

ـ وإذا رفضوا الاصغاء إلينا؟ سأل يعقوب قلقاً.

ـ قولوا لهم حينئذ إن قريتهم ستعرف مصير سدوم.

ـ لكنهم سيضربوننا ـ تمتم لجاره.

ـ وتذكروا ـ قال يسوع ـ أن هدفكم ليس الوثني أو الروماني فقط، وإنما هو أيضاً اليهودي، ذاك الذي نسي روح الشريعة.

ـ المتعاون ـ صاح يهوذا حانقاً.

ـ ليس هذا فقط، يا يهوذا، ليس هذا فقط، بل كل الذين يبتعدون عن ملكوت الله.

كان يختلط، في المجموعة الصغيرة، حماسة بطرس شبه العمياء، وفرحة برتلماس الذي كان يشكو من قلة العمل. وتحفظات فيليبوس المعتدلة، الذي كان يرى أن فكرة التعرض للضرب ليست مشجعة. أما

الذين لم يقع عليهم الاختيار ويعتبرون أنهم أهل له فكان الحزن بادياً عليهم. وقد جاء حتى بعض منهم يسأل يسوع عن سبب عدم اختيارهم، فرفض يسوع طلبهم وكاد يغضب.

«لقد أحسن بإرسالنا على هذا النحو ـ جاء سمعان المقاوم يقول ليهوذا ـ هذا سيتيح لنا أن ننشر كلمته وكلمتنا معاً».

لم يكن يهوذا يتوصل إلى التخلص من حدس غامض. كان يود أن يكون يسوع أكثر وضوحاً في توجيهاته، وأن يحدد رحلتهم بصراحة على أنها مهمة تجنيد أنصار وإجراء استطلاعات من أجل عمل مقبل وأكثر اتساعاً.

وصلت عائلة يسوع في اليوم التالي. كان النجار قاعداً ويحاول أن يشرح لرسله، إذ أنه بات يدعوهم هكذا، معنى المثل الذي ضربه لهم بالأمس.

«لماذا لا تقول الأشياء بوضوح؟ ـ سأل بطرس شاكياً.

ـ لأن الفهم لا يجب أن يأتي إلا من رؤوسكم. كما أنه يجب أن يأتي من قلوبكم. ومخاطبة القلب بالصور خير من مخاطبته بالكلمات».

وربت بلطف على كتف بطرس.

«إذا شعرت بأنك تحب، فهذا كاف، يا بطرس. كما أنك لا تحتاج إلى فهم كل شيء كي تؤمن».

«يا معلم».

التفت يسوع بشيء من التوتر.

«ماذا؟ ألا ترون أنني أتحدث إلى رسلي؟

ـ يوجد هنا أناس يقولون إنهم أمك وإخوتك.

ـ أمي وإخوتي؟

لم يتوقف يسوع أكثر من ثانية.

«من هم أمي وإخوتي؟ هؤلاء هم أمي وإخوتي ـ قال هذا مشيراً إلى المحيطين به. فليفعلوا ما يريده الله، وحينذاك سيصيرون أمي وإخوتي».

ونظر يسوع بالكاد الى الامرأة التي يحيط بها أربعة صبيان والتي كانت تنتظر بتواضع أن يومىء إليها ابنها بإشارة، وظل مسترسلاً في خطابه.

أحس يهوذا بأن قلبه ينفطر. وعادت إلى مخيلته فجأة سيبوريه، وأهرقته ذكرى السنين التي لم يرَها فيها، وتخيل نفسه مع زوجته وولديه. فنهض ودنا من الامرأة.

«تعالي واقعدي».

لم تخفَ بادرته على يسوع ولا على الآخرين.

«لماذا فعلت ذلك؟ ـ سأله يسوع فيما كانوا يتناولون الطعام في اليوم التالي، بعد أن رحلت مريم وإخوته أخيراً دون أن يتمكنوا من الوصول إليه ـ لعلك أردت أن تتحدى سلطتي.

ـ ليس هذا صحيحاً البتة. لكنني وجدتك قاسياً جداً.

ـ لا تدع الحساسية الزائفة تضللك. فهي ليست الحِلم، إن هي سوى انفعال.

ـ إنها أمك...

ـ إنها الامرأة التي ربتني. لكنها عاجزة عن فهم ما أصير. حتى أنا لا أتوصل إلى ذلك إلا بالكاد. وصار إخوتي شديدي الحسد. لقد أخبرتك عما جرى لي وأنا في الثانية عشرة من العمر. كان والداي قد ذهبا بنا إلى أورشليم، أنا وثلاثة من إخوتي. وهناك ضعنا وذهب كل منا في اتجاه. كنت في جوار الهيكل فدخلت قاعة كان فيها فقهاء يتكلمون. هناك ظهر لي كل شيء بصفاء. شعرت بأن قوة تحملني وبأن أحداً يكاد يكلمني. رددت على كل أولئك الفقهاء الراسخين في العلم. أصغوا إلي وهم مذهولون. ثم طرحوا علي أسئلة. فأجبت، وكنت أفهم كل ما يقولونه لي. وكنت حتى أفهم ما أقول أنا.

ـ من أين جاءك هذا العلم؟

ـ لست أدري. لكن هذا كان قوياً جداً».

اندهش يهوذا من غياب الحمية عن اللهجة التي تكلم بها يسوع. فالهذيان الروحي الذي سبق له أن رآه كانت تصاحبه دوماً تشويرات وضرخات. أما هنا، فلا: هذه الأقوال المدهشة كان يدلى بها بأكبر قدر من الهدوء. كان يسوع لا يلتهب حماسة، بل كان يعاين.

«أمضيت معهم عدة ساعات، وكنت أرد على كل البراهين التي يواجهونني بها. عندما خرجت، كنت خائفاً جداً. واهتدى إليَّ والداي، وأنّباني تأنيب أي ولد مشاغب. حاولت أن أشرح لهم ما جرى لي، لكنهم لم يفهموا شيئاً. لم أكفّ عن محبتهم، لكنني أدركت أنني مختلف عنهم وأنهم لن يستطيعوا اللحاق بي الى حيث أمضي. فكان يجب أن أنفصل عنهم. لقد عملت مع أبي؛ وما كنت أفعل في الحقيقة سوى إعداد رسالتي. أمي امرأة طيبة ومحبة، لكنها لا تفهم ما يحصل لي؛ أما إخونتي، فقد أساؤوا فهم سبب ابتعادي عنهم. لهذا، لم أعد قادراً على اعتبارهم عائلتي. إن عائلتي هي العالم».

وتوقف لحظة، ثم بصق على الأرض ورآها تشرب لعابه».

«لَكَم هو عسير أن تكون مختاراً، يا يهوذا».

وعرفا في مساء ذلك اليوم بالذات بنبأ إعدام يوحنا المعمدان. كان الغموض يحيط بكيفية حصول ذلك: كانت شائعة تقول إنه كان نتيجة دسيسة حاكتها هيروديا وابنتها صالومي، وأخرى تتحدث عن انحرافات يصعب تصديقها، وعن ارتكاب فعل محرم، وكان رأس النبي موضوع رهان في لعبة جنسية بين الأم والبنت تحكمت بإرادة الملك العجوز... غير أنه للأسف لم يكن هناك شك في الخاتمة المشؤومة لتلك المغامرة. أحس يسوع بصدمة مؤلمة وغرق في ليلة من الصلاة لم يقبل بأن يكون أحد إلى جانبه فيها.

في اليوم التالي، أرسل الاثني عشر.

سترحلون كل اثنين معاً لمدة شهر. ويمضي كل واحد في وجهته. هكذا سننتشر في الجليل وفي الجليل الأعلى.

ـ كيف سنعيش؟ ـ سأل تداوس.

ـ كيس المال ليس مملوءاً الى حد أستطيع معه أن أؤمن لكم جميعاً ما يساعدكم على البقاء. وكما قلت لكم من قبل، خذوا ثوباً واحداً، وكذلك أحذية جيدة. أما الباقي، فستجدونه حيث تكونون. الناس سيساعدونكم. وإذا جعتم يوماً أو يومين فلن تموتوا من جراء ذلك».

وفي المساء أبقى يهوذا معه.

«يهوذا... إنكم تمضون جميعاً في مهمة ذات شأن. أنا واثق من حسن نية كل واحد منكم، لكنني لست أعمى حتى لا أرى أنه ليس عندكم جميعاً... كيف أقول... فهم واحد لكل ما قلته لكم. أعرف أنك تضمر أفكاراً أخرى غير مجرد فكرة أن تخدمني... فاعمل على جعل إخوتنا يتحسسون الفظائع التي تجابهنا. لكن فكر بما قلت، وانقله إلى الناس. ليس في وسعنا أن نمضي حياتنا نجول في الجليل. علينا أن نمضي يوماً ما إلى أورشليم. حاول أن تستعلم في طريقك وفي المدينة عن الكيفية التي سيستقبلنا بها الناس هناك. سأشتاق إليك».

وعانقه.

لاقى يهوذا صعوبة في التخلص من برتلماوس، الذي أراد أن يذهب معه بأي ثمن، وتمسك برغبته في مرافقة سمعان، الذي كان قد شرح له بسرعة ما ينتظر منهم يسوع. صعدا حتى وصلا إلى اليهودية، وكانا ينشران رسالة يسوع في بعض الأمكنة، وكانا حتى يعمدان أحياناً بانزعاج واضح من هذا العمل الذي كانا لا يفهمانه. وثابرا خصوصاً على إنشاء شبكات من الأنصار، وإعداد من يصادفانهم لقدوم التحرير الآتي. كانا يبذلان جهدهما لكي يؤمنا سلامة الطريق إلى أورشليم، كما أشار عليهم يسوع. وبدا أن معاشرة يسوع جعلت بلاغة يهوذا تحلق عالياً.

«إيه. تكاد تتفوق على يسوع ـ قال له سمعان يوماً. أنا أرى أنه أحياناً يبالغ في الاعتدال وفي الغموض. أما أنت، فكلامك واضح:

الرومان في روما، واليهود في مملكتهم. لم يخطىء باراباس في استعادتك إليه».

كان يهوذا يحس مع ذلك بأن كلامه يتغير قليلاً، فيغدو أكثر عذوبة، وأكثر هدوءاً. فإذا كان يثابر على الدعوة إلى الكفاح (وكيف يمكن استعادة الحرية بغير السلاح)، فإنه لم يعد يطلب معاقبة المذنبين وموت العدو بالقوة ذاتها كما في الماضي. وبات يفضل الكلام عن الطرد بدلاً من القتل. وكان يعلم جيداً أن التلويح بالانتقام كان خير وسيلة لإقناع المترددين.

«عندما نصل إلى الحكم، ستتمكن من تصفية كل الذين قاتلونا ـ قال سمعان فرحاً ذات يوم.

ـ لا يكون للقمع من معنى إلا إذا كان في يد تستعين به لأجل مساعدة العدد الأكبر. وإلا فهو ليس سوى انتقام عقيم. لقد أخفق الرومان لأنهم لم يدركوا أن القتل باسم الله عمل صالح، فيما أن القتل ضده ليس كذلك».

ووصلا إلى أورشليم. كان يهوذا راضياً عن نفسه. كانت خطبه تصيب هدفها، وكان يلوح له أن الأمور تتحرك. لكنه كان يشتاق إلى يسوع ولم تكن حماسة سمعان السخيفة نوعاً ما كافية لتعوضه عن ذلك.

اغتنم فرصة وجوده في أورشليم فذهب ليرى باراباس. بدا له أن المتمرد العتيق جدد حيويته. كان هذا قد سمع أخباراً عن العمل الذي يقوم به يهوذا في القرى وهنأه على هذا التقدم.

«أعتقد أننا وجدنا الشخص الذي نريد ـ قال يهوذا. فكل ما يقول يسير في اتجاهنا. إن له سطوة حقيقية على الناس. إنه قادر أن يعبىء جماهير. لقد علّم تلاميذ له، وراح هؤلاء يتكلمون نيابة عنه في طول البلاد وعرضها. فإذا أفلحنا في إيصاله إلى أورشليم، فيمكنه أن يطلق الشعار».

وكتم عن باراباس ذاك الاضطراب الذي كان كلام يسوع يحدثه عنده.

«يجب الحذر من الصدوقيين ـ قال باراباس.

ـ إنهم يتعاونون منذ سنين. . .

ـ إنهم قادرون أن يدبروا دسيسة للإيقاع به. . . فهو قد حصَل على تفويض من المعمدان، هذا الذي كان حليفاً للأسينيين، والأسينيون كانوا صدوقيين قبل أن يغادروا الهيكل. إنهم اليوم يواجهون مشاكل مع الكنائس، التي تتكاثر وتخرج أكثر فأكثر عن سلطتهم: أعتقد أنهم قادرون على اقتراف كل ضروب الغدر، أكثر بكثير من الفريسيين، الذين لا يحوزون مثل هذه القدرة على الإيذاء. حاول أن توصل يسوعك هذا إذا استطعت. أورشليم في غليان. وليقم بعمله، وقد تصبح المدينة في يدنا».

كان من الصعب على يهوذا أن يكبت الحماسة التي استولت عليه.

الفصل التاسع عشر

عاد يهوذا بعد غياب دام شهراً ونصف شهر. كانت شهرة يسوع قد تضاعفت في غيابه. وأخذت تنتشر عنه أغنيات قليلة الاحترام أحياناً. وكان الناس يتحدثون عن عجائب، وعن معجزات متواصلة، وشفاءات عديدة. وكان يروى أن طغمة من الملائكة ترافقه. وقيل إنه في جيراسا ألقى أرواحاً شريرة على خنازير فألقت بنفسها في الماء وماتت غرقاً؛ وأنه هدأ العاصفة على بحيرة طبريا؛ وأنه في مكان آخر شفى امرأة تنزف منذ اثنتي عشرة سنة، لمجرد ما دعته يلمس ثوبها؛ وأنه شفى ابنة احد رؤساء دور العبادة. وقيل حتى إنه مشى على الماء. وتوتر يهوذا قليلاً عندما سمع هذه الرواية الأخيرة.

«كفوا عن اللهو بهذه الحماقات ـ قال للفلاحين اللذين زعما أن أصحاباً لهما شاهدوه يفعل ذلك ـ ألا تظنون أن شخصاً مثله يعرف أن يستخدم وقته لأجل أمور أكثر نفعاً؟

كان مستعجلاً لمشاهدة يسوع. وبعد أن اقتفى أثره طيلة يومين، توصل عند الظهيرة إلى العثور على مخيمه قرب الناصرة.

كان اثنان فقط من الرسل، هما يعقوب وأندراوس، قد عادا من مهمتهما، وقد استقبلا يهوذا بفرح كبير.

«ها أنت أيضاً. متى عدت؟

ـ وصلت لتوي.

ـ نحن هنا منذ أسبوعين. كيف سارت الأمور معك؟ أخبرنا، أخبرنا».

كانا يتكلمان معاً، وبلجاجة.

ـ كانت جيدة جداً ـ أجاب يهوذا ـ كان إقبال الناس على الاستماع كبيراً واستطعنا الوصول إلى أورشليم.

ـ إلى أورشليم؟ أنتم فعلاً لم تضيعوا وقتكم.

ـ وأنتم؟

ـ سارت الأمور معنا جيداً بوجه عام. ولم يرفض الناس حضورنا إلا في مكان واحد أو اثنين: نعيم، والله. لكنني أعتقد أن ذلك كان بسبب قصة لاوي. فقد كان بين الجماهير التي رفضتنا اثنان أو ثلاثة من أصدقائه العشارين.

ـ وكان هناك الفريسيون أيضاً ـ قال أندراوس مقاطعاً إياه.

ـ كان هؤلاء يثيرون الصعوبات في وجهنا على الدوام، وكنا لا نعرف دائماً بما نردّ عليهم. وقد تغلبوا علينا عدة مرات، ما جعل الناس يسخرون منا.

ـ والرومان؟

ـ ألقوا القبض علينا مرتين، لكنهم لم يحتفظوا بنا طويلاً، بل أطلقوا سراحنا بعد تحذيرنا من التكرار. ولا شيء أكثر من هذا.

ـ هل رأيتم يسوع مجدداً؟

ـ إنه يخلد إلى الراحة هناك. أعتقد أنه قلق قليلاً. لقد ذهب خمسة من الجدد الى الناصرة أمس فكان استقبال السكان لهم على جانب من تعداء.

ـ في الناصرة؟ في مسقط رأسه، أليس كذلك؟

ـ بلى. لكن، لا بد أنك تذكر كيف استقبل أمه وإخوته منذ أيام...

ـ هذا صحيح. أتظن أنني سأزعجه إذا ذهبت إليه؟

ـ اذهب وسترى».

كان يهوذا سعيداً حقاً برؤية يعقوب وأندراوس مجدداً، أكثر مما كان يظن، وكان نبض قلبه يتسارع كلما اقترب من الخيمة التي يستريح فيها يسوع. كان هناك نحو مئة شخص ينتظرون في الخارج. وكانت النيران التي أشعلت تكاد تخبو. ولم تكن تهبّ أية نسمة على الكومة التي كانت رائحتها خانقة.

«هل المعلم نائم؟» ـ سأل يهوذا شاباً في العشرين من العمر. فنظر هذا إليه ولم يجب.

«أسألك عما إذا كان المعلم نائماً. . . كرر يهوذا.

ـ أنا أسهر على نومه. وليس عليّ أن أعطيك معلومات».

غضب يهوذا وتقدم نحو الشاب مهدداً.

«أتعلم من أنا، أيها الفتى الأحمق؟

ـ لا، ولا أعبأ بذلك.

ـ هل لك أن تأتي وتقول لي هذا عن كثب؟».

كان ثلاثة رجال قد اقتربوا ليتفرجوا على المشهد، حينما خرج يسوع من الخيمة.

«ما في الأمر؟

وفجأة عرف يهوذا.

«أخي يهوذا، ها قد عدت!».

وضحك فرحاً وارتمى بين ذراعيه، تاركاً حارسه في ذهول.

«تعال إلى هناك، حيث أوقدوا النار.

ـ كان بإمكانك أن تحسن انتقاء سربيروسك هذا.

ـ ما تقول؟ سربيروس؟

ـ نعم، سربيروس، حارس جهنم في الميتولوجيا اليونانية. . .

ـ أعذرني، فأنا قليل الولع بالآلهة الوثنية».

وبدا يسوع ممتعضاً قليلاً.

أنا في الحقيقة لا أعرف هذا الشاب جيداً. إنهم يتبعونني ويتصرفون

كما يشاؤون. أنا لا أطلب منهم شيئاً، لكن ليس عندي من سبب يحملني على تثبيط عزيمتهم. إذن، كيف كانت جولتك؟».

راح يهوذا يروي، ويسوع يصغي إليه بالكاد.

«إن كان ما أقوله لك لا يهمك...

ـ أعذرني، أنت على حق. كان بودي أن أبشر في الناصرة و...».

كان في صوت يسوع شيء من القلق الحزين.

«ذهب إيرونيموس وإخوته إلى هناك ليمهدوا الطريق، حسب العادة. لكن الاستقبال لا يبدو طيباً. أنا خائف قليلاً. إنها عائلتي، وإن كنت قد ابتعدت عنها كثيراً.

ـ إذهب، وسترى.

ـ أنت على حق؛ ما النفع من التردد؟ هيا بنا».

وخرج، وطلب من الشاب أن يعلم الجميع بأنهم ذاهبون إلى الناصرة، ووضع على رأسه قماشة بيضاء ثبتها بواسطة خيط. كان المعجبون به متأهبين. وسار يسوع في مقدمتهم.

«لا أدري ما يجري ـ باح ليهوذا ـ أظن أنني أثير الإزعاج. وأفترض أن تكون هناك اليوم نفوس طيبة تحدثهم عن كل الخير الذي يجب أن يتوسموه في شخصي وفي الضجة التي أثيرها».

كانت المدينة منطوية على نفسها بين هضاب محيطة بها يكسوها شجر الشوح الأسود. أما بيوتها، فكناية عن مكعبات صغيرة مسطحة، متماثلة تماماً، ولا تتميز عن بعضها إلا باحمرار شجيرات تلهب أزهارها الجدران. وعلى الهضاب، كانت تتناثر على الخضرة بقع بيضاء هي مزارع صغيرة.

اعترضهم إخوة يسوع عند مدخل المدينة. وتقدم منهم رجل سبق أن رآه يسوع مرتين أو ثلاث مرات في مشغل أبيه.

«هذا أنت المبشر؟ نحن هنا نعرفك. إذهب وانشر فضيحتك في مكان آخر، وإلا سيكون حسابك عندنا».

كان وراءهم حوالى عشرين رجلاً ينتظرون، وكان بعضهم يحمل عصياً.

«لماذا جئت إلى هنا؟ أنت تتعرف علينا الآن؟

ـ يعقوب! أنت أخي، وهذا كنت دائماً أعرفه. الشيء الوحيد الذي أردت أن أقوله هو أنهم جميعاً إخوتي، هؤلاء الذين يتبعونني، مثلكم أنتم.

«أليس لهؤلاء من شيء أكثر من الآخرين؟»

وأشار يعقوب بيده إلى الرجال الثلاثة الواقفين الى جانبه.

«هؤلاء؟ جود؟ سمعان؟ جوزيت؟ الذين لعبت معهم ثم هجرتهم ومضيت لتحيا حياتك المتشردة؟

ـ هؤلاء الذين تركت لهم كل عبء العمل ثم جئت تقاسمهم الإرث

ـ أضاف سمعان.

ـ ماذا تقول يا سمعان؟ ألا تستطيع أن تتجاوز هذه السخافة التي تعزوها بسهولة إلى الآخرين...

ـ هل تشتمني؟»

وكان سمعان قد خطا خطوة إلى أمام.

«أنا لا أشتمك. أنا أحاول أن أجعلكم تفهمون أن إخوتي الحقيقيين هم في الله وأنكم لا تساوون في نظري أكثر من أولئك الذين ينتظرون مجيئه. لا أكثر، ولكن لا أقل. عليّ واجب يجب أن أؤديه.

ـ لن تؤديه هنا...».

وطار حجر وسقط على الأرض في مكان غير بعيد عن يسوع. فاستل يهوذا خنجره من غمده.

«لماذا لا تستطيعون القبول بأن أكون مختلفاً عنكم؟

ـ لأن هذا في غاية السهولة ـ صاح جود. أنت منذ صغرك كنت تبذل ما بوسعك كي تجعلنا موضع سخرية. كنا نعجز عن تعداد أفعالك الغريبة والوسائل التي كنت تستعين بها كي تلفت الأنظار اليك. واليوم،

بعد أن رحلت عنا، ها أنت تود العودة حباً بالظهور. نحن لا نريدك».

وتساقطت الحجارة مجدداً، فتراجعت جماعة يسوع خطوة.

«تريدون إذن أن أرحل؟ ـ صاح يسوع.

ـ نعم، هذا ما نريد. ولا تعد مرة أخرى، أنت غير مرغوب فيك هنا».

وراح الحشد الذي كان وراء إخوة يسوع يصرخ: «إرحل»، «لا»، «نحن لا نريدك هنا».

رأى يهوذا عيني يسوع تغرورقان بالدمع. والتفت يسوع إلى الذين كانوا الأقرب إليه.

«هيا بنا، تعالوا. لا فائدة من الإصرار ولا أريد القتال مع أهلي. سنمضي إلى أماكن أخرى، حيثما قبلونا».

وعادت المجموعة الصغيرة أدراجها. واختلى يسوع في خيمته، ولم يرد أن يستقبل أحداً غير يهوذا. كان صامتاً، لكن يهوذا أحس بأن حضوره إلى جانبه يفيده. ثم أغفى الاثنان، الواحد بجانب الآخر. سمعا في أثناء الليل صوت يوحنا يسأل عن حال معلمه.

غادروا الناصرة كجيش مهزوم. كان الرجال يسيرون متثاقلين. وأحس يهوذا بأن قلب يسوع كان يملؤه الحزن. لكنه حاول مع ذلك أن يتحدث عن نجاح مهمته وعن أهمية ما أنجزه حتى الآن.

«كان لا يعرفك أحد قبل ستة أشهر.

ـ لكن لا يزال هناك كثير من العمل الواجب إنجازه ـ قال يسوع متنهداً.

ـ سننجزه، سننجزه ـ أجاب يهوذا.

ـ أتعلم ما لعلي افتقده أكثر من غيره؟ هذا يدعو للسخرية... قال يسوع ليهوذا وهما يسيران.

ـ ماذا؟

ـ لم أتمكن من رؤية مِقرأ الكنيس.

ـ ما هذا؟

ـ المقرأ. أنا الذي صنعت مقرأ الكنيس. كنت فتياً، في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر. كان هذا يمثل طلبية كبيرة، فأولاني أبي أمر تنفيذها وظل يشرف على عملي عن كثب. ثم بات يترك لي الحبل على الغارب أكثر فأكثر. بذلت في هذا العمل جهداً لم أبذله من أي عمل آخر، وحفرت حتى رسم ثعلب ورسم صقر على القوائم. كان هذا عملاً أخرق بلا ريب، لكنني نفذته من كل قلبي. أنا متأكد اليوم من أنهم لا يتذكرون أنني أنا من أنجزه، وسيصلّون حوله بعد أن لعنوني...».

وتنهد، وتكلم بحسرة عن عدم رؤية البيت الذي ترعرع فيه مرة أخرى، وعن المشغل الذي كان في صباه ينقل إليه الألواح الواجب نشرها على ظهر حمار حرون، وعن الجدران التي سوّدها الدخان والتي كانت العائلة تتكيء فيما بينها لتناول الطعام... وأحس يهوذا بغصة، وهو الذي عرف مثل هذه الثروات المسكينة وتخلى عنها هو أيضاً.

وعادت حياتهم كما كانت قبل رحيل يهوذا، فعاد هذا ينظم التنقلات: كان يمضي وينبيء القرى بمجيء المعلم، ويتحقق مما إذا كان يمكنه أن يتكلم في ساحة أو على هضبة، ويحاول العثور على أنزال وخانات حين كان التعب يضطرهم إلى ذلك. كان يتحقق من المؤن، ويعهد إلى أشد الرجال بأساً بحماية يسوع.

كان لا بد في بعض الأحيان من اللجوء إلى القتال. ذلك أن أقوال يسوع حول الأضاحي، وأسلوبه في تقديم مبادئه على الشريعة، والـ «أنا» التي كان يستعملها لجعل الله يتكلم، كانت كثيراً ما تثير الغضب، وكان بعض رجال الدين في القرى يعبئون رعيتهم لاستقباله. وقد لاذوا بالفرار مرتين تحت القذف بالحجارة. وأصيب أندراوس ويعقوب بجراح، وساعد الحظ يعقوب فلم يفقد عينه حين أصابه حجر فشق قوس حاجبه. فأمسك تلميذان، شقيقان كرّامان من طبريا، بالمحرض وأشبعاه ضرباً ثم

ألقيا به إلى أصحابه مترنحاً، وفي إحدى الليالي، اجتذبت رشاقة يوحنا الفاتنة رجلاً يونانياً كان يشاطرهم الطعام فراح يتودد إليه بكثير من الإلحاح. ولم يستطع يوحنا الافلات من مخالبه إلا عندما صرخ بصوت عال جداً حينما اقترب الرجل من المكان الذي ينام فيه. ونال اليوناني قسطه من سوء المعاملة على يد رفاق يوحنا. وقبح يسوع ردة الفعل هذه.

«ماذا عنيت بقولك: «أدِر خدك الآخر؟» ـ سأله الفتى الذي كان يخشى أن يظن يسوع أنه شجع على ذاك التصرف المبالغ فيه.

«عنيت بذلك: عاملني كندّ لك. . .

ـ بقبولك الضربات؟

ـ ليس أي ضربات. كيف تضرب أنت؟

ـ كما أقدر، بأكبر قوة ممكنة».

ضحك يسوع.

«أنت تضرب رقيقاً براحة اليد، وتضرب شخصاً تروم إذلاله بيدك اليمنى. أنا أدير الخد الآخر لكي يضربني الآخر كندّ للند. وبعد ذلك، نكون كلانا كائنين فاضلين، ويمكننا من ثم أن نتبادل الضرب».

وابتسم بخبث.

«وسترى أنه بعد تلك اللحظة سيقل الضرب كثيراً. . .».

وتكاثر عدد الأتباع، ولاحظ يهوذا باستياء أن بين هؤلاء من النساء سوسن زوجة شوزا، القيّم على خزانة هيرودس. وكان هناك أيضاً حالات ارتداد، إذ أن يسوع كان يبدو قاسياً ولا يسعى إلى كسب تأييد كل الناس: رفض انضمام ابن عائلة برجوازية من أريحا كان على استعداد للسير وراءه دون أن يتخلى عن كل ذويه، كما رفض آخر كان يتمنى قبل المجيء أن يتمكن من دفن أبيه، ورفض ثالثاً كان يرغب فقط في توديع ذويه. . . وكان آخرون يغادرون بسبب خيبة أملهم إذ أنهم لم يجدوا ما كانوا يبحثون عنه في هذا السعي المضني وتلك الحكم

الغامضة التي تصاحبه. أما يسوع، فكان أكثر فأكثر توقداً، وألقاً. كان يواصل تنديده بالاحتلال الروماني، وتبشيره بمجيء الله إلى الأرض، غير أنه كان يسترسل أكثر فأكثر في ضرب الأمثال الملتبسة، الغريبة حتى على أذني يهوذا.

وأخذ الرجال الإثنا عشر الذين أرسلوا في مهمات يعودون الواحد تلو الآخر. وظهر فيليبوس علناً حتى مع امرأة صادفها في الطريق. واضطر يسوع أن يناقش الأمر معه طويلاً حتى أدرك أن هذه المساكنة لا تأتلف مع رسالته، وأن الأولى به أن يتخلى عنها. فأذعن فيليبوس، ورحلت الامرأة.

كان بطرس وتداوس آخر العائدين. كان الاثنا عشر رسولاً يعودون بالاجمال بأخبار طيبة. وإذا كانوا بعض الأحيان قد اصطدموا بالفريسيين المحليين، كما جرى ليعقوب وأندراوس، فإنهم كانوا يستقبلون بالترحاب في معظم القرى. وحتى وإن كانوا لا يحوزون موهبة يسوع الخطابية، فإن شهرته قد ساعدتهم على النجاح. واعترف بطرس بأنه لم يكن يفهم دائماً ما يقوله هو نفسه، وأنه كان يحس بأن شيئاً يحمله. فهل كان يحاول بقوله هذا الإيحاء بأنه تحت التأثير ذاته الذي يخضع له يسوع؟ اعتقد يهوذا بأن هذا صحيح ولم يقدر أن يكبت ابتسامة. كان طردهم للشياطين قد أثار حميتهم، فراحوا يتسابقون بشكل صبياني على طرد الشياطين، ما اضطر رئيسهم إلى التدخل وإيقاف هذه اللعبة.

كان الجميع قد أحسوا بتعاطف متعاظم مع قضيتهم. فاللقاء، الذي كان مضطرباً في قيصرية، مركز إقامة الوالي الروماني، كان جيداً في كل من أريماتي، وجوبيه، وعسقلان. وأكد برتلماس حتى أنهم، في حال توتر الوضع، يستطيعون أن يجدوا فيها أنصاراً لا يكتفون بالاصغاء الى الكلمة الطيبة، ما أثلج صدر يهوذا. ومما كان يزيد من قيمة هذا الخبر أنه آت من عسقلان التي كانت ذات أكثرية وثنية. فهل إن الصعوبات

ستنشأ أخيراً من جليل البدايات، كما أثبتت الناصرة بشكل حزين، وكما كان يبدو أن مقاومة نعيم وكفرناحوم تثبته؟

كان بعض الرسل يأملون أن يرحلوا مجدداً ليواصلوا مهمتهم. ولاحظ يهوذا أن طموحات أخذت تولد. فنظر إليهم جميعاً، متسائلاً عما إذا كان بينهم أحد قادر على أن يعترض خططه. وخلص إلى الاعتقاد بأن لا، غير أنه اعتبر أن من الأولى به مع ذلك أن يحتفظ بموقف دفاعي.

كان يبدو أن يسوع لا يزال متأثراً بالاستقبال الذي جرى له في الناصرة. وقد فشل يومذاك في شفاء بنت صغيرة. كان لهذه البنت ساق ملتوية. فبدأ يلصق بها أعشاباً، ثم حاول تقويمها، فلم ينجح إلا في جعل البنت تصرخ من الألم. وعند المحاولة الثالثة، تدخل والدها وانتزعها من بين يديه، ونعته بالمشعوذ. وانصرفوا من هناك تحت وابل من الشتائم والإهانات.

«ماذا أصابك؟ ـ سأله بطرس بعد أن توقفوا عن السير.

ـ أنا لست تاجراً أبيع المعجزات كما يبيع آخرون الخبز، كما سبق أن قلت لكم. فيما بعد، ستحكون عن أعمال الشفاء التي قمت بها وتنسون إخفاقاتي لأنكم تريدون الاقناع. لكنني أكرر لك القول يا بطرس، مع علمي بأنك لن تأخذه بعين الاعتبار: ليس لأعمال الشفاء التي أحققها من معنى إلا لكونها لا تنجح كل مرة. إنها صلة بين الله وبضعة مختارين، تتكون لأن المريض آمن بها.

ـ لكن ما ذنب كل أولئك الناس الذين يتألمون وأنت لا تقدر أن تفعل شيئاً لهم؟

ـ لا ذنب لهم. لكنني لا أقدر أن أعطي بدون الايمان. الايمان وحده ينقذ».

كان يهوذا لا يفهم جيداً لماذا يثابر يسوع على محاولة شفاء صعاليك مساكين لا فائدة منهم لشيء ولا لأحد. والأمر كذلك حينما يضع في مقدمة خطبه الفقراء والبؤساء. فمتى سعى الفقراء والبؤساء إلى فعل أي

شيء لأجل تغيير حالهم؟ ومتى كان لهم تأثير في تقرير مصير البلاد؟ إنهم لا يصلحون إلا للأنين، ومدّ اليد، والزحف بين النفايات للعثور على شيء يأكلونه.

* * *

قرر يسوع أن يثابر على الدوران حول بحيرة طبريا، محاولاً تعميق الأثلام التي سبق له أن حفرها. وأخذ التعب يزداد ظهوراً داخل المجموعة الصغيرة، التي كان عليها أن تقود جماهير أكثر فأكثر ضخامة، وكان أعضاؤها ينامون قليلاً ويقطعون مسافات طويلة في غالب الأحيان. وكان التذمر أحياناً يعكر مزاج المجموعة، وإن كانوا جميعاً مدركين لكيفية تسامي يسوع على رداءة أحوالهم.

عقدوا العزم في ذلك اليوم، بسبب التعب، على اجتياز البحيرة في مركب بدلاً من الدوران حولها على القدمين. كان النهار قد ابتدأ سيئاً. فقد حصلت حادثة منذ الصباح بينهم وبين رجل كان يتبعهم منذ عدة أيام ورفض الاستمرار لأن يسوع لم يغسل يديه حسب مقتضى الشريعة قبل أن يتناول الطعام. وبعد ذلك، جاء نبطي غاضب يصيح بأنه سيضرب «النبي». كان الرجل زوج كنعانية، وكانت هذه قد سمعت بمعجزة الخمر فأرادت أن تتبعهم، وقد جاء زوجها ليأخذها وهو على يقين من أن يسوع قد أغواها. ولم يتمكن التلاميذ من تهدئته إلا عندما أقنعوه بأن من الأجدى له، بعد أن تلوث شرف امرأته على أي حال، أن لا يضيف فضيحة إلى فضيحة، وأن يجد له امرأة أخرى. واقتنع الرجل أخيراً، خصوصاً بعد أن أعطاه يهوذا بضعة شواكل كي يدفع أجرة عودته إلى بيته.

مضى بطرس إذن ليستأجر زوارق. كان يجب أن يشرح للجمهور أنه لا يمكنه أن يرافقهم، ما أثار تأوهات كثيرة. ولم يكد يعلم بعضهم بأنه

لا يمكنهم أن يصحبوا المعلم في الزورق حتى هرولوا على القدمين نحو الضفة الأخرى، حيث كان سينزل يسوع.

استغرق عبور البحيرة وقتاً أطول من المتوقع، لأن الريح كانت ضعيفة، الأمر الذي استدعى استعمال مجذافين كبيرين للوصول إلى الضفة الأخرى. وجدوا عند وصولهم عدداً كبيراً من المؤمنين ينتظرونهم. حاول يهوذا أن يحصي عدد هؤلاء فوجد أنه يتجاوز عدة مئات وربما بلغ الألف. لم يسبق أن سار وراء يسوع عدد غفير من الناس كهذا.

قفز المبشر الى الضفة، وأتبعه يهوذا سريعاً بعشرة من التلاميذ ليحيطوا به ويهدئوا المستمعين. وراح يسوع يتكلم وهو يمشي حتى بلغ كثيباً يقع وراء الشاطىء الرملي، فصعد إليه، وعندما هيمن على المعجبين به، أخذ يتكلم بصوت أعلى. تكلم طويلاً ولم يقاطعه بالكاد سوى بضع ملاحظات وضحكات ساخرة من جانب شلة من الفتيان سرعان ما أسكتهم الكبار.

وعند قدوم الليل، كان هناك منذ ساعة أناس يجمعون حطباً ويحفرون حفراً صغيرة في الرمل. وقد بات من الصعب أكثر فأكثر على الرسل أن يؤمنوا استتباب النظام. فكان بعض من المتحمسين يهتفون باسم يسوع، وكان آخرون يتقدمون نحو الصفوف الأمامية ويحاولون لمسه. وكان يسود مرح هادىء.

وبعد قليل. أشعلت النيران، فكانت أشبه بسلسلة من الثغرات بين الجماهير. توقف يسوع عن الكلام. ولم يعد يسمع سوى زفير الحطب المحترق، وساد المكان سكون كان يبدو بلا نهاية.

«يا معلم، أعتقد أنهم جائعون، لكن ليس لدينا سوى خمسة أرغفة وسمكتين. أقرب قرية تبعد من هنا مسافة ساعة من المشي، والتجار المتجولون النادرون لن يكون لديهم ما يكفي. لعل الوقت قد حان لتفريقهم».

كان أندراوس وبرتلماوس قد وصلا إلى الصفوف الأمامية وهما يجمعان أسئلة يريد بعضهم طرحها على يسوع ويجمعان بعض الهبات.

«أعطوهم طعاماً ـ أجاب يسوع.

ـ لم تفهم ما قلت: ليس لدينا شيء.

ـ إسأل يهوذا كم عنده في كيس المال».

كان يسوع يتكلم بتؤدة، وقد اجتاحته موجة من الفتور.

«يا معلم ـ ألح يهوذا الذي جاء يدعم رفيقيه ـ الناس في الصفوف الأمامية يطلبون طعاماً، وأظن أنهم كذلك في الصفوف الخلفية.

ـ كم عندك من المال؟

ـ ليس الكثير. أربعون ديناراً تقريباً. إنهم اليوم أكثر إصغاءً منهم سخاءً.

ـ يلزمنا مئتا دينار على الأقل، هتف برتلماوس. وحتى لو توفر هذا المبلغ، فأين سنجد شيئاً نشتريه؟

ـ أعطهم خبزنا وسمكنا.

ـ هذا لا يكفينا نحن حتى...

ـ أعطهم، قلت لك».

وقعد يسوع، وتلاميذه من حوله، وراح يقطع الأرغفة وينتزع بضع فلذات من السمك. ثم تطلع إلى الجمهور، ورفع قطعة من الغذاء نحوه وأعطاها إلى التلميذ الذي بجانبه.

حينئذ وقف في الصف الأمامي رجل، وفتح كيسه، وأخرج منه تيناً وجبناً وراح يوزعها على من حوله. وفي مكان آخر، فتحت امرأة ثوبها وأخرجت رغيفاً سميكاً وأخذت توزع منه حولها قبل أن تأخذ منه شيئاً لنفسها. وطوى تاجر بسطته، التي كانت كناية عن بضع أوراق كان يعرض عليها حوالى عشر سمكات، وجاء يوزع هذه السمكات فيما حوله. وشيئاً فشيئاً، راح ينهض من بين كل الصفوف أناس ويفتحون أكياسهم، وجاء بائعون يعرضون ما لديهم. وفي مؤخرة الحشد، حيث

كان يصعب على الناس أن يبصروا جيداً ما يجري، أخذت تسمع صيحات تهتف بحصول حدث خارق. وبلغت هذه الصيحات أذني يهوذا فالتفت نحو يسوع مبتسماً.

«هاك معجزة جديدة. . .

ـ أليسوا على حق؟ لقد جاؤوا إلى هنا وهم منطوون على أنفسهم، أنانيون، وكان بعضهم لا يسعى إلا الى كسب قليل من المال، وها هم الآن مستعدون للمشاركة، لإعطاء ما كانوا ينوون أن يبيعوه. سأكون سعيداً إذا استطعت أن اجترح معجزة كهذه كل يوم».

لدى وصولهم إلى مجدلى، علموا بأن ساحراً يونانياً غادر المدينة لتوه. اقترب منهم رجل.

«اليوناني شفى بنتاً صغيرة. لا تدع غريباً يصنع معجزات أكثر منك. أنت اليهودي.

ـ ما معنى معجزة اجترحها يوناني؟ ـ صاح به توما وهو يتقدم صوبه. ألا تعلم أن لا قيمة لمعجزة ما لم تؤكد التوراة؟».

تراجع الرجل أمام غضب الرسول.

«لكن البنت الصغيرة. . .

ـ إخرس، قلت لك. وحافظ على إيمانك بالله، بدلاً من أن تستسلم للخداع».

لم يتحرك يسوع. كان تعباً وطلب من يهوذا أن يهتم بإيجاد ملجأ لتمضية الليل.

«حاول أن تجد شيئاً مريحاً. أشعر هذه الليلة بأنني في حاجة الى النوم».

عندما رحلوا في اليوم التالي، ناداه رجل آخر.

«أنت يا من تشفي من تختارهم، لماذا لا تجعل المطر ينزل وينقذ محاصيلنا؟ أنظر، لقد احترق كل شيء، ولن يكون عندنا ما نأكل هذا الشتاء».

ابتسم يسوع ابتسامة حزينة.

«أنا لا أتحكم بالعناصر، يا رجل. لكن أبي سيسهر عليك».

مضى الرجل وهو يدمدم أن الكلام سهل. وتطلع يهوذا إلى يسوع وكأنه ينتظر منه تفسيراً لهذا العجز، فلم يحصل إلا على تلك النظرة التي تحدق فيما وراء العالم والناس الذين يكرههم.

«سينهض مسحاء مزيفون وأنبياء مزيفون ويأتون إشارات وأعمالاً خارقة لكي يضللوا حتى المختارين، إذا أمكن» ـ قال هذا لتلاميذه فيما بعد.

كان انزعاج يسوع من المعجزات يتزايد. ويوم نجح في شفاء بنت صغيرة من سعال شديد كان ينتابها حتى تبصق قليلاً من الدم بعض الأحيان، أبعد عنه الجميع وأراد أن يختلي بنفسه في خيمته. ولم يتمكن من الدخول عليه، مجدداً، إلا يهوذا.

«ما في الأمر؟

ـ كل هذا يبدو لي باطلاً: الناس لم يعودوا يأتون للاستماع إلي، بل يأتون ليطلبوا الشفاء. الجماهير حمقاء، وينتابني شعور بأنني أضل الطريق.

ـ لكنك مع ذلك شفيت تلك البنت الصغيرة. . .

ـ وماذا يثبت هذا؟ حين نظفت عيني ذلك الضرير المزعوم حولت السذاجة هذا العمل البسيط الى معجزة. وحين شفيت المشلول أحسست بقوة في داخلي. النفس البشرية مشحونة بالأسرار والله وحده قادر أن يقرأ ما فيها. أنا لست سوى أداته. إذا كان هؤلاء الأشخاص قد عرفوا الشفاء، فذلك لأنهم آمنوا بأبي. لكن لا شيء يقول إن ذاك المشلول الذي شفي سيدخل الملكوت إن لم يكن قد شفي في قلبه أيضاً. وهذا أمر لا يعرفه إلا هو وحده.

ـ إنه يمشي، وهذا شيء كثير.

ـ لكن هل سيمشي إلى جانبي؟ المعجزة الحقيقية هي تحوله. الله

يحبك ويحترمك حزاً. إنه يرسل إليك إشارات. لكن لا تتوقع أدلة. معجزاتي لا وجود لها لولا كلمته. إنه يريد أن أنقلها، لا أن أسحق الناس تحت سلطانه.

ـ لماذا إذن لا تضرب ضربة كبيرة، وتبعث الرعب في قلوب أعدائنا؟

ـ سبق أن عرض علي إبليس في الصحراء أن أستغل هذا السلطان المعطى لي من الله. لكن هذا من شأنه أن يهين الانسان بعدم إعطائه حرية الاختيار حتى النهاية. وآمنوا، حتى ولو لم تفهموا».

بات يطلق الآن على الاثني عشر رجلاً الذين انتقاهم يسوع اسم رسل. وإن رسالتهم، التي كانوا ينقلون أخبارها إلى يسوع بصورة موضوعية نسبياً، كانت تتخذ طابعاً ملحمياً متزايداً. والذي كان يتباهى بأعماله أكثر من غيره كان بطرس. إذ أن يسوع كان قد اختاره واختار له لقبه الذي كان يحمله معه كيفما توجه، كما كان التلاميذ العاديون يطلقون عليهم هذه الصفة التي يطالبون بها لأنفسهم أيضاً.

هذا مع أنهم كانوا يلاقون صعوبة في فهم أقوال معلمهم (وأحياناً أكثر من مستمعيه الذين كانوا في الغالب يفهمون جيداً التشابيه الرمزية التي تستعير صوراً من حياتهم اليومية: الحصاد، المطر، الأجور الزهيدة...»)، لكن لا يجرؤون على الافصاح عن عدم الفهم هذا حذر فقدان الموقع الذي اكتسبوه. وكانت تنشأ بينهم توترات من جراء هذه الطموحات، وقد أنبهم يسوع بعنف عدة مرات على تفكيرهم المحدود.

«أنا آتيكم بهواء جديد وأنتم لا تعرفون سوى طرح بدعكم وعاداتكم في وجهي...».

لذلك كان يحاول أن يحدد رسالته. وجاء في ذلك اليوم أيضاً مئات الناس ليستمعوا اليه. كان يسوع قد أخذ يتكلم وهو في قاربه. كانت عبارته المفضلة «الحق أقول لكم»، التي كانت أحياناً تزعج تلاميذه، تحظى باستحسان الجماهير، وكذلك إشاراته البسيطة، وحضوره

المطمئن، وكان هذا ما يأسف يهوذا لعدم امتلاكه، كلما تذكر جولاته الليلية مع نتنائيل.

«هل زرعتم جميعاً، قبل الآن أو رأيتم أحداً يزرع؟ ـ قال لهم في ذلك اليوم.

وانفجر الجمهور ضاحكاً وكان يضم صيادين وفلاحين.

«عندما تبذرون الحبوب، يقع بعضها على الطريق فتأكله الطيور. ويسقط بعض آخر في تربة صخرية، فينبت بسرعة كبيرة، وتكون له جذور قليلة، فييبس لأنه لا يستطيع أن يتحمل حرارة الشمس.

ـ أنت، على الأقل، تحدثنا عما نعرفه ـ صاح به أحدهم وأيده الآخرون بصراخ شديد.

ـ وتسقط حبوب أخرى بين الأشواك، فتموت. لكن بعضاً منها يسقط في تربة صالحة، فينبت ويعطي حبوباً».

كان الجمهور ينتظر الخاتمة. وفجأة صاح بهم يسوع:

«إفهموا إن استطعتم».

فتبادل برتلماوس وفيليبوس النظرات.

«سترى. إنه لن يشرح لهم... لماذا يتركهم هكذا ضائعين؟».

وبالفعل، انتقل يسوع إلى موضوع آخر، وسرت بين الجمهور همهمة استياء.

عند العشية اعترف برتلماوس بأنه لم يفهم.

«لم أفهم مغزى قصة الزرع والحصاد. لماذا لا تتكلم بوضوح أكثر؟

ـ لأنكم، أنتم يا من اخترتكم، يحق لكم أن تفهموا ملكوت السماوات. أما الآخرون فلا يحق لهم ذلك. لذا أكلمهم بواسطة صور لأنهم ينظرون ولا يبصرون.

ـ لكن ما الفائدة من كلام لا يفهمه أحد؟ ـ قال يهوذا.

ـ من يسمع كلمة الله ويرفضها هو كالحبة التي تسقط على حافة الطريق. والحبة التي تسقط على تربة حجرية تأتي بالفرح إلى من

يسمعها، لكنها لا تستقر فيه ولا تؤول إلى شيء غير تلك اللحظة. معظم الذين يستمعون إلي هم هكذا. والذي يتلقى الحبة بين الأشواك هو ذاك الذي تخنق فيه قساوة الحياة كل هم آخر. وهؤلاء أيضاً هم كثيرون جداً وهم الذين من واجبنا أن ننقذهم. أخيراً، إن الذي يتلقى الكلمة ويفهمها هو الحبة التي تسقط في تربة صالحة. إنه أنتم، كما آمل».

وصمت لحظة ثم قال:

«لا، أنا واثق من ذلك».

كان وجود النساء حولهم يثير فضيحة أكثر فأكثر. فقد كن حاضرات، يسرن وراءهم، وبعضهن مغرمات بوضوح، وأخريات أكثر تحفظاً، ولكنهن كن يعاملن على قدم المساواة مع الرجال. كان هذا الاختلاط يثير نقمة الكنائس حيث يوجد فصل بين الجنسين. وقد تعرض يعقوب يوماً للزجر عندما حاول أن يقنع يسوع بإبعادهن عنه لأنه كان لا يُعرف من منهن كن نجسات ومن كن طاهرات.

«أتريد أن أكلف واحداً منكم بالتثبت من ذلك؟» ـ سأله مغتاظاً.

وحينما دعا يسوع لأول مرة واحدة منهن إلى تناول الطعام معهم، حتج بطرس على ذلك بدوره.

«لكن، يا معلم، النساء تأكل بعد الرجال...

ـ ألم تمش هذه الامرأة طول النهار مثلك؟

ـ بلى، ولكن...

ـ أوَلم تستمع لكلمتي وتختر أن تتبعني، مثلك؟

ـ بالتأكيد، لكن.

ـ إذن دعها تنعم بالمكافأة كما عانت من التعب.

وقعد بطرس متذمراً.

«كيف يمكن أن يبقين في محلهن إذا نحن أوهمناهن بأن كل شيء مباح لهن؟ ـ قال هذا مغمغماً.

ـ يا بطرس!.. ـ رد عليه يسوع.

ـ نعم، يا معلم، أَسمع، أَسمع».

ولم يعد العملاق ينبس ببنت شفة حتى الانتهاء من تناول الطعام.

كان يبدو أحياناً أن بطرس يسعى إلى البحث عند يهوذا عن أجوبة يصعب عليه الحصول عليها بنفسه، وذلك بالرغم من عدم تقرب هذا الأخير منه، فباح له يوماً بارتباكه.

«لا أفهم جيداً ما يريد يسوع. فقد قال لنا منذ البداية إنه لم يأتِ لكي ينقض التوراة بل لكي يكملها. هذا جيد. لكن لماذا يرفض أن يقول إنه المسيح؟ وإذا لم يكن المسيح، لماذا يقول غالباً «أنا»؟ قال لنا بالأمس: «لا تضعوا النبيذ الجديد في قِرب عتيقة. ما معنى هذا الكلام؟ هل يعني عدم احترام التوراة؟ ومن سنتبع في هذه الحال؟ هو؟ هو ومعجزاته، هذه التي لا يريدنا أن نتكلم عنها؟

ـ هذا كلام حق ـ تدخل أندراوس الذي كان يصغي. يقول إنه لا يريد أن يحذف حرفاً من التوراة، ويضرب بالسبت عرض الحائط.

ـ لست أدري، يا بطرس. لكنني متأكد من أن لديه خططاً أخرى، وهي خطط سنفهمها متى شاء لنا أن نفهمها».

وابتسم يهوذا بخبث. وذلك أولاً لأنه كان يبغي الظهور بمظهر من يعرف من الأمور أكثر من الجميع، في مواجهة هؤلاء الجليليين القليلي الفطنة، وثانياً، لأنه كان يعلم أن يسوع سيمضي في آخر الأمر إلى حيث يريد هو يهوذا أن يسوقه.

في مساءِ اليوم التالي، اضطروا إلى الدخول في شجار عنيف. ذلك أن يسوع لم يكن في أحسن حالاته: بسبب التعب دون شك، وربما نضوب القريحة. كانت ألفاظه أقل غنى من المعتاد، وانطلق في تشبيه رمزي بدا أنه لم يعد يعرف هو نفسه، بعد لحظة، إلى أين سيقوده. ولم يشفِ أحداً. وعاد المستمعون أدراجهم خائبين.

«أشعر في بعض الأيام بأن لا شيء ينزل علي. آمل أن لا يكون هذا خطيراً».

وضع يهوذا يده على ساعده.

«بالتأكيد لا. كلنا يمر بلحظات صعود ولحظات هبوط. وحتى متى كنت في لحظة ضعف، فإن رسالتك تمر. أنظر، لقد انصرف اليوم شخصان أو ثلاثة وهم في حالة اضطراب. وإذا كنت من قبل قد قمت بحصاد وفير فهذا لا يبرر استهانتك بهذه السنابل القليلة.

ـ أنت على حق».

كانت لحظات الشك عند يسوع متواترة وقصيرة في آن.

«هذا لا يعني أنني راغب في تمضية الليل هنا. ما قولك لو ذهبنا إلى عين طبقة؟ هل تظن أن الجميع متعبون؟

ـ أعتقد أن هذا ممكن، فنحن لم نتحرك كثيراً اليوم.

لم يعترض أحد غير برتلماوس الذي كان في قدمه جرح يزعجه.

كانت تنتصب خارج القرية كتلتان حجريتان تتناثران على طول الطريق، وفجأة خرج من ورائهما عشرة رجال وفي إيديهم عصي.

«هذا أنت أيها الغاصب!».

كان المتكلم رجلاً طويل القامة، قذراً جداً، نصف عار، ويكسو جسده شعر كثيف.

«من أنتم أيها الاخوان، وما تريدون؟ ـ أجاب يسوع.

ـ تتجاسر وتدعونا إخواناً، أنت أيها الخائن والسارق!

ـ سارق ماذا؟ ماذا أخذت منك؟

ـ تقول إنك المسيح. المسيح هو يوحنا ـ قال آخر.

ـ وموته لا يخولك أن تحل محله ـ صاح ثالث.

ـ يوحنا نفسه عينني ـ رد يسوع ـ وأنا لم أقل قط إنني المسيح.

ـ من أنت إذن؟ ـ عاد الأول فسأل.

ـ نحن أكثر عدداً منهم، فلنهجم عليهم ـ أخذ يصرخ يهوذا.

ـ إهدأ ـ أجابه يسوع ـ فلنتباحث...

ـ لا يوجد أمر نتباحث به» ـ أجاب الرجل.

وفجأة تعرف الرجال على يعقوب وأندراوس اللذين كانا معهم إلى جانب يوحنا المعمدان.

«وأنتما، أيها الخائنان اللذان تخليتما عنه لتسيرا وراء أي رجل آخر. يا لكما من مارقين، جاحدين!».

وسقط حجر كاد يصيب أندراوس. وتلبية لصيحة، انقض تلاميذ يوحنا على جماعة يسوع.

كان الاشتباك قصيراً ولكن في منتهى العنف. وقد تبودلت فيه الضربات بالقبضات، وبالأقدام، وبالحجارة. لكن رجال يسوع كانوا أكثر عدداً. وحتى هو لم يتردد في الدفاع عن نفسه.

أمضوا الليل في تضميد جراحهم. وفقد بطرس اثنتين من أسنانه. وأصيب فيليبوس بجرح في رأسه نزف كثيراً. أما الآخرون فقد أصيبوا بكدمات. كان بطرس ويعقوب أشدهم قساوة، وكان ابن زبدى لا يزال يقبض على خصلة كثيفة من الشعر.

كان الجميع لا يتحدثون إلا عن الثأر والانتقام، فاضطر يسوع أن يهدىء هياجهم.

«القتال ليس الحل أبداً. أتباع يوحنا مخطئون في تقدير نواياي. لكنهم إلى جانبنا. لا يجوز لنا أن ننقسم هكذا. الله وراءنا جميعاً».

وناموا حيث جرى الاشتباك، كما نظموا نوبات حراسة. وقام برتلماس بالنوبة الأولى متذمراً.

استدعى يسوع يهوذا في اليوم التالي:

«هل رأيت ما جرى البارحة؟

ـ نعم، أرأيت أنت أيضاً أننا انتصرنا؟

كان في لهجة يهوذا فرحة مصارع.

«هذا لا يهمني. أنا لا أسعى إلى الغلبة، وخصوصاً بالقبضة.

ـ حتى الغلبة على الذين يهاجموننا؟

ـ هؤلاء يبشرون بالكلمة التي نبشر بها نحن. ألا توجد وسيلة لعدم الاقتتال على الدوام؟

ـ تريد أن تقول للاتحاد ضد عدو مشترك؟

ـ لا، أريد أن أقول للعيش في سلام دون اضطرار لمعارضة الآخرين، لمعاداتهم، لدوسهم بالأقدام ـ أجاب يسوع وقد ضاق ذرعاً بعدم فهم يهوذا. أنا لا أريد أن أكون منافس يوحنا. لا أريد أن نصبح مثل كلبين يتقاسمان لقب نبي في المنطقة.

ـ لكنه عيّنك.

ـ تلاميذه لم يفهموا الأمر على هذا النحو، وهناك نضالات أخرى يجب خوضها ضد غيرهم. لن أبقى هنا.

ـ وكل ما فعلناه حتى الآن؟

ـ على أي حال، كنت أفكر في الأمر منذ وقت طويل. فإنه حيث ينتظرني أبي، أنا واثق من هذا، هناك يجب أن يتقرر مصيري».

وظهر الألم على قسماته مجدداً.

«سنمضي إلى اليهودية. سنسير إلى أورشليم. ستكون المهمة قاسية. إلا أنني أشعر الآن بأننا على جانب من القوة. أورشليم هي مركز الديانة اليهودية. وليس يمكن كسب المعركة أو خسارتها إلا هناك. فإلى هناك يجب أن نمضي الآن».

ارتعد يهوذا. أورشليم... العودة إليها، هكذا فجأة؛ إن كل ما كان يحلم به ويخشاه معاً بدأ يتحقق. أورشليم... الهجوم مباشرة على الهيكل، وبواسطته على الرومان، أن يتمكن أخيراً من دفع يسوع إلى خوض المعركة الحقيقية، وذلك بعد أكثر بقليل من سنة على الاتصال به... لم يعد يعرف ما يقول، وأحسّ بضيق في صدره كما لو أنه يجد صعوبة في التنفس.

الفصل العشرون

على أنه لم يشعر قط من قبل بأنه بات قريباً من القطيعة أكثر مما كان ساعة بلوغه هذا الهدف الذي طالما انتظره. عند وصولهم الى مشارف اليهودية لحقت بهم مجموعة تتألف من ثلاثة جنود من الرومان. فاقترب يهوذا من يسوع ويده على سلاحه. وجمع بطرس الباقين وراءه، ووجد الجنود أمامهم مجموعة متأهبة للقتال.

«هل أنت ذاك الشفّاء الذي يتحدث عنه الناس؟

ـ لست شفّاءً، أنا أنطق بكلمة الله.

ـ هل أنت يشوع؟

ـ لا يشوع، بل يسوع.

ـ لا فرق. سيدي يريد أن يراك. وهو على مسافة بضع غلوات من هنا. فاتبعنا.

ـ لا تتبعهم ـ قال يهوذا ـ هذا فخ. سنقاتل حتى آخر واحد منا كي لا ندعك تذهب.

ـ أتعلم أيها اليهودي الصغير أنك لن تصمد خمس دقائق أمام أي فرد منا؟

انتفض يهوذا عند سماعه الإهانة.. فأمسك يسوع بذراعه وأعاده إلى الوراء.

«سأرافقك أيها الروماني. لكن دعك من هذه اللهجة المهينة لي. أنت لست على أرضك هنا؛ لا تنس هذا. ولن أرافقك إلا بصحبة رفاقي.

ـ أسرعوا إذن».

بعد أن مشوا مسيرة ربع ساعة، وصلوا إلى أمام مخيم يضم ثلاث خيام.

«هل وجدتموه؟

كان قائد المئة الذي هرول يتعرق من شدة القلق.

«هل هذا هو؟»

كان يبدو على وشك أن يفقد رشده.

«هذا هو»؟ هذا ذو الثياب الرثة؟ أنت متأكد من ذلك؟

ـ إنهم عشرة فقط ـ وشوش يهوذا في أذن يسوع ـ نستطيع أن نتغلب عليهم».

اقترب قائد المئة، وأشار إلى إحدى الخيام التي كانت تنبعث منها أنات خافتة.

«أنت الذي يصنع معجزات؟ إشف إبني. لا أعلم ما أصابه. فهو لم يعد يتنفس إلا بصعوبة منذ يومين. وحالته تتفاقم. ماذا يمكنك أن تفعل؟

ـ لست أدري. دعني أفحصه. حتى المعجزات تحتاج إلى شيء من الطب».

كان على وجه يسوع مسحة من العذوبة الساخرة، كما لو أنه كان يرى هموم قائد المئة من مكان عالٍ جداً. ولعل هذا ما أثار غضب الرجل فاستل سيفه.

«إني أحذرك، أيها اليهودي الشقي، فإنك إن لم تشفِ ابني ستموت معه، ومعك رجالك أيضاً».

لم يفهم يهوذا أبداً ما جرى بعد ذلك.

وضع قائد المئة سيفه على عنق يسوع، الذي ظل يبتسم، غير متأثر بقلك. ثم تراجع قليلاً، ودعك عينيه وسقط جاثياً، فسقط السيف عند قدميه.

«أنا لست أهلاً لتدخل خيمتي، يا سيد. قل كلمة واحدة وسيشفى ابني».

تبادل الجنود النظرات، مشدوهين.

«من أنت أيها الساحر اللعين؟» ـ صرخ قائد العشرة، وتظاهر بإطلاق حصانه.

وظل يسوع يبتسم.

«أنا متأثر بثقتك هذه. لكن يجب مع ذلك أن أرى ابنك».

ثم التفت إلى صحبه وقال لهم:

«أنظروا: حتى بين شعبنا، لم أصادف أناساً كثيرين يؤمنون كما يؤمن هذا الرجل. ليكن في ذلك عبرة لكم...

ـ عبرة لنا؟ هذا الروماني؟ هل جُننت؟

لم يكد يهوذا يزأر بهذه الكلمات حتى تقدم نحوه جنديان.

ودخل يسوع الخيمة، وجس نبض الصبي. وأصغى الى تنفسه، وبقي لحظة معه، ثم خرج.

«هل تؤمن بي أيها الروماني؟

ـ نعم يا سيد ـ أجاب قائد المئة.

ـ سيبقى ابنك حياً. سيحيا على هذه الأرض. أما أنت فستحيا بيننا».

أجهش قائد المئة بالبكاء. وجثا مجدداً، وراح يخلع بزته.

«أنا غير جدير بك يا سيد. دعني أتبعك، أشفق علي ودعني أتبعك».

وأنهضه يسوع:

«عد إلى بيتك، وافعل الخير. أنا أغفر لك. إنك قد لمحت النور، فامض وانشره فيما حولك».

لم ينبس أحد ببنت شفة على مدى عدة غلوات. وعند العشية؟ كان تناول الطعام كدراً وحزيناً. فقد ترك الحدث وقعه على الجميع، ولم يكن أحد مرتاحاً إليه. تجاهل يسوع كل هذه الترددات، ونام دون أن يقول كلمة واحدة.

كان يسوع يعلم أن يهوذا سيأتي ويسائله.

«أنت آت لتقول لي إنك غير موافق؟

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ من اليسير أحياناً رؤية ما يدور في خلدك...

ـ لماذا لا تقول لي شيئاً أنت بنفسك؟ هل تفضل تحمل غزل ذاك الحمار يوحنا..؟

ضحك يسوع. كان أحيانا يستمتع كطفل برؤية الحسد بين تلاميذه.

«أحب عند يوحنا تلك الطفولة التي لا نحوزها لا أنا ولا أنت. لكن أنت من أريد الاستماع إليه، يا رفيقي القديم. فماذا عندك؟

ـ عندي أنني مجدداً لا أرى الهدف الذي تسعى إليه. لماذا شفيت ذاك الروماني؟ كيف تستطيع أن تنسى بمثل هذه السهولة كل ما نعانيه منه ومن جماعته. إن أسوأ المتعاونين مع العدو أكثر تحفظاً منك. ومع ذلك، فإن خطبك لا لبس فيها...

ـ ماذا كنت تريدني أن أفعل؟ أن نحمل السلاح، ونقضي على ذاك الرجل وجنوده مخاطرين في الوقت ذاته بلقاء عدة رجال منا حتفهم؟ ومن أجل أية نتيجة؟ موت بضعة أشخاص آخرين...

ـ هذا هو السبيل الوحيد لطردهم. إن لم نقاتل...

ـ أتساءل أكثر فأكثر.

ـ عمّا تتساءل؟

ـ عما إذا كانت هذه هي الطريقة الصالحة. ماذا كنت جنيت لو أنك قتلت هذا الرجل؟ لكنت أغرقت زوجته وابنه في الحداد، ودمرت بيدقاً سيستبدل بآخر بعد أيام...

ـ إلا أنهم بعد ذلك سيعرفون أننا موجودون. وأننا يوماً ما لمنتصرون. وماذا جنيت أنت أكثر من هذا بشفائك ابنه؟ غداً سينسى الأمر، وسيكون أمامنا حينذاك عدوان: هو وابنه.

ـ كلا. لقد احببته. لا أدري إذا كان سيجثو غداً كما جثا اليوم. لكنني أحسست أن عنده بذرة ستعرف أن تنبت.

ـ أنت تقودنا إلى الكارثة بهذه السلبية. القوة هي الحجة الوحيدة التي ينحني أمامها كل شيء.

ـ المحبة سترسي أسس عالم أفضل. لا تظنن أن الانتصارات الوحيدة هي على هذه الأرض.

ـ أنت متقوقع في حلمك إلى حد لا ترى معه سوى المثل الأعلى، أين هي انتصاراتك؟

ـ فوق. بعد. لقد شاهد هذا الروماني الله، وعرفه، وبالتالي فإنه قد كسب موقعه في جواره. وهذا الموقع لا يحوزه كل اليهود.

ـ لماذا إذن قتلت أنا متعاونين؟

ـ لست واثقاً من أنك أحسنت صنعاً يا يهوذا. ربما كنت أريد لحظة ما أن أفعل مثلك يا يهوذا. إلا أنني منذ أن رحت أسير في جوار أبي، لم يعد كل هذا يبدو لي صالحاً. سأثابر على شفاء الرومان إذا كانوا بحاجة إلي، لأنهم بشر قبل أن يكونوا روماناً. ولن يمنعني هذا أيضاً من النضال في سبيل تحرير شعبي.

ـ أفضل الأخذ بالجزء الثاني من عبارتك. أما الجزء الأول فلست أفهمه يا يسوع. أنا فعلاً لا أفهمه. ولا أود أن أرى يوماً أنك تخون قضيتنا.

ـ ألفاظك تتجاوز أفكارك، كما آمل. إفتح نفسك للكلمة. أنا أحبك. أنشر هذا الحب بين كل من يحيط بك. دون استثناء. أشفق على الضالين، لكن أحبهم أيضاً... وسترى: إنك ستكسب أكثر بكثير مما يمكن أن تحلم به.

ـ ومن سيحل محلنا في التخلص من الرومان؟

ـ هل حقاً على هذه الأرض يجب التخلص من الرومان؟ أليس من واجبك أولاً أن تتخلص من الرومان الذين هم في قلبك؟

لم تكن تمر إلا أيام قليلة لا يحصل فيها بين الإثني عشر رسولاً شجار يدور دائماً حول الشعور بأن أحدهم يريد أن يستأثر باهتمام يسوع. كان أشدهم نزقاً يوحنا، هذا الذي كانت حساسيته الفتية تبدو مستغربة لدى رجال لقنتهم الحياة دروساً قاسية. وفي أحد الأيام، اتهم

يوحنا يهوذا باختلاس مال من الصندوق. وسرعان ما انطلقت قبضة يهوذا فجدعت أنف الشاب الذي سقط على الأرض وهو يصيح من الألم. وعلم يسوع بالحادثة وسببها فطلب من يوحنا أن يعتذر عن سوء ظنه. وجدد ثقته بيهوذا، واقتدت به المجموعة كلها.

«لكن لماذا اخترت أن تظهر نفسك أولاً لهذه الزمرة من الأميين؟ ـ سأل يهوذا متذمراً.

ـ لا تكن ظالماً يا يهوذا. كان هؤلاء سذّجاً وها هم الآن يتحولون إلى مؤمنين».

كان توسع المجموعة أيضاً يثير مشكلة. فإن الذين كانوا قد تخلوا عن كل شيء كي يتبعوا يسوع كانوا يشعرون بالغيرة أمام العطف السريع الذي كان يحيط به المنضمين الجدد، هؤلاء الذين كانوا، في نظرهم، لا يفعلون شيئاً غير اللحاق بالنجاح. وفي أحد الأيام، دنا رجل مريض من المخيم ونادى فيليبوس قائلاً له: «قل لسيدك إنني أنتظر أن يشفيني». فاستدار نحو فيليبوس وردّ عليه ـ بغطرسة قائلاً:

«أتعلم أنك تخاطب واحداً من الاثني عشر؟

فاضطر يسوع إلى تذكيره بمزيد من التواضع.

«إلى متى سأتحملكم؟ ـ قال لهم حينذاك.

كان يبدو عليه أحياناً أنه يختنق بينهم، وبات يميل أكثر فأكثر الى التنحي ليصلي بمفرده.

كان يسوع يفضل القرى على المدن: كان يشعر بارتياح أكثر في القرى. فالحشود هنا كانت أقل عدداً، وكلماته كانت تصل إلى قلوب الناس بصورة مباشرة أكثر.

«أتعلم ـ باح يوماً ليهوذا ـ بأن من الصعب علي أن أدرك كيف ينظر الناس إلي. وأنت؟

ـ لست أدري. إسألهم».

«سمعت أيضاً أن أشياء لا تصدق تحكى عني. من يقال إنني؟»

وتداخل صوتاهما.

«إيليا.

ـ إرميا

ـ يوحنا المعمدان».

أسماء أنبياء طرحت في التداول. ابتسم يسوع.

«كل هذا معاً؟».

حينذاك نهض بطرس وكان في حالة اضطراب شديد. كانت يداه ترتجفان، ولون وجهه أحمر. فاقترب من يسوع، ولثم جلبابه وصاح:

«أنت المسيح، ابن الله الحي».

فنظر اليه يسوع وأضاءت وجهه فرحة لم يظهر عليه مثلها قط من قبل. وأنهض بطرس وعانقه طويلاً.

أخذ الباقون يتساءلون عما يجري. وسرت بينهم تمتمات تنم عن الغيرة.

«رؤيتك صائبة يا بطرس. لكن ما رأيته لم تره أنت، بل إن أبي هو الذي قاله لك».

والتفت يسوع صوب المجموعة.

«إسمعوني جميعاً. إن بطرس قال من أنا، لأن أبي اعتبر أن الوقت حان لكي تعرفوا ذلك. لكن ما صرتم تعرفونه الآن لا يمكن أن يقال بعد لجميع الناس. فلا تتكلموا عنه أمام أحد».

فوافق الجميع. لكن الحادثة كدرت بقية النهار، ما عدا يسوع وبطرس اللذين ظلا يتبادلان نظرات الزهو بنفسيهما، الأمر الذي أثار حنق الآخرين.

وفي الليل علمهم يسوع صلاة جديدة تبتدىء بـ: «أبانا الذي في السموات...»، وقد حفظها يوحنا منذ أن سمعها مرة واحدة فقط.

لم يفهم يهوذا آخر تصريح أدلى به يسوع، وكان يشعر بقلق غامض.

«من هو هذا الله الذي تقول إنك ابنه؟ ـ سأل يسوع. الله واحد. لا

وجه له. ولا يمكن حتى رسمه. وها أنت تقول إنه أبوك وأنك تمثله على الأرض. فكيف ذلك؟ هل على نحو ما أمثلك أنا حين أتكلم باسمك؟

ـ لا. إنه يتجسد فيّ.

ـ هذا يفوق التصور حتى. كيف تستطيع أن تدعي ذلك؟

ـ لا أدعي شيئاً يا يهوذا. أنا أعرف هذه المرة: أنا ابن الله. هذا ليس من قبيل التباهي، لأنني أشك في أنه سيعود عليّ بشيء جيد. لكنه هكذا، وأنا أقبل به. إفعل مثلي. بطرس فهم من أنا، وكان الأول من ذلك. ويلوح لي أحياناً أنه كان قد فهم ذلك قبلي. عنده الايمان، يا يهوذا، وهذا يخلصه كما يخلص كل الذين يتبعوني. كما أنه سيخلصك أنت أيضاً، أنا واثق من ذلك. لكنني أفهم شكوكك. الشك والايمان هما في الحقيقة شيء واحد: التساؤل ليس خطيئة».

لم يجب هذا الرد على أسئلة يهوذا.

«وإلى أين سيقودك هذا؟

ـ لست أدري. قدري يدفعني صوب أورشليم. وهناك، سيكون الله مرافقاً لنا».

كانت المومسات تختلط أكثر فأكثر مع السائرين وراء يسوع والرسل، وكن يجدن بينهم بعض الزبائن. وفي إحدى الأمسيات حتى، بعد أن انتشرت قوارير نبيذ بين الحاضرين، ذهب يهوذا وسمعان برفقة اثنتين منهن. وعرفت المجموعة الصغيرة كلها بالأمر. فظهر الغيظ فجأة على وجه يوحنا وذهب وأخبر يسوع بالأمر، فرد يسوع عليه بابتسامة تنم عن الخيبة. لكن هذه الابتسامة آلمت يهوذا، الذي شدد متبجحاً على أن حياته الخاصة لا تعني أحداً سواه، لكنه لم يكرر فعلته بعد ذلك.

في ذلك اليوم، توجهت إليه إحدى النساء. كان عطشاناً وقد توقف قرب بئر ينتظر أن يأتيه الساقي بسطل الماء.

«كنت أتساءل عما إذا كنت هو».

كانت الامرأة تبتسم، فعرف يهوذا مريم المجدلية.

«ماذا تفعلين هنا؟ أنتِ... أنت تشتغلين؟»

وحاول إخفاء اضطرابه بضحكة مصطنعة.

«كنت أريد أن أراك.

ـ أنا؟ بعد كل تلك السنين؟

وكذب، وهو ما زال مضطرباً

«لقد عرفتك في الحال. أنت ما زلت جميلة...

ـ رغم هذا؟».

وأشارت إلى الخيوط الفضية التي ترصع شعرها.

«رغم هذا، نعم... لقد احتفظتِ بتلك... تلك الهالة، بذلك الذي... لا أعرف ما أقول، لكنك ما زلتِ كما كنت.

ضحكت مريم بارتياح.

«أشكرك. وأنت من جهتك ما زلت رجلاً لبقاً. هيا بنا نقعد هنا، فأنا أحس بالتعب. أنا أمشي منذ ثلاثة أيام.

ـ من أين جئت؟

ـ من أرشيلاوس.

ـ ألم تعودي في أورشليم؟

ـ لا. كنت قد أدخرت بعض المال. وفتحت بالاشتراك مع مارسيوس، وهو جندي روماني كان من خيرة زبائني، حانة في سيشيم. غريب هذا الأمر، كم أن النفسيات مختلفة، ولم نكن حاذقين في الأعمال. كما أن مارسيوس لم يكن شريفاً جداً على الدوام، فاضطررت أن أعود إلى العمل على حسابي. لكنني شخت أنا أيضاً».

وتوقفت عن الكلام.

«أنت ما زلت تحسن الإصغاء، وهذا جيد» ـ قالت بصوت خافت.

فنظر إليها يهوذا.

«لقد سئمت ـ عادت تقول ـ أولئك الرجال الذين يعبرون، وتلك

المبادلات التي لم تكن مبادلات... حتى الشعور بأنني كنت أفعل الخير فيما حولي لم يعد يكفيني. ومضيت يوماً في زيارة إلى صديقة لي في طريشه، وقد جاء إليها يسوعك.

ـ متى كان ذلك؟

ـ منذ شهرين أو ثلاثة... يوم أنقذ تلك الامرأة.

كان توما، الذي شهد الحادثة، قد أخبر يهوذا عنها، لكن هذا كان تعباً فغفا قبل أن يبلغ الخاتمة.

كانت امرأة مليحة، زوجة إسكافي. وقد أغرمت بعامل زراعي يوناني فقير يتسكع في القرية منذ بدء موسم الحصاد. وارتاب الزوج بالأمر، فاقتفى ومعه أصحابه أثرهما وضبطوهما بالجرم المشهود. فضربوا اليوناني حتى الموت وجاؤوا بالامرأة الى الساحة العامة لكي يعرّوها ويرجموها. كان جسدها في حالة يرثى لها، هزيلاً، أزرق، ومن الغريب أن يكون قد أغرى رجلاً... كان يسوعك هناك، وكان قد وصل بالأمس. فوقف في وجه الرجال، رغم صراخهم. كان يبدو بمفرده أقوى منهم. وراح يتكلم، وقال أشياء خارقة: إننا جميعاً مذنبون أمام الله بالقدر ذاته، وأن الأصاغر يساوون الأكابر، وأنها هي، الامرأة الزانية، وأنا، وهم، الفلاحين البسطاء، جميعاً متساوون في نظر الله، وأنه ليس من حق أحد أن يدين غيره ما لم يكن هو ذاته كلي الطهارة. قال كل هذا دون أن ينظر الى الامرأة وكأنه يرفض أن يزيد من عارها. هدأهم جميعاً بصوته. فطرحوا الحجارة. واستعاد الزوج امرأته. ولم يأخذ عليه تساهله سوى بضعة رجال لم يشهدوا ما حدث. غير أن أحداً لم يجارِهم...».

وتوقفت تحت تأثير الانفعال.

وبعد ذلك ـ سأل يهوذا بهدوء.

ـ بعد ذلك حاولت أن أعرف حقاً من هو. وعلمت في أحد الأيام أن معه رجلاً يدعى يهوذا وقد جاء من خورازيم، فأدركت فوراً أنه

أنت. فمضيت أبحث عنكما، ووصلت الأسبوع الفائت. وأنا استمع إليه منذ وصولي. وقررت أن آتي اليوم لأراك.

ـ أنت إذن لا تأتين لرؤيتي إلا لكي تقتربي منه؟».

كان في صوت يهوذا نبرة تنم عن خيبة لم يسع إلى إخفائها.

«أود أن أؤمن» ـ قالت.

وحلّقت عبارتها بينهما.

«أنا أعلم، منذ أن استمعت إليه أنه ليس عندي شيء أهم من رؤيته مجدداً. فإذا ما كان لي قيمة ما عندك، عرفني عليه».

هذا الكلام العاطفي الفجائي لم يكن مألوفاً عند مريم، وكان مربكاً ليهوذا.

«أجل، بالتأكيد، سأفعل ذلك. لكن، إعلمي، إنه رجل كسائر الرجال».

حين نطق يهوذا بهذه العبارة كان يعلم إلى أي حد هي وليدة الغيرة.

«تعالي، سأعرفك عليه. لا بد أنه يستريح في هذه الساعة. لكنه سيستقبلك بصورة استثنائية».

كان في الوقت ذاته فخوراً بإظهار علاقته الحميمة بيسوع.

سارت مريم وراءه نحو الملجأ حيث كان المبشر متمدداً.

«يسوع؟» نادى يهوذا.

فاستدار. ومع أنه كان مرهقاً، وعيناه محاطتين بالزرقة، وشعره وسخاً، وقبحه شديد البروز، فإن الطيبة المنبعثة من ملامحه كانت كاملة غير منقوصة.

«نعم؟

ـ كيف حالك؟

ـ لا بأس. أنا تعب قليلاً، لكن هذا سيزول. كانت الأيام الأخيرة قاسية، والطقس شديد الحر في هذه الليالي...».

كان يهوذا يعلم أن الصعود إلى أورشليم يثير قلقاً كبيراً في نفس يسوع، خصوصاً بعد أن تعرف بطرس عليه.

«أقعد.

ـ جئت مع... صديقة قديمة. إنها تريد أن تقابلك. فسمحت لنفسي بـ...

ـ حسناً فعلت. أصدقاؤك هم بالضرورة أصدقائي. أقعدا».

ظلت مريم عند باب الملجأ واقفة، بخجل.

«أدخلي أيتها الامرأة الشابة، أدخلي. أنت هنا في بيتك.

ـ تقول شابة، يا سيد... إنك تغالي في إطرائي... أو أن بصرك يخدعك.

ـ كل امرأة تتوق إلى تبديل حياتها هي امرأة شابة حتماً. أوَليس هذا ما جاء بك إلي؟»

وذهل يهوذا مجدداً أمام السهولة التي بها أنشأ يسوع جواً حميماً دفعة واحدة.

«من أنت

ـ امرأة ساقطة.

ـ لا توجد حياة ساقطة غير تلك التي لا تعرف محبة الآخرين. هل أحببتِ؟

ـ جعلت الحب حتى مهنة لي.

ـ أنا لا أقصد الحب بهذا المعنى.

ـ فهمت، أعذرني. حاولت. ونجحت أحياناً، وأخفقت أحياناً. لقد أحببت، نعم. لكن ليس على الدوام ولا جميع الناس.

ـ لا يزال عليك إذن أن تتقدمي. لكنك على الطريق الصحيح».

كان هذا الاتصال الأول حاسماً بالنسبة إلى المومس السابقة. وعرفت في الحال أن السير على خطى هذا الرجل سيكون هدفها الوحيد.

وضمها يسوع في الحال إلى مجموعة الأقربين إليه، وكان قد رفض أن يفعل ذلك لأمه وأختيه. لم يمر الأمر دون إحداث اضطراب. وكان بطرس في أحد الأيام الناطق بلسان الرسل في هذا الموضوع.

ـ كيف يمكن أن تسمح بأن تقترب منك امرأة إلى هذا الحد، لا سيما وأنها مومس سابقة؟

ـ هل تستطيع أن تقسم على أنك لم تذهب يوماً إلى عند مومس، يا بطرس؟

وبدا الصياد مرتبكاً.

ـ قد يكون حصل ذلك معي مرة أو اثنتين. لكن هذا غير ذاك.

ـ ولماذا هذا غير ذاك؟

ـ لأن...».

كان يتلعثم وهو شديد الارتباك.

«دعني أقول لك لماذا هذا غير ذاك ـ قال يسوع ـ لأن مريم أحبت منذ وصولها إلى هنا. فهل أحببت أنت أولئك النساء اللواتي زرتهن؟».

وبدا شيء من الاحباط على وجه يسوع.

«ها أنت خصوصاً لا تفهم مرة أخرى شيئاً مما أحاول أن أقوله لكم. عندما أرى كيف يصعب عليكم، أنتم الأقربون إلي، أن تفهموني وأن تحيوا كما كنت أتمنى، أعود فأسأل نفسي عما إذا كان من الوهم أن آمل بإقناع أناس لا تجمعني بهم سوى المصادفة.

وبدا بطرس متكدراً جداً.

«لقد تخلينا عن كل شيء وتبعناك. أنا تخليت عن زوجتي. وأعيش الآن عيشة بؤس. لقد مشيت ساعات في الطرق، وتعرضت للإهانة وأحياناً للرشق بالحجارة، وأنت تقول إنني لا أفعل شيئاً مما تريد.

ـ أقول إنك تبقى على سطح الأمور، نظير كثيرين منكم. أنتم تقهرون أجسادكم، وتظنون أنكم بذلك أخضعتم نفوسكم. لكن ما إن يأتي فقير أو بائس حتى تعود ميولكم السيئة تسيطر عليكم. مريم سعت سعيكم إلا أنها عرفت أن تحب. إن ملكوت أبي وُجد لأجل هؤلاء: للصغار، للمساكين، لمن ظلمهم الحب وعرفوا أن يجدوا هذه القوة في ذاتهم.

ـ أنت تكره الرومان...

ـ لا، أنا أكره الاحتلال والعنف الذي يعاملون به أبي. أنت ما زلت تخلط كل شيء يا بطرس».

أحس بطرس برغبة في الغضب، لكنه ما كان يجرؤ على ذلك: كانت نظرة واحدة من يسوع تكفي لجعله يفقد كل قدراته. فنهض ورحل وهو يدمدم متذمراً وكانت عين معلمه المتسامحة ترافقه دون أن يدري، لم يحمله هذا على محبة مريم، لكنه قبلها ما دام أنه كان قد قبل كل الغرائب التي كان يفرضها عليه يسوع.

كان من الطبيعي أن تبدأ التقوّلات. فوجود مومس على هذه الدرجة من القرب إلى المعلم كان يثير الضحك الساخر. وقد أبديت ملاحظات عدائية أو ساخرة أثارت جواً من الاضطراب حتى في الاجتماعات العامة. واستعادت مريم بصورة عفوية دالّتها السابقة مع الرجال، فكانت تلمسهم، وتستند إليهم متى كانت تعبة، وتلقمهم طعاماً بعد أن تكون قد ذاقته، وتضحك كثيراً دون أن تهتم بأسنانها التي نخرها السوس فباتت تسوّد ابتسامة طالما كانت حريصة عليها. كانت ملابسها الفخمة في الغالب تصدم الآخرين. وكانت تكحل عينيها دائماً. كان كثير من النساء اللواتي يتبعن يسوع فقيرات، وعرفن أن يفدن من هذا الفقر، إلى جانبها. وكان بعضهن يشدن بحسنات العوز، فيتنافسن في القذارة، فكان الاقتراب منهن يتطلب شجاعة ما كان يبدو أنها تعوز المعلم.

«كيف تجرؤين على الظهور أمامه بلباس الخاطئة هذا؟ ـ انتهرتها امرأة يوماً.

ـ لأنني جئت مرتدية إياه. وهل تظنين أن مظهرك هذا الذي هو أشبه بمظهر جثة كئيبة وقذرة هو أكثر أهلية لتكريمه؟

كان يسوع يدعهم يقولون ما يريدون.

حتى يهوذا حمل عليها مرة، وكانت قد جاءت بقارورة من الطيب وسكبته على قدمي يسوع. كانت رائحة الطيب قوية جداً وسرعان ما انتشرت في الغرفة التي كانوا فيها. كان هذا الطيب مستخرجاً من نسغ

طحلب أسمر ينبت في تجاويف الصخور، وكان يهوذا يعلم ما يتطلب صنعه من تعب وحمية لأنه كان قد رأى أمه تقوم بقطافه. كان يجب سحق أكثر من مئتي ليبره من هذا الطحلب للحصول على لتر واحد من العطر. وهذا العمل، هذا النتاج الفاخر الذي بذلت نساء جهوداً مضنية لصنعه، هو الذي سكبته مريم على قدمي ذاك الذي يقول إنه مع الفقراء؟ واغتاظ يهوذا بحمق واضعاً ثمن الطيب في لمقام الأول، فلامه يسوع على بخله. فاشتد غيظه وسكب على الأرض ما كان قد بقي في القارورة من عطر. فأخذت مريم تبكي في صمت.

في صباح ذات يوم كان يهوذا قد استيقظ باكراً فرأى مريم تخرج من الملجأ الذي كان يرتاح فيه يسوع، ثم رأى المعلم نفسه يخرج منه.

«أتظن أن عليّ أن أعرف كل ملذاتكم المسكينة؟ ـ قال يسوع متوجهاً إلى يهوذا.

كان هذا سؤالاً، ولم يعرف يهوذا كيف يجيب عنه.

كان يلوح ليهوذا، منذ عدة أيام، أن رجلاً يقتفي أثر المجموعة. كان يرى ظله خلف الأشجار عندما يسيرون، ورآه مرة يندس في الجمهور عندما يتوقف يسوع ليتكلم. لم تبدر من الرجل أية إشارة عداء، غير أنه من جهة أخرى، لم يجرؤ على الاختلاط بهم، ولا على التكلم مع النبي.

أراد يهوذا أن يعرف حقيقة الأمر، فانسل في إحدى الليالي من المخيم، بعد أن نام الجميع، وراح يمشي بصمت حتى التف وراء التلة الصغيرة التي كان الرجال يحتمون بها من الريح، فرأى العسّاس الذي كان ينتظر.

وثب عليه بكل ثقله وجمده على الأرض. لكنه لم يشعر تحته إلا بجسد يستسلم. وأضاء نور القمر وجه الرجل.

كان ذاك الروماني الذي شفا يسوع ابنه.

«ماذا تفعل هنا؟ ـ صاح به يهوذا.

كان الرجل لا يرتدي بزة عسكرية ولا يحمل أي شيء يُستدَل به على أمثاله.

«هل تحيك أي شيء؟ عاد يسأله يهوذا، مع علمه بأنه ليس في الأمر شيء من هذا.

ـ لا. كنت أريد أن أراه. لكنني لم أتجاسر على الاقتراب منه.

ـ ألا تكتفي؟ أنت تنكل بشعبه منذ سنين، وقد أعاد الحياة إلى ابنك. فماذا تريد بعد؟

ـ صحيح. لكنني لم أعد أفهم. قال لي: «أنا أغفر لك».

ـ لست الوحيد الذي يقول له هذا ـ رد عليه يهوذا بلهجة شريرة. إنه يغفر لكل الذين يسيئون إليه. هذه واحدة من نزواته. هذا لا يعجب كثيراً أولئك الذين عليهم أن يثأروا، غير أنه يعجب كثيراً أولئك الذين يخافون عاقبة أفعالهم. ألست من هؤلاء؟

ـ أنت تخطىء بقولك هذا. الأمر أسوأ من القصاص. لقد أسقط في يدي. إن غفرانه يسحقني. أنا أكرهكم، أنتم اليهود؛ لقد جثوت أمام واحد منكم لأنني كنت يائساً. وقد أدى لي هذا أعظم خدمة يمكن أن يؤديها إنسان لآخر، ولم يلمني، بالمقابل، على الأذى الذي ألحقته به. هذا ليس طبيعياً، ليس إنسانياً. إنه لم يمحُ حتى هذا الأذى بغفرانه. لا، كان يمكن أن يكون الأمر في غاية البساطة... إنه لا يزال هنا؛ لكنني لم أعد أتجاسر على النظر إليه كما في السابق. إن هذا قد حطمني. هذا الغفران سلاح رهيب، رهيب».

وسقط جاثياً على الأرض، وضائعاً في ذاته، ولم يعد ينتبه لحضور يهوذا.

«عندما تتوفر لي الشجاعة للنظر إليه وجهاً لوجه، سأتي وألتحق بكم. أما الآن، فدعني أبقى في ظلكم».

ابتعد يهوذا وهو لا يدري ما يمكن أن يقول، مغتاظاً من كون حقده قد تدنى.

تبعثرت مجموعتهم حين صاروا على مقربة من أورشليم. فقد استسلم كثير منهم لليأس من رؤية ذلك الملكوت الذي طالما وُعدوا به. وكانت قساوة الطبيعة في اليهودية اكتشافاً موجعاً لأولئك الذين لم يخرجوا قط من الجليل الأخضر، كما أن سلوك يسوع، الذي كان مشغول البال أكثر فأكثر، كان لا يشجعهم. كان خطابه يزداد قساوة. وكان يتوقع أن يكون عدد المختارين قليلاً، وكان يلعن الأغنياء، ويؤكد أن الذين ليسوا معه هم ضده.

«لا تظنوا أنني جئت حاملاً السلام على الأرض ـ هتف ذات يوم ـ لقد جئت حاملاً سيفاً، جئت أفصل الابن عن أبيه، والابنة عن أمها، والأخ عن أخته...».

أما الرسل، الذين كانوا قد قدموا هذه التضحية، فكانوا ينظرون بشيء من الخيلاء، إلى الذين لم يفعلوا مثلهم في الجمهور.

وجاءت مرة امرأة عاقر تطلب إليه أن يعيد إليها خصبها، فقال: «إبكين على أنفسكن وعلى أولادكن يا بنات أورشليم، لأن أياماً ستأتي ويقال فيها: ما أسعد النساء العاقرات، والأرحام التي لم تلد، والأثداء التي لم تُرضع». فإذا كان قد أمل أن يغري الامرأة هكذا لأنه عجز عن شفائها، فإنه قد فشل: مضت الامرأة يائسة.

كما أن هذه القساوة غير المألوفة، التي لم تكن لتنفر يهوذا، ذكرته بيوم لعن فيه يسوع مدينتين أساءتا استقباله، وهما بيت سعيد وخورازيم مسقط رأس يهوذا. صاح يسوع ذلك اليوم قائلاً: «الويل لك يا بيت سعيد، الويل لك يا خورازيم. سيكون الغضب عليكما يوم الدينونة أشد مما كان على صور وصيدا». كان يرغي ويزبد، وحاول يهوذا أن يهدئه، لكن يسوع أبعده، وظل مسترسلاً في التوبيخ: «و«أنت يا كفرناحوم، سيدفع بك حتى إلى الجحيم. حتى سدوم ستحظى بمراعاة أكثر منك». وظل هكذا ينذر بالويل والثبور. حتى المساء، ثم استعاد هدوءه

وعذوبته. وجاء ثلاثة من التابعين يلومونه على هذا الفيض من الكراهية ويخبرونه برحيلهم. فلم يرد عليهم، لكنه قال ليهوذا: «إني بدافع الحب أيضاً أوقد هذه النيران».

كانت كل الأخبار الآتية من أورشليم تثبت أن جواً من التوتر الشديد يسود فيها. فإن بيلاطس، الذي كان يدعمه الحظي سيجان وسياسة القساوة التي كان هذا يفرضها على الامبراطور تيبيريوس، قد ضاعفت الاستفزازات، وكان اليهود موضوع احتقار متعاظم. وحصلت حادثة رهيبة: على أثر قيام حركة عصيان عنيف قرب الهيكل، كان هناك جليليون يقدمون أضاحي، فقتلوا واختلط دمهم بدم أضاحيهم.

تكاثرت الاتصالات حينذاك بين باراباس ويهوذا. وكان سمعان قد ذهب مرتين إلى المدينة وعاد بأخبار مشجعة. كان القائد المسن يقول إن أورشليم على قاب قوسين من الانتفاضة. كانت قد نقلت أسلحة في أكياس وفي قِرب من مخابىء في حزيون جابر، وخُبئت في حدائق فريسيين متعاطفين: إذا كان يسوع ذا فائدة فسيكون ذلك بعد قليل. وأبلغ يهوذا بالمقابل الرسالة القائلة بأن مجيئهم بات قريباً، في عيد الفصح دون شك، وأنهم جاهزون.

أما الرومان، الذين تحسسوا ذلك الهياج، فأخذوا يزدادون قساوة، وقاموا ببضعة اعتقالات جديدة زعزعت الحركة في بعض الأماكن. لكن عدد رجال الشرطة في المدينة كان لا يتجاوز الخمسماية رجل، وكان الأربعة آلاف مومس، من شابات وشبان، قد بدأوا يتوافدون على المدينة مع اقتراب عيد الفصح. وقرر يهوذا من جهته أن يمضي بضعة أيام في أورشليم لأجل إعداد مجيء يسوع. وقد أحس عند وصوله إليها توتراً شاملاً، مع أنه وصلها في وقت يسبغ فيه السبت عليها شكل مدينة ميتة. كان كل حديث ينم عن حالة من السخط المتعاظم. وكان بيلاطس قد دخل المدينة يوم أمس من باب السمك على رأس ثلاثماية فارس من

الأدوميين، وكانت هذه مواكبة ضخمة تنذر بشر مستطير. وقد بات صيته الآن كعلج فظ راسخاً بقوة. وكان يقول إن عدداً من الأشجار قد قطع لأجل صنع صلبان وهو عدد كبير إلى حد قد يفقد معه الناس حبة الزيتون.

الفصل الواحد والعشرون

عندما رجع يهوذا من أورشليم، كانت المجموعة في حالة هياج شديد. كان الجميع يشعرون بأنهم عشية حدث كبير. أخبر بطرس ويوحنا يهوذا بأنهما شاهدا يسوع يصعد إلى السماء، فهز هذا كتفيه لا سيما وأنهما الوحيدان اللذان شهدا هذه الظاهرة. كما أن يسوع كان في خطابه متشائماً للغاية، وأخبرهما بأنه سيموت قريباً. وكان بطرس لا يزال متأثراً بالخبر.

«نعتني بإبليس وطردني من أمامه لأنني لم أشأ أن أصدق ذلك.

ـ لكن عن أي موت يتكلم؟ هل هو مريض؟

ـ لست أدري. هذا ما قاله. وقال إن على ابن الانسان أن يتألم، وأن يدينه الأحبار، ثم يقتلوه.

ـ وأنه بعد ذلك سيعود ـ أضاف برتلماوس.

ـ قلت له إن هذا الكلام لا معنى له، وهنا غضب حقاً.

ـ إنه يغدو غريب الأطوار في هذه الأيام.

في هذه الأيام... استعاد يهوذا في مخيلته أحداث الأسابيع الأخيرة، ولم يتمالك نفسه، هو أيضاً، من الاعتراف بأنه حائر إزاء التوجهات الأخيرة التي ينحوها يسوع. فماذا بقي اليوم من بطل الكفاح ضد المحتل، الذي ظن أنه عثر عليه؟ إلى أين يقود هذا الفقر الذي يطلبه يسوع، إن لم يكن إلى الموت ذبحاً على يد أول عدو يأتي ويكون

أفضل تسلحاً؟ وما أهمية أولئك البائسين الذين كان لا يكف عن التحدث عنهم، فيما هو يستعدي ذوي السلطان، من فريسيين وصدوقيين، هؤلاء الذين سيكون من الواجب، بعد التحرير، تشكيل اتحادات معهم لن يكون على رأسها بالتأكيد متسولون أو مشوهون؟ وتلك الفكرة التي حدث به إلى قبول اعتراف بطرس به أيضاً على أنه المسيح؟ ناهيك عن المعجزات التي كان يفيد منها رومان أيضاً، وبغايا، وبرص، بينما كان من اليسير أن يضرب ضربة يبهر بها كبار الكهنة والوالي. كان في كل هذا إفراط في التنافر لا يسمح ليهوذا بالاستمرار في الشعور بالارتياح. ولو لم يكن قد اقترب بهذا القدر من الهدف لكان تساءل حتى عما إذا كانت المغامرة جديرة بالمتابعة.

وكان يسوع أيضاً يحس بقلق متزايد. فقد زال مزاجه المرح. وكان يؤنب الرسل، وينطق بكلام غير مفهوم أحياناً، ويتهرب من مقابلة الجماهير. وحين رجع إلى المجموعة، كان قد مضى عليه أسبوع دون أن يتكلم مع أحد غير الرسل.

«كيف الجو هناك؟ ـ جاء وسأله.

ـ متوتر، لكنه مؤات. أعداء بيلاطس يتكاثرون. ومجيئه إلى أورشليم لأجل الفصح يثير حنق الناس كثيراً. ويقال حتى إن هيرودس قد جاء بالضبط لأنه يخشى أن تحصل اضطرابات وأن تحصل بسبب حضورك. إنه يعتقد أنك شبح يوحنا المعمدان أو ما أشبه».

على أن يسوع كان يبدو مرتبكاً.

«أنت من حدثني عن الصعود إلى أورشليم منذ فترة ـ عاد فقال يهوذا. الحالة هناك لم تكن يوماً أفضل منها الآن، وهذا لن يتجدد عما قريب. يجب أن نكون هناك في الفصح.

ـ أعلم، يا يهوذا، أعلم. لكن ابن الانسان سيلاقي حتفه هناك.

ـ لماذا تقول هذا. هيا، وكن واثقاً.

ـ أنت لا تفهم. هذا مكتوب، ولا شيء يستطيع تغيير ما هو مكتوب».

آثر يهوذا أن لا يحفظ من كلام يسوع سوى موافقته على الذهاب إلى أورشليم.

«ما به؟ ـ سألت مريم يهوذا حينما سنحت لها فرصة الاختلاء به.

ـ إنه متشائم أكثر فأكثر. يقول إن أباه يريد أن يرسله ليموت. هذا مناف للعقل. كيف يمكن أن يفعل الله هذا؟ لكن مهما قلنا له ذلك وكررناه، فهو لا يفيد. إنه مقتنع.

ـ لقد طلب الله من ابراهيم أن يضحي بابنه.

ـ لكنه أمسك بيده... إسمعي، أنا لا أعرف شيئاً. كل ما أعرفه هو أنه يتألم وأن علينا أن لا نضيع المزيد من الوقت إن أردنا أن نكون في أورشليم قبل الفصح».

وصل النبأ إلى يهوذا حين كانوا يقتربون من أورشليم. كانت صفوف الحجاج الطويلة تمتد على طول الطريق. وكان على مكان مرتفع جنود من الرومان يسهرون على تحاشي التدافعات وفي الوقت ذاته على رصد محرضين معروفين. وبين الحين والآخر، كانت مجموعة من الناس، آتية من القرية إياها في الغالب، تردد أناشيد.

كان سمعان أول من شاهد الرسول الآتي للبحث عنهم.

«أنظر، هاك مناحيم».

«ماذا تفعل هنا؟ ـ سأله يهوذا ـ كان يجب أن تنتظرنا في أورشليم.

ـ لقد حصلت كارثة.

ـ كارثة؟ كيف ذلك؟

ـ كان يوم أمس حافلاً بالتوتر. أصيبت امرأتان بجراح في السوق على يد الرومان الذين اشتبهوا بأنهما تنقلان أسلحة. وجرت أيضاً عشرة وقوعات صلب وكان بين المصلوبين اثنان من قادة العصيان في المدينة،

وشبان يعرفهما باراباس جيداً. وفي الليل، قُتل قائد مئة. فانتشر الجنود في المدينة؛ وحصلت اشتباكات، واستعملت الأسلحة.

ـ و. . .

ـ استمر القتال حتى ساعة متأخرة من الليل. لكن رجالنا كانوا يتقهقرون شيئاً فشيئاً. لم يكونوا على المستوى المطلوب، وأنت تعرف الرومان. . . فلم يسلم منهم إلا حوالى عشرين مقاتلاً وجدوا أنفسهم بالقرب من برج سيلويه. لست أدري ما جرى هناك. لكن البرج انهار. . .

ـ إنهار؟ برج سيلويه؟ هذا مستحيل. إنه هناك منذ قرون.

ـ صدقني. يقال إن رجالنا كانوا قد لجأوا إليه فعمد الرومان إلى دكه من أساسه. هناك خمسة عشر قتيلاً على الأقل، وما زلنا ننبش قتلى من تحت الأنقاض.

ـ وباراباس؟

ـ قد يكون بين الموتى، أو ربما نجا. . .

ـ قلت له أن ينتظر، قلت له ذلك. . .

ـ إنه لم يصغ قط إلى أحد. لكن النقاش لم يعد في محله».

كان الغضب يستولي على يهوذا كلما استرسل مناحيم في الحديث.

ـ أين يكون النقاش إذن؟ ـ صاح غاضباً.

ـ إنه في إنقاذ ما يمكن إنقاذه. لم يبق في يدنا إلا ورقة واحدة.

ـ ما هي؟

ـ إنها مبشرك. إنه وحده قادر أن يحمل المشعل وأن ينجح حيث فشل باراباس.

ـ ولماذا يمكن أن ينجح يسوع؟

ـ لأن وراءه جماهير تؤمن بأنه المسيح. أنتم لأجل هذا ذهبتم للمجيء به. فاستعملوه الآن».

بدا يهوذا متردداً.

«هل في الأمر مشكلة؟

ـ إن فهمه يستعصي علينا أكثر فأكثر. لم أعد أعرف ما يريد. لم يقل قط إنه المسيح، لكنه موقن بأنه يتكلم باسم الله. ويدعي حتى أنه ابنه، ويجزم بأنه سائر إلى الموت...

ـ ألم يعد يريد المجيء الى المدينة؟

ـ بلى، بلى، مع أنه خائف جداً. لكن لكي يفعل ماذا فيها؟ إنه لا يبوح بشيء من هذا.

ـ إحمله على الدخول. وبعدها، لا بدّ له من التحرك. الجو لا يزال جو انتفاض. لا تزال توجد قوات، بعدد كاف. ولا تنتظر سوى قائد...

ـ بلا ريب...

ـ ألا تصدق؟

ـ بلى، بلى، نعم، أظن. إنه لم يتخلّ عنا قط. وهو لا يزال على قساوته السابقة ضد الاحتلال. غير أن ثمة لحظات يلوح لي فيها أنه يبحث عن شيء آخر، أنه يرى إلى أبعد، لست أدري جيداً. على أي حال، كيف سنتمكن من الدخول؟ الرومان غير راغبين بالتأكيد في ترك أنبياء يبشرون بالثورة يدخلون أورشليم.

ـ عن طريق بيت فاجا، لن تكون هناك أية صعوبة. يسوع من الجليل، وفي هذه القرية يعيش كثيرون من أبناء الجليل: سيرحبون به ويحمونه. لكن يجب أن يكون هذا الدخول طناناً وأن يتحدث عنه كل الناس. وبعد ذلك، سنخبئه. فالمدينة رحبة.

ـ حسناً. إمض وهيء دخوله».

عاد يهوذا إلى يسوع ونقل إليه الأخبار.

«زجوا بعشرات من رجالنا في السجن. سأنقذهم بهذا السيف ـ صاح وهو يستل سيفه من حزامه.

ـ ستكونون أحراراً متى عرفتم أن تحبوا» ـ أجابه يسوع.

هز يهوذا كتفيه ومضى، غاضباً.

فاق الوصول إلى أورشليم توقعات يهوذا وسمعان. فالتلال المحيطة بالمدينة كانت تغص بالحجاج المنتشرين بكل حرية، وكان بعضهم يصحب معه حيوانات للتضحية بها. كان هناك جنود يحاولون تجميعهم في أماكن محددة، لكنهم في الغالب كانوا يفشلون. كل النزول كانت ملأى، وتحولت الأسوار إلى خانات للقوافل.

دخلوا المدينة عن طريق بيت فاجا كما كان مقرراً. وهناك خطرت في بال يسوع فكرة أن يركب حماراً. فاحتج يهوذا على هذه الفكرة المثيرة للسخرية، لا سيما وأنه كان قد أبدى حرصاً خاصاً على إلباس النبي، بمساعدة من بطرس ومريم، جلباباً من الكتان الأبيض كانت المومس قد غسلته وعباءة من الصوف بيضاء أيضاً علقت عليها الشرّابات الزرقاء التقليدية.

«سأدخل كمنتصر وكأكثر الرسل تواضعاً في الوقت ذاته. هذا سيخاطب الناس على الفور» ـ قال يسوع مدافعاً عن فكرته.

فارتضى يهوذا الأمر. وأمر اثنين من التلاميذ بالبحث عن حمار. كانت تدور حول رأس يسوع نحلات اجتذبها العطر الذي سكبته مريم عليه.

كانت الجماهير تتكتل كلما اقتربوا من المدخل. وكان ينبعث من أولئك الرجال والنساء، الذين كان كثيرون منهم قد باتوا ليلتهم في العراء، رائحة دهن وبول.

كان اجتياز البوابة عسيراً مما اضطر بطرس أن يتدخل ليفتح الطريق. كان يسوع لا يعلم ما يجب فعله. كان غير قادر على الكلام بسبب شدة الضجيج ولا يجرؤ على اتخاذ موقف استفزازي. فظل على ظهر حماره، وأثار هذا حماسة جارفة كان وراءها بضعة شركاء لمناحيم.

كان كثير من الرجال يحملون أغصاناً صغيرة ويطرحونها تحت قوائم الحمار. وكان آخرون يصرخون. وكان هناك أولاد يضربون على طبول

أو ينفخون في قرون صغيرة. أما الحيوان المسكين الذي استولى عليه الهلع، فكان يرسل نهقات طويلة ولا يسير إلا تحت ضربات عصا يعقوب، الذي كان وراءه. وأراد حتى ثلاثة رجال أن يفرشوا بساطاً أمام قوائم الحمار، فأساؤوا التصرف فسقط البساط على رؤوس من كانوا أمامهم، وكاد ينشب شجار لو لم يسارع اثنان من الرسل إلى وضع البساط الثمين في المكان المقصود. فتوقف الحمار لكي يتغوط، ولم يستأنف المسير إلا بعد أن انتهى. كان يهوذا يصغي إلى ما يقال. لقد ابتدأت العملية جيداً: كان هناك ورع حقيقي وُلد في هذه الفوضى، إن لم يكن منها، ممزوج بشعور باقتراب التحرير.

بعد أن اجتازوا السور، الأمر الذي استغرق ساعة أو أكثر، أرادت الجماهير أن تواصل السير وراءهم. كان هناك ولد أضاع والديه فراح يصرخ، فربت يسوع على رأسه، دون أن يفهم ما كانت مأساته لشدة ما كان يبكي. وكان هناك كلاب شاردة تعوي حين تهددها ضربات الأقدام هنا وهناك. وأراد رجل أن يأتي يسوع ليطهر فراشه لأن أخته لمسته وهي حائضة. واضطر يهوذا أن يستعين بعدة حيل لكي يستدرج يسوع إلى المكان الذي ينوي أن يخبئه فيه دون أن يبوح له به. كان المكان في بيت عنيا، عند نجار يدعى غالب. فقد ظن يهوذا، بدافع من اللطف، أن وجوده في بيت حرفي مثله يمكن أن يساعده على التخلص من مزاج المبشر السوداوي.

أراد يسوع في اليوم التالي أن يذهب إلى الهيكل. وقرر حوالى ثلاثين شخصاً أن يرافقوه. كان يسوع قوي العزيمة بنوع خاص. فتكلم عن الكفاح الواجب خوضه، وعن طرد الرومان، وعن الرسالة التي عهد بها أبوه إليه، وبدا لأول مرة أنه يجمع بين هذه الأمور.

وصلت المجموعة إلى الساحة الخارجية آتية من باب كوبونيوس. كانت الأشغال قد عُلّقت بمناسبة الفصح، وكان هناك أكوام من المرمر وتيجان أعمدة بوشر نحتها. كان هديل الحمام يضيع في خوار البقر

وجلبة الحجاج الذين كانوا يساومون ويصرفون نقودهم اليهودية المصنوعة من البرونز بنقود رومانية، أو يونانية، أو فينيقية. وكان على المرء أن يتحاشى الدوس في بقع الدم المتجمد أحياناً والمتأتي من الحيوانات المضحى بها. كانت تنتشر في المكان رائحة ثقيلة تنبعث من دهن محترق. وكانت حرارة الشمس قوية إلى حد جعل امرأة يونانية تسقط بعد أن أصيبت بضربة شمس. حاول اثنان من حراس الهيكل أن يرفعاها عن الأرض، لكنها كانت ثقيلة جداً، فراحا يبحثان بعيونهما عن عون من الجمهور الذي ظل غير مبال.

فجأة، انقض يسوع على طاولة للصيرفة وقلبها صائحاً:

«بيت أبي لم يُصنع لأجل التجارة».

فنظر إليه الصراف مذهولاً. ورأى يهوذا بسرعة كيف يستطيع استغلال الوضع.

«أسرعوا، أحموه» ـ صاح بالمحيطين بيسوع.

وسرعان ما تجمع الرجال حول رئيسهم، الذي ثارت ثائرته فقلب طاولة ثانية.

«لقد جعلتم من بيت أبي مغارة للّصوص» ـ أضاف يسوع. وأمسك بقفص للحمام وطرحه أرضاً فخرجت الحمامات التي كانت فيه، وراحت ترفرف بخجل فوق المكان، نظراً لعدم إعتيادها على الحرية.

وانتشرت الفوضى. وأراد أحد التاجرين أن يهاجم يسوع فردعه أحد رفاقه. وانطلقت أول كلمة. وراحت المجموعة بكاملها تقلب الطاولات، وتحدث ضجيجاً كان يصعب على يسوع أن يغطيه بصوته:

«أخرجوا من بيت أبي، أخرجوا جميعاً».

كان أحد الرسل قد انتزع من أحد التجار سوطه وأعطاه ليسوع، فاستعمله يسوع في تحطيم بعض البسطات الهشة. وسمع الأنصار الضجيج فراحوا يتكتلون. ولما رأوا أن قطعاً من النقود الذهبية تسقط عن الطاولات وتتدحرج على الأرض هرولوا واختلط الحابل بالنابل.

ورأت الشرطة من فوق الهيكل هذه الفوضى وتأهبت للنزول.

كان يهوذا يرصد الأمر من طرف خفي، فلاحظ وصولها.

«يجب أن نتراجع» ـ قال لبرتلماوس.

كان حولهم فضوليون يعلقون على الحادثة، معتقدين أنها جاءت نتيجة شجار تسبب به حاج كان يريد شراء حيوان ليضحي به وقد هاله الثمن الباهظ الذي كان يطلبه التجار داخل الحرم الشريف وخارجه.

كان رجال الشرطة يشقون طريقهم بصعوبة. ففي غضون بضع دقائق تحول حقل الصيرفة إلى ساحة عراك. كان عدد رجال الحرس لا يتجاوز العشرة. وكانوا كلما فصلوا بين اثنين يروح اثنان آخران يتعاركان. وتلقى أحدهم ضربة فاغتاظ وهجم على المجموعة.

كان يسوع قد انتصب مجدداً وراح يندد بالكهنة والتجار. وبين دقيقة وأخرى. كان الناس يقبلون عليه ويهتفون باسمه، لأنهم عرفوه، فأمسك به يهوذا.

«تعال، يجب أن نرحل، وإلا سيلقى القبض عليك، هيا، تعال».

والتفت نحو الجمهور:

«أوقفوا الجنود. نحن راحلون».

ووصل الجنود الرومان لينجدوا الشرطة، لكنهم لم يفلحوا في اختراق صفوف الحجاج. وجُرد اثنان منهم من سلاحهما. وكانت معجزة إذ أن الدم لم يسل إلا من بضع جباه جريحة.

وصل يسوع وجماعته سريعاً إلى الخارج. وانتابهم ضحك متواصل فيما كانوا يولون الأدبار في الأزقة مصطدمين بالمارة. ومن حسن طالعهم أنهم لم يصادفوا أية دورية، وتمكنوا من العودة إلى البيت. ارتمى يهوذا بين ذراعي يسوع.

«هل رأيت. لقد نجحنا! سار الجميع وراءنا. ستكون المدينة لنا متى شئنا. غداً، أو بعد غد، سيكون علينا أن نعمل. لنا أصدقاء في كل

مكان، والجمهور جاهز. آه، يا يسوع... كنت أعلم أننا سننجح. لقد جاءت آخرة القهر».

لم يكن يهوذا يوماً سعيداً إلى هذا الحد. وهرول مسرعاً إلى المطبخ كي يعجل في إعداد الطعام للمقاتلين الجائعين.

في اليوم التالي، كان يسوع شديد الهيجـان، كما لو أن الوقت لا يكفيه، فأراد أن يعود فوراً إلى الهيكل وعمد حتى إلى ارتداء «تليده» والأمر الذي كان نادراً ما يفعله. فانتفض يهوذا وسمعان.

«هل جننت. هذا سيسمح لهم بالتعرف عليك واعتقالك. هذا سابق لأوانه. انتظر يوماً أو يومين. وحتى ذلك الحين ستكون الحرارة قد ارتفعت، ويكون في وسعك أن تقول لهم ما تريد.

ـ لا، يجب أن أمضي الآن. أبي يطلب ذلك. لا تحاولا إيقافي. هذا لن يغير شيئاً من الأمور. هناك أوامر تتجاوز كل ما يمكن فعله على هذه الأرض».

كان كلامه يغدو أكثر فأكثر غرابة.

«حسناً ـ قال يهوذا. لكننا سنرافقك.

ـ «بدون سلاح» ـ أمر يسوع.

كانت الطريق إلى الهيكل مزدحمة للغاية. لم يتعرف أحد على يسوع في بادىء الأمر. فاجتاز قاعة الصيارفة دون صعوبة. ثم توجه إلى قدس الأقداس فتعرف عليه أحد التجار فصاح:

«هذا هو النبي المجنون الذي جاء بالأمس. إمنعوه...».

لكن يهوذا وسمعان أسكتاه.

دخل يسوع القاعة التي كان يجتمع فيها الكهنة والفريسيون. فانتصب هؤلاء مذهولين.

«ماذا تفعل هنا؟» سأله أحدهم.

تقدم يسوع بلا وجل، وبتلك القوة الواثقة التي طالما أثارت الإعجاب.

«جئت أعلّم كلمة الله» قال لهم.

فضحكوا ساخرين.

ـ وبأي حق تفعل هذا؟

ـ بالحق الذي أعطانيه الله بالذات».

وقبل أن يتمكنوا من الرد، راح يروي قصة ولدين يتجابهان. فصاح الفريسيون مهددين، لكن الجمهور كان قد احتشد وراح يستمع.

كان يهوذا يلقي حوله بلا توقف نظرات قلقة: تدخل الرومان قبل الأوان أو خيانة أحد الكهنة، كان يمكن أن يحبط كل مشاريعه.

كانت قريحة يسوع فياضة بشكل خاص. فانتقل إلى مثل الكرامين القتلة، الذي كان قد ضربه على ضفاف بحيرة طبريا، ثم إلى مثل العرس الملكي. كان من عادته، أسوة بسائر المبشرين، أن يكرر سرد حكاياته، إلا أنه لم يكن يملك إلا نادراً قوة الاقناع التي كان يملكها يومذاك، وقد استسلم يهوذا للاستماع إليه بارتياح رغم بقائه يقظاً.

كان الارتباك يزداد ظهوراً في صفوف الفريسيين. فقد كانت حججهم ضعيفة وتقتصر عموماً على الطعن بشرعية يسوع، مع أنها شرعية كانت تدعمها هتافات الجماهير.

وفجأة انتصب واحد منهم وسأل يسوع بلهجة المنتصر:

«قل لي، أنت الأكثر دهاء من الجميع...».

فاحتج الجمهور واضطر أن يخفض صوته.

«لا أشك في كون الله يتكلم بلسانك، لكن هل لك أن تنيرني حول مسألة ما؟

ـ الله مستعد دائماً للاستماع حتى إلى الأصغرين من عباده.

ـ وبحجة أولى إلى واحد من خدمه مثلي.

ـ أنا لم أقل هذا ـ وابتسم يسوع ـ لكنني سأستمع إليك مع ذلك. إطرح سؤالك».

فتنحنح الرجل، وسأل بلهجة الواثق من نفسه:

«هل يجب تأدية الضريبة لقيصر أم لا؟».

ارتعد يهوذا: لو قال يسوع «لا» لاعتقل على الفور. ولو قال «نعم» لارفضّ من حوله معظم الجمهور.

فابتسم المبشر هازئاً

«ها أنت مسرور بفخك هذا أيها المنافق».

وراح يصيح بصوت هادر:

«يا لكم من منافقين! أولستم تصلحون إلا لوضع العثرات في طريق الآتين لمساعدتكم. كيف تأملون في إمكان استقبالكم الله يوماً ما؟».

ونظر إليهم بقساوة، فتوقفت التمتمات. لكن الحاضرين كانوا ينتظرون جوابه.

«أعطوني قطعة من النقود».

وسادت لحظة تردد، لأن أحداً لم يكن راغباً في إعطاء قطعة ليس واثقاً من عودتها إليه.

«هيا» ـ طلب يسوع مجدداً.

فألقى إليه رجل كان في الصف الأمامي بدينار روماني. فالتقطه يسوع، ثم طرحه جانباً.

«ليس هذا. أريد قطعة ذهبية».

فجيء بها من عند صراف، فأخذها يسوع ورفعها عالياً.

«صورة من على هذه القطعة؟

ـ صورة قيصر ـ صاح الجمهور.

فألقى يسوع بالقطعة إلى صاحبها، الذي نجح في التقاطها.

«إذن، أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما للّه للّه».

كان وقع الجواب غريباً على يهوذا، وكذلك على الجمهور. فإذا كان يحبط بمهارة الفخ الذي نصبه الفريسي، فإنه كان يترك كثيراً من الشكوك حول نوايا يسوع. فهل كان يعني بقوله هذا إنه يجب تأدية الضريبة؟ أم يؤكد العكس، أي أن أرض إسرائيل، التي هي أرض الله، يجب أن

تبقى له؟ ما كان يمكن لأحد أن يعرف، كما أن الجمهور، الذي كان مستعداً للدفاع عن المبشر ضد من يريدون به شراً، أحس بأنه قد خدع. ولم يعد الفريسيون يعرفون ما يقولون. وأحس المستمعون بخيبة فراحوا يتفرقون. حتى يسوع بدا متعباً، فختم الخطاب بسرعة، ثم مضى.

أحس يهوذا بارتباك. فماذا عنى يسوع بتلك العبارة الأخيرة؟ إنه يشعر، منذ وصولهم إلى أورشليم، بأن صديقه يبتعد، صحيح أنه شن هجوماً على التجار بالأمس، لكن ألم يكن هذا أمراً عابراً، أو ردة فعل غاضبة عبثية في آخر الأمر، لم ينجم عنها إلا الاصطدام بالسلطات وإجبارها على التخفي بمزيد من الاحتراس؟ بات يهوذا عاجزاً عن الإحاطة بأفكار يسوع. أراد أن يطلب منه إيضاحات. فاصطدم بجدار. وبدا له يسوع مشوشاً، ذاهلاً. وعندما حاول أن يحمله على تفسير تلك العبارة، تذرع يسوع بالقول إنه تعب ويريد أن يصلي. خرج يهوذا في حالة غضب شديد. وتلاشت الفرحة التي نعم بها البارحة، وراح يقاوم التشاؤم الذي بدأ يجتاحه.

في اليوم التالي خرج يهوذا ليتفقد برج سيلويه، فوجده قاعاً صفصفاً. الغبار الذي نجم عن انهياره ألبس الأشجار المحيطة به حلة بيضاء. كان الكبش الذي استعمله الرومان لا يزال جاثماً على الأرض، وكان طرفه يحمل آثار الحجر الذي حطمه. هل لا تزال توجد جثث تحت الركام؟ بلا شك، لكن الجنود الرومان الذين يمنعون الناس من الاقتراب لم يكونوا يفعلون شيئاً لإخراجها.

حاول أن يفهم جيداً ما جرى، فلم يحصل إلا على إفادات غير دقيقة: ضجيج قتال، وصول الرومان، وبسرعة بعد ذلك، جلبة البرج الذي تهاوى، والبطء في إخراج الجثث بين صراخ الجرحى، والآن سعار زج المذنبين في السجون.

ولم يعلم يهوذا بما جرى لباراباس إلا عند عودته، من فم مناحيم الذي جاء ليراه عند غالب.

لقد فشلت الانتفاضة على نحو أسوأ بكثير مما توقعناه. وألقوا القبض على باراباس».

شحب لون وجه يهوذا.

«أنت متأكد من هذا؟

رآه أحد رجالنا الذي يعمل خادماً في قلعة أنطونيا. وتعرف عليه، لكنه لم يستطع أن يكلمه. الرومان لا يعلمون من هو حتى الآن، لكن يخشى أن يحل به أي شيء منذ أن يتحققوا من هويته.

ـ وسيكون إنقاذه حينذاك أكثر صعوبة. يجب أن نفعل شيئاً.

ـ لهذا السبب جئت لأراك. قادة الحركة يجتمعون هذه الليلة، ويجب أن تحضر.

ـ أين سيجتمعون؟

ـ لم يحدد المكان بعد. سأنتظرك قرب هيكل إسكولاب بعد ساعة.

ـ سأوافيك.

في الطريق إلى الموعد، مر يهوذا الذي كان يرافقه سمعان، في جوار هضبة الجلجلة. كان هناك عشرة أجساد مسمّرة على أعمدة، وكان أحدها معلقاً بصورة مباشرة بأغصان شجرة زيتون.

التقوا في قبو بيت يخص فريسياً ويقع في جوار باب المياه. كانوا حوالى عشرة رجال، وكان يبدو أنه لا يجمع بينهم شيء غير الهدف المشترك. وكان يهوذا لا يعرف أحداً منهم تقريباً: كان باراباس قد أقام عوازل بين مجموعات المنظمة بحيث كان يصعب عليها أن تعمل بدونه. انقضت الساعات الأولى في جدالات مرهقة حول الاعتراف المتبادل بالشرعية. ثم تغلبت خطورة الوضع على الخلافات، واعترفوا بسلطة رجلين: يهوذا، ورجل آخر أسمر، طويل القامة، نحيل، ذي صوت قوي وجاذبية قوية، يدعى آزفي، وكان أصولياً.

تطرق البحث إلى فكرة إنقاذ باراباس بواسطة السلاح، لكن المشروع طوي لأنه بدا غير قابل للتنفيذ: كانت قلعة أنطونيا قلعة منيعة، والحركة

باتت ضعيفة جداً. واستعرضت أفكار أخرى متنوعة، ومتناقضة (شن انتفاضة جديدة، انتظار محاكمة باراباس، العودة إلى الصحراء)، فتكلم آزفي بلهجة ماكرة وقال:

«نحن ندور في مكاننا. أنا لا أرى سوى وسيلة واحدة...

ـ ما هي؟

ـ الرومان لا يعرفون كيف أديرت الانتفاضة ولا من هو المسؤول عنها. فإذا وجدنا لهم مذنباً، لربما اكتفوا به وأطلقوا سراح الآخرين...».

ساد الصمت عقب هذا الاقتراح.

«لكن كيف تريد أن تسلمهم مذنباً؟ ـ سأل سمعان وكان قد فهم ما يقصد.

ـ هناك واحد جاهز تماماً.

ـ صحيح؟ ومن هو؟

ـ نبيكم.

ـ يسوع؟

ووثب يهوذا من مكانه.

«نعم يسوع. إن لديه كل ما يقنعهم: الناس يسمعون عنه منذ شهور أنه مثير قلاقل. وهو قد جاهر عدة مرات أمام الملأ ببغضه للرومان. دخل أورشليم بين صيحات الجماهير المرحبة، ثم أثار اشتباكاً ضخماً في حرم الهيكل. صدقني، لن يكون من الصعب كثيراً إقناعهم بذلك. يضاف إلى هذا أن السنحدرين لن يسيئه الأمر: يسوع يثير غضبه بما يدعيه، ويهدد علاقاته الطيبة ببلاطس.

ـ لكننا بحاجة إليه.

ـ أية حاجة؟ ومن أجل ماذا؟ إنه ليس سوى مشعوذ بارع.

ـ إنه أملنا الأكبر.

ـ لم يعد هناك وقت للتفكير بالأمل، بل ينبغي التفكير بالحاضر. هل

هو من سيأخذ بزمام قيادة القوات؟ وهل هو من يعرف أين ومتى يعمل الذين هم معنا؟

كان يهوذا يوشك أن يحتج، لكنه رأى أن الجميع ضده.

«أنتم مخطئون في كل شيء. لن يكون في هذا الأمر من فائدة. وعلى أي حال، كيف ستتصرفون، بعد اعتقال يسوع، لأجل تحرير الآخرين؟

ـ هناك تقليد يقضي بأن يطلق بيلاطس سراح سجين بمناسبة الفصح. فإذا أوهمناه بأن يسوع هو المسؤول الأكبر، فإن اهتمامه بباراباس سيتدنى، وبعد ذلك ستتمكن من المطالبة بإطلاق سراحه إذا دسسنا بين الجمهور عدداً كافياً من أتباعنا».

سرت في المجموعة همهمة إعجاب.

«هكذا؟ وكيف ستتصرف لأجل اعتقال يسوع؟

ـ فليذهب أحدنا إلى مقر القيادة الرومانية ويشي به عن طريق تلفيق قصة قابلة للتصديق. لكن يجب أن نعمل بسرعة: باشر الرومان أعمال التعذيب وقد يرغمون أحد أسرانا على الكلام.

ـ هذا لن ينجح أبداً. كيف ستتصل بالرومان؟ إن أول يهودي يأتيهم ليبوح لهم بأي شيء عن العصاة سيعتقل ويعذب».

كانت الملاحظة سديدة، وأخذها آزفي بعين الاعتبار.

«أنت محق في هذه النقطة. هذه صعوبة يجب حلها. لكن فكرتي تبقى صالحة».

وتدخل في النقاش من كانوا قد ظلوا صامتين من قبل. فاعتبر عدة متكلمين منهم أنه يستحيل أن يعاد بناء المنظمة على الخيانة.

«إذا انكشف الأمر، حتى بعد تحرير باراباس، سيكون ذلك وصمة لنا إلى الأبد. وسيستغله الرومان كي يلحقوا العار بحركتنا ـ أكد سمعان.

ـ إنه على حق ـ قال المدعو عاموس. هناك وصمات لا يمكن

غسلها. ونحن لن نحرز النصر ما لم نكن أنقياء. وخير لنا أن نصاب بحادث مؤسف من أن نجسد الخيانة.

ـ مؤسف؟ بل نهائي، تريد أن تقول ـ رد آزفي. هل تظن أننا ستتمكن من الانبعاث بعد ضربة كهذه. إذا تبين أن باراباس قائدنا وأعدم فستكون في ذلك نهاية آمالنا لسنين طويلة. كونوا على يقين من هذا».

كان النقاش يدور على ذاته، وكان الرجال متعبين. وأحس يهوذا وكذلك آزفي بأنه لن يتقرر شيء الليلة. فختم هذا الأخير البحث، رغبة منه بأن تكون له الكلمة الأخيرة بلا ريب.

ـ لا أدري أي عمل ستختارون. لكن هناك أمراً أكيداً: يجب التصرف بسرعة. الفصح بعد ثلاثة أيام، والفرصة لن تتكرر. إذا بقي باراباس في يد الرومان فنحن مهددون بالموت. لا تنسوا هذا. ولنعد إلى الاجتماع هنا بعد يومين».

خرجوا الواحد تلو الآخر. وكان يهوذا وسمعان وعاموس آخر الخارجين.

«كيف استطاعوا أن يفكروا بأمر كهذا؟ ما زلت لا أصدق ما سمعت».

ـ أنت لا تصدق بسبب عطفك على يسوع. لكنهم على حق».

ذُهل يهوذا، ونظر إلى سمعان، الذي صدمه بهذا الكلام الفاحش وبلهجة شبه واثقة. وأحس سمعان بذهوله فوضع يده على كتفه.

«أنا على يقين من أنك ستكون قائداً أفضل من آزفي هذا، لأنك قمين بأن تخطىء حول تقدير نفسك على هذا النحو».

ابتسم يهوذا. على أن الملاحظة شقت طريقها شيئاً فشيئاً في ذهنه.

عندما استيقظ في الصباح، كان لا يزال تحت تأثير نقاش الليلة الفائتة، وكان السهاد يضفي شيئاً من الرطوبة على عينيه. كانت الأخبار سيئة: اعتقل عدة عصاة في الليل، وكان هذا يعني أن بعضاً من الرجال قد تكلموا تحت التعذيب.

كان يسوع قد خرج.

«كيف تركتموه يخرج؟» ـ سأل يهوذا الرسل الثلاثة الذين كانوا هناك.

«ولماذا كان علينا أن نجبره على البقاء؟

ـ لأن كل شيء في الخارج يهدده.

كان يخشى أن يعمد آزفي الى تنفيذ فكرته، وقرر أن يمضي ليبحث عن يسوع.

كانت الشوارع أكثر فأكثر ازدحاماً. وكان بعض الناس قد ناموا في كل مساحة خالية، في كل مدخل بيت. سأل فيما حوله عما إذا كان أحد رأى مبشراً، لكنه تلقى ثلاث مرات أجوبة مضللة.

وأخيراً وجده. كان يسوع في جوار الهيكل مجدداً وخلافاً لكل حذر، وكان يندد بالفريسيين.

«الويل لكم» ـ كان يصيح.

كانت حدة اللهجة تنم عن اضطرابه منذ وصولهم إلى أورشليم.

«الويل لكم، أيها الكتبة. الويل لكم أيها الفريسيون».

كان في إحدى زوايا المكان فريق يعبر بصوت عال وقوي عن شجبه ويطلب منه أن يصمت.

«لستم سوى منافقين. أنتم تطهرون مظهر مآكلكم، لكنكم تدعون الشره والسلب يسودان. أنتم تؤدون ضريبة النعناع والشمرة والكمون... لكنكم تهملون الأهم. ماذا فعلتم بالعدالة، والاستقامة، والرحمة؟

ـ أحسنت! ـ صاح أحدهم.

ـ أيها المنافقون ـ عاد يقول يسوع ـ أنتم تترصدون الذبابة وتتغاضون عن الجمل».

تكلم طيلة أكثر من ساعة، وكان يمنع بإشارة من يده كل حركة عنيفة من جانب الجمهور الذي كان يعرب بصخب متزايد عن تأييده، وعندما توقف كان يهوذا أيضاً يرتعش حماسة.

«كنت رائعاً. لكن فلنغادر المكان. فالرومان قد لا يستحسنون هذا الإخلال بالنظام. هيا».

وأمسك بذراعه لكي يبعده عن المكان.

«أية قريحة كانت لك اليوم! كيف يمكن أن لا ننتصر وأنت معنا؟»

لم يعلق يسوع على السؤال. فقال له يهوذا:

«يجب أن أفاتحك بأمر ما، وبسرعة. هل لديك لحظة؟

ـ لأجلك، دائماً عندي إياها. هل تحمل كيس المال؟

ـ أجل.

ـ إذن فلنمض إلى حانة. أنا جائع».

طلب يسوع طبقاً من السمك المشوي راح الاثنان ينقبان فيه.

«ماذا تريد أن تقول لي؟

ـ ترددت كثيراً قبل أن آتي لأحدثك في الأمر. لكنك معرض لخطر آخر غير خطر اعتقالك من قبل الرومان. أنت تستمتع باستفزازهم هذه الأيام.

ـ هذا ليس استفزازاً. عندي أشياء يجب أن تقال وأنا أقولها.

ـ ليس أكيداً أن الجميع يستحسنون تركك تتكلم...

ـ تباً لهؤلاء. خذ هذه السمكة أيضاً. إنها ممتازة».

وتلذذ بطعم القطعة التي وضعها في فمه.

«ما هو هذا الخطر الذي تريد تحذيري منه؟

ـ عقدنا البارحة اجتماعاً ناقشنا فيه عواقب اعتقال باراباس. هل كنت تعلم أنهم قبضوا عليه؟

ـ لا، ما كنت أعلم. هذا مكدر جداً بالنسبة إلى مشاريعكم؟

ـ مشاريعنا».

وشدد يهوذا على الـ «نا».

«نعم، إنه كذلك. من الخطر جداً أن ينكشف أمر باراباس على أنه القائد. والأخطر من ذلك هو أن يبدأ يتكلم.

ـ هذا صحيح».

كان يسوع يبدو في منأى عن مصير أصحاب يهوذا.

«لذلك اقترح واحد منا أن نحول انتباه الرومان بالابلاغ عن رجل آخر على أنه المحرّض الحقيقي على الثورة.

ـ وهذا الرجل الآخر هو أنا؟

ـ نعم».

فكر يسوع لحظة.

«ألم أقل منذ وقت بعيد أنني سأُسلَّم؟ كنت لا أعلم كيف: لعل هذه هي الطريقة. هكذا ستكون مشيئة أبي قد تحققت».

كانت يداه ترتعشان فتفضحان اطمئنانه المصطنع.

«ستتحقق متى انتصرت على أعدائنا، لا متى زج بك في السجن».

وضحك ضحكة مفتعلة.

«ماذا تريد مني يا يهوذا؟».

عند سماع السؤال أسقط في يد يهوذا.

«كنت أظن أن الأمر واضح عندك كما هو عندي. أنا لا أعلم إن كنت المسيح، ذاك المسيح الذي تعرف عليه بطرس، أو ابن الله كما تؤكد أنت، والأمر عندي سيان، في الحقيقة. لكنني أعلم أن الله كان دائماً إلى جانبنا. وقد أيقنت على الفور أنك أنت من سيقهر العدو.

ـ لكن أين سيُقهر؟

ـ كيف هذا، أين سيقهر؟

ـ أين النصر يا يهوذا؟ أما زلت تؤمن بأنه على هذه الأرض؟

ـ وأين يمكن أن يكون غير هنا، أنا لا أفهم.

ـ في مكان آخر. إنه في مكان آخر. نحن لسنا عليها سوى عابرين، وهذه الأرض هي لا شيء. كل ما قلته لكم ولم تفهموه حتى الآن أنت وأصحابك سيكون عوناً لكم في العالم الآخر. فنحو هذا العالم يجب أن توجه جهودك.

ـ لكن هنا...

ـ نحن في الحقيقة لا نكسب شيئاً هنا. ماذا تظن أنك فاعل بعد أن

تطرد الرومان؟ النصر الحقيقي هو الذي تحرزه كل يوم إذ تعطي ذاتك لأبي. وهنا أنت تنتزع منهم ما يخالونه قوة لهم لأنك أنت تعلم أنه سيكون هناك فيما بعد شيء آخر، بينما هم لا يعلمون.

ـ لكنك أنت قلت إن لغير اليهود أيضاً حق...

ـ إذا كان لهم من الذكاء ما يجعلهم يدركون أين توجد الحياة الحقة...

ـ وكل أولئك الذين يتألمون هنا؟ كل أولئك التعساء الذين يئنون تحت النير، والذين رأوا ذويهم يُقتلون، أو يُفرَّقون، أو يجوَّعون... هؤلاء يعانون هنا لا في مكان آخر. أتريد أن تقول لهم إن معاناتهم هي لا شيء؟

ـ إنها لا شيء لأن السعادة تنتظرهم فيما بعد. وقلت أيضاً هذا: ملكوت السماوات سيفتح أولاً أمام الصغار، والمساكين، والبؤساء.

ـ لكن ماذا بشأن معاناة اليوم؟ لم تجبني.

ـ إنها تقدم لله، وهو سيذكرها يوم الحساب.

أحس يهوذا بأن الأرض تميد تحت قدميه.

«لكنك أنت أيضاً لم تكف عن التذمر من الرومان، وعن طلب طردهم...

ـ وسأظل أفعل. لأنه لا يجوز السكوت عن الظلم ولا عن الشر...

ـ وبعد...

ـ وبعد، إن المكافآت ليست من هذا العالم. أنا ما جئت لأطيح بحكومة. وثورتي أنا لا تحصل على هذه الأرض. إنها ستجري فيما بعد، وستقلب العالم رأساً على عقب، كما لن تستطيع أن تفعل أية ثورة تعدّها أنت.

ـ ليس من حقك أن تتخلى عن الذين يثقون بك.

ـ أنا لا أتخلى عنهم».

ورفع يسوع صوته.

«أنا لا أتخلى عنهم، وإنما أقدم لهم سعادة لا يجرؤون حتى على تخيلها.

ـ فيما بعد...

ـ أقدم لهم حب الله.

ـ شرط أن يتألموا اليوم.

ـ لا «شرط»: من عساني أكون لو أطريت الألم؟ إلا أنه موجود، وسينال أجره فوق.

ـ لا يسعني التسليم بأن تسمح بوجود الألم دون أن تحاول التخفيف منه.

ـ أنت غير منصف. أنا أحاربه منذ أن عرفته. وإنما أنا لا أؤمن بأن الغاية التي أسعى إليها موجودة هنا.

ـ السعادة ربما يوماً ما مقابل التعاسة اليوم...

ـ لا. المحبة دائماً وفي كل مكان، والسلام لكل الذين تألموا.

ـ مع أن كل ما فعلناه معاً...

ـ كل ما فعلناه معاً يبقى صالحاً. والكفاح على هذه الأرض جدير بأن يخاض. إلا أنه ليس غاية في ذاته. السعادة الحقيقية تنتظرنا في السماء».

كان يهوذا في غاية الارتباك. لم يعد قادراً على ترتيب أفكاره، ولم يعد يرى سوى شيء واحد: يسوع يتخلى عنه. إن رفيق السلاح الذي حلم يوماً وإياه يتراجع في اللحظة الأخيرة، باسم عالم آخر ليس له كثير من المعنى. فكيف آل بهما الأمر الى هذه النقطة؟

«يهوذا... يا صديقي. أنا أيضاً في غاية الارتباك. أنت لا تعلم ما ينتظرني. لكن مشيئة أبي يجب أن تتحقق، وآمل أن تكون لي الشجاعة لبلوغ هدفي».

لم يعد يسمعه يهوذا. فدمدم بشيء، ونهض، ومضى.

أمضى ما بعد ظهر ذلك اليوم وهو يمشي. لم يعد يعرف غير التفكير

بارتداد يسوع، وبصداقتهما المحطمة، وبانهيار قضيتهم الذي هدّ عزيمته. ما هو هذا التوهم بوجود سعادة ما ورائية، الذي يتقبل الآلام على هذه الأرض باسم تحسن في المستقبل؟ وراحت تروح وتجيء أمام عينيه صور أولئك الذين رآهم يأملون، ويتألمون، ويموتون: والده على الصليب، ورفاقه القتلى والمعذبون. فأي معنى لنضال لا يجلب شيئاً لهم اليوم؟ وكيف يمكن لإلهٍ آمن به إلّهَ عدل أن لا يتمنى لهم السعادة إلا فيما بعد؟ وإذا كان يسوع ليس ذاك الذي كان يجب أن يحرر الشعب اليهودي من العبودية، أفلا يمحي، بمثله الأعلى في الاستسلام، ألد عدو لقضيتهم؟ كانت فكرة العالم الآخر على جانب من الغموض دائماً بالنسبة إلى يهوذا. كان لا ينكر وجود هذا العالم. لكنه كان لا يعيره كبير اهتمام. غير أنه كان لا يعتبره محط كل النهايات. وإلا كان الأولى به أن يسير على خطى رهبان قمران ويمضي حياته في الصلاة والتأمل.

ما السبيل إلى إقناع يسوع بالعودة إلى رؤية أكثر واقعية لعمله؟ ما السبيل إلى إفهامه أن الكفاح ضرورة يومية وراهنة؟ إن كل ما قاله له أخيراً يبين إلى أي حد بات مفهوم كل منهما الآن يبتعد عن الآخر.

وفجأة نزلت عليه فكرة كالوحي، وكاد يسقط على الأرض وهو في الطريق. ليس هناك سوى وسيلة واحدة لجعل صديقه يستعيد مشاعر طبيعية. كان يأنف من اللجوء إلى هذه الوسيلة، لكنه لا يجد عنها بديلاً.

وفي الليلة ذاتها، حمل الكيس والشالوق الذي كان قد ارتداه ليدخل إلى أورشليم وقصد بيت نيقوديموس.

الفصل الثاني والعشرون

لم يتغير الرجل العجوز إلا قليلاً: صحيح أن جسده تكوّم قليلاً، لكن وجهه احتفظ بمسحة من الصرامة العسكرية التي كانت قد أثرت في يهوذا يوم التقائه لأول مرة.

«عندما سمعت بالاضطرابات التي حصلت في المدينة كنت متأكداً من أنني سأراك مجدداً. أدخل يا يهوذا. أنتم تخوضون نضالاً لم أجرؤ على المشاركة فيه مشاركة كاملة، ولكنه نضال ضروري. المدينة في حالة غليان، ويمكنكم أن تنتصروا. أنت مع ذاك النبي الجديد، الذي تسبب بذلك الشجار المشهود في الهيكل؟

ـ نعم.

ـ إنه ماهر جداً، هذا الشاب. إن الطريقة التي اعتمدها لتنظيم دخوله وفقاً للنبوءات تماماً كانت مدهشة: على حمار لم يبردعه أحد من قبل، كما جاء عند حزقيال، ووصل إلى جبل الزيتون، حيث تنبأ زكريا بظهور الله في آخر الأزمنة. إنه يعرف الكتب. وهو ليس ماهراً وحسب، بل إنه أدرك تماماً أجمل ما في جهودنا، أي رغبتنا منذ سنين في جعل الدين شخصياً بدلاً من كونه جماعياً، ومعنوياً بدلاً من كونه طقسياً... أتعلم أنني التقيته؟

ـ أنت؟ لكن أين؟

ـ مع أنصاره، في الربيع المنصرم، يوم القمر الثالث، قرب طبريا. لم أعلم بانضمامك إليه إلا منذ قليل.

ـ لم يحدثني عن ذلك».

كان يهوذا مستاءً قليلاً.

«حرصت على أن يكون الأمر بعيداً عن الأنظار. فقد كنت في الجليل، وسمعته، وأنا عائد من قيصرية، حين كان يتكلم فوق هضبة مقابلة للبحيرة. قال أشياء هزتني. إنه يعرف كتبنا ويستوحيها أكثر بكثير مما يقول أعداؤه: أرض الميعاد للفقراء كما في المزامير؛ أحبب قريبك حبك لذاتك كما طلب موسى؛ الغفران كما عند ابن سيراخ... غير أن عنده قوة إقناع، وجاذبية، وطيبة، تنتزع الإعجاب، وكذلك فهماً سياسياً كبيراً للوضع. لم يقنعني بكل شيء، خصوصاً بادعائه أنه على اتصال مباشر بالله... كما بميله المؤسف إلى الغموض، الذي أزعجني أحياناً كثيرة: عندما سألته عما إذا كان آتياً لإعادة المملكة، أجابني بحكم من نوع: «لا يقدر أحد، ما لم يولد من جديد، أن يرى ملكوت الله»، وهذا لم ينورني كثيراً. على أن اللقاء كان ممتعاً للغاية. غير أن من المؤسف أن يكون على الدوام قاسياً إلى هذا الحد مع الفريسيين: وإلا لكان تبعه كثيرون منهم... هل أنتم تخبئونه باعتناء على الأقل؟ أظن أن الرومان لا يأنفون من رؤيته في سجونهم. وسيكون من المؤسف أن ينتهي به الأمر إلى هناك: نحن في حاجة إلى أناس من أمثاله.

ـ هذا ما حدا بي للمجيء إليك. هل تستطيع أن تجمعني ببضعة أعضاء نافذين في السنحدرين يمكن أن يستمعوا إلي دون أن يشوا بي؟

ـ بالتأكيد. لكن لماذا؟

حينئذ روى يهوذا له آخر حديث بينه وبين يسوع، وشرح إلى أي حد كان النصر في أيديهم تقريباً، رغم حادثة سيلويه، وعرض بالدرجة الأولى كل ما جسده يسوع بالنسبة إليه كما بالنسبة إلى قضيتهم بلا ريب.

كان نيقوديموس يستمع باهتمام واضح.

«وأمسى باراباس اليوم في سجون روما...

ـ أعرف هذا، مع الأسف، لكنني لا أظن أنهم اكتشفوا من هو حقاً. لكن هذا لن يتأخر.

ـ اجتمعنا البارحة مع شخص يدعى آزفي. اقترح هذا خطة أثارت غضبي. أراد أن يقوم واحد منا بتسليم يسوع وتحميله المسؤولية عن كل شيء، لكي نحصل فيما بعد على تحرير باراباس.

ـ إنها بالفعل فكرة شائنة».

وانتظر نيقوديموس البقية. تنفس يهوذا تنفساً عميقاً ثم استأنف الكلام.

«أنا اعتقد في الواقع أنها صالحة».

بدا عضو السنحدرين مذهولاً.

«كيف تقول إنها صالحة؟ أتراك تدعم خيانة صديقك، ومعلمك؟

ـ إسمعني، ولا تقاطعني».

كانت الكلمات تخرج من فم يهوذا في خليط لفظي كان نيقوديموس يعيد تركيب معناها أكثر مما كان يسمعها.

«أنا أعرف أن المدينة جاهزة للثورة. ولا ينقصها إلا قائد. هذه الفرصة لن تتجدد قبل مرور زمان طويل. ولا يحق له أن يدعها تمر هكذا. لقد قلت لك في أي طريق يهيم. أنا أعرفه من زمان طويل، وتمكنت في أحيان كثيرة جداً من الحكم على ردود فعله، لذلك أنا أؤمن بأنه سيبشر الآن بعدم التحرك.

ـ هذا ليس عدم تحرك يا يهوذا، وإنما شكل آخر للنشاط. . .

ـ لكنه بلا جدوى، ولا يخدم أحداً. إنه لم يعد يفكر بما يمكن أن يفعل هنا، الآن، منذ أن توهم بأنه على اتصال بالله. هذا مع أنني على يقين، في الحقيقة، من أنه لا يتمنى ذلك.

ـ وبعد؟

ـ إذا ما أُحرج، وأحس من حوله بأن الجماهير تطالب به، فلعله يتخلى عن أوهامه ويأخذ نهائياً بزمام الحركة.

ـ إذا ما أحرج؟».

فهم نيقوديموس ما يقصد يهوذا، لكنه أراد حمله على المضي إلى آخر فكرته.

«في السجن. في مواجهة الرومان مباشرة، بحيث لا يعود قادراً على التراجع ـ قال متمتماً.

ـ أنت تقترح إذن أن يقوم واحد منا بتسليم يسوع من أجل إرغامه على الأخذ بزمام هذه الثورة.

ـ نعم، بالضبط.

ـ وتسهيل إطلاق سراح باراباس في الوقت ذاته.

ـ وفوق ذلك ـ لكن هذا ليس الأهم في نظري ـ سيكتشف الرومان سريعاً أن يسوع ليس ضالعاً في أعمال الشغب ويضطرون أن يخلوا سبيله. حينذاك سيكون قد نضج لكي يكون قائدنا. يجب إجباره على الإقرار بأنه الوحيد القادر على الاضطلاع بقيادة الثورة.

ـ لكن لماذا أنت واثق من أنه سيفعل هذا؟ ألا تميل إلى الاعتقاد بأن رغباتك هي رغباته؟

ـ لن يعود له خيار. أتراه يرفض النصر وهو في متناول يده؟

ـ هذا يبدو بالفعل قليل الاحتمال. ثم، ابن الله يستسلم للصلب...».

وأرسل ضحكة في غير محلها.

«ومن ستكلف بهذه المهمة الشائنة؟».

وصلت اللحظة الأكثر مشقة، وأغمض يهوذا عينيه.

«لا يسعني أن أدع شخصاً آخر يقوم بها. سأكون أنا.

ـ هل أنت واثق من ذلك؟ أتعلم أنه إذا أخفق أي شيء ستبقى أنت الخائن إلى الأبد؟

ـ أعلم هذا. لكن لن يخفق أي شيء. لقد جلت في المدينة: كل الناس معنا. هل رأيت الشجار الذي جرى في الهيكل: وقامت الجماهير بحمايتنا».

وأخذ يتكلم بصوت عال وكأنه يريد أن يقنع نفسه.

«على أي حال، ليس بإمكان غيري أن يفعل ذلك. فأنا وحدي أعلم أين يختبىء يسوع وأين يمكن الوصول إلى أعضاء السنحدرين دون أن أجد نفسي في الحال تحت التعذيب. سيكون حنانيا مغتبطاً بالعملية: سيثبت بذلك لروما أنه قمين بأن يحافظ لها على النظام، دون أن يخطر في باله أن عمله سيؤدي إلى اندلاع الانتفاضة النهائية...».

ظل نيقوديموس صامتاً. أما يهوذا، فقد أنهكه الجهد الذي بذله، فلم يعد يبدي حراكاً، وكان يتعرق، وينتظر كلمة من الزعيم اليهودي المسن.

«لست أدري إن كنت على حق يا يهوذا. لم أعد أدري. لقد اعتقدنا منذ سنين، وأملنا كثيراً، وكنا غالباً ما نحصد الخيبة. ماذا يمكن أن يجلب لنا يسوعك؟ قوة إقناعه حقيقة واضحة. لكن هل هو حقاً الرجل الذي نحن بحاجة إليه؟ هل ستنجح خطتك؟ إفعل ما تراه: أنا أعترف بأنني غير صالح لإبداء رأي. سأتصل بأعضاء في السنحدرين: يوجد بينهم كثيرون ممن يثير صديقك سخطهم بحيث أنني لن أجد كثيراً من الصعوبة في إقناعهم. فإذا كنت لا تزال موافقاً على... القيام بهذه المجازفة، عد إلي هذه الليلة بعد غياب الشمس. سيكونون هنا».

عاد يهوذا إلى بيت غالب. كان يسوع هناك ومعه الرسل الاثنا عشر. لقد أراد أن لا يكون في البيت أحد غيرهم ورفض أن يستقبل بضعة أنصار اهتدوا الى مقره. كانوا جميعاً متمددين على بنوك ومرتدين ثياباً نظيفة كما تأمر الشريعة. كان يهوذا آخر الواصلين. قام يسوع، لأول مرة، بنقل الأطباق ووضعها على المائدة وساعدته النساء في وضع الصحون. وكان حتى قد غسل قدمي بطرس، الأمر الذي أزعج الجميع وخصوصاً بطرس.

كانت بداية العشاء على جانب من الكآبة. كان توتر صامت ينهش المشاركين. وكانت برودة الربيع الآتي تتسرب من شقوق الأبواب.

وأسبغ يسوع فجأة على هذا الاجتماع العادي جواً غير مألوف من المهابة إذ قال لأصحابه:

«اشتهيت من كل قلبي أن أتناول هذا الطعام معكم قبل أن أتألم». تبادل الرسل النظرات. لم يعد يسوع يستطيع أن يخاطبهم، منذ فترة، دون أن يتحدث عن أجله، ولم يكن أي منهم يفهم ما يعنيه بذلك. ثم نطق بكلام غامض وهو يوزع الخبز، وملأ كوباً من الخمر وقال: «هذا هو جسدي، هذا هو دمي»، وأضاف وهو يأكل: «إذا حصل أن لا أعود بينكم، فافعلوا هذا لذكري». كان يهوذا لا يصغي إلا بالكاد، وكان يمضغ الطعام دون أن يدري ما يفعل. كان يرى الشمس تنحدر، ويشعر باقتراب ساعة المضي إلى بيت نيقوديموس.

ومدّ يسوع يده إلى سلة الخبز حيث امتدت يد يهوذا في الوقت ذاته، فشبك أصابعه بأصابع يهوذا وأعاده من ذهوله، وقال: «إن واحداً منكم سيخونني».

ـ ليس أنا، ليس أنا ـ راح يقسم كل الرسل.

ـ لا، بل إنه ذاك الذي يضع يده مع يدي في القصعة الآن».

وسحب يهوذا يده كأنما أفعى لسعته، ونظر إلى يسوع مرتعباً. ظل وجه المبشر هادئاً. لاح له أن يسوع يعطيه موافقته، ويعيده إلى المصير الذي اختاره، وكأنه كان يتوقع ذلك، كما لو كان هذا حتى يساعده هو أيضاً على تحقيق ما يجب أن يتحقق. وحينذاك، وخوفاً من المخاطرة بتبديل رأيه، نهض يهوذا على عجـل، ودفع يوحنا من أمامه، وأوغل في الليل دون أن يستأذن أحداً.

وصل إلى بيت نيقوديموس خائر القوى بعد مسيرة طويلة، وتوقف لحظة كي يستعيد أنفاسه؛ ثم دفع الباب الخارجي.

كان الرجل العجوز ينتظره، ومعه ثلاثة آخرون من أعضاء السنحدرين بمعاطفهم البيضاء ذات الشرابات الزرقاء. فعرفه عليهم.

«هؤلاء هم سمعان، وموسى، ويوسف. لقد أدهشهم مسعاي، لأننا

عادة لا ننتمي إلى جهة واحدة. لكنني أعتقد أنهم مؤهلون للإصغاء إلى ما ستقترح عليهم والاستفادة منه على خير وجه».

أحس يهوذا، من كيفية ردهم على تحيته، بالاحتقار الذي كان يعلم أنه سيعيش فيه بعد الآن، حتى في حال الانتصار.

«جئت أسلمكم النبي يسوع.

ـ نبي؟ هكذا تصف هذا المثير للقلاقل؟

وضحك يوسف مستهزءاً. غرس يهوذا أظافره في جلد يده لكي يقوى على المضي في الكلام.

ـ إنه أكثر بكثير من مثير للقلاقل. إنه أحد قادة النشاط السري. وهو الذي قاد جزءاً كبيراً من الانتفاضة حول برج سيلويه».

انتفض الرجال الثلاثة.

ـ كيف تقول إنه قاد انتفاضة البرج؟ من أين لك هذه المعلومات؟

ـ لأنني لم أفارقه.

ـ ماذا يثبت لي أنك لا تنصب لنا شركاً؟ ـ سأل موسى.

ـ أي شرك؟ أنا أسلمكم أحد أعدائكم: أين يمكن أن يكون الشرك؟

ـ لا أدري. يبدو لي كل هذا مفرطاً في السهولة».

كان يحدق بيهوذا بنظرة ارتيابية.

ـ اذا كان هذا لا يهمكم، فأنا أحتفظ بمعلوماتي لنفسي.

ـ لا تكن مفرطاً في الحساسية. كنت أتساءل عما... إعترف بأن الأمر مثير للدهشة. وأين يختبىء ذاك الشاب؟».

وأزفت اللحظة، حتى الإجابة عن هذا السؤال، كان يهوذا يستطيع أن يتراجع. وبعد الاجابة، يكون قد فات الأوان. فأغمض عينيه، وتخيل الجماهير تحاصر القصر لكي تحرر يسوع، ورأى يسوع يخاطبها ويلهب حماستها... وسيطرت عليه هذه الصورة بقوة إلى حد جعله يقتنع بصورة مطلقة بأنها لا يمكن أن لا تكون حقيقية. ثم تكلم.

«إنه في بيت نجار يدعى غالب بن يوسف في بيت عنيا. يوجد في

الحي ذاته حقل يحتوي على معصرة للزيت، يقع مباشرة بعد شارع الصباغين. إنه يقصد هذا الحقل كل مساء كي يصلي. غداً سيكون هناك عند العشية.

ـ سنأتي ومعنا جنود.

ـ كما تشاؤون. لكن لا تعتقلوا أحداً غيره: الباقون ليسوا سوى أشخاص ثانويين بلا أهمية وحالمين يرافقونه ويتغنون بمديحه.

ـ ماذا يثبت لنا أنه لن يكون هناك مجموعة مسلحة تنتظرنا؟

ـ ولماذا؟ أرسلوا فرقة من مئة جندي إن كنتم خائفين: سيكون هذا سخيفاً كمن يريد سحق ذبابة بمطرقة.

ـ غداً في حقل المعصرة في بيت عنيا؟

ـ نعم.

ـ سنكون هناك. الويل لك إن كنت تكذب علينا».

اشتهى يهوذا أن يبصق عليهم، لكنه تمالك نفسه، وخرج دون أن ينظر إليهم.

لكن صوت موسى لحق به.

«أشك كثيراً بأنك تفعل هذا بدافع من كرم الأخلاق. أية مكافأة تريد؟ هل ترضى بثلاثين دينار؟ هذا يعادل ثمن رقيق، فيما الرجل الذي تسلمنا إياه لا يساوي أكثر.

ـ ثلاثون ديناراً؟

وأرسل يهوذا ضحكة مشحونة بالاحتقار.

ـ تريد أن تشتريني بثلاثين ديناراً؟ أتظن أنني لأجل هذا أهديك الرجل الذي خدمته وأحببته؟».

وكاد يجهش بالبكاء.

«ماذا تريد إذن؟».

ـ لا شيء. ها أنا قد نلت مكافأتي».

وهرب راكضاً.

لم يشأ أن يرى يسوع في اليوم التالي، ومكث في المدينة، منبهاً جماعته، ومحاولاً أن يضع الرجال المكلفين باستدراج الجماهير في أفضل الأماكن. وعند المساء ذهب إلى البستان الذي اعتاد أن يجد يسوع فيه. ودخل فلم يرَ غيره. كان الرسل كلهم نائمين حول معصرة زيت الزيتون. فألقى يهوذا عليهم نظرة احتقار.

لم يكن يفكر في المجيء. إلا أنه كان يريد على الأقل أن يرى صديقه ويعانقه لآخر مرة، لا أن يشرح له ما سيجري فيما بعد. فنادى يسوع.

«أراك وحيداً».

التفت يسوع وابتسم له. كانت قسماته متغضنة، وعيناه متعبتين، لكأن العاصفة الداخلية التي كانت تنهشه منذ عدة أيام قد حطمت إرادته.

«إغفر لهم ضعفهم. الروح قوي، لكن الجسد ضعيف».

تقدم يهوذا ولثم يد يسوع كما يلثم كل تلميذ يد معلمه. لكن يسوع أمسكه من كتفيه وطوقه بذراعيه مسترخياً. استخلص يهوذا من هذا مجدداً أن يسوع كان يتوقع ما فعله وأنه يغفر له.

في تلك اللحظة، حاصر البستان مئة رجل من فيلق البيري التابع لهيرودس وخمسون رجلاً من قوات الهيكل.

وصاح بعضهم مشيرين إلى يسوع «ها هو».

ابتعد يهوذا عن يسوع وكأنه كان يريد الفرار.

واستيقظ الرسل على الضجة، وهبوا واقفين وسيوفهم في أيديهم. وانقض بطرس على الجنود. وصاح آخرون «أهرب يا يسوع». وضرب بطرس بسيفه أحد الجنود فقطع أذنه. فصرخ الرجل متألماً ووضع على رأسه يده التي كان الدم يسيل من بين أصابعها.

وشهر الرومان سيوفهم.

فصاح يسوع:

«توقفوا».

فتبادل كل المتقاتلين النظرات. والجنديان اللذان كانا قد أمسكا ببطرس تركاه وشأنه.

«هؤلاء الرجال جاؤوا لأجلي. إنهم يعرفون من أنا وقد جاؤوا ليقبضوا علي. هذه مشيئة أبي».

كان يبدو أنه يتألم بشدة وهو ينطق بهذه الكلمات.

«أغمدوا أسلحتكم ودعوا الأمر يتم».

صاح بطرس.

«لن ندعهم يأخذونك».

ـ بلى، ستفعلون هذا».

وجاء يسوع تلقائياً وانضم الى الجنود. وأسقط في أيدي التلاميذ، فلم يأتوا بحركة. أما يوحنا، فلم يستطع أن يتحمل المشهد، ففر هارباً، تاركاً معطفه في يدي جندي حاول أن يمسك به.

«ليس معنا أمر بالقبض إلا عليه هو» ـ قال قائد المئة ـ هيا بنا».

عندما اجتازت المجموعة العسكرية المحيطة بالأسير الذي كانت يداه مكبلتين باب البستان، انتاب يهوذا شعور بأن كل شيء سيتحقق أخيراً، لأجل إسرائيل أيضاً. وكان سعيداً.

جرى استجواب يسوع في اليوم التالي من قبل السنحدرين، أمام لجنة مصغرة أولاً عند حنانيا، ثم أمام لجنة موسعة عند قيافا. أمضى يهوذا صبيحة اليوم مجدداً في التثبت من أن كل رجل سيكون في مكانه، بعد أن كان قد ركز رجالاً في الأماكن الستراتيجية في المدينة، وكان معظمهم يحمل سلاحاً. وحيثما كان يتوقع أن يتجمهر الناس كان قد وضع أشخاصاً يقودونهم. وبناء على طلبه، كان نيقوديموس قد استحصل له على إذن بزيارة يسوع. وكان يتوقع أن يعطي يسوع إشارة الثورة، في تلك اللحظة، وأن يتولى قيادتها.

كان الأهم هو بالدرجة الأولى وضع رجال بين الجماهير التي كانت ستحضر تحرير محكوم كما هي العادة كل سنة. وعندما ظهر بيلاطس

كان الناس ينتظرون منذ ساعة. كان الحاكم يبدو متعجرفاً. وغير مبال، وكانت سحنته الشبيهة بسحنة والد صارم شاخصة إلى مكان بعيد قبالته. وجيء بيسوع وسائر السجناء المرشحين لإخلاء السبيل الى الباحة. ارتعد يهوذا حين رأى آثار السوط التي كانت تلون بالدم معطف يسوع الأحمر، رمز الملكية الذي كانوا قد ألبسوه إياه. كان يعلم أنه معرض للموت صلباً، على غرار من يشقون عصا الطاعة على روما. لكنه كان يعلم أيضاً أن الموجة التي سيطلقها يسوع ستغمر القصر والحامية الضعيفة المتمركزة فيه.

تكلم بيلاطس.

«شريعتكم تسمح لي بأن أطلق سراح أحد السجناء الحديثي العهد. فأي واحد من هؤلاء تريدون؟».

حينذاك صاح الأصوليون الذين كانوا قد اندسوا في كل مكان بين الجماهير:

«أطلق سراح باراباس. أطلق سراح باراباس».

وكان بعضهم يصيح بقصد التمويه:

«يسوع، أطلق سراح يسوع الناصري».

لكن هؤلاء كانوا أقل عدداً بكثير من أولئك.

ونودي بأسماء أخرى، إذ حاولت عدة عائلات كان قد اعتقل أحد أفرادها أن يطلق سراحه.

«أنتم تقولون باراباس؟ ـ سأل بيلاطس، مردداً الاسم الذي كان أقوى سماعاً. ومن هو باراباس هذا؟».

والتفت نحو السجناء.

«من منكم باراباس؟».

كان يبدو عليه الارتياح وكذلك على الأحبار اليهود. كان الجميع يعلمون أن هذه العادة كانت مقبولة فقط في حال كون السجناء

المستفيدين منها سجناء من الدرجة الثانية. أما طلب إطلاق سراح رجل من كبار العصاة، فكان لا بد من أن يستتبع تعقيدات.

خرج باراباس من بين مجموعة السجناء، فأثار بضع صرخات وأنات من جانب من لم يقع عليهم الاختيار.

«هذا أنت باراباس؟ لماذا أنت في السجن؟

ـ هاجمت بعض التجار في الطريق.

ـ أنت قاطع طريق؟ أي شيء مميز تحوزه حتى يطالب الناس هكذا بإطلاق سراحك؟ على أي حال، هذا تقليدكم. إمضِ، أنت طليق، لكن لا تنسَ أبداً أنك إذا وُجدت هنا مجدداً فسيكون مصيرك الموت».

ونهض الحاكم والتفت نحو مساعديه.

«هل علي الآن أن استجوب هؤلاء المشاغبين؟».

كان يهوذا في غاية السرور، فقد نجح القسم الأول من الخطة نجاحاً كاملاً.

كان نيقوديموس يحضر جلسة استجواب يسوع. وعندما أزفت ساعة تناول الطعام، اغتنم الفرصة وجاء ليرى يهوذا وكان يبدو مشغول البال.

«هل هناك أمر لا يسير جيداً؟

ـ لست أدري ـ أجاب الرجل المسن ـ إنه يبدو بعيداً عما يجري له. انتقل من عند حنانيا الى عند قيافا، ثم استجوبه بيلاطس. أكثر من اثنتي عشرة غلوة ذهاباً وإياباً. لم يكونوا متساهلين معه... لكن موقفه يدعو للاستغراب. إنه لا يستفيد من أية فرصة تتاح له كي يبرىء نفسه، بل يرد دائماً بما هو الأكثر أذى له. المترجمون لا يساعدونه، لكن مع ذلك... عند حنانيا وقيافا لم يدافع عن نفسه تقريباً، بل اعترف بكل ما هو متهم به، بذريعة أن كل ما قاله قد قاله علناً. ولم ينكر بتاتاً أنه أراد التعرض لسلطة الهيكل. وعند بيلاطس، أعلن، أول مرة، أن مملكته ليست من هذا العالم، وبدا هذا الاعلان غامضاً للحاكم كما لنا. وأضاف قائلاً: «جئت إلى هنا كي أشهد للحقيقة». وانزعج بيلاطس

وأراد التخلص منه فأحاله على هيرودس. كان هيرودس يتوقع أن يتسلى مع مشعوذ، لكن يسوع نظر إليه باحتقار، ورفض أن يجترح أدنى معجزة. . . لكن هناك ما هو أدهى: أعلن أمام السنحدرين أنه ابن الله. وعندما أعاده هيرودس إلى بيلاطس، هذا الذي يبدو بصورة مستغربة غير مصمم على القضاء عليه، اعترف بأنه ملك إسرائيل.

ـ ملك؟ كيف هذا، ملك؟ كل من ينادي بنفسه ملكاً إنما يتكلم ضد قيصر. وفي هذا الوقت، هذه حماقة. فليخرج أولاً، وبعدها يستطيع أن يعلن هذا متى شاء. لكن حتى وإن لم يسمعه أحد غير بيلاطس، فمن الأكيد أنه سيحكم عليه بالموت. . .

ـ أنا فعلاً لا أفهم. إنه يلعب لعبة خطرة جداً، لا سيما وأنه إذا أحيل إلى المحاكمة فالحكم سيصدر بسرعة، قبل السبت. ومهما كان بيلاطس فظاً، فإنه يعرف كيف يراعي جانب السنحدرين، ولن تكون هذه أول مرة يأمر فيها بإعدام شخص لا يهمه أمره إرضاء للسنحدرين. تذكّر بارسيشان.

لكننا نحن جاهزون. ما عليه سوى أن يقول كلمة واحدة، وستكون له مملكته. منذ أن يخرج ويبدو طليقاً. وليس قبل. . .

ـ لا يبدو أنه حزم أمره. وقد أكون مخطئاً، لكنني قلق».

وشحب لون يهوذا.

«يجب أن أراه.

ـ أن تراه؟ وكيف تريد أن تفعل؟

ـ دبّر لي مقابلة معه. أنت كنت ستقابله بعد ظهر اليوم، فدعني أحل محلك. لديك ما يكفي من العلاقات لأجل ذلك.

ـ وتحت أية ذريعة؟

ـ ليس من الصعب إيجاد ذريعة.

ـ أجل، ربما، عن طريق الإيهام بأنك طبيب جاء يفحص جراحه موفداً من قبلي.

ـ موافق. سأجلب بعض المراهم. ألن يتعرف علي أحد؟

ـ أولئك الذين رأوك عندي قليلاً ما يرتادون السجون ـ قال نيقوديموس ساخراً.

ـ حاول. واتصل بي عند غالب. سأنتظر جوابك هناك.

بعد مرور ساعتين، نقل رسول إلى يهوذا تصريحاً بالمرور ورسالة من نيقوديموس.

يمكنك أن تأتي وتكشف عليه. معك مهلة نصف ساعة. أخبرني بالنتيجة. . .

كان يهوذا قد أعد بضعة مراهم، وسار وراء الرجل وصولاً إلى السجن. كانت الرائحة رهيبة. كان البراز منتشراً على الأرض. وفي إحدى الزوايا كانت ترى جيفتا جرذين نُهش نصفهما، وارتعش يهوذا حين خطر في باله أن هذا من فعل السجناء دون ريب.

وأُدخل إلى زنزانة.

كان يسوع في حالة يصعب معها التعرف عليه: كانت شفتاه مشقوقتين، وإحدى عينيه مغمضة، وشعره المجبول بالدم ينسدل على وجهه خصلاً قذرة لم يأت بحركة لإزاحتها.

«يهوذا. . . لكن كيف. . .

ـ لا تتكلم كثيراً. استطعت أن أحصل على إذن بالمرور. هاك بعض المراهم.

ـ شكراً.

أخذ يسوع المراهم وبدأ يضع منها على جراحه. وارتعش حينما لمس لحمه الجريح.

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا؟

ـ جئت لأقول لك إن كل شيء جاهز. لم يبق عليك إلا أن تتولى قيادة قواتنا والمدينة لنا».

بدا فجأة أن يسوع مهتم بالأمر.

ـ وسأخرج من هنا؟

ـ إنهم لا يقدرون أن يحتفظوا بك طويلاً، ما لم توفر لهم أنت ذرائع لأجل ذلك.

ـ هل سيكفون عن تعذيبي؟».

وتجلى الأمل في وجهه. ونظر إلى يهوذا. وعلى مدى لحظة، لحظة أخيرة، أعتقد أن الفوز تحقق. وفجأة، وفيما كان يرى النجاح حاصلاً، استبد به النوم.

وفجأة تشنجت يد يسوع التي كان قد تركها في يد يهوذا، وانطرح أرضاً وراح يبكي.

«لكن، لا أقدر، لا أقدر».

لم يعد يهوذا يفهم شيئاً.

«ما الذي لا تقدر عليه؟ ألم تقل أنت نفسك إنك ملك؟ كان هذا سابقاً لأوانه بالتأكيد. لكنك قلته. كرر هذا القول بعد أن تكون قد صرت خارجاً، متى كان كل الرجال هنا، و. . .».

استعاد يسوع هدوءه وأجاب بصوت ينم عن عزيمة أكيدة:

«لا أقدر أن أفعل ما تريده. رسالتي في مكان آخر. إنها ليست على هذه الأرض. ألا تفهم؟

ـ لكنهم جميعاً في الخارج ينتظرونك. أنت أملهم الوحيد. إنهم بحاجة إليك. ألا تسمع صرخاتهم؟».

استطاع يسوع أن يبتسم، وكان في ابتسامته تلك الطيبة التي كانت تنهر يهوذا.

«لا أقدر أن أعطيهم شيئاً. لماذا يجب، يا يهوذا، أن تكون أنت، رفيقي الأول، وصديقي، من يسومني هذا العذاب؟ أبي أرسلني لأكون ذبيحة تمحو خطاياكم. كل الخطايا. هذه هي الثورة، الثورة الحقيقية، تلك التي تقود إلى السعادة. إنها تعني شعب الله بكامله، وتمتد في كل مكان على الأرض وفي الفضاء، وهي ستقيم العدل والغفران، على نحو

أفضل بكثير مما قد تفعله جهودكم، لأن ذلك سيكون إلى الأبد. ملكوت فيكم، فيك. الله لم يأت لأجل الاستيلاء بل لأجل الانسحاب. وقد سلّم الأزمّة للانسان حيثما لم يعد هو بحاجة إلى القيادة.

ـ لكن ما عساي أقول لكل الذين هناك؟ كل الذين ينتظرونك؟ إنك ستخذلهم بصورة مفجعة...

ـ لن أخذل سوى أولئك الذين لم يفهموا ما جئت لأقول لهم.

ـ كانوا يريدون منك السعادة والحرية، هنا، الآن.

ـ وأنا أقدم لهم حرية أكبر من تلك التي كانوا يحلمون بها.

ـ قلت لنا: «أنا أعدّ لكم مملكة».

ـ ملكوت السماوات، لا قلعة حصينة على الأرض...».

كانت جراحه تقلص قسماته. وعبر بينهما جرذ لم يفكر أي منهما في طرده.

«لا تعتب عليّ يا يهوذا. أنا لم أعِد قط إلا بثورة داخلية، وأنت تكابر وتنتظر شيئاً آخر. لم أعد قط على هذه الأرض إلا بالاضطهادات، وأنا أول من يتحملها. لم تتقاطع طريقانا إلا لحظة، وأنت لم تفهم قط ما حاولت أن أقوله لك... لكنني أحببتك. وأغفر لك.

لم يعد يهوذا يدري ما يقول.

«كيف تريد أن أفهمك؟ أنت قلت: أعطِ كل شيء للفقراء»، ورضيت بأن يسفح على قدميك عطر يساوي ثلاثماية دينار؟ وقلت: «إغفر دائماً»، وهدمت سوق الهيكل؟ وقلت إن الخلاص يأتي من اليهود، ولعنت مدناً بكاملها؟ كنت تتكلم عن المحبة، واحتفظت إلى جانبك بقاتل مثلي صار أقرب صديق إليك؟».

كان يهوذا يصيح، ويحس بشهيق غاضب يعتلج في حلقه.

«يهوذا، يهوذا... أراد أبي أن آتي إلى ما بينكم وأن أكون إنساناً سوياً. فهل لي أن أكون هكذا دون أن أحوز تناقضاتكم. أنا أول إلّه

عرف الشك. لأنني إنسان، والانسان يخاف، صَدِّقه... قاتلت ألد الأعداء: أنتم، وخطاياكم، وميلكم إلى الشر...

ـ أنت مجنون... أنت مجنون... لن يتحقق شيء في العالم الآخر. هنا يجب أن يتحقق كل شيء، وأنت أفسدت كل شيء... كل شيء...

ـ لا يا يهوذا. أنا فتحت أبواباً لن تغلق بعد الآن. أنت تريد العدل، وأنا أطلب الرحمة. أنت تريد سعادة الجماعة، وأنا أطلب اكتمال كل فرد. أنت تريد انتصار الشعب اليهودي على الرومان، وأنا أطلب انتصار الانسانية على الشر. الثمن أغلى، لكنك لن تستطيع أن تأخذ علي أني لم أدفع الثمن الأغلى. اعتقدت أننا كنا متفقين في كل شيء، وأخطأت في اعتقادك هذا. إن مثلي الأعلى موجود خارج هذه الدنيا. أجل، سأنشىء مملكة، ولكن مملكة سيصنعها ويسقيها كل واحد منكم بالحب، وستكون مكافأته هناك فوق، في جوار أبي. هذه المملكة لا تزال أبعد من أن يطالها بصرك. ويوم ستراها أمامك، ستبدو لك آلامك الدنيوية باطلة».

أجـهش يهوذا بالبكاء.

أود أن تتركني لوحدي الآن. أنا خائف، ولا أقدر أن أجابه هذا الخوف إلا لوحدي. أسدني هذه الخدمة الأخيرة».

تراجع يهوذا حتى آخر الزنزانة، ولطم الباب، ثم التفت نحو يسوع.

«لم أفهمك قط؛ أنا أدرك هذا الآن. لكنني أحببتك أنا أيضاً».

ولاحت على محيا يسوع ابتسامة أخيرة سرعان ما حولها الألم إلى حركة تشنجية.

كان يهوذا قد أمسى في الخارج.

هام على وجهه طويلاً. عرف أن كل شيء قد ضاع. فماذا عساهم يأملون بدون تلك النار المتوهجة التي كانت يسوع؟ صحيح أن باراباس بات طليقاً. وصحيح أنه قد يحرز بضعة نجاحات إضافية. لكن الفرصة

غير المأمولة ضاعت. والظروف والاندفاع التي تضافرت حتى الآن لن تعود أبداً.

وسيطر عليه شعوره بالخيانة. ولم يعد يفهم الآن بعد أن أخفقت خطته البارعة، كيف استطاع الانزلاق الى الأخذ بتلك الحيلة الشائنة. وبدت له حياته كفاحاً متردداً، يحكمه الفشل. لم يعد لديه ثوابت. وولدت في عمق ذاته فكرة لم يجرؤ على ترجمتها بعد، ولكنها دفعته إلى هاوية: لقد خان الله، ولم يحدث شيء.

لم يغص قط من قبل في مثل هذا اليأس. هام على وجهه طويلاً، غير مبال بضجيج المدينة. وكان بين حين وآخر يرفع عينيه نحو البيوت التي يمر أمامها، فيتخيلها تستقبله، هو وقواته، استقبال الظافرين. وكان يستقصي السماء حتى البكاء، دون أن يرى شيئاً من ذلك المستقبل الذي ضحى من أجله يسوع بكل آماله.

وسمع ضجة أخرجت من أحلامه، ورأى حشداً من الناس يسد عليه بصره، ويصرخ، ويصيح صيحات ساخطة. وكان يسير وراء اثنين من الجنود رجل يحمل صليباً. واكتشف أن هذا الرجل المعذب ذا الجسد النازف هو يسوع. فاندفع بقوة بين الرعاع الذين كانوا يحقرون من كانوا حتى الأمس يشيدون به. ووصل الى المقدمة ورأى يسوع يمر أمامه. كان يرتدي معطفاً أحمر اللون، وقد وضعوا على رأسه شيئاً يشبه نباتاً شوكياً. كان يسير منخفض العينين. وكانت قطرات من الدم تسيل من وجهه وتنسحق على الأرض. وتعثر مرة وسقط على ركبتيه، ولم يمد أحد يده ليساعده. وانخفض ضجيج الحشد، وسمعت ملاحظات هازئة. فتقوّس تحت ثقل الخشب، وتمكن من النهوض.

حينئذ أدرك يهوذا أن خير هدية يمكنه أن يقدمها إلى هذا الرجل الذي طالما أحبه دون أن يفهمه، إلى هذا الأخ في السلاح الذي أرسله إلى الموت آملاً في إنقاذه، هي مشاطرته مصيره.

عاد إلى بيت غالب، فوجده خالياً، وكانت لا تزال على المائدة

الأواني التي استعملت في آخر وجبة طعام مع يسوع وصحبه. لم يجد صعوبة في العثور على حبل، لكنه لم يشأ أن يترك لأولاد صاحبه فرصة اكتشافه الحزينة. كان جدول سيدرون، كما في كل ربيع، يعج بمياه قذرة فعبره مبللاً جلبابه، ووجد في الجهة الأخرى، بعد أن اجتاز حقلاً، شجرة تين. كان مسروراً باتخاذه قراره، وسعيداً بأن لا يعود يسمع في رأسه هدير موجة الأفكار السوداء التي عصفت به. لم يعد يهمه إن كان على حق أو على ضلال، فالموت الذي يسير إليه يشطب هذه المسألة. إنه قد حدد خياراته، وحتى ولو لم يحصل على ما كان يأمله، فهو على ثقة من أنه ما كان ليستطيع أن يفعل غير ما فعل. والموت، إذ يضع حداً لحياته، إنما هو يعطيها معنى لم يعد هو يتحكم به. فهو يرحل ومعه حقيقته. وعلى الآخرين أن يحكموا الآن.

داعب شجرة التين بيده، وكان سعيداً إذ شعر بقشرتها القاسية تحت راحته فانتزع منها فلذة صغيرة. التف الحبل حول أحد الأغصان، فتثبت من متانته. وصنع سيبة صغيرة من بضع قطع من الحطب وحجرين كبيرين، وصعد إليها بعد أن خلع ثيابه، راغباً في الاحساس بحرارة الشمس عند آخر لحظة. ووضع الحبل حول عنقه وشخص بنظره إلى المدينة المتلألئة بالأنوار أمامه.

ثم رفس السيبة.

وتوتر الحبل.

وسقطت آخر قطرات من زرعه على حجر مستدير وما لبث أن جفت تحت حرارة الشمس.

رجلان. إله يواجه قدره. بادرة ودّ تخفي خيانة... لا تزال قبلة يهوذا واحدة من أنذل البوادر التي عرفها التاريخ، ومن أكثرها غموضاً أيضاً...

لماذا أقدم أحد الاثني عشر تلميذاً، وأكثرهم قرباً إلى يسوع، على بيع معلمه؟ الجشع الذي اعتبرت النصوص المقدسة أنه كان الدافع إلى ذلك لا يثبت أمام التحليل: إن يهوذا، المؤتمن على كيس مال الرسل، والحائز بالتالي على ثقة يسوع التامة، كان يتصرف يومياً بمبالغ أهم بكثير من الثلاثين ديناراً التي يقال أنها عُرضت عليه...

ليس يوجد حول موت يسوع سوى أمر واحد موثوق هو موته على الصليب، وهو العقاب المخصص للخارجين على النظام الروماني. ويبدو اليوم مؤكداً أنه كان في المقاومة اليهودية للاحتلال الروماني، دوراً أكثر نشاطاً بكثير مما يتراءى من خلال الأناجيل الأولى، هذه التي كُتبت لأجل مسيحيي روما. أوَليس من الأرجح أن يهوذا «الشرير» كان رفيق نضال أميناً ومتحمساً؟ إلى أن...

بعد أن استوعب أوبير پرولونجو أحدث الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، وبعد أن استعرض حياة يهوذا بكاملها، وبعد أن بثّ حياة قصصية حقيقية في صور جامدة غالباً، فإنه قد توصل إلى تكوين رأي هو أقرب ما يكون إلى الحقيقة: كان يهوذا صديقاً صادقاً ليسوع، لكنه خانه عندما ابتعد مفهوم كل منهما عن مفهوم الآخر حول الكفاح الواجب خوضه معاً. ويطرح خلافهما هذا على بساط البحث مسألة الثورة بكاملها: هل يجب خوضها بواسطة السلاح، كما يريد يهوذا، أم بالانتظار، بواسطة الصلاة ورجاء عالم آخر يعوض عن المظالم التي يعانيها البشر على هذه الأرض، كما يدعو يسوع؟

من خلال إعادة تكوين فلسطين ذلك الزمان، نلمح تباشير تغيُّر في المنظور، وربما ولادة تاريخ جديد يكتب أمام عيوننا.

ISBN 9953-71-141-0

